بيب ويليامز

قاموس الكلمات المفقودة



ترجمة: خالد الجبيلي

قاموس الكلمات المفقودة

رواية
بيب ويليامز

ترجمة
خالد الجبيلي

شركة رف للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

قاموس الكلمات المفقودة

رواية: بيب ويليامز

ردمك: 6- 0- 03592- 603- 978

رقم الإيداع: 4388/1444

لا يسمح بإعادة طبع أو نسخ أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي وسيلة سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية أم غيرها.رجميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحـة وغيرهـا

الطبعة الأولى 2023

ترجمة: خالد الجبيلي

Originally published as: The Dictionary of Lost Words. Copyright ©2020 by Pip Williams First published by Affirm Press

This edition arranged with Kaplan/DeFiore Rights

المجموعة السعودية للأبحاث والإعلام

11583- الرياض، المملكة العربية السعودية

تلفون: 966112128000+

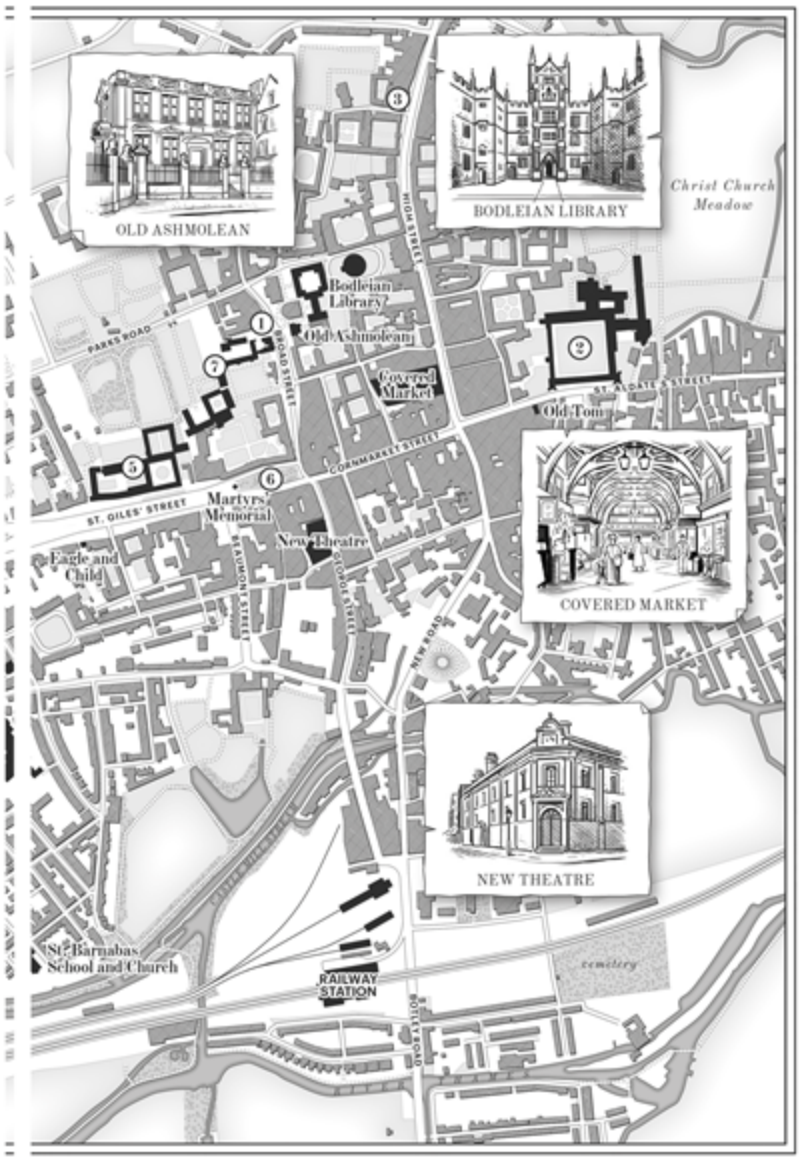
email: contact@raffpublishing.com

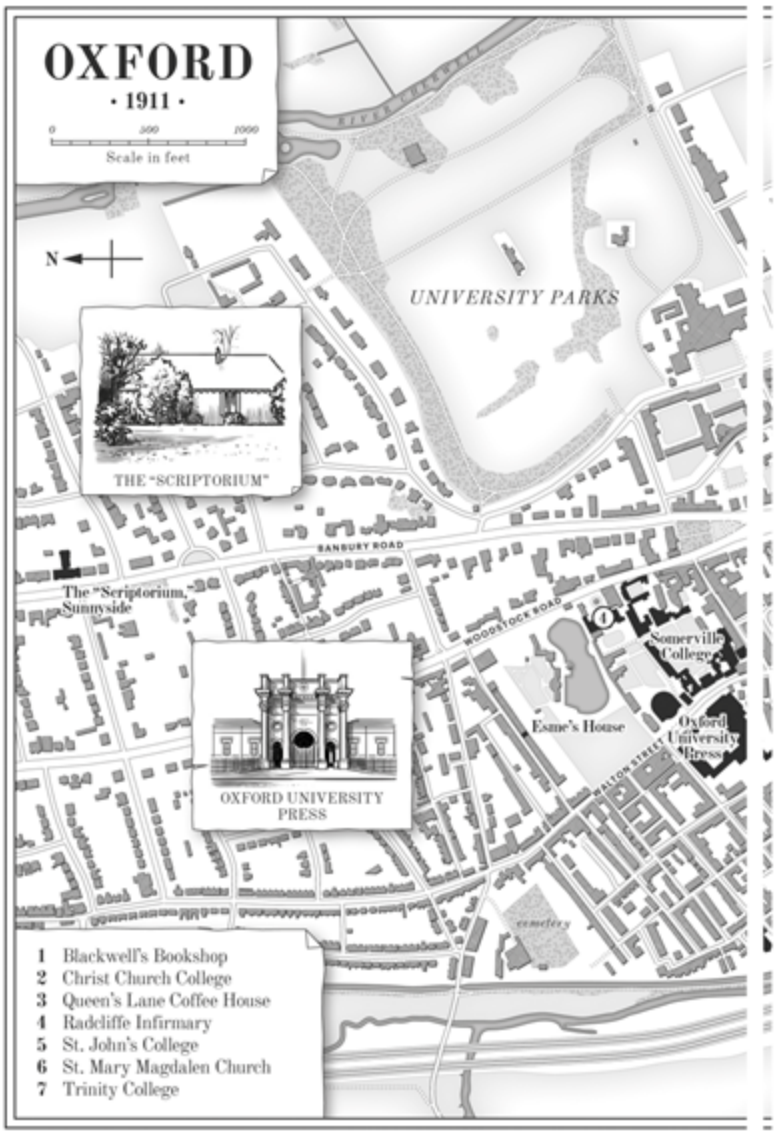
website: www.raffpublishing.com



إلى أمّي وأبي

رواية (قاموس الكلمات المفقودة) عملٌ من نسج الخيال.. جميع الأحداث والحوارات والشخصيات باستثناء بعض الشخصيات التاريخية المعروفة، هي من وحي خيال المؤلفة، وينبغي ألّا تُفسّر على أنها حقيقية. أما عندما تظهر شخصيات تاريخية حقيقية، فإن المواقف والحوادث والحوارات المتعلقة بهذه الشخصيات هي من وحي الخيال بالكامل، ولا تهدف إلى تصوير أحداث جرت في الواقع، أو إلى تغيير الطبيعة الروائية المتخيّلة لهذا العمل. أما فيما يتعلق بجميع المجالات الأخرى، فإن أيَّ تشابهٍ مع أشخاص أحياء أو أموات، هو من قبيل المصادفة تمامًا.


OLD ASHMOLEAN
BODLEIAN LIBRARY
Christ Church Meadow
Bodleian Library
Old Ashmolean
Covered Market
Old Tom
COVERED MARKET
Martyrs' Memorial
New Theatre
Eagle and Child
NEW THEATRE
St. Barnabas School and Church
RAILWAY STATION
cemetery
PARKS ROAD
BROAD STREET
HIGH STREET
CORNMARKET STREET
ST. GILES' STREET
BEAUMONT STREET
WALTON STREET
NEW ROAD
BOTLEY ROAD
ABINGDON ROAD
1
2
3
5
6
7


OXFORD
· 1911 ·
0
500
1000
Scale in feet
N
UNIVERSITY PARKS
THE "SCRIPTORIUM"
BANBURY ROAD
The "Scriptorium," Sunnyside
WOODSTOCK ROAD
Somerville College
Esme's House
Oxford University Press
OXFORD UNIVERSITY PRESS
cemetery
1 Blackwell's Bookshop
2 Christ Church College
3 Queen's Lane Coffee House
4 Radcliffe Infirmary
5 St. John's College
6 St. Mary Magdalen Church
7 Trinity College

استهلال | شباط (فبراير) 1886

قبل الكلمة المفقودة، كانت هناك كلمة مفقودة أخرى. وصلت إلى المَنْسَخغرفة النسخ في المعبدفي مغلّف مستعمل، وقد شُطب العنوان القديم، وكُتب مكانه د. موراي، سانيسايد، أكسفورد.

كانت مهمة أبي أن يفتح البريد، ومهمتي أن أجلس في أحضانه مثل ملكة تجلس على عرشها، أساعده على أن يُخرج كلّ كلمة من مغلفاتها المطوية، ويقول لي في أي مجموعة عليّ أن أضعها. في بعض الأحيان، كان يتوقف قليلًا، ويضع يده على يدي، ويوجّه إصبعي إلى أعلى الحروف وإلى أسفلها وحولها، ويهمسها في أذني. ينطق الكلمة، وأردد صداها، ثم يقول لي ما الذي تعنيه.

كانت هذه الكلمة مكتوبة في قصاصة من الورق البنّي، حوافها خشنة عند أطرافها التي قُطعت منها كي تتلاءم مع الأبعاد التي يفضلها الدكتور موراي. عندما يصمت أبي قليلًا، أهيئ نفسي لأتعلّمها. لكنه لم يضع يده على يدي هذه المرة، وعندما التفتُّ إليه أستعجله، أوقفتني النظرة التي لاحت على وجهه؛ مع أننا كنا قريبين جدًا من بعضنا بعضًا، كانت نظراته ساهمة وبعيدة.

عدتُ إلى الكلمة من جديد، محاولة أن أفهمها. من دون أن توجّهني يده هذه المرة، مشت إصبعي فوق كلّ حرف فيها.

سألته: «ماذا تقول؟»

فقال: «ليلي».

- «مثل ماما؟»

- «مثل ماما».

- «هل هذا يعني أنها ستكون في القاموس؟»

- «بشكل ما، نعم».

- «هل سنكون كلنا في القاموس؟»

- «لا»

- «لماذا؟»

أحسستُ أنني أعلو وأهبط مع حركة أنفاسه. «يجب أن يكون للاسم معنى حتى يصبح في القاموس».

نظرت إلى الكلمة مجددًا، وسألته: «هل ماما مثل زهرة؟»

هزّ أبي رأسه، وقال: «أجمل زهرة».

التقط الكلمة، وقرأ الجملة المدوّنة تحتها، ثم قَلَبَها، يبحث عن كلمات أخرى، ثم قال: «إنها غير مكتملة». لكنه قرأها مرة أخرى، عيناه تتحركان يمنة ويسرة، كما لو أنه يريد أن يجد الشيء الناقص فيها، ثم وضع الكلمة فوق أصغر كومة من القصاصات.

أرجع أبي كرسيه عن طاولة فرز الكلمات. نزلتُ من على حضنه، وجهّزت نفسي لأن أمسك أول كومة من القصاصات. كان هذا عملًا آخر يمكنني أن أساعد فيه. كنت أحبّ أن أرى أن تأخذ كلّ كلمة مكانها في كوة حفظ القصاصات. التقط أصغر كومة، وحاولت أن أخمن إلى أين سيذهب اسم أمي. بدأتُ أدندن أغنية: «لا في الأعلى كثيرًا، ولا في الأسفل كثيرًا». لكن بدلًا من أن أضع الكلمات في يدي، سار أبي ثلاث خطوات طويلة باتجاه الموقد وألقى بها بين ألسنة النار.

كانت هناك ثلاث قصاصات. عندما تركت القصاصات الثلاث يده، أخذت تتراقص، لهب الحرارة يدفع كلّ منها إلى مثوى مختلف. حتى قبل أن تسقط، رأيتُ كلمة «ليلي» قد بدأت تتجعّد.

سمعتُ نفسي أصرخ وجريتُ نحو الموقد. سمعت أبي يصيح باسمي بصوت عالٍ. كانت قصاصة الورق قد بدأت تتلوى.

مددت يدي لأنقذها، حتى عندما تفحّمت الورقة البنية واستحالت حروفها مجرد ظلال. خيّل إليَّ أن بإمكاني أن أمسكها كما أمسك ورقة شجرة بلوط، ذابلة وهشّة، في الشتاء. لكن عندما لففت أصابعي حول الكلمة، تقصّفت الورقة وتفتت.

لعل تلك اللحظة كانت أبدية، لكن أبي شدّني إلى الوراء بقوة، وجرى بي إلى خارج المَنْسَخ، وغمر يدي في الثلج. عندما رأيت وجهه شاحبًا، قلت أطمئنه أنها لا تؤلمني، لكن عندما فتحتُ يدي، كان نثار الكلمة المتفحّمة قد التصقت ببشرتي التي ذابت.

***

عض الكلمات أهمّ من كلمات أخرى. لقد تعلّمت ذلك عندما نشأت في المَنْسَخ، لكنّي استغرقت وقتًا طويلًا حتى فهمت لماذا.

الجزء الأول 1887 - 1896
عارِضَةٌ خَشَبِيّة Batten
مُرتاب Distrustful

أيار (مايو) 1887

المَنْسَخ، قد توحي هذه الكلمة بأنه مبنى ضخم، يتردد فيه صدى وقع أكثر الخطوات خفوتًا بين الأرضية الرخامية والقبّة المذهبّة، وإنما هو مجرد سقيفة صغير يقبع في الحديقة الخلفية في أحد البيوت في أكسفورد.

لكن بدلًا من أن تُخزَّن فيه مجارف ومعدات أخرى، خُزِّنت فيه كلمات؛ كانت كلّ كلمة إنكليزية تُكتب على قصاصة ورق بحجم بطاقة بريدية، يرسلها متطوعون من جميع أنحاء العالم، ويُحتفظ بها في مجموعات في مئات فتحات العلب التي تملأ الرفوف الممتدة على طول جدران السقيفة. كان الدكتور موراي هو الذي أطلق عليه اسم مَنْسَخ - لا بد أنه اعتبر أن تخزين اللغة

الإنكليزية في سقيفة تُخزَّن فيه أدوات زراعية في حديقة بيت، إهانة كبيرة- لكن جميع الذين يعملون هنا، يطلقون عليه اسم «سكريبى»، كلّهم إلَّا أنا؛ فقد كنت أحبّ ذلك الإحساس عندما تتحرك كلمة (مَنْسَخ) في فمي، ثم تحطّ برفق بين شفتيَّ. استغرقت وقتًا طويلًا حتى تعلّمت كيف أنطقها، وعندما تعلّمتها، لم يعد يصعب عليَّ لفظ أية كلمة أخرى.

ذات يوم، ساعدني أبي على أن أبحث في فتحات العلب تلك عن كلمة (مَنْسَخ)؛ وجدنا خمس قصاصات ترد فيها أمثلة حول كيف كانت تُستخدم هذه الكلمة، ويعود تاريخ كلٍّ اقتباسٍ منها إلى أكثر من مئة سنة بقليل. كادت تتشابه جميعها، لكن لم يشر أيٍّ اقتباس منها إلى أنها سقيفة صغير في حديقة بيت خلفية في أكسفورد، بل ذكرت القصاصة أن *المَنْسَخ هو: حجرة مخصصة للكتابة في دير.*

لكنّي أدركت سبب اختيار الدكتور موراي لهذا الاسم؛ فقد كان الدكتور موراي ومساعدوه أشبه بالرهبان، وعندما كنت في الخامسة من عمري كان من السهل أن أتخيّل أن القاموس هو كتابهم المقدّس. عندما قال لي الدكتور موراي إن جمع الكلمات يستغرق عمرًا كاملًا، تساءلتُ عمر مَنْ؟!. فقد شاب شعره وأصبح بلون الرماد، وهم لا يزالون في منتصف حرف B.

كان أبي والدكتور موراي مدرّسين في إسكتلندا قبل أن يوجد المَنْسَخ بفترة طويلة. وبما أنهما كانا صديقين، وبما أنه لم تكن لديَّ أمٌّ تعتني بي وترعاني، وبما أن أبي كان أحد أكثر المعجميين الذي يثق به الدكتور موراي، كان الجميع يغضون الطرف عن وجودي عندما آتي إلى المَنْسَخ.

بدا المَنْسَخ وكأنه أشبه بالسحر، مثل كل شيء كان أو يمكن تخزينه في أي وقت مضى داخل جدرانه. كانت الكُتب مكدسة في كل بقعة من بقاع أسطحه. كانت الكتب مكدّسة فوق كلّ سطح، وملأت قواميس قديمة وكتب تاريخ وحكايات مضى عليها زمن طويل، الرفّ الذي يفصل بين طاولة وأخرى، أو تتيح مكانًا يمكن أن يحُشر فيه كرسي، وارتفعت فتحات العلب من الأرضية حتى السقف وامتلأت بالقصاصات؛ التي قال لي أبي ذات يوم إنني لو قرأتها كلها، لفهمت معنى كل شيء.

في وسط كل ذلك، تقبع طاولة الفرز التي يجلس أبي عند أحد طرفيها، ويحشر ثلاثة مساعدون أنفسهم معًا في كلّ جانب منها. وفي الطرف الآخر، تنتصب طاولة الدكتور موراي المرتفعة التي تواجه كلّ الكلمات وجميع الرجال الذين يساعدونه على تعريف معنى تلك الكلمات.

كنت أنا وأبي نصل دائمًا قبل المساعدين الآخرين، وخلال تلك الفترة القصيرة، أحتفظ بدا وبجميع الكلمات لنفسي. أجلس في حجر أبي خلف طاولة الفرز، وأساعده على فرز القصاصات، وكلّما صادفتنا كلمة لا أعرفها، يقرأ لي الاقتباس المرافق ويساعدني على فهم معناها. وإذا سألتُه أسئلة صحيحة، فإنه يبحث عن الكتاب الذي استمدَّ منه الاقتباس ويقرأ لي المزيد؛ كانت تلك أشبه بعملية بحث عن كنز، وفي بعض الأحيان، كنت أجد ذهبًا.

«*كان هذا الفتى العابث يتصرّف بحماقة منذ ولادته*»، قرأ أبي الاقتباس من قصاصة استلّها للتوِّ من أحد المغلفات.

سألته، «هل أنا عابثة أتصرّف بحماقة؟»

فقال أبي وهو يدغدغني: «أحيانًا».

ثم سألته من هو ذلك الفتى، فأراني أبي المكان الذي كُتبت فيه في أعلى القصاصة.

وقرأ: «*علاء الدين والمصباح السحري*».

عندما وصل المساعدون الآخرون، انسللت إلى تحت طاولة الفرز.

«كوني هادئة مثل فأر ولا تزعجي أحدًا».

كان من السهل أن أبقى مختبئة.

في نهاية اليوم، جلستُ في حضن أبي إلى جانب دفء الموقد، وقرأنا «علاء الدين والمصباح السحري». قال أبي إنها قصة قديمة عن فتى من الصين. عندما سألته إن كان هناك آخرون، قال إنه يوجد آلاف آخرون. لم تكن هذه القصة تشبه أيَّ قصّةٍ كنت قد سمعتها، أو مكانٍ ذهبت إليه، أو شخصٍ عرفته. تطلعت في أرجاء المَنْسَخ وتخيّلت أنه مصباح جنّي؛ من الخارج كان يبدو شيئًا عاديًا، أما من الداخل، فكان مليئًا بالدهشة. لا تبدو بعض الأشياء دائمًا كما تبدو في الحقيقة.

في اليوم التالي، بعد أن ساعدته على فرز القصاصات، ألححت على أبي لأن يحكي لي قصة أخرى. في رغبتي هذه، نسيت أن أكون هادئة مثل فأرة، وبدأت

أعوقه عن عمله.

«لا يُسمح للشخص الذي يسبب مشاكل بالبقاء»، قال أبي محذرًا، وتخيّلتُ أنني نُفيتُ إلى مغارة علاء الدين، فأمضيت بقية اليوم تحت طاولة الفرز ولم أعثر إلّا على قليل من الكنز.

انسلّت كلمة من طرف الطاولة. عندما هبطت، قلت لنفسي إنّي سأنقذها وأعيدها إلى الدكتور موراي بنفسي.

ررحـت أراقبهـا. راقبتها مرارًا وتكرارًا وهـي تمتطـي تيـارًا هوائيًا غيـر مرئـي. توقعـت أن تحـط علـى الأرضيـة غير النظيفة، لكنها لـم تفعل. وإنمـا حامت كطائـر يهـم بالهبـوط، ثـم ارتفعـت فـي حركـة بهلوانية كمـا لـو أن جنيًا أمرهـا أن تفعـل ذلـك. لـم أتخيـل قـطّ أن تهبـط وتحـط فـي حضنـي، وأنه من المحتمل أن تسـافر بعيـدًا، ولكنهـا حطت فـي حضنـي.

قبعت الكلمة في ثنايا ثوبي مثل شيء يلمع سقط من السماء، لم أجرؤ على لمسها، فلم يكن يسمح لي أن ألمس الكلمات إلّا عندما أكون مع أبي. خطر ببالي أن أناديه، لكن شيئًا عقد لساني. جلست مع الكلمة طويلًا، أردت أن ألمسها، لكنّي لم أفعل ذلك؛ ما هي الكلمة؟ تساءلت. ممن سقطت؟ لم ينحنِ أحد إلى أسفل الطاولة ويستعيدها.

بعد لحظات طويلة أمسكت الكلمة بيدي، حريصة على ألّا أجعّد أجنحتها الفضية وقربتّها من وجهي. كان يصعب عليَّ أن أقرأها في عتمة مخبئي. تحرّكت قليلًا إلى حيث عُلّقت ستارة من الغبار المتلألئ بين كرسيين.

رفعت الكلمة إلى الضوء؛ حبر أسود على ورقة بيضاء، ثمانية حروف: الأول، B في butterfly(فراشة). حركّتُ فمي حول باقي الكلمة كما علّمني أبي: O في orange (برتقالة)، N في naughty (شقيّ)، D في dog (كلب)، M في Murray (موراي)، A في apple (تفاحة)، I في ink (حبر)، D في dog (كلب)، مرة أخرى. نطقتها بصوت هامس. كان الجزء الأول سهلًا: bond (غُلّ، قيد). أما الجزء الثاني، فقد استغرق وقتًا أطول بعض الشيء، لكنّي تذكّرت بعد ذلك أن حرفيْ A وI يتوافقان معًا؛ *maid* (خادمة).

كانت الكلمة bondmaid (خادمة مملوكة)، كُتب تحتها كلمات أخرى تتداخل إحداها بالأخرى مثل خيط متشابك. لم أعرف إنْ كانت اقتباسًا أرسله أحد المتطوعين، أو تعريفًا كتبه أحد مساعدي الدكتور موراي. قال أبي إن الساعات التي يمضيها في المَنْسَخ هي ليجعل للكلمات التي يرسلها

المتطوعون معنى، ويصبح بالإمكان تعريف هذه الكلمات في القاموس. كان ذلك شيئًا مهمًا يعني أنني يجب أن أذهب إلى المدرسة وأتناول ثلاث وجبات ساخنة، وأكبرُ وأصبحُ سيّدة شابة جميلة. قال إن هذه الكلمات هي لي.

«هل ستُعرّف كلها؟» سألته ذات يوم.

فأجاب أبي: «سيُستبعد بعضها».

«لماذا؟»

صمتَ قليلًا، ثم قال: «ليست قوية بما يكفي». عندما عبستُ، قال: «لأنه لم يكتبها عددٌ كافٍ من الأشخاص».

«وما الذي يحدث للكلمات المُستبعدة؟»

«تعود إلى فتحات العلب المخصصة لها على الرف. إذا لم تتوفر معلومات كافية عنها، فإنها تُهمل».

«لكن يمكن أن تُنسى إذا لم تكن موجودة في القاموس».

أمال رأسه ونظر إليَّ، كما لو أنني قلت شيئًا مهمًا، وقال: «نعم، قد يكون ذلك».

أعرف ما الذي يحدث عندما تُهمل إحدى الكلمات. طويت القصاصة المكتوب عليها bondmaid بعناية ودسستها في جيب صدريتي.

بعد لحظة، ظهر وجه أبي تحت طاولة الفرز، وقال: «اركضي الآن يا إسمي. ليزي تنتظرك».

عندما نظرتُ بين قوائم الكراسي والطاولات وسيقان الرجال، رأيت خادمة عائلة مواري الشابة واقفة وراء الباب المفتوح، مئزرها مربوط بإحكام حول خصرها، قدر كبير من القماش في الأعلى، وقدر كبير من القماش في الأسفل. قالت لي إنها لا تزال تكبر فيه، لكن من تحت طاولة الفرز، ذكّرتني بشخص يتخّيل نفسه شخصًا آخر. زحفت بين تلك القوائم والسيقان وركضتُ نحوها.

عندما اقتربتُ من ليزي، قلت لها: «في المرة القادمة يجب أن تدخلي وتجديني. سيكون ذلك ممتعًا أكثر».

«إنه ليس مكاني»، قالت وأمسكت بيدي وسارت بي إلى ظلّ شجرة الدردار.

«أين مكانك؟»

تجهّم وجهها، ثم هزّت كتفيها، وقالت: «أظن أنه الغرفة التي في أعلى الدرج. المطبخ عندما أساعد السيّدة بالارد، وعندما لا أساعدها، كنيسة القديسة ماري مجدلين يوم الأحد».

«هل هذا كل شيء؟»

«الحديقة، عندما أعتني بك كي لا نقف في طريق السيّدة بالارد، وأكثر فأكثر السوق المغطاة بسبب ركبتيها المقوستين».

«هل سانيساید هي مكانك دائمًا؟» سألتها.

«ليس دائمًا»، أطرقت برأسها. تساءلت أين اختفت ابتسامتها.

«أين كان ذلك؟»

ترددتْ قليلًا ثم قالت: «أنا وأمي وجميع littluns».

«ماذا تعني littluns؟»

«الأطفال الصغار».

«مثلي؟»

«ربما مثلك يا إسمي».

«هل ماتوا؟»

«أمي فقط. أُخذ الأطفال الصغار بعيدًا، لا أعرف إلى أين. كانوا صغارًا جدًا على الخدمة».

«أي خدمة؟»

«ألن تتوقفي عن طرح الأسئلة؟» قالت ليزي وأمسكتني من تحت ذراعيَّ وراحت تؤرجحني وتدور بي حتى شعرنا كلانا بدوار شديد، وارتمينا على العشب.

«أين هو مكاني؟» سألتها عندما تلاشت الدوخة.

«أظن في السكريبي، مع أبيك. والحديقة وغرفتي وطاولة المطبخ».

«بيتي؟»

«طبعًا بيتك، مع أنك تمضين هنا وقتًا أطول مما تمضينه هناك».

فقلت: «لا يوجد عندي مكان أذهب إليه يوم الأحد مثلك».

فقطّبت ليزي حاجبيها وقالت: «نعم، عندك، كنيسة القديس برنابا».

«نذهب إليها أحيانًا. وعندما نذهب، يأخذ أبي كتابًا، يضعه أمام التراتيل ويقرأه بدلًا من أن ينشد التراتيل». ضحكتُ وأنا أتخيّل فم أبي وهو يفتح ويغلق يقلّد المصلين الآخرين، لكن لا يصدر من فمه صوت.

«هذا ليس شيئًا يدعو إلى الضحك يا إسمي»، قالت ليزي وتحسست بيدها الصليب الذي أعرف أنه تحت ملابسها. خشيت أن تسيء الظن بأبي.

«لأن ليلي ماتت»، قلت.

تحوّل تجهم ليزي إلى حزن، وهو شيء لم أرده أيضًا.

«لكنه يقول إن عليَّ أن أفعل ذلك من أجل الله والجنة. لهذا السبب نذهب إلى الكنيسة معًا». عندما لانت قسمات وجهها، قررت أن أعود إلى حديث أسهل، فقلت: «إن أفضل مكان لي هو سانيسايد، وفي المَنْسَخ، ثم في غرفتك، ثم في المطبخ عندما تخبز السيّدة بالارد، خصوصًا عندما تخبز الكعكات المسطحة المنقّطة».

«أنت فتاة صغيرة مسلية يا إسمي، اسمها كعكة الفاكهة، والنقط التي عليها هي زبيب».

يقول أبي إن ليزي نفسها ليست سوى طفلة. عندما يكلّمها، يمكنني أن أرى ذلك. فهي تقف ثابتة في مكانها لا تتحرك، تمسك بيديها كي تثبتا في مكانهما،

وتهزّ رأسها ولا تكاد تنطق كلمة واحدة. لا بد أنها تخاف منه، كما أخاف أنا من الدكتور موراي، لكن عندما يغادر أبي، تنظر إليَّ بطرف عينها وتغمزني.

عندما استلقينا على العشب والعالم يدور فوق رأسينا، انحنت فجأة وسحبت زهرة من وراء أذني مثل ساحرة.

«عندي سرّ»، قلت لها.

«وما هو ذلك السرّ يا ملفوفتي الصغيرة؟»

«لا أستطيع أن أقوله لك هنا. فقد تجرفه الريح».

سرنا على رؤوس أصابعنا في المطبخ نحو الدرج الضيّق المفضي إلى غرفة ليزي. كانت السيّدة بالارد منحنية فوق علبة طحين في حجرة المؤن، وكلّ ما رأيته منها مؤخرتها الضخمة، تغطيها طيَّات من قماش قطني مخطط أزرق سماوي. إذا رأتنا، فإنها ستطلب من ليزي أن تفعل شيئًا، وسيضطر سرّي أن ينتظر. وضعت إصبعًا على شفتيَّ لكن قهقة صعدت إلى حلقي. رأت ليزي أنها ستنبعث من فمي، فضمتني بين ذراعيها النحيفتين وصعدنا الدرج بسرعة.

كانت الغرفة باردة. نزعت ليزي الغطاء عن سريرها ومدّته على أرضية الغرفة العارية مثل حصيرة. تساءلت إن كان يوجد أحد أطفال موراي في الغرفة في الجانب الآخر من جدار غرفة ليزي. إنها حجرة نوم الطفل، وكنا نسمع أحيانًا بكاء جويت الصغيرة، لكن ليس لفترة طويلة، لأنه سرعان ما تأتي السيّدة موراي، أو أحد الأطفال الأكبر سنًّا. وضعت أذني على الجدار وسمعت صوت الرضيع؛ همهمات وليست كلمات مفهومة. تخيّلته وهو يفتح عينيه ويدرك أنه وحيد، لا يوجد في الغرفة معه أحد. نشج قليلًا ثم بدأ يبكي. هذه المرة جاءت هيلدا. عندما توقف البكاء، ميّزت رنة صوتها. كانت في الثالثة عشرة من عمرها، مثل ليزي، ولم تكن شقيقاتها الأصغر، إلسي وروزفريث، أصغر بكثير. عندما جلستُ على الحصيرة مع ليزي، تصوّرت أنهم يفعلون جميعًا نفس الشيء في الطرف الآخر من الجدار. تساءلت ما هي اللعبة التي يلعبانها.

جلست القرفصاء أمام ليزي، وتلامست ركبتانا. رفعت كلتا يديَّ لأبدأ لعبة التصفيق، لكن ليزي توقفت عندما رأت أصابعي المحترقة. كانت متغضنة، لونها وردي.

قلت لها: «لم تعد تؤلمني».

«هل أنت متأكدة؟»

هززت رأسي، وبدأنا نلعب لعبة التصفيق. كانت يداها ناعمتين جدًا وهما تلمسان أصابعي المحترقة فلم يصدر الصوت المطلوب.

«ما هو سرّك الكبير إذن يا إسمي؟» سألتني.

كدتُ أنساه. توقفت عن اللعب، ودسست يدي في جيب صدريتي، وأخرجت منه القصاصة التي سقطت في حضني في الصباح الباكر.

«ما هو السرّ؟» سألتني ليزي، وأخذت القصاصة وراحت تقلبّها.

«إنها كلمة، لكنني لا أستطيع إلَّا أن أقرأ هذا الجزء»، وأشرت إلى كلمة bondmaid (خادمة مملوكة).

«هل يمكنك أن تقرأي الباقي لي؟»

مررت إصبعها فوق الكلمات، كما كنتُ قد فعلتُ، ثم أعادتها إليّ.

سألتني، «أين وجدتها؟»

فقلت: «هي التي وجدتني». عندما رأيت أن ذلك ليس كافيًا، أردفتُ، «سقطت من أحد المساعدين».

«ألقى بها؟»

«نعم»، قلت دون أن أنظر إلى الأسفل، ولو قليلًا، «لا يوجد لبعض الكلمات معنى فيلقون بها».

«حسنًا، ماذا ستفعلين بسرّك؟» سألتني ليزي.

لم أفكّر في ذلك. كان كلّ ما أردته أن أريها إلى ليزي. أعرف أنني لم أعطها إلى أبي ليحتفظ بها، ولا يمكن أن تبقى في جيبي طوال الوقت.

سألتها: «هل يمكنكِ أن تحتفظي بها من أجلي؟»

فقالت: «أظن ذلك، إذا أردتِ، مع أنني لا أعرف ما الذي يجعلها خاصة جدًا».

إنها خاصة لأنها جاءت إليّ. لعلها لا تساوي شيئًا، لكن ليست كذلك. إنها قصاصة صغيرة وهشّة وقد لا تعني شيئًا مهمًا، لكني شعرت بأنني يجب أن أبعدها عن نار الموقد. لم أعرف كيف أقول لليزي ذلك، وهي لم تلّح عليَّ، وإنما انحنت على يديها وركبتيها، ومدّت يدها إلى أسفل سريرها، وسحبت صندوقًا خشبيًا صغيرًا.

رحت أراقبها وهي تمرر إصبعها فوق طبقة غبار رقيقة فوق الجزء العلوي من الصندوق المليء بالخدوش. لم تكن في عجلة من أمرها لتفتحه.

«ماذا يوجد فيه؟» سألتها.

«لا شيء، كل ما جئت به ذهب إلى خزانة الملابس تلك».

«ألا تريدين أن يذهب؟»

فقالت: «لا»، وحررت المزلاج.

أودعتُ سرّي في قعر الصندوق، وعدتُ وجلست على ردفيَّ. عندما بدا لي صغيرًا ووحيدًا، رحت أنقله من جانب إلى جانب. ثم أمسكته بكلتا يديّ.

مسّدت ليزي شعري، وقالت: «يجب أن تعثري على كنوز أخرى لتصبح برفقته».

نهضتُ ورفعتُ القصاصة إلى أعلى ما يمكنني فوق الصندوق وأفلتها، ورحت أراقبها وهي تهبط، تتمايل من جانب إلى جانب، حتى استقرّت في إحدى زوايا الصندوق.

«في هذه البقعة تريد أن تبقى»، قلت وانحنيت ومسّدتها وجعلتها مسطحة. كان هناك نتوء تحت البطانة الورقية التي تغطي أسفل الصندوق، حافتها مرتفعة قليلًا، فضغطت عليها بإصبعي قليلًا.

«إنه ليس فارغًا يا ليزي»، قلت لها عندما برز رأس دبوس. انحنت ليزي من فوقي لترى عمَّ أتحدّث.

«إنه دبوس قبّعة»، قالت ومدّت يدها لتأخذه. في أعلاه ثلاث خرزات صغيرة؛ الواحدة فوق الأخرى، ولون كلّ خرزة مختلف عن لون الخرزات الأخرى. فتلته ليزي بين إبهامها وإصبعها. عندما بدأ يدور، بدأت تتذكّره. قرّبته من صدرها، وقبّلتني على جبيني، ثم وضعت الدبوس بعناية على المنضدة الصغيرة إلى جانب سريرها، إلى جانب الصورة الصغيرة، لأمّها.

***

استغرقت عودتنا إلى جيريكو سيرًا على الأقدام فترة أطول مما ينبغي، لأنني صغيرة، ولأن أبي يحبّ أن يتمشى بخطوات وئيدة، يدخّن غليونه الذي أحبّ رائحته كثيرًا.

اجتزنا شارع بانبري رود العريض، وبدأنا نسير في شارع سانت مارغريت؛ الذي تحفّه منازل عالية من الجانبين، كلّ بيتين ملتصقين معًا لهما حدائق جميلة وأشجار تنشر ظلًا على الدرب. ثم سرنا في طريق متعرج عبر شوارع ضيقة حيث تكاد تكون المنازل متلاصقة أكثر، الواحد قبالة الآخر، مثل القصاصات القابعة في فتحات العلب تلك. عندما انعطفنا إلى شارع أوبزرفاتوري، وقف أبي ودَقَّ غليونه على جدار، ثم وضعه في جيبه ورفعني وأجلسني على كتفيه.

قال: «بعد فترة ستصبحين كبيرة على هذا».

«ألن أعود ليتل ون عندما أكبر؟»

«هل تناديك ليزي هكذا؟»

«إنه أحد الأسماء التي تناديني بها. وتدعوني أيضًا ملفُوفة وإسمي».

«فهمت ليتل ون، وإسمي، لكن لماذا تناديك ملفُوفة؟»

تصاحب الملفُوفة دائمًا ابتسامة لطيفة أو عناق. إني أحبّ هذا الاسم، لكنّي لم أستطع أن أشرح له لماذا.

كان بيتنا يقع في منتصف الطريق أسفل شارع أوبزرفاتوري، بعد شارع أديلايد مباشرة. عندما وصلنا إلى الناصية، بدأت أعدّ بصوت مرتفع: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، توقف هنا أمام باب بيتنا».

توجد على باب بيتنا مقرعة نحاسية قديمة في شكل يد. كانت ليلي قد وجدتها في محل خردوات في السوق المغطاة. قال لي أبي إنها كانت وسخة ومليئة بالخدوش، وكانت بين أصابعها حبات رمل نهري، لكنه نظفّها وثبّتها على الباب يوم زواجهما. أخرج مفتاحه من جيبه، وانحنيت وغطيت يد المطرقة التي جلبتها ليلي بيدي. طرقتها أربع طرقات.

قلت: «لا يوجد أحد في البيت».

فقال: «سيعودون بعد قليل». فتح الباب وخفضتُ رأسي عندما دخلنا إلى الردهة.

***

أنزلني أبي من على كتفيه ووضعني على الأرض، ووضع حقيبته على الخوان إلى جانب الباب، وانحنى وجمع الرسائل التي سقطت على الأرض. تبعته في الرُّدهة ودخلت إلى المطبخ، وجلست إلى الطاولة، بينما بدأ يعدّ العشاء. كانت خادمة تأتي إلى بيتنا ثلاث مرات في الأسبوع لتعدّ لنا الطعام وتنظّف البيت وتغسل ثيابنا، لكن لم يكن اليوم أحد تلك الأيام التي تأتي فيها.

«هل سأصبح في الخدمة عندما أكبر؟»

حرّك أبي المقلاة وراح يقلّب النقانق فيها، ثم نظر إلى حيث أجلس إلى طاولة المطبخ.

«لا، لن تصبحي كذلك».

«لِمَ لا؟»

حرّك النقانق مرة أخرى، وقال: «يصعب شرح ذلك».

انتظرتُ. أخذ نَفَسًا عميقًا، وازدادت خطوط التفكير بين حاجبيه عمقًا، وقال: «ليزي محظوظة لأنها في الخدمة، أما أنت، فسيكون الأمر مؤسفًا».

«لم أفهم».

«لا، لا أظن أنك ستفهمين». صفّى البازلاء من الماء وهرس البطاطا، ووضعها في صحن كلٍّ منا مع النقانق. عندما جلس إلى الطاولة أخيرًا، قال: «الخدمة تعني أشياء مختلفة بالنسبة لأشخاص مختلفين يا إسمي، ويعتمد ذلك على مكانتهم في المجتمع».

«هل سيضم القاموس كلّ المعاني المختلفة؟»

استرخت خطوط تفكيره، وقال: «سنبحث عن ذلك غدًا في فتحات العلب، أليس كذلك؟»

سألته، «هل تستطيع ليلي أن تفسّر معنى الخدمة؟»

فقال أبي: «كان سيكون لدى أمّك الكلمات لتفسّر لك العالم كله يا إسمي، لكن بسبب عدم وجودها، فإننا يجب أن نعتمد على *السكريبي*».

***

صباح اليوم التالي، قبل أن نبدأ بفرز الرسائل، رفعني أبي على كتفيه؛ لأبحث في فتحات العلب عن القصاصات التي تحتوي على كلمات تبدأ بحرف S.

«لنرَ ما الذي يمكن أن نجده الآن».

أشار أبي إلى علبة مرتفعة، لكنها ليست مرتفعة جدًا. سحبتُ رزمة من القصاصات، كُتب في أعلاها كلمة «خدمة» وكُتب تحتها: *معانٍ متعددة*. جلسنا إلى طاولة الفرز، وتركني أبي أفكُّ الخيط الذي يربط القصاصات. كانت مقسّمة إلى أربع ربطات أصغر، في كل اقتباس تعريف كان قد اقترحه أحد المتطوعين الذين يثق بهم الدكتور موراي.

«لقد فرزت إديث هذه» قال أبي وهو يعيد ترتيب الرزم على طاولة الفرز.

«تقصد العمّة ديتي؟»

«هي ذاتها».

«هل هي معجم... معجمية مثلك؟»

«معجمية. لا. لكنها سيّدة على درجة عالية من الثقافة، ونحن محظوظون لأنها جعلت القاموس هوايتها. فلا يكاد يمرّ أسبوع من دون أن ترسل ديتي رسالة إلى الدكتور موراي فيها كلمة أو نسخة من أجل مجلد الحرف التالي».

لا يكاد يمرّ أسبوع لا نتلقى فيه أيضًا رسالة من ديتي.

عندما يقرأها أبي بصوت عالٍ، فإن معظمها يتحدث عني.

«هل أنا هوايتها أيضًا؟»

«إنك ابنتها بالمعمودية، وهذا أهم بكثير من هواية».

مع أن اسم ديتي الحقيقي هو إديث، كنت أجد صعوبة كبيرة في لفظه عندما كنت صغيرة. كانت تقول إن هناك طرائق أخرى للفظ اسمها، ودعتني أختار الاسم الذي أفضّله؛ ففي الدنمارك يطلقون عليها اسم ديتي. قلت لنفسي إن اسم ديتي أجمل، وأجد متعة في نبرة الصوت. لم أنادها باسمها الحقيقي «إديث» قط.

«لنرَ الآن كيف عرّفت ديتي كلمة *الخدمة*»، قال أبي.

تعريفات كثيرة وصفت ما تفعله ليزي، لكن لم توضح أي منها لماذا يمكن أن تعني الخدمة شيئًا مختلفًا لها ولي. لم تكن في الرزمة الأخيرة التي بحثنا فيها اقتباسات.

«إنها نسخ متطابقة»، قال أبي وساعدني على قراءتها.

«ماذا سيحدث لها؟» سألته، لكن قبل أن يجيبني، فُتح باب المَنْسَخ ودخل أحد المساعدين وهو لا يزال يعقد ربطة عنقه كأنه وضعها للتو. عندما انتهى، كانت مائلة ونسي أن يدّسها داخل صدريته.

نظر السيد ميتشل من فوق كتفي إلى أكوام القصاصات المكدسة على طاولة الفرز. خصلة من الشعر الداكن سقطت على وجهه. أزاحها، لكنه لم يضع زيتًا كافيًا لتثبيتها في مكانها.

قال: «*الخدمة*».

فقلت: «ليزي في الخدمة».

«إنها كذلك».

«لكن أبي يقول إنه سيكون من المؤسف أن أكون في الخدمة».

نظر السيّد ميتشل إلى أبي الذي هزّ كتفيه وابتسم.

ثم قال السيد ميتشل: «عندما تكبرين يا إسمي، أظن أنه سيكون بإمكانك أن تفعلي ما تشائين».

«أريد أن أصبح معجمية».

«حسنًا، هذه بداية جيدة»، قال. وأشار إلى جميع القصاصات.

ثم وصل السيد مالينغ والسيد بالك وهما يتناقشان حول كلمة كانا يتجادلان حولها البارحة، ثم جاء الدكتور موراي بثوبه الأسود الفضفاض. طافت عيناي من رجل إلى آخر، وتساءلت إن كان بإمكاني أن أخمّن أعمارهم من طول لحاهم ولونها. فقد كانت لحيتا أبي والسيد ميتشل أقصر لحى الآخرين وأكثرها سوادًا. وبدأ اللون الأبيض يغزو لحية الدكتور موراي ووصلت إلى أعلى زر في صدريته. أما لحيتا السيد مالينغ والسيد بالك فقد كانتا متوسطتي الطول. عندما وصلوا جميعهم، حان الوقت لأختبئ. زحفت تحت طاولة الفرز ورحت أنتظر القصاصات حتى تسقط. أكثر من أي شيء آخر، كنت أريد أن تجدني كلمة أخرى، لكن لم تجدني ولا كلمة أخرى، وعندما طلب مني أبي أن أركض إلى ليزي، لم تكن جيوبي فارغة تمامًا.

أريتُ ليزي القصاصة، وقلت: «سرّ آخر».

«هل ينبغي لي أن أدعك تُخرجين الأسرار من السكريبي؟»

«قال أبي إن هذه نسخة مكررة. هناك قصاصة أخرى تذكر الكلمة نفسها».

«ماذا تقول؟»

«إنك يجب أن تكوني في الخدمة، وإنني يجب أن أتعلّم التطريز بالإبرة ليرغب الرجال الزواج بي».

«حقًا؟ هل هذا ما تقوله؟»

«أظن ذلك».

فقالت ليزي: «حسنًا، يمكنني أن أعلّمك التطريز بالإبرة».

فكّرت في ذلك، ثم قلت: «لا، شكرًا يا ليزي. قال السيّد ميتشل إنني أستطيع أن أصبح معجمية في المستقبل».

في صباح الأيام القليلة التالية، بعد أن أساعد أبي في فرز البريد، أزحف إلى أحد طرفي طاولة الفرز وأنتظر الكلمات المتساقطة، لكن عندما تسقط، كان أحد المساعدين يستعيدها بسرعة دائمًا. وبعد بضعة أيام، بدأت أنسى أن أنتظر الكلمات، وبعد بضعة أشهر، نسيت الصندوق القابع تحت سرير ليزي.

نيسان (أبريل) 1888

قال أبي: «حذاء؟»

أجبته، «يلمع».

«كلسات نسائية طويلة؟»

«ضيّقة».

«ثوب؟»

«قصير قليلًا»

«ضيّق جدًا؟»

«لا، مناسب فقط».

«أوف» قال وهو يجفف جبينه، ثمّ نظر إلى شعري لحظات طويلة، وتمتم، «من أين يأتي كل هذا؟» محاولًا أن يسوّيه ويمسّده بيديه الكبيرتين الغليظتين. عندما قفزت ضفائر حمراء بين أصابعه، حاول الإمساك بها، لكن لم تكن لديه أيدٍ كافية. فما إن يتمكن من كبح جماح ضفيرة وترويضها، حتى تفلت ضفيرة أخرى. عندما بدأت أقهقه، ألقى يديه في الهواء.

كنا سنـتأخر بسبب شعري. قال أبي إنه يتماشى مع الموضة الدارجة، وعندما سألته ماذا تعني الموضة الدارجة، قال إنها شيء يهتم بها بعض الناس ولا يأبه بها أناس آخرون، ويمكن أن تنطبق على كلّ شيء، بدءًا من القبّعات وورق الجدران، حتى وقت وصولك إلى حفلة ما.

سألته، «وهل علينا أن نساير الموضة؟»

فقال: «لا، ليس من الضروري».

«إذن، يجب أن نسرع». قلت له، وأمسكت بيده وبدأنا نهرول. بعد عشر دقائق، وصلنا إلى سانيساید ونحن نلهث.

كانت البوابة الأمامية مزدانة بحرفيْ A وB بجميع الأحجام والأنماط والألوان. إن تلوين هذين الحرفين أبقاني هادئة لساعات طويلة الأسبوع الماضي، وشعرت بسعادة كبيرة عندما رأيتهما معلقين إلى جانب الحروف التي لوّنها أطفال موراي.

«ها هو السيّد ميتشل»، قلت، ثم سألت أبي: «هل يساير الموضة الدارجة أيضًا؟»

«لا على الإطلاق»، قال أبي ومدّ يده عندما اقترب السيّد ميتشل.

«إنه يوم عظيم»، قال السيّد ميتشل لدا.

فأجابه أبي، «لا يزال أمامنا مشوار طويل».

انحنى السيّد ميتشل حتى أصبحنا وجهًا لوجه. طلى شعره اليوم بكمية كافية من الزيت حتى بقي ثابتًا في مكانه. «عيد ميلاد سعيد يا إسمي».

«شكرًا يا سيّد ميتشل».

«كم أصبح عمرك الآن؟»

«بلغت السادسة اليوم، وأعرف أن هذه الحفلة ليست للاحتفال بعيد ميلادي، وإنما للاحتفال بصدور مجلد الحرفين A وB، وقال أبي إن بإمكاني أن أتناول قطعتيْ كيك».

«صحيح»، قال. وأخرج من جيبه علبة صغيرة وأعطاني إياها، وأضاف، «لا يمكن أن تحتفلي بعيد ميلادك من دون هدايا. هذه لك، أيتها السيّدة الشابة. إذا حالفك الحظ فسوف تلونين بها حرف C قبل عيد ميلادك القادم».

عندما فتحتُ علبة أقلام الرصاص الملونة الصغيرة، ابتسمت للسيّد ميتشل. عندما استوى واقفًا، رأيت كاحليه. كان يرتدي فردة جورب سوداء وأخرى خضراء.

كانت قد وضعت طاولة طويلة تحت شجرة الدردار، كما تخيّلتها تمامًا، تغطيها قطعة قماش بيضاء، وامتلأت بأطباق الطعام، وزبدية من الزجاج مليئة بشراب الدراق، وتدلّت أشرطة ملونة من أغصان الشجرة. كان عدد الموجودين أكثر مما يمكنني أن أعدّهم. قلت في نفسي، لا يريد أحد أن يساير الموضة في هذا المكان.

خلف الطاولة، كان أبناء موراي الصغار يلعبون لعبة شدّ الحبل، والفتيات يقفزن. لو ذهبت إليهم، فإنهم سيدعونني للعب معهم؛ كما جرت العادة، لكنّي لا أستطيع أن أمسك الحبل بقوة، وعندما أكون في الوسط، لا أستطيع أن أحافظ على الإيقاع. عندما يشجعونني، أحاول من جديد، لكنهم يبدون انزعاجهم إذا يظلّ الحبل ينسلّ من بين يدي. رحت أراقب هيلدا وإثيلوين وهما تبرمان الحبل، وتحصيان عدد الدورات بأغنية. كانت روزفريث وإلسي في الوسط، إحداهما تمسك بيد الأخرى، تقفزان بسرعة أكبر. كانت روزفريث في الرابعة، وتكبرني إلسي ببضعة أشهر. كانت ضفائرهن الشقراء تعلو وتهبط كأنها أجنحة. بينما كنت أراقبهن، لم يتوقف الحبل طوال الوقت. لمست شعري وأدركت أن خصلة من شعر أبي قد سقطت على وجهه.

«انتظري هنا»، قال لي أبي. وسار حول الجمع متجهًا إلى المطبخ، ثم عاد بعد دقيقة، تتبعه ليزي.

«عيد ميلاد سعيد يا إسمي»، قالت وأمسكت بيدي.

«إلى أين سنذهب؟»

«لنجلب هديتك».

تبعتُ ليزي وصعدنا الدرج الضيق من المطبخ. عندما دخلنا إلى غرفتها، أجلستني على السرير ووضعت يدها في جيب مئزرها.

ثم قالت: «أغمضي عينيك يا ملفوفتي الصغيرة، وارفعي يديك».

أغمضتُ عينيَّ وافترت شفتاي عن ابتسامة. رفرفة رقصت على راحتيْ يديّ. شرائط زينة. حاولت ألا أدع الابتسامة تختفي. كانت هناك علبة مليئة بشرائط الزينة إلى جانب سريري.

«يمكنك أن تفتحي عينيكِ».

شريطا زينة، لكنهما لا يلمعان، وليسا ناعمين مثل الشريط الذي عقده أبي حول شعري صباح هذا اليوم، لكن كل شريط منهما مطرز عند طرفه بنفس زهرة الياقوتية الزرقاء المزركشة على ثوبي.

«إنهما ليستا زلقتين كالأخرى كي لا تفقديها بسهولة»، قالت ليزي. وبدأت تخلل أصابعها في شعري، «وأظن أنها ستكون جميلة جدًا في الضفائر الفرنسية».

بعد بضع دقائق، عدنا أنا وليزي إلى الحديقة. «حسناء الحفلة»، قال أبي، «وفي الوقت المناسب تمامًا».

وقف الدكتور موراي في ظلّ شجرة الدردار، أمامه على الطاولة الصغيرة مجلد ضخم. نقر بشوكة على حافة كأس، فصمتنا جميعًا.

«عندما بدأ الدكتور جونسون يجمع قاموسه، عزم علي ألَّا يترك كلمة واحدة من دون دراسة وتمحيص». صمت الدكتور موراي قليلًا ليتأكد من أننا ننصت،

ثم مضى يقول، «لكن سرعان ما خفتت عزيمته عندما أدرك أن سؤالًا يفضي إلى آخر، وأن كتابًا يحيل إلى كتاب، وأن البحث لا يؤدي دائمًا إلى أن تجد ما تبحث عنه، وإذا وجدته، فإن ذلك لا يعني دائمًا أنك أصبحت ضليعًا في الموضوع».

شددتُ كُمَّ أبي، وسألته، «من هو الدكتور جونسون؟»

فقال هامسًا، «إنه محرّر قاموس سابق».

«إذا كان هناك قاموس موجود للتو، فلماذا تصنعون قاموسًا جديدًا؟»

«القاموس القديم ليس جيدًا بما يكفي».

«هل سيكون قاموس الدكتور موراي جيدًا بما يكفي؟» وضع أبي إصبعه على شفتيه والتفت إلى الوراء ليستمع إلى ما يقوله الدكتور موراي.

«إذا حققتُ نجاحًا أكبر من النجاح الذي حققه الدكتور جونسون، فإن ذلك بفضل حماسة وتعاون العديد من العلماء والمتخصصين الذين معظمهم منهمكون في أعمالهم، لكن اهتمامهم بهذا المشروع دفعهم بمحبة وطيب خاطر إلى تخصيص جزءٍ من وقتهم لخدمة المحرر، والمساهمة بمعرفتهم لجعل العمل كاملًا». وبدأ الدكتور موراي يشكر جميع الذين ساعدوا في جمع كلمات الحرفين A وB. كانت القائمة طويلة جدًا حتى بدأت ساقاي تؤلماني من الوقوف. فجلست على العشب، وبدأت أقتلع نصول العشب وأقشّر الطبقات التي تغلفها لأكشف البراعم الخضراء الغضة وأمضغها. لم أرفع بصري إلّا عندما سمعت اسم ديتي، ثم سمعت اسم أبي وجميع الذين يعملون في المَنْسَخ.

عندما أنهى الدكتور موراي كلمته، وبدأ الجميع يهنئونه، توجه أبي إلى المجلد ورفعه من مكانه.

ناداني وأجلسني وأسندتُ ظهري إلى جذع شجرة الدردار القاسي، ثم وضع المجلد الثقيل في حضني.

«هل كلمات عيد ميلادي موجودة فيه؟»

«بالتأكيد»، وفتح الغلاف وقلّب الصفحات حتى وصل إلى أول كلمة.

.A

ثم قلّب بضع صفحات أخرى.

Aard- vark

ثم قلّب بضع صفحات أخرى.

جميع كلماتي تقبع داخل هذا المجلد المغلف بالجلد، وحوافُّ صفحاته مزدانة بالذهب. ظننت أن وزنه سيحملني إلى هذا المكان إلى الأبد.

أعاد أبي مجلد A وB إلى الطاولة، وابتلعه الحشد. خفت على الكلمات، فقلت «انتبهوا»، لكن لم يسمعني أحد.

«ها هي ديتي قادمة»، قال أبي.

عندما دخلت من البوابة، ركضتُ إليها.

قلت لها: «لم تتناولي قطعة كيك».

«لقد جئت في الوقت المناسب»، قالت. وانحنت وقبّلتني على رأسي، «الكيك الوحيد الذي أتناوله هو كيك ماديرا. إنها قاعدة تساعدني على الحفاظ على قوامي».

كانت العمّة ديتي عريضة مثل السيدة بالارد وأقصر منها قليلًا. سألتها «ما معنى قوام؟»

فقالت: «شيء مثالي مستحيل، وشيء ليس من المحتمل أن تقلقي من أجله»، وأضافت، «عندما تجعلين شيئًا ما، أصغر قليلًا».

لم تكن ديتي عمتي في الواقع، لكن عمتي الحقيقية تعيش في إسكتلندا وعندها أطفال كثيرون، ولم يتح لها الوقت لتدللني. هذا ما قاله أبي. لا يوجد لدى ديتي أطفال وهي تعيش في باث مع أختها بيث. وهي منهمكة في البحث عن اقتباسات لقاموس الدكتور موراي وفي كتابة كتاب (*تاريخ إنكلترا*)، لكن لا يزال لديها وقت لترسل لي رسائل وتجلب لي هدايا.

«قال الدكتور موراي إنكِ أنت وبيث مساهمتان غزيران».

«غزيرتان»، قالت ديتي تصحح لي.

«وهل هذا شيء جيد في الشخص؟»

«هذا يعني أننا جمعنا كلمات واقتباسات كثيرة لقاموس الدكتور موراي، وأنا متأكدة من أنه يقصد مديحًا وإطراءً».

«لكنك لم تجمعي كلمات كما جمع السيد توماس أوستن. إنه أغزر منك بكثير».

«نعم هو كذلك. لا أعرف أين يجد الوقت. دعينا الآن نشرب قليلًا من شراب الدراق»، قالت ديتي وأخذتني بيدي إلى طاولة الحفلة.

تبعتُ ديتي بين الناس، وضعت في غابة من البنطالات بنية اللون، العريضة ذات المربعات، والتنانير المزخرفة. كان الجميع يرغبون في التحدث معها، وبدأت ألعب لعبة تخمين من هو صاحب البنطال الذي نتوقف عنده.

«هل ينبغي إدراجها حقًا؟» سمعت رجلًا يقول، «إنها كلمة غير مستحبة وأشعر أننا يجب ألّا نشجع على استخدامها». أحكمت ديتي قبضتها على يدي. عندما لم أعرف بنطال مَنْ، رفعت بصري لأرى إن كنت سأعرف وجهه، لكن كل ما استطعت أن أراه هو لحيته.

«لسنا حكامًا على اللغة الإنكليزية يا سيدي. من المؤكد أن عملنا ينحصر في تأريخها، لا الحكم عليها»

عندما وصلنا أخيرًا إلى الطاولة تحت شجرة الدردار، صبّت ديتي كأسين من شراب الدراق وملأت صحنًا صغيرًا بالشطائر.

«صدّقي أو لا تصدّقي يا إسمي، فأنا لم أتجشم عناء كلّ هذه المسافة لأتحدّث عن الكلمات. لنبحث عن ركن هادئ نجلس فيه، وتحدّثيني كيف تسير الأمور مع والدك».

أخذتُ ديتي إلى المَنْسَخ. عندما أغلقت الباب وراءها، لم نعد نسمع الأصوات المنبعثة من الحفلة. كانت هذه أول مرة أدخل فيها إلى المَنْسَخ في غياب أبي أو الدكتور موراي أو المساعدين الآخرين. عندما وقفنا عند عتبة المَنْسَخ، أحسست بمسؤولية لأن أُري ديتي فتحات العلب المليئة بالأسئلة والاقتباسات،

وجميع القواميس القديمة والكتب المرجعية، والملازم الطباعية التي نُشرت فيها الكلمات أولًا قبل أن يتوفر عددٌ كافٍ منها لنشرها في مجلد كامل. استغرقت وقتًا طويلًا لأتعلّم كيف أنطق كلمة «ملزمة»، وأردت أن تسمعني ديتي أقولها.

أشرت إلى إحدى الصينيتين على الطاولة الصغيرة إلى جانب الباب، وقلت: «توضع هنا كلّ الرسائل التي يكتبها الدكتور موراي وأبي وجميع الآخرين. أضعها أحيانًا في صندوق البريد القائم على الرصيف في آخر النهار»، وأضفت، «توضع الرسائل التي ترسلينها إلى الدكتور موراي في هذا الدرج. فإذا كان فيها قصاصات، فإننا نُخرجها أولًا، ويدعني أبي أن أضعها في أماكنها في فتحات العلب».

فتشّت ديتي في حقيبة يدها وأخرجت مغلّفًا صغيرًا مألوفًا لديّ. حتى وأنا أقف إلى جانبها، أثار خطّها المائل الأنيق والمألوف رعشة صغيرة في جسدي.

قالت وهي تسلّمني المغلّف، «قلت لأوفّر ثمن الطابع».

لم أكن متأكدة ماذا يجب أن أفعل به إذا لم يعطني أبي تعليماته.

سألتها: هل توجد فيه قصاصات؟

«لا توجد فيه قصاصات، رأيي فقط بشأن إدراج كلمة قديمة يتردد السادة في جمعية فقه اللغة في إدراجها».

سألتها، «ما هي الكلمة؟»

صمتت قليلًا، وعضت على شفتها، ثم قالت: «أخشى أنها لا تصلح لصحبة مهذبة، ولن يشكرني والدك لو قلتها لك».

«هل ستطلبين من الدكتور موراي ألَّا يُدرجها في القاموس؟»

«بالعكس يا حبيبي، سأحثّه على أن يدرجها».

وضعتُ المغلّف فوق كومة الرسائل على طاولة مكتب الدكتور موراي وتابعت جولتي معها.

«وهذه فتحات العلب التي نضع فيها جميع القصاصات»، قلت لها وأنا ألوّح بذراعي إلى أعلى وأسفل أقرب جدار توجدِ فيه، ثم فعلت ذات الشيء في

الجدران الأخرى المحيطة بـالمَنْسَخ. «قال أبي إنه ستكون هناك آلاف وآلاف من القصاصات، لذلك سنحتاج إلى مئات ومئات من فتحات العلب تلك. لقد صُنعت خصيصًا لهذا الغرض، وقد صمم الدكتور موراي القصاصات بنفسه لكي تسع فيها بشكل جيد».

عندما أنزلت ديتي رزمة، بدأ قلبي يخفق بقوة. قلت لها: «يجب ألَّا ألمس القصاصات إذا لم يكن أبي موجودًا».

«حسنًا، أظن أننا لو كنا حريصين، فلن يعرف أحد»، قالت ديتي وابتسمت ابتسامة متواطئة، فأخذت دقات قلبي تخفق بسرعة أكبر. راحت تفتش في القصاصات حتى وجدت قصاصة غريبة، حجمها أكبر من حجم القصاصات الأخرى، وقالت: «انظري، إنها مكتوبة على ظهر رسالة، بنفس لون زهرة الياقوتية التي تطرز ثوبك».

«ماذا تقول الرسالة؟»

قرأت ديتي ما استطاعت أن تقرأه، ثم قالت: «إنها مجرد شذرة، لكنّي أظن أنها رسالة حب».

«لماذا يقتطع أحد رسالة حبّ؟»

«أظن أن المشاعر لم تكن متبادلة».

أعادت القصاصات إلى مكانها، ولم يبدُ أن شيئًا قد حُرِّك من مكانه.

«هذه كلمات عيد ميلادي» قلت، وأنا أتنقل بين فتحات العلب القديمة التي وضعت فيها جميع الكلمات من A إلى Ant. عندما رفعت ديتي حاجبيها، قلت: «إنها الكلمات التي كان أبي يعمل عليها منذ قبل أن أولد. كنت أسحب إحداها في عيد ميلادي ويساعدني أبي على أن أفهم معناها». هزّت ديتي رأسها. وتابعتُ: «وهذه طاولة الفرز، يجلس أبي هنا، والسيّد بالك يجلس هنا، والسيّد مالينغ يجلس إلى جانبه. «بونان ماتينون»، ونظرت لأرى ردة فعل ديتي.

«عفوًا؟»

«*بونان ماتينون*. هكذا يقول السيّد مالينغ مرحبًا. إنها لغة الإسبيرانتو».

«*الإسبيرانتو*».

«نعم. ويجلس السيّد ووريل هناك، ويجلس السيّد ميتشل عادة هناك، لكنه يحبّ أن يتحرك كثيرًا. هل تعرفين أنه يرتدي دائمًا جوارب بلونين مختلفين؟»

«كيف عرفت ذلك؟»

ضحكتُ مرة أخرى، وقلت: «لأنني أستطيع أن أرى ذلك وأنا تحت الطاولة، هنا»، وجثوتُ على يديَّ وركبتيَّ وزحفتُ تحت طاولة الفرز، ونظرتُ إليها.

«صحيح؟»

كنت على وشك أن أطلب منها أن تأتي وتجلس معي، لكنّي فكّرت في الأمر قليلًا، وقلت: «يجب أن تنحفي حتى تتمكني من الجلوس تحتها».

ضحكت ومدّت يدها لتساعدني على الخروج من تحت الطاولة، وقالت: «دعينا نجلس على كرسي والدك».

في كل سنة، تقدّم لي ديتي هديتين بمناسبة عيد ميلادي؛ كتاب وقصة. والكتاب الذي ترسله يدور دائمًا حول أشخاص بالغين، الكلمات فيه لا يستخدمها الأطفال. وعندما تعلّمت القراءة، بدأت تلّح عليَّ أن أقرأ بصوت عالٍ حتى أصل إلى كلمة لا أعرفها. عندها تبدأ حكاية القصة.

أزلتُ ورق تغليف الكتاب.

«حول أصل الأنواع»، نطقت ديتي الكلمة الأخيرة ببطء شديد ومررت إصبعها تحتها.

«عمَّ يتحدّث؟» قلّبتُ الصفحات وأنا أبحث عن صور.

«حيوانات».

قلت: «أنا أحبّ الحيوانات»، وقلبتُ الصفحة إلى المقدمة وبدأت أقرأ. «*عندما كنت على متن* H.M.S Beagle … نظرتُ إلى ديتي وسألتها، «هل هي كلب؟»

فضحكت، وقالت: «لا، H.M.S Beagle سفينة».

واصلتُ القراءة «... مثل...»، توقفت وأشرت إلى الكلمة التالية.

قالت ديتي: «عالم طبيعة»، ثم نطقتها ببطء، «شخص يدرِّس عالم الطبيعة. الحيوانات والنباتات».

«عالم الطبيعة»، حاولت أن أنطقها. أغلقت الكتاب، وسألتها، «هل ستحكين لي القصة الآن؟»

«أي قصة؟» قالت ديتي، وبدا عليها الارتباك، لكنها ابتسمت.

«أنت تعرفين».

نقلت ديتي وزنها فوق الكرسي، وحشرتُ نفسي في المنطقة الناعمة بين حضنها وكتفها.

«أصبحتِ أطول مما كنتِ في السنة الماضية»، قالت.

«لكنّي ما أزال أسع هنا». انحنيت إلى الوراء وطوقتني بذراعيها.

«أول مرة رأيت فيها ليلي، كانت تعدّ حساء الخيار والجرجير».

أغمضتُ عينيَّ وتخيّلت أمّي وهي تحرّك قدرًا مليئًا بالحساء. حاولت أن أُلبسها ثيابًا عادية، لكنها رفضت أن تخلع حجاب العروس الذي تضعه في الصورة الموضوعة إلى جانب سرير أبي. أحببت تلك الصورة أكثر من الصور الأخرى لأن أبي كان ينظر إليها وهي تنظر إليَّ مباشرة: قلت في نفسي سيسقط الحجاب في الحساء، وابتسمت.

تابعت ديتي: «كانت تنفذّ تعليمات عمتها، ميس فيرنلي؛ كانت امرأة طويلة وقوية، لم تكن سكرتيرة نادي التنس حيث تدور أحداث هذه القصة، فحسب، وإنما كانت مديرة معهد صغير خاص للسيدات أيضًا. كانت ليلي طالبة في مدرسة عمتها، ومن الواضح أن حساء الخيار والجرجير كان ضمن المنهاج الدراسي».

«ماذا يعني المنهاج الدراسي؟» سألتها.

«إنه قائمة بالموضوعات التي تتعلمينها في المدرسة».

«هل عندي منهاج دراسي في مدرسة سانت برنابا؟»

«لقد بدأتِ الدراسة للتو، لذلك فإن منهجك الدراسي ينحصر في القراءة والكتابة، وسيضيفون موضوعات أخرى كلما كبرت».

«ماذا سيضيفون؟»

«آمل أن يكون شيئًا لا علاقة له بالتدبير المنزلي مثل طهو حساء الخيار والجرجير. الآن، هل أستطيع أن أتابع؟»

«نعم، من فضلك».

«أصرّت ميس فيرنلي على أن تقوم ليلي بإعداد الحساء لغداء نادينا. كان الحساء سيئًا. قال الجميع ذلك، حتى أن بعضهم قال ذلك بصوت عالٍ. أظن أن ليلي سمعتهم لأنها انسحبت إلى بيت النادي، وانهمكت في تنظيف الطاولات التي لم تكن بحاجة إلى تنظيف».

فقلت: «ليلي المسكينة».

«حسنًا، قد لا تقولين ذلك عندما تسمعين بقية القصة، فلولا ذلك الحساء الفظيع، لما ولدتِ قط».

عرفتُ ما الذي سيحدث، وحبستُ أنفاسي كي أسمعها.

«لقد تناول والدك صحنه كله. فوجئت، لكنّي رأيته بعد ذلك وقد أخذ صحنه إلى المطبخ وطلب من ليلي أن تملأ له صحنًا آخر».

«هل تناوله أيضًا؟»

«نعم. وبين كل رشفةٍ وأخرى، كان يسأل ليلي سؤالًا بعد سؤال، وتحوّل وجهها من وجه فتاة خجولة مرتبكة إلى وجه امرأة شابة واثقة من نفسها خلال خمس عشرة دقيقة».

«ماذا سألها؟»

«لا يمكنني أن أقول لك، لكن عندما أنهى طعامه، بدا كما لو أن أحدهما يعرف الآخر طوال حياتهما».

«هل كنت تعرفين أنهما سيتزوجان؟»

«حسنًا، أتذكّر كم كان هاري محظوظًا لأنه يعرف كيف يسلق بيضة، لأن ليلي لا تحب أن تمضي وقتًا طويلًا في المطبخ. لذلك، نعم، أظن أنني كنت أعرف أنهما سيتزوجان».

«ثم ولدتُ وبعدها ماتت».

«نعم».

«لكن عندما نتحدّث عنها، فإنها تُبعث إلى الحياة».

«لا تنسي ذلك أبدًا يا إسمي. الكلمات هي أدوات انبعاثنا».

كلمة جديدة. رفعت عينيَّ إليها.

فقالت ديتي: «عندما تعيدين شيئًا».

«لكن ليلي لن تعود أبدًا».

«لا. لن تعود».

صمتُ قليلًا، أحاول أن أتذكر بقية القصة. «لذلك، قلتِ لدا إنك ستكونين عمتي المفضّلة».

«نعم».

«وإنك ستقفين إلى جانبي دائمًا، حتى لو كنتُ مثيرة للمشاكل».

«هل قلت ذلك؟» التفتُ ونظرت إلى وجهها. ابتسمت، «هذا تمامًا ما كانت ليلي تريد أن أقوله، وكنت أعني كل كلمة».«النهاية»، قلت.

نيسان (أبريل) 1891

بينما كنا نتناول طعام الإفطار في صباح أحد الأيام، قال دا: «لا بد أن الكلمات التي تبدأ بحرف C ستثير الفزع بسبب تدفق أعداد كبيرة من الكلمات الـ certifiable (القابلة للتصّديق). استغرقت أقل من دقيقة لأفهم ما الذي قاله.

فقلت: «إن كلمة Kept تبدأ بحرف K لا بحرف C»

كان فمه لا يزال مليئًا بالطعام. كان ذلك سريعًا جدًا.

فقال دا: «أظن أن كلمة certifiable قد خدعتك».

«لكن من المفترض أن تبدأ بحرف C، فهي مشتقة من كلمة certain (مؤكَّد)».

«بالتأكيد. قولي لي الآن، ما هو الاقتباس الذي أعجبك أكثر»، قال أبي ودفع صفحة من مسودة الطباعة على مائدة الإفطار.

كانت قد مضت ثلاث سنوات على الاحتفال بصدور مجلد A وB، وهم يعملون حاليًا على تصحيح مسودات الطباعة لمجلد الكلمات التي تبدأ بالحرف C. كانت الصفحة قد نُضِّدت، لكن بعض السطور استُبعدت، وامتلأت الهوامش بالتصحيحات التي أجراها دا. وعندما لا يبقى فراغ يستطيع أن يسجل فيه تصحيحاته، يثبّت قصاصة على حافة الصفحة ويكتب عليها.

«أعجبني الاستشهاد الجديد»، قلت وأشرت إلى قصاصة ورق.

«ماذا تقول؟»

«To certify this thinge, sende for the damoysell; and then shall ye know, by her own mouthe»

(*للتصّديق على هذا الشيء، أرسل في طلب الصبيّة الشابة، عندها ستعرف، من فمها مباشرة*).

«لماذا أعجبتك؟»

«تبدو مضحكة، كما لو أن الذي كتبها لا يعرف تهجئة الحروف الأبجدية، واختلق بعض الكلمات».

«إنها قديمة فقط»، قال أبي واستعاد صفحة مسودة الطباعة وقرأ ما كتبه: «تتغير الكلمات مع الزمن، كما ترين. إذ تتغيّر طريقة كتابتها ونطقها، حتى معناها أحيانًا. فلها تاريخها». ومرّر أبي إصبعه تحت الجملة، وأضاف: «إذا حذفت بعض الكلمات التي تبدأ بحرف E، فإنها تكاد تبدو حديثة».

«ما معنى كلمة damoysell؟»

«امرأة شابة».

«هل أنا damoysell؟»

نظر إليَّ. قطّب حاجبيه قليلًا.

«سأبلغ العاشرة في عيد ميلادي القادم»، قلت، متفائلة.

«العاشرة، تقولين؟ حسنًا، هذا يحلّ الأمر: في هذه الحالة ستصبحين امرأة شابة بسرعة».

«وهل ستظلّ الكلمات تتغيّر؟»

توقفت الملعقة في منتصف الطريق إلى فمه، وقال: «من الممكن، أظن أنه عندما يُدوّن المعنى فإنه يصبح ثابتًا».

«إذن يمكنك أنت والدكتور موراي أن تجعلا الكلمات تعني كما تريدان، ويجب علينا جميعًا أن نستخدمها بهذه الطريقة إلى الأبد؟»

«طبعًا لا. إن مهمتنا تكمن في التوصل إلىconsensus(إجماع). إننا نبحث في الكتب لنرى كيف تُستخدم كلمة ما، ثم نضع لها معاني لكي تصبح منطقية ومفهومة. في واقع الأمر، إنها عملية علمية بحتة».

«ماذا تعني؟»

«بالإجماع؟ حسنًا، إنها تعني أن يوافق الجميع على معنى الكلمة».

«هل تسألان كل شخص؟»

«لا، أيتها الذكية. إننا نرجع إلى بعض الكتب».

فسألته، «ومن يكتب تلك الكتب؟»

«أشخاص من جميع الفئات. توقفي الآن عن طرح الأسئلة وتناولي طعامك. ستتأخرين على المدرسة».

***

رنّ الجرس معلنًا بدء الغداء، ورأيت ليزي تقف في مكانها المعتاد خارج بوابة المدرسة، تبدو خجولة ومرتبكة. أردت أن أركض إليها، لكنني لم أفعل.

«يجب ألا تدعيهم يرونك وأنت تبكين»، قالت وأمسكت يدي.

«لم أكن أبكي».

«لقد بكيتِ، وأنا أعرف السبب. رأيتهم يضايقونك».

هززت كتفي بلا مبالاة وشعرت بمزيدٍ من الدموع تترقرق في عينيَّ. نظرت إلى قدميَّ، تخطو الواحدة أمام الأخرى.

سألتني، «ماذا جرى؟»

رفعتُ أصابعي المحترقة. أمسكتها وقبّلتها ونفخت حبّة توت في كفي. لم أتمالك نفسي عن الضحك.

«لدى نصف آبائهم أصابع محترقة، كما تعرفين». رفعت عينيَّ ونظرت إليها.

«صحيح. فالذين يعملون في ورشة السباكة يحملون حروقهم كدليل على مهنتهم، وأولادهم الصغار الأشقياء يزعجونك».

«لكنّي أختلف عنهم».

«كلنا مختلفون»، قالت. لكنها لم تفهم.

فقلت: «أنا مثل كلمة الأبجدية».

«لم أسمع بها قط».

«إنها إحدى كلمات عيد ميلادي، لكن أبي يقول إنها قديمة، عفا عليها الزمن. لم يعد يستخدمها أحد».

ضحكت ليزي، وقالت: «هل تتكلمين بهذه الطريقة في الصفّ؟»

هززت كتفي مرة أخرى.

«توجد لديهم أنواع مختلفة من العائلات يا إسمي، وهم ليسوا معتادين على التحدّث عن الكلمات والكتب والتاريخ كما تفعلين أنتِ ووالدك. بعض الناس يستمتعون إذا حطّوا من قدر الآخرين. عندما تكبرين، ستتغير الأمور، أعدك بذلك».

تابعنا سيرنا بصمت. كلما اقتربنا من المَنْسَخ، شعرت بأنني أصبحت في حال أفضل.

بعد أن تناولت الشطائر في المطبخ مع ليزي والسيدة بالارد، عبرت الحديقة إلى المَنْسَخ. واحدًا تلو الآخر، رفع المساعدون رؤوسهم من طعامهم أو كلماتهم ليروا من القادم. مشيت بهدوء وجلست إلى جانب أبي الذي أفسح لي مكانًا، وأخرجت الدفتر من حقيبتي لأكتب ما تعلمته في المدرسة. عندما انتهيت، نزلت من الكرسي وقبعت تحت طاولة الفرز.

عندما لا تسقط قصاصات، أتفحّص أحذية المساعدين. كان كل حذاء يتوافق مع شخصية صاحبه تمامًا، وكان لكلّ واحد منهم عاداته. فقد كان حذاء السيّد وورال مدبوغًا ناعمًا، يجلس بهدوء تام، واضعًا كلّ قدم باتجاه القدم الأخرى، بينما كان حذاء السيّد ميتشل عكس ذلك تمامًا: فقد كان حذاؤه مريحًا تتأرجح أصابع وكعبا قدميه إلى الأعلى والأسفل، وكان يرتدي جوربًا لون كلّ فردة فيه تختلف عن الأخرى. وكان حذاء السيّد مالينغ مغامرًا لا يوجد في المكان الذي أتوقع وجوده فيه، أما حذاء السّيد بولك، فيكون مسحوبًا إلى الوراء تحت كرسيه، وكان السيّد سويتمان ينقر بحذائه دائمًا نقرات أتخيّل أنها لحن يدور في رأسه. عندما اختلس النظر من تحت الطاولة، أراه يبتسم عادة. وكان حذاء أبي المفضّل لديَّ، وكنت أنظر دائمًا إليه في النهاية. اليوم، كان أحدهما مسترخيًا فوق الآخر، النعلان ظاهران. توقفت قليلًا لألمس الثقب الصغير الذي بدأ يتسرب الماء إليه. كان الحذاء يتأرجح كما لو كان يحاول أن ينشّ ذبابة عنه. لمسته مرة أخرى فتوقف، جامدًا. كان ينتظر. حركتُ أصغر أصابعي، فسقط الحذاء جانبًا، وظلّ ساكنًا، لا حياة فيه. أما القدم التي ظلت في الحذاء، فقد

بدأت تلمس ذراعي. كان ذلك سخيفًا فلم تعد لديَّ مساحة كافية في خدّيَّ لأكبت كلّ الضحكات التي أرادت أن تفلت منهما. ضغطت على إصبع القدم الكبيرة، وزحفت إلى البقعة التي يوجد فيها ضوء كاف للقراءة.

أجفلنا عندما سمعنا ثلاث نقرات قوية على باب المَنْسَخ. فوجدت قدم أبي حذاءه بسرعة.

من تحت الطاولة، رأيت أبي يفتح الباب لرجل ضئيل الحجم، له شارب أشقر، ضخم، ولا تكاد توجد شعرة واحدة في رأسه. «كراين»، سمعت الرجل يقول عندما قاده أبي إلى الداخل، «أظن أنكم تتوقعون حضوري». كانت ثيابه واسعة جدًا عليه، وتساءلتُ إن كان يأمل في أن يكبر فيها. إنه المساعد الجديد.

كان بعض المساعدين يأتون ويبقون بضعة أشهر فقط، وبعضهم يبقون دائمًا، مثل السيّد سويتمان الذي جاء السنة الماضية، ومن بين جميع الرجال الجالسين حول طاولة الفرز، فهو الشخص الوحيد غير الملتحي. لذلك، كان بإمكاني أن أرى ابتسامته، علمًا أنه يبتسم كثيرًا. عندما عرّف أبي السيّد كراين على الرجال المتحلقين حول طاولة الفرز، لم تظهر على شفتيّ السيّد كراين أي ابتسامة.

«وهذه المُشاغِبة الصغيرة، إسمي»، قال أبي وهو يساعدني على الوقوف.

مددتُ يدي للسيد كراين، لكنه لم يأخذها.

ثم سأل، «ماذا كانت تفعل هناك؟»

«ما يفعله الأطفال تحت الطاولات عادة»، قال السيّد سويتمان، والتقت ابتسامته مع ابتسامتي.

انحنى أبي إليَّ، وقال: «اذهبي وأبلغي الدكتور موراي بأن المساعد الجديد وصل يا إسمي».

ركضت عبر الحديقة إلى المطبخ، رافقتني السيّدة بالارد إلى غرفة الطعام.

كان الدكتور موراي جالسًا عند أحد جانبيْ الطاولة الكبيرة، والسيّدة موراي على الجانب الآخر. قالت ليزي إنه يوجد مكان يتسع لجميع الأطفال الأحد

عشر بينهما، لكن ثلاثة منهم كانوا غائبين، وتناثر الآخرون على جانبيْ الطاولة، جلس أكبرهم إلى جانب الدكتور موراي، وجلس أصغرهم على المقاعد العالية من جانب أمّهم. وقفتُ صامتة حتى أنهوا صلاة الشكر، ثم لوّحت لي إلسي وروزفريث بيديهما، فلوّحت لهما. فجأة شعرت أن الرسالة التي سأوصلها لم تعد مهمة.

«مساعدنا الجديد؟» قال الدكتور موراي من فوق نظارته عندما رآني واقفة.

هززت رأسي. نهض وبدأ باقي أفراد عائلة موراي يتناولون الطعام.

في المَنْسَخ، كان أبي يشرح شيئًا للسيد كراين الذي التفت عندما سمعنا ندخل.

«دكتور موراي»، قال ومدّ يده وانحنى قليلًا، «يشرفني أن أنضم إلى فريقك».

تنحنح الدكتور موراي. بدت نحنحته أشبه بنخير. صافح السيّد كراين، وقال: «إنه عمل لا يستطيع كلّ شخص القيام به»، وأضاف، «إنه يحتاج إلى شيء من... الدقة والمثابرة. هل أنت دقيق ومثابر يا سيّد كراين؟»

فقال: «طبعًا يا سيدي».

هزّ الدكتور موراي رأسه ثم عاد إلى البيت ليكمل غداءه.

واصل أبي جولته مع السيّد كراين، وكلما أخبره أبي شيئًا عن طريقة فرز القصاصات، هزّ السيّد كراين رأسه وقال: «واضح تمامًا».

«يرسل متطوعون من جميع أنحاء العالم هذه القصاصات»، قلت عندما كان أبي يريه ترتيب فتحات العلب التي توضع فيها القصاصات.

نظر السيّد كراين إليَّ، وعبس قليلًا لكنه لم يردّ، فخطوت إلى الوراء قليلًا.

وضع السيّد سويتمان يده على كتفي، وقال: «صادفت قصاصة أُرسلت من أستراليا ذات مرة، وهي بعيدة عن إنكلترا كما يمكنك أن تتصوّر».

عندما عاد الدكتور موراي من الغداء، وبدأ يعطي السيّد كراين تعليماته، لم أجلس وأستمع إليهما.

«هل سيبقى هنا لفترة قصيرة أم إلى الأبد؟» قلت هامسة لدا.

فقال: «لا أعرف، ربما دائمًا».

زحفتُ تحت طاولة الفرز، وبعد بضع دقائق، انضم حذاء غير مألوف إلى الأحذية التي أعرفها جيدًا.

كان حذاء السيّد كراين قديمًا مثل حذاء دا، لكنه لم يُلمَّع منذ فترة. رحت أراقب الحذاء وهو يحاول أن يستقر في وضعية محددة. فوضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، ثم اليسرى فوق اليمنى. وفي نهاية الأمر، لفّ كاحليه حول ساقيْ كرسيه الأماميتين، وبدا كما لو أن حذاءه يحاول أن يختبئ مني.

قبل أن تأتي ليزي لتأخذني إلى المدرسة بقليل، سقطت كومة من القصاصات إلى جانب كرسي السيّد كراين. سمعت أبي يقول إن بعض القصاصات بحرف C «لم تعد عملية بسبب ثقلها».

كان ذلك الضجيج الخفيف ينبعث من أبي عندما يظن أن الأمر مضحك.

لكن السيّد كراين لم يضحك، وقال: «سقطت لأنها ليست مربوطة جيدًا»، وانحنى ليجمع أكبر عدد ممكن من القصاصات بحركة واحدة. أطبقت أصابعه في قبضة حولها، ورأيت القصاصات تتجعّد. عندما انبعثت شهقة من فمي، ارتطم رأسه بطرف الطاولة السفلي.

«هل كلّ شيء على ما يرام يا سيّد كراين؟»، سأله السيد مالينغ.

«من المؤكد أن الفتاة كبيرة لأن تكون هناك».

فأجابه السيّد سويتمان: «فقط حتى يحين موعد عودتها إلى المدرسة».

عندما هدأت أنفاسي، وعاد المَنْسَخ إلى نشاطه المعتاد، بدأت أبحث عن الظلال تحت طاولة الفرز. قصاصتان كانتا لا تزالان إلى جانب حذاء السيّد وورال النظيف، كما لو أنهما تعرفان أنهما ستكونان في مأمن ولن تطأهما قدم طائشة. أخذتهما وتذكّرت فجأة الصندوق القابع تحت سرير ليزي. لم تدعني نفسي أن أعيدهما إلى السيّد كراين.

عندما رأيت ليزي واقفة عند الباب، خرجت من جانب كرسي دا.

قال: «هل حان الوقت؟» لكني أحسست أنه كان ينظر إلى الساعة.

وضعت الدفتر في حقيبتي، وجريت نحو ليزي التي تنتظرني في الحديقة.

«هل أستطيع أن أضع شيئًا في الصندوق قبل أن أعود إلى المدرسة؟»

لم أضع شيئًا في ذلك الصندوق منذ فترة طويلة، لكن ليزي فهمت ما أقصده على الفور، وقالت: «كنت أتساءل إن كنتِ ستعثرين على شيء آخر لتضعيه فيه».

***

لم تكن القصاصات الكلمات الوحيدة التي وجدت طريقها إلى الصندوق.

ففي خزانة ملابس دا، يوجد صندوقان خشبيان، وجدتهما عندما كنا نلعب لعبة الغميضة. زاوية أحد الصندوقين الحادة وخزت ظهري وآلمتني عندما دفعت نفسي إلى أقصى ركن فيها. فتحت الصندوق.

كان الظلام دامسًا بين معاطف دا، وفساتين ليلي التي لحق بها العفن، فلم أستطع رؤية ما الذي يوجد في داخلها، لكن يدي لامست حوافَّ شيءٍ كأنه مغلّفات. عندما سمعت وقع خطوات على الدرج، كان أبي يغني «*فيي في فو فووم*». أغلقت غطاء الصندوق، وانتقلت بسرعة إلى وسط الخزانة. غمر الضوء الغرفة، وقفزت بين ذراعيه.

في وقت متأخر من تلك الليلة، عندما كان من المفترض أن أكون نائمة، لم يغمض لي جفن. كان أبي لا يزال يصحح مسودات الطباعة في الطابق الأرضي. تسللت من السرير وهبطت الدرج على أطراف أصابعي إلى غرفة نومه. عندما همستُ: «افتح يا سمسم»، فتحت أبواب خزانة الثياب.

مددت يدي وأخرجت كلا الصندوقين. أقعيت معهما تحت نافذة دا، وكان ضوء المساء لا يزال كافيًا لأرى جيدًا. كانا مصنوعين من نفس نوع الخشب الباهت ولكليهما زوايا نحاسية صفراء، لكن أحد الصندوقين كان مصقولًا، ناعمًا، والصندوق الآخر قاتمًا، خشنًا. قرّبت الصندوق المصقول ورحت أمسّد الخشب العسلي. مئة مغلّف، السميك منها والرقيق، وضعت بالترتيب الذي أُرسلت فيه. مغلفاته البيضاء العادية إزاء مغلفاتها الزرقاء. كان معظمها مرتبًا بالتعاقب، مع أنه كان يوجد أحيانًا مغلفان أو ثلاثة مغلفات بيض على التوالي، كما لو كان لدى أبي أشياء كثيرة يريد أن يقولها عن شيء لم تعد ليلي مهتمة

به. لو أنني قرأت من أول رسالة إلى آخر رسالة، فلا بد أنها تحكي عن قصّة حبّهما، لكنّي أعرف أنها قصّة ذات نهاية حزينة. أغلقتُ الصندوق ولم أفتح أي مغلّف.

كان الصندوق الآخر مليئًا بالرسائل أيضًا، لكن لم تكن فيه أية رسالة من ليلي، وإنما رسائل أرسلها أشخاص مختلفون عُقدت بخيطٍ في عدة حزم، كان أكبرها الرسائل من ديتي. أخرجتُ آخر رسالة من أسفل الحزمة وقرأتها. كان معظمها يدور حول القاموس، لا سيما الكلمات التي تبدأ بحرف C، والتي يبدو أن لا نهاية لها، وكيف أن المندوبين يلحون على الدكتور موراي لأن يزيد من وتيرة العمل؛ لأن تكلفة القاموس ازدادت كثيرًا، لكن الجزء الأخير من الرسالة، كان يتحدّث عني.

قالت لي آدا موراي إن جيمس طلب من أطفاله أن يفرزوا القصاصات. لقد رسَمتُ صورة جيدة عنهم وهم متحلقون حول طاولة الطعام في وقت متأخر من الليل، لا يكادون يُرون من تحت هذا الجبل من الورق. حتى أنها جازفت وقالت إنها ترى أن هذا ما دفعه لأن ينجب هذا العدد الكبير من الأطفال. ما أجمل روح الدعابة الذي تتمتع به. أعتقد أن القاموس كان سيتعثر من دونه.

يجب أن تطلب من إسمي أن تظل مختبئة عندما تذهب معك إلى السكريبي، وإلّا فإنها ستكون المجندة التالية للدكتور موراي. أجرؤ على القول بأنها فتاة ذكية، وأتساءل إن كانت تريد ذلك حقًا.

المخلصة

إديث

أعدتُ الصندوقين إلى الخزانة، ثم عدت إلى غرفتي على أطراف أصابعي، والرسالة لا تزال في يدي.

في اليوم التالي، كانت ليزي تنظر إليَّ وأنا أفتح الصندوق. أخرجتُ رسالة ديتي من جيبي ووضعتها فوق القصاصات التي تغطي أسفل الصندوق.

«إنك تجمعين أسرارًا كثيرة»، قالت ولمست الصليب تحت ثيابها.

قلت لها: «إنها تتحدّث عنّي».

«منبوذة أم مهملة؟» كانت تصرّ على القواعد.

فكّرت في الأمر، وقلت: «منسيّة».

عدت إلى خزانة الثياب مرات عديدة لأقرأ رسائل ديتي. كان هناك دائمًا شيء عني. ردّ على سؤال من دا، كما لو كنت كلمة والرسائل تساعد على تعريف من أنا. قلت لو قرأتها كلها، لفهمت نفسي أكثر.

لكنّي لم أقرأ الرسائل التي في الصندوق المصقول، وإنما كنت أحبّ أن أنظر إليها، وأمرّر يدي عليها، وأشعر بخلجاتهما في الماضي. فهما معًا في هذا الصندوق؛ أمّي وأبي، وعندما يغالبني النعاس، أتخيّل أنني أسمع صوتيهما المكتومين. في إحدى الليالي، تسللت إلى غرفة دا، وزحفت مثل قطة تريد أن تصطاد طريدة في الخزانة. أردت أن أباغتهما، لكن عندما رفعت غطاء صندوقهما المصقول، صمتا. وحدة فظيعة ظللتني عندما عدت إلى سريري وحرمت النوم من عينيّ.

في صباح اليوم التالي، شعرت بتعبٍ شديد، ولم أستطع أن أذهب إلى المدرسة. أخذني أبي إلى سانيسايدً، وأمضيت فترة الصباح تحت طاولة الفرز مع قصاصات فارغة وأقلام رصاص ملونة. كتبتُ اسمي بمختلف الألوان على عشر قصاصات مختلفة.

عندما فتحت الصندوق المصقول في وقت متأخر من تلك الليلة، وضعت كلّ قصاصة بين مغلّف أبيض ومغلّف أزرق. أصبحنا الآن معًا، ثلاثتنا. لن يفوتني شيء بعد الآن.

***

بدأ الصندوق القابع تحت سرير ليزي ينوء بثقل جميع الرسائل والكلمات.

«لا توجد فيه أصداف أو حجارة. لا شيء جميلًا»، قالت ليزي عندما فتحت الصندوق بعد ظهر أحد الأيام، «لماذا تجمعين كلّ هذه الأوراق يا إسمي؟»

«إنني لا أجمع أوراقًا، إني أجمع كلمات».

سألتني «لكن ما أهمية هذه الكلمات؟»

لم أكن أعرف تمامًا. كان إحساسًا أكثر منه فكرة. كانت بعض الكلمات مثل صغار طيور سقطت من عشها، وفي كلمات أخرى، كنت أشعر بأنني سأصادف دليلًا: أعرف أنه مهم، لكنّي لا أعرف ما هو. كان ذلك ينطبق على رسائل ديتي، مثل أجزاء من أحجية صور منفصلة يمكن أن تُجمع ذات يوم لتفسّر شيئًا لم يكن أبي يعرف كيف يقوله؛ شيء كان من الممكن أن تعرفه ليلي.

لم أكن أعرف كيف أقول أيًا من هذا، فسألت ليزي، «لماذا تطرزين بالإبرة يا ليزي؟»

صمتت طويلًا. طوت غسيلها وغيّرت ملاءات سريرها.

لم أعد أنتظر ردّها، وعدت أقرأ الرسالة التي أرسلتها ديتي إلى دا، والتي سألته فيها، هل فكّرت ماذا يمكن أن تفعله عندما تكبر إسمي ولا تعود مدرسة سانت برنابا مناسبة لها؟ تصوّرت رأسي يخرج من مدخنة غرفة الصفّ، وتمتد ذراعيَّ خارج النوافذ من كلا الجانبين.

«أظن لأنني أحبّ أن أُبقي يديّ مشغولتين»، قالت ليزي لوهلة كأنها نسيت ماذا سألتها، وأضافت، «وهذا يثبت أنني موجودة».

«لكن هذا شيء سخيف. طبعًا، أنت موجودة».

توقفت عن ترتيب السرير، ونظرت إليّ بجدّية كبيرة، فوضعت رسالة ديتي جانبًا.

«أنا أنظّف، وأطبخ، وأوقد نار الموقد. كلّ ما أفعله يؤكل أو يتسّخ أو يحترق، وفي آخر اليوم، لا يوجد أي دليل على أنني كنت موجودة هنا». صمتت قليلًا، وجثت على ركبتيها إلى جانبي، ووضعت قطعة القماش المطرزة على حافة تنورتي، وأخفت الرتق الذي مزقته بسياج نبات العُلَّيْق.

قالت: «أما التطريز فإنه سيبقى في مكانه دائمًا»، وأضافت، «إني أراه وأتحسّسه ... حسنًا، لا أعرف الكلمة. مثل سأكون هنا دائمًا».

فقلت: «دائمًا، وخلال ما تبقى من الزمن؟»

«أشعر كأنني نبتة هندباء قبل أن تهبّ الريح».

آب (أغسطس) 1893

في فترة الصيف، يخيّم الهدوء على المَنْسَخ فترة من الوقت. «توجد أشياء في الحياة أكثر مما توجد في الكلمات»، قال أبي ذات يوم، عندما سألته إلى أين يذهب الجميع، لكنّي لا أظن أنه يقصد ذلك تمامًا. كنا نسافر أحيانًا إلى إسكتلندا لنزور عمتي، لكننا كنا نعود دائمًا إلى سانيسايد قبل أن يعود المساعدون الآخرون. كنت أحبّ أن أنتظر تحت طاولة الفرز لتعود جميع الأحذية. عندما يأتي الدكتور موراي، كان يسأل أبي دائمًا إن كان قد نسي أن يعيدني إلى البيت، وكان أبي يتظاهر دائمًا بأنه فعل ذلك. ثم ينظر الدكتور موراي تحت طاولة الفرز ويغمز لي.

في نهاية صيف تلك السنة، بلغت الحادية عشرة من عمري، ولم تظهر قدما السيّد ميتشل، ودخل الدكتور موراي إلى المَنْسَخ ولم يقل أشياء كثيرة. انتظرت لأرى قدمًا يكسوها جورب أخضر والقدم الأخرى جوربًا أزرق فاتح اللون، لكن كانت هناك فجوة في المكان الذي يجلس فيه السيّد ميتشل عادة. بدت الأقدام الأخرى مسترخية، ومع أن حذاء السيّد سويتمان، كان ينقر إلى الأعلى والأسفل، فقد كانت نقراته خالية من أي لحن.

«متى سيعود السيّد ميتشل؟» سألت أبي الذي استغرق فترة طويلة ليجيبني.

«لقد وقع يا إسمي وهو يتسلّق الجبل. لن يعود بعد الآن».

تذكّرت فردتيْ جوربه بلونين مختلفين، وأقلام التلوين التي قدّمها لي والتي أستخدمها حتى لم يبق منها شيء يمكنني أن أمسكها به. كان ذلك منذ عدة سنوات. أما الآن، فلم أعد أشعر بالراحة تحت طاولة الفرز.

عندما انتهت السنة، بدت لي طاولة الفرز كما لو أن حجمها قد تقلص، وعندما زحفت تحتها بعد ظهر أحد الأيام، ارتطم رأسي بها عندما حاولت أن أخرج من

تحتها.

«انظري إلى ثوبك»، قالت ليزي عندما جاءت لتأخذني لنتناول شاي بعد الظهر. كان مليئًا بالبقع والغبار. نفضت عنه ما استطاعت، وأضافت، «لا يليق بسيدة مثلك أن تزحف في السكريبي بعد الآن يا إسمي. لا أعرف لماذا يسمح لك والدك بأن تفعلي ذلك».

فقلت: «لأنني لست سيّدة».

فقالت: «ولستِ قطة أيضًا».

عندما عدت إلى المَنْسَخ، سرت حوله، ومرّرت أصابعي المحترقة فوق الرفوف والكتب، وجمعت كتلًا صغيرة من الغبار. قلت في نفسي، لا أمانع في أن أكون قطة.

غمزني السيد سويتمان عندما مررت إلى جانبه.

قال السيد مالينغ، «Kiel vi fartas، يا إسمي؟»

فقلت: «أنا على ما يرام، شكرًا يا سيّد مالينغ».

نظر إليَّ وقوّس حاجبيه، وقال: «وفي لغة الاسبرانتو تقولين؟»

فكّرت، وقلت: «Mi fartas bone, dankon»

ابتسم وهزّ رأسه وقال: «Bona».

أخذ السيّد كراين نَفَسًا عميقًا ليُعلم الجميع بأنني أُزعجه.

فكّرت في أن أنسلّ تحت طاولة الفرز، لكنّي لم أفعل ذلك. كان قرار شخص بالغ، وشعرت أن وجهي أصبح عابسًا كما لو أن أحدًا آخر فعل ذلك. بدلًا من ذلك، وجدت فجوة بين رفين اثنين وحشرت نفسي بينهما. أزعجت خيوط العنكبوت والغبار وقصاصتين مفقودتين.

كانتا مختبئتين تحت الرف على جانبي الأيمن، التقطت إحداهما ثم الأخرى. كلمات تبدأ بحرف C، وهذا يعني أنهما سقطتا منذ فترة قصيرة. خبأتهما ثم

نظرت إلى طاولة الفرز. كان السيّد كراين أقرب شخص يجلس إلى جانبها، ورأيت كلمة أخرى إلى جانب كرسيه. تساءلت إن كان يكترث بذلك.

***

«إن يدها خفيفة»، سمعت السيّد كراين يقول للدكتور موراي. عندما التفت الدكتور موراي باتجاهي، سرَت قشعريرة في جسدي، خيّل إليَّ أنني سأتحوّل إلى قطعة حجر. ثم عاد إلى مكتبه المرتفع، وأخذ صفحة مسودة طباعة. ثم سار باتجاه دا.

حاول الدكتور موراي أن يبدو الأمر كما لو أنهما يتناقشان حول الكلمات، لكن لم ينظر أي منهما إلى صفحة مسودة الطباعة. عندما عاد الدكتور موراي إلى مكتبه، نظر أبي من فوق طاولة الفرز إلى الفجوة بين الرفين. وقعت عيناه على عينيَّ وأشار إلى باب المَنْسَخ.

عندما وقفنا تحت شجرة الدردار، مدّ أبي يده. نظرتُ إليها. نطق اسمي بصوتٍ أعلى مما يفعل عادة، ثم طلب مني أن أُخرج ما في جيوبي.

لم تكن للكلمة أهمية، لكنّي أحببت الاقتباس.

عندما وضعتها في يده، نظر أبي إليها كما لو أنه لم يكن يعرف ما هي. كما لو أنه لم يكن يعرف ما الذي ينبغي له أن يفعل بها: رأيت شفتيه تتحركان حول الكلمة والجملة التي تحتوي عليها.

COUNT

count you for a fool”- Tennyson, 1859“

(حَسَبَ

«أحسبُ أنك أحمق» – تينيسون، 1859)

لبث صامتًا لفترة طويلة. وقفنا هناك في البرد كما لو كنا نلعب لعبة التماثيل، لم يشأ أحدنا أن يكون أول من يتحرك. ثم وضع القصاصة في جيب بنطاله، وأخذني إلى المطبخ.

«ليزي، هل تمانعين إذا أمضت إسمي فترة بعد الظهر في غرفتك؟» سألها دا، وأغلق الباب وراءه، ليحافظ على حرارة الموقد.

وضعت ليزي حبات البطاطا التي تقشّرها، وجففت يديها على مئزرها، وقالت: «طبعًا لا يا سيّد نيكول، إسمي مرّحب بها على الدوام».

«ليست هنا لتتسلّى يا ليزي، وإنما لتجلس وتفكّر في ما فعلته. أفضّل أن تتركيها وحدها».

«كما تشاء يا سيّد نيكول»، قالت ليزي مع أنه بدا أن أحدهما لم يتمكن من أن ينظر في عين الآخر.

عندما جلست وحدي في الطابق الأعلى أمام سرير ليزي، مددت يدي إلى كمّ ثوبي وأخرجتُ الكلمة الأخرى، «counted». إن خطّ الشخص الذي كتبها جميل. لا بد أن الذي كتبها سيّدة، لا لأن الاقتباس مأخوذ من بايرون فحسب، وإنما لأن جميع الكلمات مكتوبة بمنحنيات وخطوط طويلة.

مددت يدي تحت سرير ليزي وسحبتُ الصندوق. كنت أتوقع دائمًا أن يصبح أثقل وزنًا، لكنه انزلق فوق ألواح الأرضية بسهولة. كانت القصاصات في داخله تغطي قعره؛ مثل سجادة من أوراق الأشجار في الخريف، وكانت رسائل ديتي قابعة بينها.

ليس من العدل أن أتعرّض لمشكلة بينما السيّد كراين رجل مهمل، غير مبالٍ. كانت الكلمات نسخًا مكررة، كنت متيقنة من ذلك؛ كلمات شائعة يرسلها كثير من المتطوعين. وضعتُ كلتا يديَّ في الصندوق، وتحسستُ القصاصات التي بدأت تنسلّ بين أصابعي. لقد أنقذتها كلها، كما يرى أبي أنه ينقذ القصاصات الأخرى عندما يضعها في القاموس، أما كلماتي، فهي تأتي من الزوايا والشقوق ومن السلة التي يلقون فيها القصاصات المرفوضة وسط طاولة الفرز.

قلت لنفسي إن صندوقي يشبه القاموس، ما عدا أنه مليء بكلمات فُقدت أو أُهملت. خطرت لي فكرة. أردت أن أطلب من ليزي قلم رصاص، لكنّي أعرف أنها لن تعصي أوامر دا. بحثتُ في غرفتها أتساءل أين تضعها؟.

في غياب ليزي، بدت لي غرفتها غير مألوفة، كأنها لم تكن غرفتها. نهضت من على الأرض ومشيت إلى خزانة الثياب. شعرت بالارتياح عندما رأيت معطفها الشتوي القديم بزره العلوي الذي لا يتطابق مع الأزرار الأخرى. يوجد لديها ثلاثة مآزر وثوبان اثنان، أفضل ثوب ترتديه يوم الأحد الذي كان أخضر مائلًا إلى الأصفر ذات يوم، وحال لونه الآن وأصبح بلون عشب الصيف. عندما مرّرت يدي عليه، وجدت بقايا من نبات النفل. عندما فتحت أدراج خزانتها، كان كل ما استطعت أن أراه ثيابها الداخلية، ومفرش سرير إضافيًا، وشالين اثنين وصندوقًا خشبيًا صغيرًا. كنت أعرف ماذا يوجد في الصندوق. فقد قررت السيدة بالارد منذ بضعة أيام أنه حان الأوان لأعرف شيئًا عن الدورة الشهرية، فأرتني ليزي الخرق والحزام الذي تحتفظ به هنا. أملت ألَّا أراها مرة أخرى، فتركت الصندوق مغلقًا وأغلقت باب الخزانة.

لا يوجد صندوق ألعاب، ولا توجد رفوف عليها كتب. على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريرها رأيت قطعة قماش مطرزة وصورة أمّها في إطارٍ خشبيٍ بسيط. نظرت إليها: امرأة شابة، بسيطة، عادية، تضع على رأسها قبّعة، وترتدي ملابس عادية، تحمل بيدها باقة أزهار بسيطة. ليزي تشبهها إلى درجة كبيرة. وراء الإطار رأيت دبوس القبّعة الذي كنت قد وجدته في الصندوق.

جثوت على ركبتيَّ ونظرت تحت السرير؛ في أحد طرفيه، يوجد حذاء ليزي الشتوي، وفي الطرف الآخر، مبولة وصندوق الخياطة، وكان صندوقي يقبع في الوسط، في مكان لا يوجد فيه غبار. لم يكن هناك شيء آخر. بالطبع، لم تكن هناك أقلام رصاص.

نظرت إلى الصندوق الذي كان لا يزال مفتوحًا على أرضية الغرفة، آخر كلمة تقبع فوق جميع الكلمات الأخرى، وجهها إلى الأعلى. ثم نظرت إلى دبوس قبعة ليزي القابع على المنضدة إلى جانب سريرها وتذكّرت أنه حاد.

***

قاموس الكلمات المفقودة. أمضيت فترة الظهيرة كلها وأنا أحفر هذه العبارة داخل غطاء الصندوق حتى آلمتني يدي. عندما انتهيت، انحنى دبوس قبّعة ليزي وتغيّر شكله، لكن الخرزات فيه ظلت تلمع كما كانت في اليوم الذي وجدته فيه.

ثمة شيء ملأني، شعور غريب وبغيض بالغثيان. حاولت أن أسوّي الدبوس وأعيده كما كان، لكنه لم يعد كما كان. أصبح طرفه مثلّمًا، ولم أعد أظن أن بإمكانه أن يخترق قماش لبّاد حتى أرخص قبّعة. بحثتُ في الغرفة لكنّي لم أجد

شيئًا يمكن أن يصلحه. وضعت الدبوس على الأرض إلى جانب المنضدة إلى جانب سرير ليزي، آملة أن تظن أنه انحنى في الخريف الماضي.

***

في الأشهر القليلة التالية، لم أذهب إلى المَنْسَخ إلَّا لمامًا. كانت ليزي تأتي وتأخذني من مدرسة سانت برنابا، أتناول طعام الغداء، ثم تعيدني إليها. وكنت أمضي فترة المساء في قراءة كتبي وتعلّم الكتابة. كنت أتنقل بين ظلّ شجرة الدردار وطاولة المطبخ وغرفة ليزي، وذلك حسب الطقس. عندما احتفلوا بصدور المجلد الثاني؛ مجلد حرف C، الذي يضم أيضًا كلمتي count وcounted، تظاهرت بأنني مريضة.

في عيد ميلادي الثاني عشر، جاء أبي وأخذني من مدرسة سانت برنابا. عندما اقتربنا من بوابة سانيسايد، لم يترك يدي وسرنا معًا نحو المَنْسَخ.

لم يكن في المَنْسَخ أحد سوى الدكتور موراي الذي نظر من فوق طاولة مكتبه عندما دخلنا، ثم جاء ليرّحب بي.

قال: «عيد ميلاد سعيد أيتها الشابة»، ثم نظر إليَّ من فوق نظارته من دون أن يبتسم، وأضاف، «أظن أنك بلغتِ الثانية عشرة».

هززت رأسي، ولم يبعد عينيه عني.

بدأت ألهث قليلًا. لقد كبرتُ ولم يعد بإمكاني أن أختبئ تحت طاولة الفرز، لأتحاشى ما كان يفكّر فيه. نظرت في عينيه.

«قال لي والدك إنك تلميذة نجيبة».

عندما لم أقل شيئًا، التفت وأشار إلى مجلدّيْ القاموس القابعين وراء مكتبه، وقال «لا تترددي في أن تستخدمي كلا المجلدين عندما تحتاجين إلى ذلك، وإذا لم تفعلي، تكون جهودنا قد ذهبت سدى»، وأضاف: «إذا احتجت إلى أن تعرفي معنى كلمة تتجاوز حرف C، فإن الملازم تحت تصرفك عندما تصدر. أما ما بعد ذلك»، - رمقني مرة أخرى- ، «يجب أن تطلبي من أبيك أن يبحث لك عنها في فتحات العلب. هل عندك أي سؤال؟»

فسألته «ما معنى كلمة avail؟»

ـ

ابتسم الدكتور موراي ونظر قليلًا إلى دا.

«لحسن الحظ إنها كلمة تبدأ بحرف A. هل تريدين أن نبحث عنها؟» توجّه إلى الرفِّ خلف طاولة مكتبه وأنزل مجلد الحرفين A وB.

***

عندما وصلت بطاقة عيد ميلادي الثاني عشر من ديتي، كانت فيها قصاصة من الورق. كلمة قالت ديتي إنها superfluous.

«ماذا تعني superfluous؟» سألت أبي وهو يرتدي قبعته.

قال: «تعني شيئًا غير ضروري، لا لزوم له، فائض عن الحاجة».

نظرتُ إلى القصاصة. رأيت كلمة تبدأ بحرف B: Brown (بنّي). كلمة ليست مفقودة أو مهملة أو منسية، مجرد كلمة فائضة عن الحاجة. لابد أن أبي قال لديتي إنني أخذت كلمة. وضعت كلمتها في جيبي.

فكّرت في الأمر طوال اليوم في المدرسة. تركت أصابعي تداعب حواف القصاصة، وتخيّلت أنها كلمة أكثر أهمية. خطر لي أن أرميها، لكنّي لم أستطع. زائدة عن الحاجة، كما قالت ديتي. ربما أضيفها إلى قائمة القواعد التي تصرّ ليزي عليها.

عندما وصلت إلى سانيساید بعد الظهر، توجهت مباشرة إلى غرفة ليزي. لم تكن موجودة في الغرفة، لكن لم يكن لديها مانع في أن أنتظرها. سحبت الصندوق من تحت سريرها وفتحته.

في اللحظة التي أخرجت فيها القصاصة من جيبي، دخلت ليزي.

«لقد أرسلتها ديتي»، قلت لها بسرعة قبل أن يتجهم وجهها، «أرسلتها بمناسبة عيد ميلادي».

بدأ تجهم ليزي يتلاشى، لكن شيئًا لفت انتباهها بعد ذلك. تجمّدت قسمات وجهها. تابعتُ نظراتها ورأيت الحروف المحفورة على غطاء الصندوق من الداخل. تذكّرت غضبي الأعمى والأناني. عندما التفتُّ إلى ليزي، رأيت دمعة تسيل على خدّها.

شعرت كأن منطاد غاز بدأ ينتفخ ويتوسع داخل صدري، يسحق كلّ الأعضاء التي أحتاج إليها لأتنفّس وأتكلم. أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة، قلت في نفسي، لكن لم يخرج شيء من فمي. توجهت إلى المنضدة الصغيرة التي إلى جانب سريرها، ورفعت الدبوس:

«لماذا؟» سألتني.

لم أجد كلمات أقولها لها. فلن يكون لأي كلمة أقولها أي معنى.

«ماذا تقول؟» تأرجح صوتها بين الغضب وخيبة الأمل. كنت أتمنى أن تغضب. كلمات قاسية ردًا على تصرف سيئ. عاصفة ثم هدوء.

«*قاموس الكلمات المفقودة*» تمتمت ولم أرفع عينيَّ من عقدة على لوح في أرضية الغرفة.

«*بالأحرى، قاموس الكلمات المسروقة*».

رفعتُ رأسي. كانت ليزي تنظر إلى الدبوس كما لو أنها ترى شيئًا لم تره من قبل. ارتعشت شفتها السفلى، مثل طفلة. عندما التقت أعيننا، تداعى وجهها. كانت نفس النظرة التي ظهرت على وجه أبي عندما ضبطني متلبسة، كما لو أنها عرفت شيئًا جديدًا عني لم يعجبها. لم يكن غضبًا، إذن، وإنما خيبة أمل.

«إنها مجرد كلمات يا إسمي»، قالت ليزي ومدّت يدها تساعدني على الوقوف، وأجلستني إلى جانبها على السرير. جلست متسمّرة.

قالت: «إن كلّ ما أملكه عن أمّي هو هذه الصورة. إنها لا تبتسم، وأظن أن الحياة كانت ثقيلة عليها دائمًا، حتى قبل أن تنجبنا جميعًا، ثم وجدتِ هذا الدبوس». أدارته بين أصابعها وبدت الخرزات باهتة، وأضافت: «مع أنني لا أعرف عنها أشياء كثيرة، لكن هذا الدبوس كان يساعدني على أن أتخيّل أنها سعيدة عندما أعرف أن شيئًا جميلًا جاء إليها».

تذكّرت صور ليلي المنبثة في أرجاء بيتنا، والثياب التي لا تزال معلّقة في خزانة ثياب دا، والمغلّفات الزرقاء. تذكّرت القصة التي تحكيها لي ديتي في كلّ عيد ميلاد. كانت أمّي مثل كلمة بألف قصاصة، أما أمّ ليزي فهي مثل كلمة

بقصاصتين اثنتين فقط. لقد تعاملت مع إحداها كما لو أنها زائدة عن الحاجة، لا لزوم لها.

كان الصندوق لا يزال مفتوحًا، ونظرت إلى الكلمات المحفورة على غطائه من الداخل، ثم نظرت إلى الدبوس الذي بدا ناعمًا في يد ليزي الخشنة، على الرغم من انحنائه. كل واحدة منا بحاجة إلى دليل يثبت من نحن.

«سأصلحه»، قلت ومددت يدي، معتقدة أن بإمكاني أن أعيده إلى ما كان عليه بحسن نيتي. أعطتني إياه وراحت تنظر إليَّ وأنا أحاول تسويته.

عندما استسلمتُ أخيرًا، قالت: «هذا يكفي، قد يكون حجر الشحذ مفيدًا».

انفجر المنضاد في صدري، وتدفق سيل من المشاعر؛ دموع وشهيق واعتذار متقطع: «أنا آسفة، أنا آسفة جدًا».

«أعرف أنك آسفة يا ملفوفتي الصغيرة»، قالت ليزي وضمتني إليها حتى توقفتُ عن البكاء، ومشطّت شعري وهدهدتني، كما كانت تفعل عندما كنت صغيرة، مع أن جسدي أصبح أكبر من جسدها. عندما انتهت، أعادت الدبوس إلى مكانه أمام صورة أمّها. جثوت على أرضية الغرفة الصلبة لأغلق الصندوق. مررت أصابعي فوق الحروف. كانت خشنة وغير متقنة، لكنها دائمة. *قاموس الكلمات المفقودة*.

***

غادر السيد كراين في وقت مبكر. عندما رآني جالسة تحت شجرة الدردار، لم يقل لي شيئًا ولم يبتسم. رحت أراقبه وهو يسير نحو دراجته. ألقى حقيبته على ظهره، ومدّ إحدى ساقيه فوق مقعد الدراجة. لم يلاحظ أن حزمة من القصاصات قد سقطت خلفه. لم أناده.

كانت هناك عشر لصاقات مثبّتة معًا. وضعتها بين صفحات الكتاب الذي أقرأه، وعدت إلى تحت شجرة الدردار.

كانت كلمة Distrustful (*مرتاب، ظنّان*) مكتوبة في أعلى القصاصة بخط السيّد كراين السيئ التي عرّفها: شخص لا يثق *بنفسه أو بالآخرين؛ تعوزه الثقة، خجول؛ مرتاب، مفعم بالشك، ينحو إلى الشك*. لم أفهم معنى كلمة «مرتاب».

رحت أقلّب القصاصات الأخرى أبحث عن معنى لها، وكان إحساسي بعدم الارتياح يزداد كلما قرأت اقتباسًا آخر. «*الأوغاد المرتابون يقاتلون حتى آخر نفس*»، كتب شكسبير.

لكنّي أنقذتها من ريح المساء وندى الصباح. لقد أنقذتها من إهمال السيد كراين، فهو الشخص الذي لا يمكن الوثوق به.

فصلت إحدى القصاصات عن القصاصات الأخرى. اقتباس لكن لم يذكر فيه اسم مؤلف أو عنوان كتاب أو تاريخ. سيُلقى بها جانبًا. طويتها ووضعتها في حذائي.

وضعت بقية القصاصات بين صفحات كتابي، وعندما دقت أجراس أكسفورد معلنة الساعة الخامسة، ذهبت لأرى أبي في المَنْسَخ.

كان جالسًا وحده إلى طاولة الفرز أمامه صفحة مسودة طباعة، وقد تناثرت القصاصات والكتب على الطاولة. كان منحنيًا فوق مسودة الطباعة، ولم يشعر بوجودي.

قلّبت صفحات الكتاب في جيبي، وأخرجت قصاصات كلمة Distrustful. عندما وصلت إلى طاولة الفرز، وضعتها في المكان الفوضوي الذي يعمل فيها السيد كراين.

«ماذا تَفَعْل هنا؟» وقف السيد كراين عند مدخل المَنْسَخ. كان يصعب تبيّن قسمات وجهه في ضوء بعد الظهر، لكن جسده المنحني قليلًا وصوته الناعم كانا واضحين، لا لبس فيهما.

رفع أبي رأسه، مجفلًا، ثم رأى القصاصات تحت يدي.

تقدّم السيد كراين ومدّ يده كأنه يريد أن يصفع يدي ويبعدها، لكن بدا أنه أحجم عن ذلك عندما رأى أنها مشوهة، ثم التفت إلى دا، وقال: «لا يمكن أن يحدث ذلك».

«لقد وجدتها»، قلت للسيّد كراين لكنه لم ينظر إليَّ، «وجدتها بالقرب من السياج حيث تضع دراجتك. لقد سقطت من حقيبتك»، ونظرت إلى دا، «إني أعيدها له».

«مع كل الاحترام يا هاري، يجب ألّا تكون هنا».

«كنت أعيدها»، قلت، لكن بدا أن أحدًا لم يسمعني أو يراني. لم يردّ أيّ منهما، ولم ينظرا إليَّ.

أخذ أبي نَفَسًا عميقًا ثم أطلقه مع هزة خفيفة برأسه.

«دع الأمر لي»، قال للسيّد كراين.

«طبعًا»، قال السيّد كراين، ثم أخذ كومة القصاصات التي سقطت من حقيبته.

عندما خرج، أبعد أبي نظارته وفرك قصبة أنفه.

«دا؟»

أعاد نظارته إلى مكانها المعتاد ونظر إليَّ، ثم أبعد كرسيه عن طاولة الفرز، وربّت على ركبته لأجلس عليها.

«أصبحتِ كبيرة جدًا لتجلسي على ركبتي»، قال وهو يحاول أن يبتسم.

«لقد سقطت منه. لقد رأيته».

«أصدّقك يا إسمي».

«إذن لماذا لم تقل شيئًا؟»

أطلق تنهيدة، وقال: «الأمر معقّد جدًا لا يمكن شرحه».

«هل توجد كلمة عن ذلك؟» سألته.

«كلمة؟»

«لماذا لم تقل شيئًا. يمكنني أن أبحث عنها».

ثم ابتسم وقال: «تتبادر إلى ذهني كلمة *دبلوماسية*. *حل وسط*، «mollify» (*هدَّأ*، راضى)

«أحببت هذه *الكلمة*».

بحثنا عن معناها معًا في فتحات العلب.

MOLLIFY

«*هدَّأ من روع أشدّ مضطهديه غضبًا*».

ديفيد هيوم، تاريخ بريطانيا العظمى، 1754

فكّرت قليلًا، وقلت: «إذن كنت تحاول أن تهدّئ من حدّة غضبه».

«نعم».

أيلول (سبتمبر) 1896

خُيّل إليَّ أنني بلت في فراشي، لكن عندما رفعت غطاء السرير، وجدت قميص نومي والملاءات مبقعة بلون أحمر. صرخت. كانت يداي لزجتين ببقع الدم: وأصبح الألم الذي ألمَّ بي بغتةً في ظهري وبطني مرعبًا.

هُرع أبي إلى غرفتي مذعورًا، ثم وقف إلى جانب سريري، وقد بدا القلق على وجهه. عندما رأى قميص نومي مبقعًا بالدم، شعر بالارتياح، ثم بدا مُحرجًا.

هبطت مرتبة السرير من ثقله عندما جلس على طرفها. سحب الغطاء فوقي، ومسّد خدي براحة يده. عندها عرف ما الذي جرى لي، وفجأة أدركت ما جرى لي، فسحبت الغطاء إلى الأعلى، وأشحت بوجهي عنه.

قلت: «أنا آسفة».

«لا تكوني سخيفة».

جلسنا طوال دقيقة مربكة، وعرفت كم أنه كان يتمنّى لو كانت ليلي موجودة الآن.

«هل ليزي ...؟» بدأ دا.

هززت رأسي.

«هل حصلتِ على ما تحتاجين إليه؟»

هززت رأسي مرة أخرى.

«هل أستطيع...؟»

هززت رأسي.

قبّل أبي خدّي واستوى واقفًا. «خبز فرنسي محمّص هذا الصباح»، قال وهو يغلق الباب كما لو كنت طفلة صغيرة مريضة أو نائمة، مع أنني بلغت الرابعة عشرة من عمري.

انتظرت حتى سمعت وقع خطواته وهو يهبط الدرج، ثم رفعتُ غطاء السرير وجلستُ على طرف السرير. شعرت بكمية أكبر من الدم تسيل مني. كانت ليزي قد وضعت في درج المنضدة إلى جانب سريري علبة فيها الأشياء الضرورية للدورة الشهرية، فيها أحزمة ومناديل مبطنّة خاطتها من قطع قماش. رفعتُ قميص نومي ووضعته بين ساقيَّ.

أصدر أبي صوتًا في المطبخ ليعلمني أن الطريق أصبح سالكًا. وضعت العلبة تحت ذراعي، وهرعت إلى

الحمّام أضغط قطعة القماش كي لا يسيل مني شيء.

***

قال لي أبي إنني لن أذهب إلى المدرسة، وسأمضي اليوم مع ليزي. عندما قال ذلك، شعرت بارتياح شديد.

غادرنا المنزل وبدأنا سيرنا المألوف إلى سانيسايد. وكما لو أن شيئًا لم يتغير، حدّثني أبي عن كلمة كان يعمل عليها، وطلب مني أن أحزر ماذا تعني. لم أكد أعرف كيف أفكّر، ولأول مرة لم أكترث بها. امتدّت الشوارع طويلة أمامي، وكان كلّ شخص يمرّ إلى جانبنا ينظر إليّ كما لو أنه يعرف ما الذي جري لي. رحت أمشي كما لو أن كلّ ما أرتديه من ثياب لم يكن كافيًا.

أحسست برطوبة بين فخذيّ، ثم أثر قطرة واحدة، مثل دمعة تسيل على خد. عندما وصلنا إلى شارع بانبري، بدأ الدم يسيل على ساقيَّ. أحسست أنه يتسرب إلى داخل كلساتي. توقفت عن المشي، وضغطت ساقيَّ معًا، ووضعت يدي في المكان الذي يسيل منه الدم.

«دا؟» دمدمتُ.

كان يتقدمني ببضع خطوات. التفتَ ونظر إليَّ. نظر إلى جسدي من الأعلى إلى الأسفل، ثم نظر حوله كما لو كان شخصًا يستطيع أن يساعدني بشكل أفضل. ثم أمسك بيدي، وبدأنا نغذّ السير إلى سانيسايد.

«آه، يا صغيرتي»، قالت السيّدة بالارد وهي تقودني إلى المطبخ. هزّت رأسها نحو دا، وطلبت منه أن يذهب إلى عمله. قبّلني على جبيني، ثم عبر الحديقة متجهًا إلى المَنْسَخ. عندما دخلت ليزي، ألقت عليَّ نظرة مفعمة بالشفقة، ثم ذهبت إلى الموقد ووضعت عليه ماء لتسخّنه.

في الطابق العلوي، نزعت ليزي ثيابي وغسلت جسدي بإسفنجة. طفا لون وردي فوق سطح الماء الدافئ في الحوض، وتملكني شعور بالمهانة. أرتني مرة أخرى كيف ألفّ الحزام حول خصري وأضع قطعة القماش في داخله.

«لم تجعليها سميكة بما يكفي، أو لم تشدّيها بإحكام». أعطتني ثوب نوم من عندها وقادتني إلى السرير.

سألتها، «هل ستؤلمني كثيرًا؟»

فقالت ليزي: «أظن ذلك، لكني لا أعرف لماذا».

أفلتت من فمي تنهيدة، ونظرت ليزي إليَّ بتعبير لطيف كما لو أن صبرها قد نفد، وقالت «يجب أن يخفّ الألم مع مرور الوقت. في معظم الأحيان، تكون المرة الأولى الأسوأ».

«يجب؟»

فقالت: «بعض الفتيات لسن محظوظات كثيرًا، لكن هناك أنواع من الشاي التي تساعد على التخفيف من حدّتها. سأسأل السيدة بالارد إن كان لديها عشبة ألفية».

«إلى متى سيستمر ذلك؟» سألتها.

بدأت ليزي تضع ثيابي في الحوض. تخُيَّلت أن الماء سيصطبغ باللون الأحمر وسيصبح ذلك لون ثوبي الرسمي من الآن وصاعدًا.

فقالت: «أسبوع، ربما أقل، وربما أكثر».

«أسبوع؟ هل يجب أن أمكث في السرير أسبوعًا كاملًا؟»

«لا، لا. يوم واحد فقط. تكون كثيفة في أول يوم، لذلك، قد يكون الألم شديدًا، ثم يخفّ حتى يتوقف أخيرًا، لكنك ستحتاجين إلى أن تضعي قطع القماش طوال أسبوع تقريبًا».

كانت ليزي قد أخبرتني بأنني سأنزف كلّ شهر، وها هي تقول لي الآن إنني سأنزف لمدة أسبوع كلّ شهر، ويجب أن أمكث في السرير يومًا واحدًا كلّ شهر.

قلت لها: «لم أعرف قط أنك مكثتِ في الفراش يومًا كاملًا يا ليزي».

فضحكت وقالت: «يجب أن أكون ميتة حتى أمضي يومًا كاملًا في السرير».

«لكن كيف يمكنك أن تجعلي الدم لا يسيل على ساقيك؟»

«هناك عدة سبل يا إسمي، لكن ليس من المناسب أن نقولها لفتاة صغيرة».

فقلت: «لكن أريد أن أعرف».

نظرت إليَّ، لا تزال يداها في حوض الماء. لم تقرف لأن دمي لامس بشرتها.

«لو كنتِ تعملين في الخدمة، ربما كان عليك أن تعرفي كلّ ذلك، لكنك لست كذلك. إنك سيّدة صغيرة، ولن يمانع أحد في أن تمضي يومًا كاملًا في السرير كلّ شهر». ثم حملت الحوض وهبطت الدرج.

أغمضتُ عينيَّ ولبثت ساكنة متصلبة مثل لوح خشبي. مرّ الوقت بطيئًا، لكن لا بدّ أنني نمت في نهاية الأمر، لأنني حلمت.

وصلنا أنا وأبي إلى المَنْسَخ، كلساتي غارقة في الدم. كان جميع المساعدين والمعجميين الذين أعرفهم متحلقين حول طاولة الفرز. حتى السيّد ميتشل الذي يرتدي فردتيْ جورب بلونين مختلفين. لم يرفع أحد بصره إلى الأعلى. التفتُ إلى دا، لكنه ذهب بعيدًا. عندما نظرت إلى طاولة الفرز، رأيته جالسًا في مكانه المعتاد، رأسه محني فوق الكلمات، مثل رؤوس الجميع. عندما حاولت أن أسير نحوه، لم أستطع. عندما حاولت أن أغادر، لم أستطع. عندما صحتُ، لم يسمعني أحد.

«حان الوقت لتعودي إلى المنزل يا إسمي. لقد نمتِ طوال اليوم». وقفت ليزي عند طرف السرير، ثيابي تتدلّى من ذراعها، «إنها دافئة. لقد علقتها أمام الموقد. هيا، سأساعدك على ارتداء ثيابك».

مرة أخرى، ساعدتني على وضع الحزام والفوطة. أدخلت ثوب النوم من فوق رأسي، وألبستني طبقات من الملابس الدافئة.

ثم جثت على الأرض، وألبستني كلسات نظيفة، ثم ألبستني حذائي، وعقدت رباط الحذاء.

***

في الأسبوع التالي، أصبحت عندي ثياب يجب غسلها أكثر مما كان عندي في الأشهر الثلاثة الماضية، وأصبح على أبي أن يدفع للخادمة المؤقتة مبلغًا إضافيًا لتقوم بذلك. وأعطيت إجازة من المدرسة، وأصبحت أذهب كلّ يوم إلى غرفة ليزي. لم أمكث في السرير، لكنني لم أجرؤ على أن أبتعد مسافة أبعد من المطبخ. كان المَنْسَخ خارج الحدود التي يمكن تجاوزها. لم يقل لي أحد ذلك، لكنّي كنت أخشى أن يخذلني جسدي مرة أخرى.

«لماذا؟» سألتُ ليزي في اليوم الخامس. كانت السيّدة بالارد قد طلبت مني أن أحرّك صلصة بنيّة اللون لتذهب وتتحدّث مع السيدة موراي حول وجبات طعام الأسبوع القادم. كانت ليزي جالسة إلى طاولة المطبخ، ترتق كومة من ثياب أفراد أسرة موراي. كان النزيف قد توقف تقريبًا.

«لماذا ماذا؟» قالت.

«النزيف، لماذا يحدث؟»

نظرت إليَّ، غير متأكدة، وقالت: «إن ذلك يتعلق بالأطفال».

«كيف؟»

هزّت كتفيها، لكنها لم تنظر إليَّ، وقالت: «لا أعرف تمامًا يا إسمي. هكذا تسير الأمور».

كيف لا تعرف؟ كيف يمكن لشيء فظيع جدًا أن يحدث لشخص كلّ شهر، ولا يعرف لماذا يحدث؟!

«هل تنزف السيّدة بالارد؟»

«لم تعد تنزف».

سألتها، «متى يتوقف؟»

«عندما تتقدمين في العمر، ولا يعود بإمكانك أن تنجبي أطفالًا».

«هل لدى السيّدة بالارد أطفال؟» لم أسمعها تتحدّث عن أطفال قط، لكن ربما كبروا الآن.

«السيّدة بالارد ليست متزوجة يا إسمي. لا يوجد عندها أطفال».

فقلت: «طبعًا إنها متزوجة».

نظرت ليزي من نافذة المطبخ لتتأكد من أن السيّدة بالارد ليست في مكان قريب يمكنها أن تسمعنا، ثم اقتربت مني، وقالت: «إنها تطلق على نفسها

اسم سيّدة، لأن ذلك يمنحها مزيدًا من الاحترام. كثير من العوانس المتقدمات في السن يفعلن ذلك، خصوصًا إذا كنّ في وضع يمكنهن من إصدار أوامر وتعليمات لآخرين».

ارتبكت ولم أعد أسأل.

***

«لقد جاءتك في وقت أبكر مما هو متوقع»، قال أبي بنبرة تشي بالاعتذار، «إنها تُدعى catamenia (*طمث*)، وتدعى عملية النزف menstruation (حيض).

مدّ يده إلى طبق السكّر، ورش منه كمية كبيرة فوق العصيدة، مع أنها كانت حلوة.

كلمات جديدة، لكنها جعلت أبي يشعر بعدم الارتياح. لأول مرة في حياتي، شعرت بعدم الثقة من أسئلتي. خيّم علينا صمت نادر، وحامت كلمتا *طمث* وحيض في الهواء.

***

لم أذهب إلى المَنْسَخ طوال أسبوعين. عندما عدتُ، اخترت أكثر الأوقات هدوءًا. كان ذلك بعد الظهر عندما كان الدكتور موراي في زيارة للسيّد هارت في المطبعة، وكان معظم المساعدين قد غادروا إلى بيوتهم.

كان أبي والسيد سويتمان فقط جالسين إلى الطاولة الطويلة، يجهزان الكلمات التي تبدأ بحرف F، وهذا يعني أن عليهما تدقيق عمل المساعدين الآخرين؛ للتأكد من أنه يتطابق مع القواعد التي أرساها الدكتور موراي، فقد كان أبي والسيّد سويتمان يعرفان اختصارات القاموس أكثر من أي شخص آخر.

«ادخلي يا إسمي»، قال السيّد سويتمان عندما وقفت عند الباب أنظر إليهما، وأضاف: «لقد ذهب الذئب الكبير السيئ إلى بيته».

كانت الكلمات التي تبدأ بحرف M تعيش في فتحات العلب وراء طاولة الفرز، وكانت الكلمات التي أبحث عنها مجمّعة في فتحة علبة واحدة فُرزت تحت بند مسودة تعريفات. هذا ما كانت ديتي تمضي وقتًا طويلًا في عمله، وتساءلت إن كان بإمكاني أن أميّز خط يدها في تلك القصاصات.

كانت هناك كلمات عديدة تصف حالة النزيف. فكلمة Menstrue هي نفس كلمة catamenia؛ التي تعني «دمًا غير نظيف». لكن هل يوجد دم غير نظيف؟ الذي يترك بقعًا باستمرار.

وجدت أربع قصاصات فيها اقتباسات مختلفة لكلمة «menstruate». وذُكر في زاوية القصاصة تعريفان اثنان هما: «To discharge the catamenia» (*إفراز دم الحيض*) و «To pollute as with menstrual blood» (*التلوث كما في دم الطمث*). كان أبي قد ذكر التعريف الأول، لكنه لم يذكر التعريف الثاني.

« Menstruosity» هي حالة حدوث الطمث، و «menstruous» كانت تعني ذات *يوم* قذر جدًا أو ملوث جدًا.

Menstruous (*حائض*)، مثل monstrous (*شنيع، شديد البشاعة*). تقترب كثيرًا مما كنت أشعر به.

كانت ليزي قد أطلقت عليها اسم The Curse (*اللعنة*)، فهي لم تسمع بكلمة «menstruation» (حيض) قط، وضحكت عندما قلتها لها، وقالت: «ربما كانت كلمة يقولها الأطباء، لأن لديهم لغة خاصة بهم، وقلما يكون كلامهم مفهومًا».

تناولتُ المجلد الذي توجد فيه الكلمات التي تبدأ بحرف C من الرف، وبحثت عن كلمة اللعنة.

المصير الشرير للمرء.

لم يذكر كلمة *نزيف*، لكنّي فهمت. رحت أقلّب الصفحات بإبهامي بسرعة. يوجد ألف وثلاثمائة مدخل في هذا المجلد فقط، كما هو الحال في مجلد الحرفين A وB، وتذكّرت أبي عندما قال إنه لن تكون هناك نهاية للكلمات التي تبدأ بحرف C. بحثت في أرجاء المَنْسَخ، وحاولت أن أخمّن عدد الكلمات الموجودة في فتحات العلب، وفي الكتب، وفي رؤوس الدكتور موراي ومساعديه. لم يستطع أحدها تفسير ما جرى لي تمامًا.

«هل يجب أن تكون هنا؟» قطع صوت السيّد كراين سلسلة أفكاري.

أغلقت المجلد بسرعة والتفتُّ. نظرتُ إلى أبي الذي كان ينظر إلى السيّد كراين.

«ظننت أنك ستمضي الليلة في البيت»، قال له أبي بنبرة ودية أكثر من قبل.

« هذا المكان ليس للأطفال».

لم أعد طفلة. قال لي الجميع ذلك.

«إنها لا تسبب أي إزعاج»، قال له السيّد سويتمان، «إنها تبحث عن كلمات».

شعرت أن قلبي بدأ يخفق بقوة، ولم أتمالك نفسي من ألَّا أرد عليه، فقلت له: «قال لي الدكتور موراي إنني أستطيع أن أستخدم مجلدات القاموس عندما أريد». لكني ندمت؛ لأنني قلت ذلك عندما رمقني أبي بنظرة محذرة، لكن السيّد كراين لم يردّ عليَّ، ولم ينظر نحوي.

«هل تريد أن تنضم إلينا يا كراين؟» سأله السيد سويتمان، «يمكننا نحن الثلاثة أن ننهي هذا العمل قبل العشاء».

فقال: «لقد عدت لآخذ معطفي»، وأومأ برأسه لكليهما، وغادر المَنْسَخ.

أعدتُ مجلد الحرف C إلى الرف المخصص له، وقلت لدا إنني سأنتظره في المطبخ.

فقال: «أهلًا بك دائمًا هنا».

لكنّي لم أعد متأكدة من ذلك. ففي الأشهر القليلة التالية، أصبحت أمضي وقتًا في المطبخ أكثر مما أمضيه في المَنْسَخ.

***

قرأ أبي رسالة ديتي، لكنه لم يخبرني ماذا تقول فيها. عندما قرأها، طواها وأعادها إلى مغلّفها، ووضعها في جيب بنطاله بدلًا من أن يتركها على الخوان؛ الذي يترك عليه عادة رسائل ديتي الأخرى لأيام أحيانًا.

سألته، «هل ستزورنا قريبًا؟»

أبعد أبي الصحيفة عن وجهه وقال: «لم تقل ذلك».

«هل ذكرت شيئًا عني؟»

أنزل الصحيفة ليراني جيدًا، وقال: «إنها تسأل إن كنت تستمتعين في المدرسة».

هززت كتفي بلا مبالة، وقلت: «إنها مملة. لكنهم يسمحون لي أن أساعد الصغار عندما أنهي واجبي المدرسي. إني أحبّ ذلك».

أخذ نَفَسًا عميقًا، وظننت أنه سيخبرني شيئًا، لكنه لم يقل شيئًا، وإنما رمقني لفترة أطول قليلًا، ثم قال: لقد حان وقت النوم.

بعد بضعة أيام، بعد أن قبّلني أبي متمنّيًا لي ليلة هانئة، وعاد إلى الطابق الأرضي ليصحح مسودات الطباعة، ذهبتُ إلى غرفته على أطراف أصابعي، وزحفت إلى الخزانة، وسحبت الصندوق المهترئ أكثر، وأخرجت رسالة ديتي.

15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1896

عزيزي هاري.

لقد جلبت رسالتك الأخيرة لي مزيجًا من المشاعر. حاولتُ أن أكتب ردًا يحظى بقبول ليلي (وخلصت إلى أن هذا ما تريده أكثر من أي شيء آخر، لذلك سأحاول ألّأخيّب ظنك وظن ليلي وإسمي. حاولت لكني لا أعدك بشيء).

يواصل السيّد كراين اتهام حبيبتنا إسمي بالسرقة. إنها كلمة ثقيلة يا هاري، تعيد إلى الذهن صورة إسمي وهي تتسلل وكيس يتدلى من ظهرها، مليء بالشمعدانات وأباريق الشاي. لكن ما فهمته أن جيوبها لم تكن تحتوي إلّا على قصاصات يلقي بها الآخرون. وأما بالنسبة لتربيتك غير التقليدية لها، فإني أفترض أنها جيدة، لكن السيّد كراين يرى أنها مستهجنة. أقول ذلك مجاملة. فلم تكن التربية التقليدية ذات فائدة لأي امرأة. لذلك، توقف عن لوم نفسك، يا هاري.

لنتحدث الآن عن موضوع تعليم إسمي. بالطبع يجب أن تواصل تعليمها، لكن إلى أين ستذهب عندما تكبر ولا تعود مدرسة سانت برنابا تلائمها؟ بحثت وسألت صديقتنا فيونا ماكينون، مديرة مدرسة داخلية متواضعة أعني بذلك أنها ميسورة التكلفة- في إسكتلندا، قريبة من مدينة ميلروز. لم أتحدّث مع فيونا منذ سنوات، لكنها كانت طالبة رائعة، ويمكنني أن أقول إنها أنشأت مدرسة كولدشيلز لتلبي احتياجات السيّدات الشابات المبكرة. وبما أن أختك تقيم على

مسافة أقل من خمسين ميلًا من المدرسة، فهي تبدو بديلًا ممتازًا للمدارس باهظة التكاليف في جنوب إنكلترا.

قد لا ترحب إسمي بالفكرة على المدى القصير، لكن بما أنها بلغت الرابعة عشرة، فقد أصبحت في سن يجعلها مستعدة للإقدام على مغامرة كهذه.

أخيرًا، في حين لا أريد أن أشجع على سلوكها الجموح، فإني أرفق كلمة قد تعجب إسمي، «Literately» التي وردت في رواية إليزابيث غريفيث. وبما أنني لم أجد أمثلة أخرى مستخدمة لهذه الكلمة، فهي في ظني، امتداد راق لكلمة «literate» (مُثَقَّف). وقد وافق الدكتور موراي على أن أكتب عبارة للقاموس، لكن قيل لي إنه ليس من المحتمل أن يوافق على إدراجها. يبدو أن السيّدة الكاتبة لم تثبت بأنها امرأة مُثَقَّفة «عبارة مستهجنة لكلمة صاغها صموئيل تايلور كوليردج تشير إلى سيّدة تعمل في مجال الأدب». ويوجد لها أيضًا مثال واحد فقط مستخدم، لكن إدراجها في القاموس مؤكد. قد يبدو ذلك أشبه بالعنب الحامض، لكنّي لا أرى أنها مناسبة. من المؤكد أن عدد السيّدات الأديبات في العالم كبير جدًا ليصبحن عضوات جديرات في دائرة الأدباء.

أرسل عدد من المتطوعين (أظن أن جميعهم من النساء) نفس الاقتباس لكلمة (مُثَقَّف). يبلغ عددها ستة، وبما أنها لن تستخدم في القاموس، فإني لا أرى سببًا لماذا لا تحتفظ إسمي بواحدة منها. أتطلع إلى أن أسمع منكما كيف تستخدم كلاكما هذه الكلمة الجميلة، فقد نستطيع أن نبقيها حيّة.

المخلصة

إديث

***

كان ذلك آخر اجتماع لنا في المدرسة قبل عيد الميلاد، وتقرر أنني لن أعود لأكمل السنة الدراسية. فقد أرادت مديرة مدرسة سانت برنابا للبنات، السيّدة تووود، أن تقيم لي حفل وداع، فجلست على كرسي في مقدمة القاعة أمام الفتيات الأخريات اللاتي كنّ جميعهن من جيريكو. بنات العاملين في مطبعة ومصنع الورق وولفركوت اللاتي يداوم إخوتهن في مدرسة سانت برنابا للفتيان الذين سيعملون في منصع الورق أو في المطبعة عندما يكبرون، أما

نصف الفتيات اللاتي في فصلي المدرسي، فسيعملن في تجليد الكتب. كنت أرى نفسي دائمًا أنني لا أنتمي إليهن وأنني لست في المكان المناسب.

تُليت الإعلانات المعتادة. جلست متخشّبة، أنظر إلى يديَّ راجية أن يمرّ الوقت بسرعة. لم أكد أسمع ما قالته السيّدة توود، لكن عندما بدأت الفتيات يصفقن، رفعت رأسي ونظرت إليهن. كنت سأحصل على جائزة في مادتيْ التاريخ واللغة الإنكليزية. أومأت السيّدة توود كي أقترب، وعندما اقتربت، قالت للطالبات إنني سأغادر المدرسة وسأذهب إلى مدرسة كولدشيلز للسيّدات الشابات.

«كلّ تلك المسافة إلى إسكتلندا»، قالت، والتفتت إليَّ. صفقّت الفتيات مرة أخرى، لكن بفتور هذه المرة. قلت في نفسي إنهن لم يتخيّلن أنني سأترك المدرسة وأغادر، كما لم أتصوّر ذلك أنا نفسي. لكن ديتي قالت بعد ذلك إن المدرسة ستجعلني مؤهلة. عندما سألتها «ستجعلني مؤهلة لأي شيء؟» قالت: «لكي تفعلي كلّ ما تحلمين به».

كان الأسبوع الذي أعقب عيد الميلاد ماطرًا ملبدًا بالغيوم. «الإعداد الجيد للذهاب إلى الحدود الإسكتلندية»، قالت السيدة بالارد، وانفجرت في البكاء. توقفتْ عن عجن الطحين قليلًا، وجاءت إلى حيث أجلس أقشّر البازلاء على طاولة المطبخ، وقالت: «أوه، يا صغيرتي»، وأمسكت وجهي بكلتا يديها وملأت خديّ بنثار الدقيق. عندما توقفتُ عن البكاء، وضعت وعاء مزج أمامي، وراحت تكيل الزبدة والدقيق والسكر والزبيب، ثم أنزلت مرطبان القرفة من أعلى رفّ في خزانة المؤن ووضعته إلى جانبي، وقالت: «رشة واحدة فقط، تذكّري ذلك».

دأبت السيّدة بالارد على القول إن الكعك القاسي لا يهمه إن كانت يداك دافئتين أم باردتين، ماهرتين أو خرقاوين. كانت تفعل ذلك لتلهيني عندما لا أستطيع مرافقة ليزي، أو عندما أكون معكرة المزاج. لقد أصبح ذلك اختصاصي. ثم عادت السيّدة بالارد إلى عجينها، وبدأت تقطع الزبدة إلى قطع صغيرة وتعجنها مع الدقيق. كالعادة، أحسست كأن قفازًا يغلف يدي اليمنى. كنت أراقب أصابعي المحترقة وهي تعمل حتى أشعر أن فتات الكعك قد بدأ يتشكّل.

لم تتوقف السيّدة بالارد عن القول إن «إسكتلندا بلد جميل». فقد كانت تعيش هناك عندما كانت شابة. تتمشّى مع إحدى صديقاتها. لم أستطع أن أتخيّلها فتاة

صغيرة، ولم أتمكن أن أتخيّلها في أي مكان غير المطبخ في سانيسايد، وقالت: «لن تبقي فيها على الدوام».

***

خرج جميع الذين يعملون في المَنْسَخ في ذلك اليوم لوداعي. وقفنا في الحديقة في الصباح الباكر نرتجف: أبي والسيّدة بالارد والدكتور موراي وبعض المساعدين. لكن السيّد كراين لم يكن موجودًا. وجاء أصغر أطفال موراي، ووقفت إلسي وروزفريث إلى جانبيْ أمّهما، وأمسك كلّ واحدة منهما بيد أحد أصغر طفلين، ولم ترفعا أعينهما عن أحذيتهما.

وقفت ليزي عند باب المطبخ، مع أن أبي طلب منها أن تأتي وتنضم إلينا، لكنها لم تكن تحبّ أن تقف بين الرجال الذين يعملون في القاموس. «لا أعرف كيف أكلّمهم»، قالت، عندما حاولت أن أستفزّها.

وقفنا فترة طويلة تكفي لأن يقول الدكتور موراي شيئًا عمّا سأتعلّمه والفوائد الصحية الناجمة عن السير بين التلال حول بحيرة كولدشيلس لوخ، وأعطاني دفتر رسم ومجموعة من أقلام الرسم وقال لي إنه يتطلّع لأن أرسل له رسائل أعبّر فيها عن انطباعاتي عن الريف المحيط بمدرستي الجديدة. وضعتها في الحقيبة الجديدة التي أعطاني إياها أبي في صباح ذلك اليوم.

أعطتني السيّدة بالارد علبة مليئة بالبسكويت لا تزال ساخنة من الفرن، وقالت: «هذه من أجل الرحلة»، وعانقتني بقوة حتى ظننت أنها ستقطع أنفاسي.

لفترة قصيرة، لم يقل أحد شيئًا. كنت متأكدة من أن معظم المساعدين كانوا يتساءلون عن سبب كلّ هذا الهرج. كنت أراهم يتململون ويحركون أقدامهم ليحافظوا على الدفء. كانوا يرغبون في أن يعودوا إلى كلماتهم، إلى الدفء النسبي الذي يوفره لهم المَنْسَخ. جزء مني كان يريد أن يعود معهم، وجزء آخر يريد أن أبدأ تلك المغامرة.

نظرت إلى المكان الذي تقف فيه ليزي. حتى من بعيد، رأيت عينيها المتورمتين وأنفها الأحمر. حاولت أن تبتسم، لكن محاولتها لإخفاء ابتسامتها كانت واضحة، وأشاحت بوجهها ونظرت بعيدًا، كتفاها ترتعشان.

«إنها ستجعلني مؤهلة»، قالت ديتي، «سأصبح متعلّمة وباحثة»، وأضاف دا: «عندما تغادرين كولدشيلز، يمكنك أن تذهبي إلى سومرفيل القريبة من هنا

مثل جميع قاعات السيّدات التي تقع على الطريق قبالة المطبعة».

لكزني أبي لكزة خفيفة، ما يعني أنه ينبغي لي أن أردّ على كلمة الدكتور موراي، وأشكره على دفتر الرسم وأقلام الرصاص، لكن كل ما كنت أعرفه هو دفء البسكويت الذي يتسلل إليَّ من العلبة التي أحملها بيدي. بدأت أفكّر في الرحلة التي ستستغرق كلّ ساعات النهار ونصف الليل، وأن البسكويت سيرد عندما أصل.

الجزء الثاني 1897 - 1901
Kyx – مشتقة من kex وتعني- ساق النبات الجاف
ارتياب Distrustfully

آب (أغسطس) 1897

بدت الحديقة في سانيساید أصغر مما كانت تبدو قبل موسمين. كانت الأشجار مورقة، والسماء صفحة زرقاء بين المنزل والأسيجة النباتية. كان يتناهى إليَّ صوت قعقعة العربات وطقطقة حوافر الخيول التي تسحب الترام في شارع بانبري.

وقفت تحت شجرة الدردار طويلًا. مع أنه مضت أسابيع على عودتي إلى البيت، لم أدرك حتى الآن ما الذي كنت أفتقده. فقد التفّت أكسفورد حولي مثل بطانية، وبدأت أتنفّس بسهولة لأول مرة منذ شهور.

منذ لحظة عودتي من كولدشيلز، تملكتني رغبة قوية في أن أذهب إلى المَنْسَخ. لكن كلما خطوت خطوة باتجاهه، شعرت بمويجةٍ في معدتي. فأنا لا أنتمي إلى ذلك المكان لأنني كنت مصدر إزعاج له، لذلك، أُرسلتُ إلى مكان بعيد، مهما حاولت ديتي أن تصف ذلك بأنها مغامرة وفرصة. قلت لدا إنني كبرتُ ولم أعد أريد أن أذهب إلى المَنْسَخ، لكن في الحقيقة، لم يكن بإمكاني أن أقاوم ألَّا أذهب إليه.

قبل أن أعود إلى كولدشيلز بأسبوع، كان المَنْسَخ فارغًا. فقد ذهب السيّد كراين منذ زمن؛ طُرد لأنه ارتكب أخطاء كثيرة. عندما أخبرني أبي بذلك، نظر في عيني بصعوبة. كان أبي والدكتور موراي في المطبعة مع السيد هارت، وكان المساعدون الآخرون يمضون ساعة الغداء على ضفة النهر. تساءلت إن كان المَنْسَخ مغلقًا الآن. فلم يُغلق من قبل قط، لكن لعل الأمور تغيّرت. فقد أُغلق كلّ شيء في كولدشيلز، وحُظر علينا الدخول إليها والخروج منها. خطوت خطوة، ثم خطوة أخرى. عندما دفعت الباب، فُتح بسهولة محدثًا ذلك الصرير المألوف المنبعث من مفصلاته.

وقفتُ عند المدخل، ونظرتُ إلى الداخل. كانت طاولة الفرز مليئة بالكتب والقصاصات ومسودات الطباعة. رأيت سترة أبي معلّقة على ظهر كرسيه، وقلنسوة الدكتور موراي الجامعية على الرفّ وراء مكتبه المرتفع. بدت فتحات العلب مليئة بالقصاصات، لكن كنت أعرف أن بإمكاني أن أجد دائمًا اقتباسات جديدة. كان المَنْسَخ كما كان دائمًا، لكن معدتي لم تهدأ. تملكني شعور بأنني تغيّرت. فلم أدخل.

عندما استدرت لأغادر، رأيتُ داخل الباب كومة من رسائل لم تُفتح بعد. إنه خطّ ديتي. مغلّف كبير من النوع الذي تستخدمه عادة في مراسلاتها المتعلقة بالقاموس. التقطته من دون تفكير، وذهبت.

في المطبخ، كان التفاح يغلي على الموقد، لكنّي لم أر السيّدة بالارد. وضعت مغلّف ديتي فوق البخار المتصاعد من قِدر التفاح حتى بدأ يُفتح، ثم صعدتُ الدرج إلى غرفة ليزي؛ درجتان في كل خطوة.

كان في المغلف أربع صفحات مسودات طباعة للكلمات من hurly- burly (هرج ومرج) إلى hurry- scurry (عجلة واضطراب). وأرفقت ديتي اقتباسات

إضافية على هوامش كل صفحة. كان الاقتباس The red- haired hurlyburlying (الأستاذ الأسكتلندي ذو الشعر الأحمر في عجلة واضطراب) Scotch professor مثبتًّا في الصفحة الأولى، وتساءلت: هل سيسمح الدكتور موراي بإدراجها في القاموس. بدأت أقرأ التنقيحات التي أدخلتها على مسودة الطباعة، وحاولت أن أفهم كيف يمكنها أن تدخل تحسينات على هذه العبارة. ثم بدأت الدموع تسيل على وجهي. لقد اشتقت إلى رؤية ديتي، وشعرت برغبة قوية لأن أراها وأكلّمها. كانت قد قالت إنها ستزورنا في عيد الفصح لتأخذني في نزهة بمناسبة عيد ميلادي الخامس عشر، لكنها لم تأتِ. ديتي هي التي أقنعت أبي بأن يرسلني إلى المدرسة في كولدشيلز. ديتي هي التي شجعتني على أن أذهب إليها.

جففتُ دموعي.

أجفلتُ عندما دخلت ليزي إلى الغرفة فجأة. نظرتْ إلى صفحات ديتي المبعثرة على أرضية غرفتها.

«إسمي، ماذا تفعلين؟»

قلت: «لا شيء».

فقالت: «أوه، إسمي، قد لا يكون باستطاعتي أن أقرأها لكنّي أعرف جيدًا أين مكان هذه الأوراق الصحيح. إنه ليس في هذه الغرفة».

عندما لم أجبها، جلستْ على الأرض أمامي. أصبحت الآن أثقل مما كانت، وبدا أنها لم تكن مرتاحة.

«هذه الكلمات مختلفة عن كلماتك المعتادة»، قالت وهي ترفع إحدى الصفحات.

فقلت: «إنها مسودات طباعة»، وأضفت، «ستبدو الكلمات هكذا عندما تصبح في القاموس».

«إذًا ذهبتِ إلى هناك، إلى السكريبي؟»

هززت كتفيَّ بلا مبالاة، وبدأت ألملم صفحات ديتي، وقلت: «لم أستطع. نظرتُ إلى الداخل فقط».

«لا يمكنكِ أن تأخذي كلمات من السكريبي بعد الآن يا إسمي. إنك تعرفين ذلك».

حدّقت في خطّ ديتي المألوف على القصاصة المثبّتة في الصفحة الأخيرة من مسودة الطباعة، وقلت: «لا أريد أن أعود إلى المدرسة يا ليزي».

فقالت: «إنك محظوظة لأن لديك فرصة للذهاب إلى المدرسة».

«لو ذهبتِ إلى المدرسة، لعرفتِ مدى قسوة ذلك».

«أظن أنه لا بد أن تشعري هكذا لأنك طفلة تتمتع بقدر كبير من الحرية يا إسمي»، قالت ليزي تهدئ من روعي، «لكن لا يوجد أحد يمكنه أن يعلّمك هنا، وأنت فتاة ذكية جدًا ويجب ألَّا تتوقفي عن الدراسة. سيكون ذلك لفترة قصيرة فقط، بعدها يمكنك أن تختاري أن تفعلي ما تشائين. يمكنك أن تصبحي معلّمة، أو تكتبي عن التاريخ كما تفعل السيّدة تومبسون، أو يمكنك أن تعملي في القاموس كما تفعل هيلدا موراي. هل تعرفين أنها بدأت تعمل في السكريبي؟»

لم أكن أعرف ذلك. فمنذ أن ذهبت إلى المدرسة في كولدشيلز، أحسست أنني أصبحتُ بعيدة جدًا عن الأشياء التي حلمت بها ذات يوم. عندما حاولت ليزي أن تنظر في عينيَّ، أشحت بوجهي. أخرجتْ صندوق الخياطة من تحت السرير ثم سارت نحو الباب.

«يجب أن تتناولي طعام الغداء وأن تعيدي هذه الأوراق إلى السكريبي»، قالت وأغلقت الباب وراءها بهدوء.

أزلتُ ملاحظة ديتي من صفحة مسودة الطباعة. كانت معنى إضافيًا لكلمة «hurry» (يسرع) كان هذا التعريف أقرب إلى كلمة «harrasment» (مضايقة، تحرّش) منه إلى «hurry»، ولا يوجد إلَّا اقتباس واحد يدعمه. ردّدته بصوت عال. لقد أعجبني كثيرًا. انحنيت تحت السرير وأحسست بالارتياح عندما لامست يدي المقبض الجلدي وشعرت بوزن الصندوق عندما سحبته نحوي. لا بد أن ليزي احتفظت بالصندوق سرًا طوال فترة غيابي. تساءلت ماذا كان يمكن أن يحدث لها لو وجده أحد هنا.

جعلتني الفكرة أتوقف قليلًا، وجعلتني أفكّر بأن أعيد تثبيت كلمة «hurry» بدبوس في مكانها. فتحتُ الصندوق وتنشقّت رائحة الكلمات. وضعت كلمة «hurry» في الأعلى وأغلقت الغطاء.

في تلك اللحظة، هدأت حدة غضبي تجاه ديتي، وخطرت لي فكرة. سأكتب لها رسالة.

أعدتُ الصفحات إلى المغلّف ولصقته من جديد. عندما غادرت سانيساید عائدة إلى البيت، وضعت مغلّف ديتي في صندوق البريد أمام البوابة.

عزيزتي إسمي،

28 آب (أغسطس) 1897

كما هو الحال دائمًا، فقد غمرتني سعادة كبيرة عندما رأيتُ خطّ يدك المألوف لديَّ عندما كنتُ أتصفّح بريد البارحة. كانت هناك رسالة أو رسالتان من المَنْسَخ بالإضافة إلى رسالتك: رسالة من الدكتور موراي وأخرى من السيّد سويتمان. فالحرف «I» يسبب شيئًا من القلق – أين ينبغي أن تتوقف كلّ تلك البادئات؟ شعرت بالامتنان لأن أؤجل العمل حتى أقرأ عن عودتك في عطلة الصيف إلى أكسفورد.

لكنك لم تخبريني شيئًا تقريبًا إلَّا بأن الطقس كان خانقًا. ستة أشهر في إسكتلندا يبدو أنك تأقلمتِ خلالها مع البرد القارس والمساحات الشاسعة. أتساءل إن كانت قد فاتتك «الروابي الممتدة نحو السماء المضطربة وأعماق البحيرة التي لا يُسبر غورها»؟

هل تذكرتِ أن تكتبي هذه الرسالة بعد الأسابيع القليلة الأولى التي أمضيتها في كولدشيلز؟ قرأتها وتذكّرت حبّ والدك لذلك المكان. كان يقول إن العزلة القاسية تعيد له حيويته. لا يمكنني أن أقول إنني أشاطره رأيه هذا؛ فالتلال والبحيرات لا تجري في دمي كما تجري في دمك.

لكن هل من الممكن أن أكون قد أسأت فهم وصفك للمناظر الطبيعية، وأن لغتك الجميلة حجبت أفكارك؟ لأن طلبك جاء بمثابة مفاجأة.

من كلّ الكلمات التي كتبتها، لاحظت أنك تحرزين تقدمًا في مدرسة كولدشيلز. لقد تفوقتِ في عدة مواد، وقد كتبت ميس ماكينون لي وقالت إنك

«لا تتوقفين عن السؤال». كان أبي يقول دائمًا إن هذه هي السمات الأساسية التي تميّز العلماء والليبراليين.

تصف رسائلك، بدون استثناء، تعليمًا مثاليًا بالنسبة لشابة في القرن العشرين. يا إلهي، القرن العشرون. أظن أن هذه أول مرة أكتب فيها ذلك. إنه قرنك يا إسمي، وسيكون مختلفًا عن القرن الذي عشت فيه. يجب أن تتعلّمي أكثر.

أشعر بالإطراء لأنك ترين أنني أستطيع أن أعلّمك كلّ ما تحتاجين إلى تعلّمه. أشعر بإطراء شديد، حقًا، وقد أعجبت كثيرًا بفكرة أن تأتي وتعيشي معنا، وقد ناقشت هذا الأمر مع بيث لساعات. باستطاعتنا كلينا أن نعلّمك ما يكفي في التاريخ والأدب والسياسة، وبوسعنا أن نضيف إلى ما تعرفينه الآن من اللغتين الفرنسية والألمانية، أما العلوم الطبيعية والرياضيات فهي خارج حدود معرفتنا. وهناك مسألة الوقت الذي يتطلبه ذلك أيضًا. ببساطة، لا يوجد لدينا، أنا وبيث، الوقت الكافي للقيام ذلك.

إنك تذكّريني بأنني وعدتك بأن أقف إلى جانبك دائمًا، لكن عندما يتعلق الأمر بتعليمك، فإني أظن أنني سأخيّب أملك. برفض طلبك، آمل أنني أقف إلى جانب إسمي؛ الأكبر سنًا والأكثر نضجًا. آمل أن تجدي أن رأيي صحيح ذات يوم.

لقد كتبتُ إلى السيّدة بالارد وطلبت منها أن تخبز لك بعض البسكويت بالزنجبيل. أظن أنها ستبقى في حالة جيدة خلال رحلة عودتك الطويلة إلى المدرسة، وتغذيك طوال الأسبوع الأول من الفصل الدراسي الجديد.

أرجو أن تكتبي لي عندما يستقر بك المقام هناك. إني أستمتع دائمًا بقراءة ما تكتبينه لي عن أيامك هناك.

محبّتي، كما دائمًا

ديتي

***

جلست على طرف سريري ورحت أنظر إلى صندوقي المدرسي. حتى تلك اللحظة، كنت متيقنة من أنه سيرافقني إلى بيت ديتي وبيث في مدينة باث. أعدت قراءة رسالة ديتي. محبتي، كما دائمًا. جعّدت الرسالة ورميتها على الأرض، وسحقتها تحت قدمي.

تناولت أنا وأبي طعام العشاء بصمت. لا أظن أن ديتي قد كلّفت نفسها عناء مناقشة الأمر معه.

«غادري في وقت مبكر من صباح الغد يا إسمي».

تمنيت له ليلة سعيدة وصعدت الدرج.

كانت غرفة أبي مظلمة تقريبًا. عندما فتحت الستائر، تسلل آخر ضوءِ يومٍ طويل. التفتُّ إلى خزانة الثياب، وهمستُ، «افتح يا سمسم». شعرت بالحَنين إلى وقت مضى. مددت يدي وراء فساتين ليلي، وأخرجتُ الصندوق المصقول الذي تنبعث منه رائحة شمع عسل النحل الذي طُلي منذ عهد قريب. فتحتُ الصندوق وبدأت أعزف على الرسائل بأصابعي المحترقة كما لو كانت أوتار قيثارة. أردت أن تتكلّم ليلي، أن تقول لي الكلمات التي تقنع أبي بأن أبقى هنا، لكنها لبثت صامتة.

توقفت عن العزف على الرسائل. لم تكن المغلّفات في الأسفل متناغمة، ولم يكن لونها أزرق أو أبيض، وإنما بني رخيص. سحبتُ المغلّف الأخير، واقتربت من النافذة لأقرأ ما كتبته.

تذكّرت كل كلمة. كيف يمكنني ألّا أتذكّرها؟ فقد كتبتها مرات عديدة. لم تكن هي الكلمات التي اخترتها. لقد مُزّقت تلك الكلمات. سيشعر والدك بالقلق عليك، قالت ميس ماكينون، ثم أملت عليَّ شيئًا مناسبًا. مرة أخرى قالت وهي تمزّق الصفحات الجديدة. بخطّ أكثر اتقانًا، وإلاّ فإنه سيظن أنك لا تحرزين تقدمًا، وأنكِ لا تحاولين ذلك. *إنهن مجموعة جيدة من الفتيات... رحلة رائعة...ربما أُصبح معلّمة... لقد حصلت على أعلى علامة في اختبار التاريخ*. إن الدرجات التي حصلت عليها هي الحقيقة الوحيدة. قالت مرة أخرى، لا تكوني كسولة. كانت الفتيات الأخريات قد أوين إلى فراشهن. جلست في تلك الغرفة الباردة حتى دقت الساعة معلنة منتصف الليل. لقد أفسدتِ يا ميس نيكول. أبوك يعرف ذلك كما يعرف الجميع. إن تذمرك من أشياء بسيطة يؤكد على ما أقوله. ثم عرضت المحاولات الثلاث الأخيرة وطلبت أن أختار المحاولة التي تُظهر أفضل خطّ يمكنني أن أكتبه. لم تكن المحاولة الأخيرة. يكاد يكون الخطّ غير مقروء. كانت أصابعي المحترقة مقوسة كما لو كانت لا تزال تمسك القلم. كان الألم من تحريكها لا يطاق. هذا يا ميس ماكينون. نعم يا عزيزتي، أظن ذلك أيضًا. الآن اذهبي إلى سريرك.

ها هي ثمينة، كما كانت رسائل ليلي ثمينة. كلمات زائفة تمنح عزاء زائفًا لرجل أُجبر على أن يكون أمًا وأبًا في الوقت نفسه. ربما كنت عبئًا عليه.

عندما كنت بعيدة عنه، كنت أرسل له رسالة كلّ أسبوع. أخرجتها كلّها من الصندوق وأزلتُ الصفحات. لم يكن فيها شيء صادق مني. كيف صدّقها دا؟ عندما أعدت المغلّفات إلى الصندوق، أصبحت خاوية من الكلمات، لكنها ذات مغزى أكبر.

***

لم أنم جيدًا. مشاعر مضطربة بالاستياء تجاه ديتي ومدرسة كولدشيلز - وحتى تجاه دا- استجمعت قواها في الظلام. في النهاية، تخليّت عن محاولة إسكاتها.

كان أبي يشخر، همهمة متوقعة تريحني دائمًا عندما استيقظ في الليل. أراحتني الآن لأن ذلك يعني أنه لن يستيقظ. نهضت من سريري وارتديت ثوبي، وأخذت شمعة وأعواد ثقاب من المنضدة إلى جانب سريري ووضعتها في جيبي، ثم انسللت من غرفتي، وهبطت الدرج إلى عتمة الليل.

كانت السماء صافية، والقمر يكاد يكون بدرًا في وسط السماء. كان سواد الليل فقط يلعب حول حواف الأشياء. عندما وصلت إلى سانيسايد، كان منزل موراي مظلمًا يخيّم عليه السكون، وخيّل إليَّ أنني أسمع صوت الأنفاس المتجمعة لأفراد أسرة موراي الذين يغطون في النوم.

دفعتُ البوابة. امتدّ المنزل نحو السماء، كما لو أنه أصبح يقظًا فجأة، لكني لم أر وميض ضوء واحد في النوافذ. تسللت عبر الفجوة وتركت البوابة مواربة ثم سرت حول حدود المنزل، أحتمي بالظلام الشديد تحت الأشجار، حتى بدأت أرى المَنْسَخ.

في ضوء القمر، بدا المَنْسَخ مثل أي سقيفة صغير آخر، وانزعجت لأنني كنت أظن أنه أكبر من ذلك، وكلما اقتربت منه، اتضحت هشاشته أكثر. فقد كان الصدأ يغلّف الميازيب ومجاري المياه، وتقشّر الطلاء من إطارات النوافذ، وحشيت قطع أوراق لمنع تسرب الهواء في الأماكن التي تعفّن فيها الخشب.

فُتح الباب كما يُفتح دائمًا، ووقفت عند العتبة أنتظر حتى تكيّفت عيناي على الرؤية في الظلام. ألقى ضوء القمر المتسلل عبر النوافذ المتسخة ظلالًا طويلة على الغرفة. كان بإمكاني أن أشمّ رائحة الكلمات قبل أتمكن من رؤيتها، وانهالت الذكريات إحداها فوق الأخرى. خُيّل إليَّ أن هذا المكان يقبع داخل مصباح جني.

أخرجتُ رسالة ديتي من جيبي. كانت لا تزال مجعّدة، وجدت مكانًا على طاولة الفرز ومسّدتها بقدر ما أستطيع. أشعلت الشمعة وغمرني شعور بالتحدي. تيار هواء هبّ على الشمعة جعل اللهب يتذبذب يمنة ويسرة، لكنه لم يكن قويًا ليطفئها. أفسحتُ مكانًا على طاولة الفرز وأسلتُ بضع قطرات من الشمعة لأثبّتها على الطاولة.

كانت الكلمة التي أبحث عنها قد نُشرت للتو، لكنّي كنت أعرف أين أجد القصاصات. مررت إصبعي فوق فتحات العلب حتى وصلت إلى الحروف من «A» إلى «Ant». إنها كلمات عيد ميلادي. «لو كان القاموس شخصًا، لكانت الحروف من «A» إلى «Ant» أولى خطواته المترددة»، قال لي أبي ذات يوم.

سحبت كومة صغيرة من القصاصات من فتحة العلبة، وفصلتها عن القصاصات التي توجد فيها تعريفات لها.

Abandon. (*يهجر، يتخلى عن*).

يعود أقدم مثال لها إلى أكثر من ستمائة سنة، ولم تكن الكلمات المكتوبة واضحة يمكن قراءتها. عندما بدأت أقرأ القصاصات، بدت الاقتباسات أسهل، وعندما كدت أصل إلى أسفل الكومة وجدت اقتباسًا أعجبني. لم يكن الاقتباس أكبر مني بكثير، كانت قد كتبته سيّدة تدعى ميس برادون.

I found myself abandoned and alone in the world.

(*وجدت نفسي منبوذة، وحيدة في العالم*).

ثبّتُ القصاصة بدبوس على رسالة ديتي، ثم أعدت قراءتها. وحيدة في العالم.

كانت لكلمة Alone (وحيدة) فتحة علبة لوحدها، وقد كُدِّست حزم من القصاصات فوق بعضها. أزلت الجزء العلوي من القصاصة وحللت الخيط. كانت القصاصات قد جمعت بحسب معانيها المختلفة، لكل منها قصاصة علوية تُظهر تعريفها. كنت أعرف أنني لو أنزلتُ من الرفّ مجلد الحرفين A وB، لوجدت التعريفات في القصاصات العلوية مكتوبة في أعمدة، وقد كتبت اقتباساتها في الأسفل.

كان أبي هو الذي كتب التعريف الذي استقرّت عيناي عليه؛ قرأت خطّه المتراص: *وحده تمامًا، غير مصحوب، منعزل.*

تساءلتُ لو أنه تحدّث مع ليلي عن السبل التي يصبح فيها وحيدًا، لقالت له ليلي ألَّا يرسلني إلى المدرسة.

نزعتُ القصاصة العلوية من قصاصات الاقتباس المثبّتة عليها - لقد انتهت مهمتها- وأعدتُ الاقتباسات إلى أماكنها، ثم عدت إلى طاولة الفرز وثبّتُ تعريف أبي على رسالة ديتي.

ثم سمعتُ صوتًا. لحظة هدوء طويلة. صوت البوابة تُفتح: مفصلتها غير المزيّتة.

بحثتُ في المَنْسَخ عن مكان أستطيع أن أختبئ فيه، أحسست بضربات قلبي تتسارع من الخوف بسرعة، لا يمكن أن تؤخذ الكلمات مني؛ إنها تفسّرني. مددت يدي إلى تحت تنورتي ودسست الرسالة مع القصاصة المرفقة بها داخل حزام سروالي الداخلي، ثم أخذت الشمعة من فوق الطاولة.

فُتح الباب وغمر المكان ضوء القمر.

«إسمي؟»

إنه دا. غمرني شعور بالراحة والغضب.

«إسمي، ضعي الشمعة».

مالت الشمعة. سقطت قطرات منها فوق مسودات الطباعة المتناثرة فوق طاولة الفرز، والتصق بعضها ببعض. رأيت ما رآه. تخيّلتُ ما تخيّله. تساءلت إن كان بإمكاني أن أفعل ذلك حقًا.

«لن...»

«أعطني الشمعة يا إسمي».

«لكنك لم تفهم، كنت فقط...»

نفخ الشمعة وأطفأها ثم تهاوى على الكرسي. رحت أراقب خيط الدخان يتلوى إلى الأعلى.

دلقت جيوبي إلى الخارج ولم يكن فيها شيء، ولا كلمة واحدة. ظننت أنه سيفتش جوربي وأكمامي، ونظرت إليه كما لو أنه لا يوجد لديّ شيء أخفيه. تنهد واستدار ليغادر المَنْسَخ. تبعته. عندما همس لي بأن أغلق الباب بهدوء، فعلت ما طلبه مني.

كان الصباح قد بدأ يضفي ألوانًا على الحديقة. كان المنزل لا يزال مظلمًا، سوى ضوء يرتعش في النافذة العليا فوق المطبخ. لو نظرت ليزي من النافذة الآن، لرأتني. كدت أشعر بثقل الصندوق وأنا أسحبه من تحت سريرها.

لكن ليزي والصندوق كانا بعيدين عني مثل إسكتلندا. إن عدم رؤيتي لهما قبل أن أغادر سيكون عقابًا لي.

نيسان (أبريل) 1898

خلال عطلة عيد الفصح، جاء أبي وزارني في كولدشيلز. فقد تلقى رسالة من أخته؛ عمّتي الحقيقية التي أبدت قلقها عليَّ. هل يُعتنى بي جيدًا طوال الوقت؟ تذكّرتني بشكل مختلف. كانت لديها أسئلة كثيرة. قالت إنها آسفة لأنها لم تزرنا من قبل - قالت إن الأمر صعب عليها- لكنها لاحظت كدمات على ظاهر يديَّ. قلت لها إن ذلك من لعبة الهوكي. وسخ، كتبتْ لأبي.

حكى لي كلّ ذلك عندما استقللنا القطار في طريق عودتنا إلى أكسفورد. تناولنا بعض الشوكولاتة، وقلت له إنني لم ألعب هوكي قط. نظرت من فوق كتفه إلى صورتي المنعكسة في نافذة عربة القطار المظلمة. قلت في نفسي إنني أبدو أكبر سنًّا.

أمسك أبي يديَّ بكلتا يديه، وراح إبهاماه يرسمان دوائر حول مفاصل أصابعي. تلاشى لون الكدمات في يدي السليمة وأصبح أصفر شاحبًا، لا تكاد تُرى، لكن كانت هناك بقعة حمراء على ظاهر يدي اليمنى؛ الجلد المجعّد يستغرق دائمًا فترة أطول كي يلتئم. قبّلها أبي ووضعها على خدّه الذي تبلل. هل سيبقيني أبي هنا في المدرسة؟ خفت أن أسأله، لأنه سيقول لو كانت أمّك معنا لعرفت ما الذي يجب أن نفعله، ثم سيكتب رسالة إلى ديتي.

سحبتُ يديَّ من يديه، واستلقيت على مقعد المقصورة. لم أكترث لأنني أصبحت طويلة مثل امرأة بالغة. أحسست أنني صغيرة مثل طفلة، وكنت متعبة جدًا. سحبتُ ركبتيَّ حتى صدري وشبكتهما بيديَّ. غطاني أبي بمعطفه. فاحت رائحة تبغ غليون حلوة. أغمضتُ عينيَّ وتنشقّت الرائحة. لم أكن أعرف أنني اشتقت إليها. شددت المعطف فوقي، ودفنت وجهي في صوفه الخشن. تحت الطعم الحلو يوجد طعم حامض. رائحة ورق قديم. حلمتُ أنني أقبع تحت طاولة الفرز. عندما استيقظتُ، كنا قد وصلنا إلى أكسفورد.

***

في اليوم التالي لم يوقظني دا. وهبطت إلى الطابق الأرضي في وقت متأخر من بعد الظهر. خطر لي أن أمضي الساعات القليلة قبل موعد العشاء في غرفة الجلوس الدافئة، لكن عندما فتحتُ باب الغرفة رأيتُ ديتي جالسة مع دا. يجلس كلّ منهما على أحد جانبي المدفأة. ما إن رأياني، حتى توقفا عن حديثهما. بدأ أبي يملأ غليونه، ونهضت ديتي وسارت إلى حيث أقف. ومن دون تردد، ضمتني إليها بذراعيها الثقيلتين، محاولة أن تضم جسدي الذي أصبح طويلًا بالنسبة إلى جسدها الممتلئ، كما لو أنها لا تزال تستطيع أن تفعل ذلك. عندما رأت أنني تسمّرت في مكاني، تركتني.

ثم قالت: «سألتُ في مدرسة أكسفورد الثانوية للبنات».

أردت أن أصرخ وأبكي وأشتمها، لكنّي لم أفعل شيئًا من كلّ ذلك.

نظرتُ إلى دا.

«كان ينبغي لنا أن نرسلك إليها أولًا»، قال بنبرة حزينة.

عدتُ إلى سريري ولم أغادر غرفتي إلَّا عندما سمعتُ ديتي تغادر المنزل.

***

بعد ذلك بدأت ديتي تكتب لي كلّ أسبوع. كنت أترك رسائلها على الخوان إلى جانب باب البيت، دون أن أفتحها، وعندما تتراكم ثلاث أو أربع رسائل، كان أبي يأخذها. ثم بدأت ديتي تُرفق الصفحات التي تكتبها لي مع الرسائل التي ترسلها إلى دا، فيضعها على الخوان، مفتوحة، غير مثنية، تتوسل لأن أقرأها. كنت ألقي نظرة على ما هو مكتوب، أقرأ بضعة أسطر دون أن أقصد، ثم أمسك الصفحات وأجعّدها في قبضتي حتى تصبح كرة وألقي بها في سلة المهملات أو في الموقد.

تقع مدرسة أكسفورد الثانوية للبنات في شارع بانبري رود. لم أذكر أنا ولا أبي بأنها قريبة جدًا من المَنْسَخ. رحبّت بي الفتيات القلائل اللاتي كنّ في مدرسة سانت برنابا وانتقلن إلى هنا، لكنّي تعثّرت خلال الفترة المتبقية من العام الدراسي. استدعت مديرة المدرسة أبي إلى مكتبها وأبلغته أنني لم أنجح في اختباراتي. جلست على كرسي خارج باب مكتبها المغلق، وسمعتها تقول: «لا أستطيع أن أوصي بأن تستمر هنا».

«ماذا سنفعل بك؟» قال لي أبي ونحن عائدين إلى جيريكو.

هززتُ كتفي بلا مبالاة. كان كلّ ما أريد أن أفعله في تلك اللحظة، أن أنام.

عندما وصلنا إلى البيت وجدت رسالة من ديتي إلى دا. فضّ الرسالة وبدأ يقرأها. لاحظت أن لون خدّيه قد تغيّر، وانقبض فكّه، ثم دخل إلى غرفة الجلوس وأغلق الباب وراءه. وقفت في البهو أنتظر الأخبار السيئة. عندما خرج، مدّ لي الصفحات التي كتبتها ديتي لي بيد، وراح يداعب أعلى ذراعي باليد الأخرى حتى تشابكت يدانا، ثم قال: «هل يمكنك أن تسامحيني؟» وضع الصفحات على الخوان، وأضاف، «أظن أنك يجب أن تقرأي هذه»، ثم دخل إلى المطبخ ليملأ إبريق الشاي.

أخذتُ الرسالة.

28 تموز (يوليه) 1898

عزيزتي إسمي،

كتب لي هاري وقال إنك لا تزالين لست على ما يرام. بالطبع فهو يتجاهل حقيقة ذلك، لكنه وصفك بأنك «ساهمة» و «مهمومة» و «متعبة» في فقرة واحدة. وأكثر ما يثير القلق، أنه يقول إنك تتجنبين الذهاب إلى السكريبي، وتمضين اليوم كله في غرفتك.

كنت آمل أن تتغير الأمور بعد أن غادرت كولدشيلز وعدتِ إلى البيت لتعيشي مع والدك، لكن مضى على ذلك ثلاثة أشهر الآن. الآن بعد أن حلّ فصل الصيف، آمل أن يتحسن مزاجك شيئًا فشيئًا.

هل تأكلين يا إسمي؟ كنت نحيفة جدًا عندما رأيتك آخر مرة. طلبت من السيدة بالارد أن تدللك وتعدّ لك أطعمة لذيذة، حتى أخبرني هاري أنك لا تكادين تغادرين البيت، ومن المريح أن أتخيّل أنك تجلسين في كرسيك في مطبخها وهي تخبز لكِ قالب كيك. بالنسبة لي فأنتِ لا تزالين فتاة صغيرة، ترتدين مئزرًا أصفر منقطًا معقودًا حول صدرك. هكذا رأيتك ذات يوم عندما زرتُ أكسفورد. هل كنتِ في التاسعة أم في العاشرة؟ لا أتذكّر.

لقد حدث شيء ما في كولدشيلز، أليس كذلك يا إسمي؟ لم تذكري في رسائلك شيئًا عن ذلك الشيء. لكن رسائلك، عندما أفكّر في ذلك الآن، كانت رائعة. عندما أقرأها الآن، يمكنني أن أرى أحدًا آخر يمكن أن يكون قد كتبها. لكنها مكتوبة بخطّ يدك المميّز.

منذ بضعة أيام، أعدت قراءة ما كتبته حول زيارتك للقلعة الرومانية في تريمونتيوم، وكتبتِ قصيدة على غرار أسلوب وردزورث الرومانسي وكان أداؤك مرضيًا في اختبار الرياضيات. تساءلتُ إن كنتِ قد استمتعتِ بالنزهة، وكنتِ فخورة بقصيدتك. كان غياب الكلمات هو الدليل، لكنني لم أره.

كان ينبغي لي أن أولي اهتمامًا أكبر للأشياء التي لم تذكريها في رسائلك يا إسمي. كان ينبغي لي أن أزورك. كنت سأفعل ذلك، لولا مرض بيث. وعندما تماثلت للشفاء، نصحتني مديرة المدرسة بألّا آتي. قالت إن زيارتي ستصرف اهتمامي عن الدراسة في منتصف السنة، وقد استجبت لطلبها.

كان هاري يريد أن تعودي إلى البيت قبل ذلك بكثير (في الحقيقة، لم يكن هاري يريد أن تغادري). فأنا، يا عزيزتي إسمي، التي قالت إن مخاوفه لا أساس لها، وإن الطفلة التي اعتادت على الدراسة في مدرسة الأبرشية المحلية وفترات الغداء التي تمضيها في المَنْسَخ، تحتاج إلى فترة من الزمن لكي تعتاد على التأقلم في المدرسة الداخلية. وأنا التي طلبت منه أن يتركك فيها سنة أخرى، فقد تتغيّر الأمور إلى الأفضل.

بعد أن جاء وأخذك في عيد الفصح، أرسل لي هاري الرسالة الأكثر مباشرة وصراحة في حياتهن؛ فقد قال إنك لن تعودي إلى تلك المدرسة، مهما كان رأيي في هذا الموضوع. تذكرين أنني سافرت إلى أكسفورد في اليوم التالي. عندما رأيتك، لم أعترض على قراره.

لم نكد نتحدّث، أنا وأنت. كنت آمل أن الزمن سيعيدك كما كنتِ في السابق، لكن يبدو أنك تحتاجين إلى مدة أطول. إنك تقبعين في قلبي، يا فتاتي العزيزة، حتى لو أخرجتني من قلبك. آمل ألا يكون ذلك دائمًا.

أرفقتُ قصاصة فيها خبر ربما يكون مهمًا بالنسبة لك. لا أريد أن أفترض، لكني وجدت أن من الصعب ألّا أفعل ذلك. أرجو أن تسامحي عيني العمياء.

مع أعمق الحبّ دائمًا،

ديتي

طويت الصفحات حول قصاصة الخبر الصغيرة ودسستها في جيبي. لأول مرة منذ زمن أصبح عندي شيء أضعه في الصندوق عندما ذهبت إلى غرفة ليزي.

***

«ماذا لديك هناك، يا إسمي؟» سألتني ليزي عندما دخلت إلى غرفتها وهي تسحب مئزرها المبقع من فوق رأسها.

نظرت إلى المقالة الصغيرة المقصوصة من الجريدة. كانت عبارة عن جملة واحدة فقط، لا أكثر من اقتباس. طُردت معلّمة من مدرسة كولدشيلز للسيدات الشابات بعد أن نُقلت إحدى الطالبات إلى المستشفى.

قلت: «مجرد كلمات يا ليزي».

«لا توجد» كلمات فقط» بالنسبة لك يا إسمي، خصوصًا عندما ينتهي بها المطاف في الصندوق. ماذا تقول؟»

«تقول إنني لست الوحيدة».

أيلول (سبتمبر) 1898

خلال النهار، أساعد السيّدة بالارد في المطبخ، وفي المساء، عندما يكون معظم المساعدين قد غادروا إلى بيوتهم، أجازف وأذهب إلى المَنْسَخ. أقف مترددة عند الباب، كما تفعل ليزي عادة، أراقب هيلدا وهي تنتقل بين فتحات العلب، تصنّف القصاصات وتزيل أغلفتها، وتكتب رسائل وتصحح صفحات مسودات الطباعة. والدكتور موراي الذي يجلس طوال الوقت مثل بومة حكيمة إلى طاولة مكتبه المرتفع. عندما يراني، يدعوني أحيانًا لأن أدخل، ويظل صامتًا أحيانًا أخرى.

«لا لأنه غير موافق على مجيئك»، همس لي السيّد سويتمان ذات مرة، «وإنما لأن تفكيره يكون مشغولًا بشيء. فعندما يفكّر بعمق لشرح مفردة، فإنه لا يلاحظ شيئًا من حوله، حتى لو اشتعلت لحيته».

في عصر أحد الأيام، اقتربت من أبي عند طاولة الفرز، وسألته، «هل يمكنني أن أكون مساعدتك؟»

وضع خطًا على سطر في مسودة الطباعة التي يعمل عليها وكتب إلى جانبها ملاحظة، ثم رفع بصره.

«لكنكِ تساعدين السيّدة بالارد».

«لا أريد أن أصبح طاهية، أريد أن أصبح محررة».

كانت هذه الكلمات بمثابة مفاجأة لي ولدا.

ثم استدركتُ قائلة، «حسنًا، ليس محررة، وإنما مساعدة ربما، مثل هيلدا...»

«ألّا تدرّبك السّيدة بالارد على الطهي، كيف تطبخين»، قال دا، «إن ذلك سيفيدك عندما تتزوجين».

«لكنّي لن أتزوج».

«حسنًا، لا أقصد الآن».

فقلت: «إذا تزوجت، فلن يكون بإمكاني أن أصبح مساعدة في عمل القاموس».

«ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟»

«لأنني سأضطر إلى رعاية الأطفال والاعتناء بهم والطهي طوال اليوم».

صمت دا، ثم نظر إلى السيّد سويتمان يطلب منه مساعدته.

«إذا كنت لن تتزوجي، فلماذا لا تريدين أن تصبحي محررة؟» سألني السيّد سويتمان.

«لأنني فتاة»، قلت، منزعجة من استفزازه.

«وهل هذا أمر مهم؟»

احمّر وجهي، ولم أجبه. رفع السيّد سويتمان رأسه وعقد حاجبيه كما لو أنه يريد أن يقول «حسنًا».

فقال دا: «صحيح تمامًا يا فريد»، ثم نظر إليَّ ليتأكد من جدية ما قلته، وقال: «إن ما أحتاج إليه حقًا هو مساعدة يا إيزماي»، وأضاف، «وأنا متأكد من أن السيّد سويتمان يحتاج إلى مساعدة أيضًا من حين لآخر».

هزّ السيد سويتمان رأسه موافقًا.

***

أَوْفَيَا بوعدهما، وبدأتُ أتطلّع إلى فترات بعد الظهر لآتي إلى *المَنْسَخ*. كان يُطلب مني عادة أن أكتب ردودًا مهذبة للرسائل التي تهنئ الدكتور موراي على صدور الملزمة الأخيرة للقاموس. وعندما يبدأ ظهري يؤلمني، أو تحتاج يدي إلى استراحة، أعيد الكتب والمخطوطات إلى أماكنها. يوجد في *المَنْسَخ* رفوف مخصصة للقواميس والكتب القديمة، لكن المساعدين كانوا يضطرون إلى استعارة مختلف أنواع النصوص من أساتذة أو مكتبات الجامعة ليبحثوا في أصل الكلمات. عندما يكون الطقس جميلًا، لا يعود ذلك عملًا روتينيًا بالنسبة

لي. فقد كانت معظم مكتبات الجامعة الجيدة قريبة من وسط المدينة. كنت أقود دراجتي الهوائية في شارع باركس رود إلى شارع برود، ثم أترجّل من على الدراجة وأمشي بين جموع الناس بين مكتبة بلاكويل ومكتبة أشموليان. كنت أحبّ هذا الشطر من أكسفورد كثيرًا، حيث يعقد سكان البلدة والأكاديميون تحالفًا غير عادي يحاول كلّ منهم أن يظهر تفوقه على الزائرين الذين يأتون لرؤية الحدائق في حرم جامعة ترينيتي، أو الدخول إلى مسرح شيلدونيان. هل أنتمي إلى أهل البلدة، أم إلى الأكاديميين في الجامعة؟ كنت أتساءل أحيانًا. فأنا لا أقع في أيّ فئة منهما.

«صباح يوم جميل لنزهة على الدراجة»، قال الدكتور موراي ذات يوم. وهو يدخل عبر بوابة سانيسايد وأنا خارجة منها، «إلى أين ذاهبة؟»

«إلى الجامعة يا سيدي. سأعيد الكتب».

«الكتب؟»

فقلت: «عندما ينتهي المساعدون من عملهم بها، أعيدها إلى أماكنها».

فقال: «صحيح؟» ثم أحدث صوتًا لم أستطع تفسيره. عندما واصل طريقه، شعرت بشيء من التوتر.

في صباح اليوم التالي، ناداني الدكتور موراي.

قال: «أريد أن تأتي معي إلى مكتبة بودليان يا إسمي».

عندما نظرت إلى دا، ابتسم وهزّ رأسه. ارتدى الدكتور موراي رداءه الأسود وغادرنا المَنْسَخ معًا.

قدنا دراجتينا جنبًا إلى جنب على طول شارع بانبري، وباتباع الطريق الذي أسلكه عادة، انعطف الدكتور موراي إلى شارع باركس رود، وقال: «هذا الطريق ممتع أكثر، ففيه عدد أكبر من الأشجار».

نفخ الهواء ثوبه، وكانت لحيته البيضاء الطويلة تطير إلى أحد كتفيه. لم أكن أعرف سبب ذهابنا إلى مكتبة بودليان، ولم أجرؤ على أن أسأله. عندما انعطفنا إلى شارع برود، ترجّل الدكتور موراي من دراجته. أفسح له الجميع الطريق عندما بدأ يسير نحو شيلدونيان. عندما اجتاز الساحة، خُيِّل إليَّ أن تمثاليْ حرس الأباطرة المنتصبين إلى جانبي الطريق، يهزّان رؤوسهما احترامًا

وإقرارًا بمرور محرر القاموس. تبعته مثل تلميذة حتى توقفنا أمام باب مكتبة بودليان.

«في العادة، ليس من الممكن أن تصبحي قارئة يا إسمي، لأنك لستِ أكاديمية، لكنّي أريد أن أقنع السيّد نيكلسون بأننا نستطيع أن ننجز القاموس في وقت أبكر بكثير لو سُمح لك أن تأتي إلى المكتبة وتتحققي من الاقتباسات عوضًا عنا».

«ألا يمكننا أن نستعير الكتب فقط يا دكتور موراي؟»

التفت ونظر إليَّ من فوق نظارته، وقال: «لا يُسمح حتى للملكة أن تستعير كتبًا من مكتبة بودليان، تعالي الآن».

لم يقتنع السيّد نيكلسون على الفور. جلست على مقعد أراقب الطلاب وهم يمرون وسمعت صوت الدكتور موراي بدأ يرتفع.

قال «لا، إنها ليست طالبة، هذا أمر واضح».

نظر إليَّ السيد نيكلسون، ثم أعطى حجة أخرى بهدوء للدكتور موراي.

جاء ردّ المحرر أعلى هذه المرة، فقال: «إن جنسها وعمرها لا يؤهلانها إلى ذلك يا سيّد نيكلسون. لكن بما أنها تعمل في حقل معرفي - وأنا أؤكد لك أنها تفعل ذلك- فإن لديها أسبابًا قوية لأن تكون قارئة».

ناداني الدكتور موراي. أعطاني السيّد نيكلسون بطاقة، وقال بتردد واضح: «اقرأي هذه».

نظرتُ إلى البطاقة التي أعطاني إياها، ثم نظرت حولي إلى الشبان في أرديتهم القصيرة والأساتذة في أرديتهم الطويلة. لم تكد تخرج الكلمات من فمي.

«ارفعي صوتك من فضلك».

مرّت فتاة: طالبة ترتدي رداء قصيرًا. سارت بخطوات بطيئة، وابتسمت لي ثم أومأت برأسها. اعتدلت في جلستي، ونظرت إلى السيّد نيكلسون في عينيه مباشرة، وبدأت أقرأ.

«أتعهد بألاّ أخرج من المكتبة، أو أضع علامة، أو أمحو أو أسبب ضررًا، بأي شكل من الأشكال، لأي مجلد أو وثيقة أو أي شيء من هذا القبيل، أو يكون في عهدتها، وأتعهد بألاّ أجلب إلى المكتبة أي نار أو لهب أو أشعلها فيها، وألاّ أدخن في المكتبة، وأعد بأنني التزم بجميع قواعد المكتبة».

***

بعد بضعة أيام، وجدت ملاحظة فوق كومة الكتب التي تنتظر إعادتها إلى الباحثين ومكتبات الكليات.

تسدين لي معروفًا إن كان بإمكانك زيارة مكتبة بودليان للتحقق من تاريخ هذا الاقتباس لكلمة flounder الواردة في قصيدة توماس هود التي نُشرت في مجلة Literary Souvenir:

«أم أنك حيث يوجد سمك الفلاوندر،

عميقًا في الماء الأجاج».

توماس هود، قصائد إلى توم وودغايت، - 18

ج.م.

رويدًا رويدًا، بدأ مزاجي يتحسّن. ومع ازدياد المهام الموكلة إليَّ، بدأت آتي إلى المَنْسَخ في وقت مبكر بعد الظهر. ومع نهاية صيف عام 1899، أصبحت زائرة منتظمة لعدة مكتبات في الجامعة بالإضافة إلى عدد من الأكاديميين الذين كانوا سعداء لإتاحة مجموعاتهم من أجل مشروع القاموس. ثم بدأ الدكتور موراي يطلب مني أن أسلّم رسائل إلى مطبعة جامعة أكسفورد في شارع والتون ستريت.

«إذا ذهبتِ الآن، فإنك ستجدين السيّد هارت مع السيّد برادلي»، قال الدكتور موراي وهو يكتب رسالة بسرعة، وأضاف، «لقد تركتهما يتجادلان حول كلمة forgo. بالطبع، فإن هارت على صواب. فلا يوجد سبب منطقي يدعو إلى إضافة حرف e، لكن يجب إقناع برادلي. لا بد أن هذه الرسالة ستساعد على

حلّ المسألة، مع أن برادلي لن يشكرني على ذلك»، وسلّمني الرسالة. عندما رأى الحيرة بادية على وجهي، أضاف: «إن البادئة هي fore- ، كما في كلمة forget، وليس foregone. فهمتِ؟»

هززت رأسي مع أنني لم أكن متيقنة من أنني فهمت ما قاله تمامًا.

«طبعًا فهمتِ. إنها straightforward، واضحة ومباشرة». ثم نظر إليَّ من فوق نظارته، والتوت زاوية فمه في ابتسامة نادرة، وأردف قائلًا: « بالمناسبة forward هذه من دون حرف e».

كان المندوبون قد عيّنوا السيد برادلي محررًا ثانيًا منذ عشر سنوات تقريبًا، لكن الدكتور موراي كان يوقفه عند حدّه. قال لي أبي ذات يوم إن هذه هي طريقته ليذكّر الناس من هو قائد القطار وإن من الأفضل أن يدع تعليقات كهذه من دون ردّ. ابتسمت، واستدار الدكتور موراي نحو طاولة مكتبه. عندما غادرت المَنْسَخ، قرأت الرسالة.

ينبغي ألَّايتجاوز الاستخدام الشائع المنطق الاشتقاقي. إن كلمة Forego غير منطقية. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أوردها في القاموس لأن لها تهجئة إملائية بديلة، وسأكون سعيدًا بألاّ يشجّع كتاب قواعد هارت على ذلك.

ج.م.

أعرف كتاب قواعد هارت الذي توجد لدى أبي نسخة منه. قال لي ذات يوم: «إن الإجماع غير ممكن دائمًا يا إسمي، لكن الاتساق ممكن، ويُعتبر كتاب قواعد هارت الصغير الحكم الفصل للعديد من الجدالات التي تدور حول تهجئة كلمة إملائيًا، أو إذا كانت بحاجة إلى إضافة شرطة واصلة».

عندما كنت طفلة، كان أبي يصطحبني أحيانًا إلى المطبعة إذا كان لديه سبب ليتحدّث مع السيّد هارت الذي يُعرف باسم (المشرف)، المسؤول عن جميع عمليات طباعة القاموس. عندما اجتزت البوابة الحجرية لأول مرة وتوجهت إلى الساحة المربعة، أُخذت بساحتها التي تتوسطها بركة كبيرة محاطة بأشجار وحدائق من مختلف أنواع الأزهار، وتتناثر المباني الحجرية المؤلفة من طابقين أو ثلاثة طوابق في جميع الجهات. عندما سألت أبي لماذا المطبعة أكبر من المَنْسَخ بكثير، قال: «لإنها لا تطبع القاموس فقط يا إسمي، وإنما تطبع أيضًا الكتاب المقدس وكتبًا أخرى من جميع الأنواع». اعتبرت أن ذلك يعني أن

جميع الكتب في العالم تصدر من هذا المكان، وأصبح لهذه الأبهة فجأة معنى منطقيًا، وتخيّلت أن المشرف يشبه الله إلى درجة ما.

ترجلّت من الدراجة تحت القوس الحجري المهيب. كانت الساحة المربعة تعجّ بأشخاص لا بد أنهم ينتمون إلى هذا المكان؛ فتيان في مآزر بيضاء يجرّون عربات محمّلة برزم من الأوراق، بعضها مطبوعة وقُصَّت بالحجم المناسب، وبعضها فارغة وكبيرة بحجم مفارش المائدة. رجال في مآزر مبقعة بالحبر يسيرون في مجموعات صغيرة وهم يدخنون، وآخرون من دون مآزر، يتفحصّون الكتب أو مسودات الطباعة. عندما ارتطم ذراع أحدهم بذراعي، تمتم معتذرًا دون أن يرفع عينيه. كان كلّ اثنين يتحدّثان معًا ويشيران إلى أوراق سائبة، لا بد أن فيها أخطاء. تساءلت كم مشكلة لغوية حُلّت أثناء اجتيازهم هذه الساحة المربعة؟ ثم رأيت امرأتين أكبر مني سنًّا بقليل تجتازان الساحة كما لو أنهما تفعلان ذلك كلّ يوم، وأدركت أنه لا بد أنهما تعملان في المطبعة. عندما اقتربتا مني، لاحظت أنهما تتكلمان بطريقة تختلف عن الطريقة التي يتكلم فيها الرجال: كانت إحداهما تميل نحو الأخرى، ترفع يدها وتقرّبها من فمها تنصت إلى الأخرى، ثم أطلقت ضحكة خفيفة. لم يكن في أيديهما شيء يشغلهما، ولا مشاكل يتعين عليهما حلّها. لقد انتهى يوم عملهما، وكانتا سعيدتين لأنهما عائدتان إلى بيتهما. أومأتا لي برأسيهما عندما مررت إلى جانبهما.

كانت مئة دراجة هوائية مركونة على طرف الساحة. ركنت دراجتي في مكان بعيد قليلًا كي أجدها بسهولة عندما أنهي عملي.

عندما قرعت باب مكتب السيّد هارت ولم أسمع ردًّا منه، بدأت أتمشّى في الممر. قال لي أبي إن المشرف لا يغادر المبنى قبل العشاء، ولا يغادر قط من دون أن يبلغ المنضّدين يذلك ويجري جولة تفقدية على المطبعة.

كانت غرفة التنضيد قريبة من مكتب السيد هارت. دفعتُ الباب ونظرت حولي. كان السيد هارت واقفًا على الجانب الآخر من الغرفة يتحدّث إلى السيّد برادلي وأحد المنضدين. كان شارب المشرف الكثّ أكثر ما أتذكّره عندما كنت أرافق أبي لزيارته. مع مرور السنوات، ازداد لونه بياضًا لكنه لم يفقد شيئًا من حجمه الذي أصبح الآن بمثابة نقطة علاّم بارزة لي، يوجهني بين صفوف مقاعد المنضّدين الذين تمتلئ أسطح طاولاتهم المائلة بصوان فيها جميع أنواع الحروف. تملكّني شعور بأنني ربما تجاوزت حدود الآخرين.

عندما اقتربتُ، نظر إليَّ السيّد هارت، لكنه لم يتوقف عن حديثه مع السيّد برادلي. أدركتُ أنهما كانا يتجادلان، وشعرت أن جدالهما لن يتوقف حتى يفوز السيّد هارت. من وقفته لم يكن يبدو أنه المحرر الثاني، ولم يكن يرتدي البذْلَة التي يرتديها المحررون، لكن وجهه كان عابسًا بينما كان وجه السيّد برادلي بشوشًا. إنها مسألة وقت. وقعت عينا المنضّد عليّ وابتسم، كما لو أنه يعتذر بالنيابة عن الرجلين الآخرين. كان أطول قامة منهما بكثير، نحيفًا وأنيقًا، شعره داكن، ويكاد لون عينيه يميل إلى اللون البنفسجي. ثم عرفت من هو. كان تلميذًا في مدرسة سانت برنابا، عندما كنت أراقب الفتيان وهم يلعبون في الباحة المخصصة لهم، عندما لم تكن أي فتاة تشاركني اللعب في الباحة المخصصة لنا. أظن أنه لم يعرفني.

«هل يمكنني أن أسألكِ كيف تتهجين كلمة forgo؟» سألني، ومال نحوي.

«حقًا، ألا يزالان يتجادلان حولها؟» قلت هامسة، «لهذا السبب، أنا هنا».

عقد حاجبيه، لكن قبل أن يسألني شيئًا آخر، قال لي السيّد هارت: «إسمي، كيف حال والدك؟»

«إنه بخير يا سيدي».

«هل هو هنا؟»

«لا، أرسلني الدكتور موراي»، وسلمته الرسالة التي تجعدّت قليلًا في يدي المتوترة.

قرأها السيّد هارت وهزّ رأسه ببطء موافقًا. لاحظت أن طرفي شاربيه المبرومين قد ارتفعا قليلًا، ثم أعطى الرسالة إلى السيّد برادلي، وقال: «هذه الرسالة ستحسم الأمر يا هنري».

قرأ السيد برادلي الرسالة وظلّ طرفا شاربيه ثابتين. ثم توقف عن الجدال حول كلمة forgo بإيماءة مهذبة.

«الآن، غاريث، أرجو أن تري السيد برادلي مسودات كلمة get»، قال السيد هارت وهو يصافح المحرر.

فقال المنضّد: «نعم يا سيدي»، ثم التفت إليّ وأضاف: «تشرفت بلقائك يا ميس».

قلت في نفسي، لكن ألم نلتق قبل الآن.

استدار وسار باتجاه طاولته، وتبعه السيد برادلي.

ذهبت لأودّع السيّد هارت، لكنه كان قد انتقل إلى طاولة أخرى، وبدأ يدّقق في عمل رجل متقدّم في السن. أردتُ أن ألحق به لأفهم ما الذي يفعله كلّ واحد منهم.

كان معظمهم ينضّدون كلمات من المخطوطات: في كل علبة، كانت أكوام صفحات متماثلة في يد واحدة. منضّد واحد فقط. نظرت باتجاه طاولة التنضيد التي يقف أمامها الآن السيّد برادلي مع المنضّد الشاب. كانت هناك ثلاث أكوام من القصاصات مربوطة بخيط، وكومة أخرى غير مربوطة، نُضِّدت نصف كلماتها للتو، والنصف الآخر لا يزال ينتظر.

«ميس نيكول».

التفتُ ورأيتُ السيّد هارت يمسك الباب مفتوحًا. سرت بين صفوف طاولات التنضيد وخرجت.

في الأشهر القليلة التالية، بدأ الدكتور موراي يطلب مني أن أذهب وأسلّم المشرف بعض الرسائل والملاحظات. كنت آخذها بسعادة كبيرة، راجية أن تتاح لي فرصة أخرى لزيارة غرفة التنضيد، لكن كلما قرعت باب مكتب السيد هارت، كان يجيب.

كان يطلب مني أن أنتظر قليلًا إذا كان الدكتور موراي قد طلب أن يحصل منه على رد فوري، ولم يكن يدعوني لأن أجلس. كنت أظن أن السيّد هارت لم يكن يتعمد ذلك لأنه كان يبدو متوترًا باستمرار، وكنت أظن أنه يفضّل أن يكون موجودًا في غرفة التنضيد أيضًا.

في فترات الصباح، كنت أساعد السيّدة بالارد، لكنّي لم أكن أُبدي ميولًا للعمل في المطبخ. «هناك أشياء أكثر من لعق الوعاء حتى ينظف تمامًا»، كانت تقول عندما لا تنضج كعكة أخرى، أو كلما وجدت، عندما تذوقها، أنه ينقصها بعض المكونات الرئيسية. كنا نشعر، أنا وهي، بالراحة عندما تتقلص الفترة التي أمضيها معها في المطبخ عندما أُكلّف بمهام من أجل القاموس. ومنذ أن بدأ الدكتور موراي يطلب مني أن أوصل له رسائل في بعض الأحيان، أصبحت أشعر بارتياح أكبر في المَنْسَخ. لعلهم لم ينسوا الأشياء التي ارتكبتها في الماضي، لكنهم لاحظوا، على الأقل، أنني مفيدة لهم.

«عندما تعودين، أكون قد كتبتُ مدخلين»، قال السيد سويتمان ذات مرة، «تابعي بهذه الطريقة، وسننتهي قبل أن ينتهي القرن».

***

عندما أنهيت العمل المنزلي مع السيّدة بالارد، خلعت مئزري وعلّقته على خطاف وراء باب خزانة المؤن.

«أصبحتِ الآن أكثر سعادة»، قالت ليزي وهي تجهّز الخضراوات.

فقلت: «الزمن».

«إنه السكريبى»، قالت ونظرت إليَّ نظرة تحذير أربكتني.

«كلما أمضيتِ وقتًا أطول هناك، استعدتِ شخصيتك القديمة».

«أليس هذا شيئًا جيدًا؟»

«بالتأكيد، إنه شيء جيد»، قالت ووضعت كومة من الجزر المفروم في طبق، ثم بدأت تقطّع الجزر الأبيض إلى نصفين، وأضافت، «لا أريد أن يغويك شيء».

«كيف؟»

«بالكلمات».

عندها أدركت أنه لم تكن هناك كلمات، وإنما مهام من جميع الأنواع أنفذها، كتب ومذكرات ورسائل شفهية، لكن لا توجد كلمات. لا مسودّات طباعة. فلم يعد أحد يثق بي حتى بقصاصة واحدة.

كانت هناك سلة إلى جانب باب المَنْسَخ. وفي كلّ يوم، كان عليّ أن أعيد بعض الكتب إلى أماكن مختلفة وقائمة بالكتب المستعارة، بالإضافة إلى اقتباسات يجب التحقق منها في مكتبة بودليان، ورسائل ينبغي إرسالها بالبريد، وملاحظات يجب تسليمها إلى السيّد هارت وأحيانًا إلى الأكاديميين في الكليات المختلفة.

في أحد الأيام، وصلت ثلاث رسائل في البريد موجهة إلى السيّد برادلي التي كانت تصل إلى المَنْسَخ في أحيانٍ كثيرة، وكان عليَّ أن أوصلها إلى مكتبه في المطبعة. لم تكن غرفته تشبه المَنْسَخ بأي شكل من الأشكال، وإنما كانت

غرفة مكتب عادية، ليست أكبر من غرفة السيّد هارت بكثير، مع أن لدى السيّد برادلي ثلاثة مساعدين؛ أحدهم ابنته إليانور التي تقارب الثالثة والعشرين من عمرها، نفس عمر هيلدا موراي، لكنها كانت تبدو كأنها أمّ، وكلما أتيت، قدّما لي قليلًا من الشاي والبسكويت.

في هذا اليوم، جلسنا إلى الطاولة الصغيرة في مؤخرة الغرفة التي تضع فيها أدوات الشاي. كان المكان ضيقًا لا يتسع لنا كلينا. لم تكن إليانور تريد أن تأكل أو تشرب على الطاولة التي تعمل عليها كي لا ينسكب فوقها شيء. تناولتْ قطعة بسكويت وسقط فتات على تنورتها. يبدو أنها لم تلاحظ ذلك، ثم مالت نحوي وهمست: «هناك شائعة تقول إن مندوبي المطبعة سيعيّنون محررًا ثالثًا قريبًا». اتسعت عيناها وراء نظارتها ذات الحواف السلكية، وأضافت: «يبدو أننا لا نحرز تقدمًا بالسرعة التي يريدونها. إن طباعة مزيد من المَلَازم يعني أنه يجب أن تحصل خزينة المطبعة على مزيد من المال».

«إلى أين ستذهب؟» نظرتُ حولي في المكتب الضيّق، وأضفت، «لا أتخيّل أن الدكتور موراي مستعد لأن يشاركه أحد في المَنْسَخ».

فقالت إليانور: «لا أحد يتخيّل ذلك. لحسن الحظ، هناك شائعة أخرى تقول إننا سننتقل إلى مكتبة أشموليان. ذهب أبي إليها الأسبوع الماضي ليأخذ المقاييس ويستطلع المكان».

«في شارع برود؟ أحبّ ذلك المبنى كثيرًا، لكن أليس هو متحفًا؟»

«بدأوا ينقلون معظم المجموعات إلى متحف التاريخ الطبيعي في شارع باركس رود، وسيخصصون لنا حيزًا كبيرًا في الطابق الأول، وسيظلون يلقون محاضرات في الطابق العلوي وفي المختبر في الطابق الأرضي». نظرت حولها، وأردفت، «سيكون تغييرًا كبيرًا، لكني أظن أننا سنعتاد على ذلك».

«هل يمانع السيّد برادلي في أن يشاطره محرر آخر غرفة مكتبه؟»

«إذا كان ذلك يؤدي إلى تسريع العمل في القاموس، لا أظن أنه يمانع. وسنكون إلى جانب مكتبة بودليان. لعل نصف الكتب في إنكلترا تُطبع في هذه المطبعة، لكن جميع الكتب في إنكلترا ستُخزّن في مكتبة بودليان. يا لها من جار مثالي».

رشفتُ الشاي بالحليب، ثم سألتها، «ما هي الكلمات التي تعملين عليها يا إليانور؟»

فقالت: «بدأنا العمل على الفعل go (يذهب) وأظن أنه سيستغرق عدة أشهر». جرعت كوبها، وقالت: «تعالي معي».

لم أرَ طاولة مكتبها عن قرب قبل الآن. كانت تغطيها أوراق وكتب وصناديق ضيقة مليئة بمئات بالقصاصات.

«انظري إليها»، قالت وأشارت إليها بيدها.

اعترتني رغبة قوية في أن ألمسها، لكن دفقة من الخجل تبعت ذلك.

عندما غادرتُ، سرتُ إلى جانب الدراجة، واجتزت ساحة المطبعة المزدحمة تحت القنطرة حتى شارع والتون. كانت قصاصات إليانور أولى القصاصات التي أراها عن قرب منذ أن عدت إلى المَنْسَخ. هل دار نقاش حول ذلك؟ هل وافق الدكتور موراي على أن أعود ما دمت بعيدة عن الكلمات؟

***

«ربما أستطيع أن أساعد على فرز القصاصات»، قلت لدا ونحن نسير عائدين إلى المنزل في تلك الليلة. لم يقل شيئًا، لكن يده وجدت قطع النقود المعدنية التي في جيبه، وبدأت أسمع رنينها عندما بدأ يحركها بين أصابعه.

لم يفه أحدنا بكلمة لبضع دقائق، لأن كلّ سؤال يخطر ببالي سيجد إجابة غير مريحة. في منتصف شارع سانت مارغريت، قال، «سأطلب ذلك من جيمس عندما يعود من لندن».

فقلت: «لم تطلب ذلك من الدكتور موراي قط».

سمعت رنين النقود في جيبه مرة أخرى. نظر إلى الرصيف ولم يقل شيئًا.

بعد بضعة أيام، عندما طلب الدكتور موراي أن أذهب لأسلّم السيّد هارت قصاصات كلمتيْ grade(*دَرَجَة*) و graded (*مُتَدَرّج*). مدّ يده إليَّ بحزم القصاصات التي كانت بعضها معقودة بخيط، وكانت كل قصاصة مرقمّة لسهولة ترتيبها إذا اختّل نظامها. أمسكتها بأصابعي المحترقة بقوة، لكن الدكتور موراي لم يفلتها من يده، ونظر إليَّ من فوق نظارته، وقال: «حتى

تُنضَّد يا إسمي، هذه هي النسخ الوحيدة»، ثم أضاف، «كلّ واحدة منها ثمينة جدًا»، ثم أفلتها من يده وعاد إلى طاولة مكتبه قبل أن أجيبه بشيء.

فتحتُ حقيبتي ووضعتُ الرزم بحرص شديد أسفل الحقيبة. ثمينة، كلّ واحدة منها، على الرغم من أن هناك سبلًا عديدة يمكن أن تضيع فيها. تذكّرتُ أكوام الكلمات المكدسة على منضدة مصفف الحروف، وتخيّلت أن هبة هواء واحدة، أو زائرًا أخرق، يمكن أن يجعل القصاصات تسقط على الأرض، تركب إحداها موجة هواء وتطير ثم تسقط في مكان آخر، يجدها طفل.

لم يكن يُسمح لي أن ألمسها، أما الآن، فقد كُلِّفت بحمايتها. أردت أن أقول ذلك لأي شخص عابر. لو كان هناك أحد في الحديقة في ذلك الحين، لوجدت وسيلة لأريه القصاصات، وأقول له إن الدكتور موراي عهد بها إليَّ. ركبت الدراجة المركونة خلف المَنْسَخ وخرجت من بوابة سانيسايد وسرت باتجاه شارع بانبري. عندما انعطفت إلى شارع سانت مارغريت، سالت الدموع على خدّي. كانت دافئة ولطيفة.

استقبلني المبنى في شارع والتون بطريقة مختلفة، فلم يعد مدخله الواسع مخيفًا، وإنما مرحبًا؛ لقد أصبحتُ شخصًا مهمًا في إعداد القاموس.

عندما أصبحتُ في المبنى، أخرجتُ رزمة من القصاصات من حقيبتي وحللتُ الخيط الذي يجمعها. كان كلّ معنى من كلمة grade مُعرّفًا في أعلى القصاصة، ثم تليه الاقتباسات التي توضح معناها. قرأت المعاني واكتشفت أن هناك معنىً ناقصًا. فكّرت في أن أخبر دا، أو الدكتور موراي، لكن غروري جعلني أضحك. ثم اصطدم بي شخص، أو ربما أنا التي اصطدمتُ به، فأفلتت أصابعي المحترقة قبضتها، وسقطت القصاصات على الأرض كأنها أوساخ. عندما نظرتُ لأرى أين سقطت، كان كل ما رأيته قدمين تخطوان نحوي بسرعة. بدأ الدم يتدفق من وجهي.

«لم يحدث أي ضرر»، قال رجل، وانحنى ليلتقط القصاصات التي تناثرت على الأرض، «فقد رُقمّت لهذا الهدف».

أعاد إليَّ القصاصات. ارتعشت يدي عندما مددت يدي لآخذها؟

«يا إلهي، هل أنت على ما يرام؟» قال، وأمسك بمرفقي، ثم أضاف: «يجب أن تجلسي قبل أن يُغمى عليك». فتح أقرب باب إلينا وأجلسني على كرسي داخل غرفة، وقال: «أرجو ألّا يزعجك الضجيج يا ميس. انتظري دقيقة وسأجلب لك كأسًا من الماء في الحال».

كانت تلك هي غرفة الطباعة، وكان الضجيج يملؤها، لكن كانت تنبعث إيقاعات فوق الإيقاعات، وقد هدّأت محاولة فصلها عن بعضها من روعي. دققت القصاصات: واحد، اثنان، ثلاثة. عددت حتى الثلاثين. لم تضع أي منها. ربطتها بالخيط وأعدتها إلى الحقيبة. عندما عاد الرجل، رآني أضع وجهي بين يدي، فقد طفت جميع المشاعر التي غمرتني في الساعة الماضية على السطح وأصبح من الصعب احتواؤها.

«تفضّلي كأس الماء»، قال وقرفص أمامي وأعطاني الكأس.

قلت له: «شكرًا، لا أعرف ما الذي جرى لي».

مدّ يده إليَّ وساعدني على أن أنهض من الكرسي. حامت عيناه فوق أصابعي المحترقة، فسحبتها بسرعة.

«هل تعمل هنا؟» سألته، ونظرت من خلفه إلى غرفة الطباعة.

فقال: «إذا احتاجت آلة إلى إصلاح»، ثم أضاف، «في معظم الأحيان، أنضّد كثيرة حروف الطباعة. أنا مُنضّد».

«إذن أنت الذي تجعل الكلمات تبدو حقيقية»، قلت، ونظرت إليه أخيرًا. كانت عيناه تميلان إلى اللون البنفسجي. كان هذا المنضّد الشاب نفسه الذي كان واقفًا مع السيد هارت والسيّد برادلي أثناء زيارتي الأولى.

أمال رأسه، وخُيّل إليّ أنه لم يفهم ما قصدته، لكنه ابتسم، وقال «أفضّل أن أقول إنني أمنح الكلمات جوهرًا، فحوى، فالكلمة الحقيقية هي التي تُقال بصوت مسموع وتعني شيئًا ما لشخص ما، لكن لن تجد كلّ الكلمات طريقها إلى صفحة. هناك كلمات أسمعها دائمًا لكني لم أنضّدها قط».

ما هي تلك الكلمات؟ أردت أن أسأله. ماذا تعني؟ من الذي يقولها؟ لكن لساني عُقد، ولم أستطع أن أقول شيئًا.

«يجب أن أذهب الآن»، استطعت أن أقول له أخيرًا، «يجب أن أسلّم هذه القصاصات إلى السيّد هارت».

فقال مبتسمًا: «حسنًا، كان من الجيد أنني اصطدمت بك يا إسمي»، ثم قال مبتسمًا، «اسمك إسمي، أليس كذلك؟ لم نتعرّف على بعضنا بعد».

تذكّرت عينيه لكنّي لم أتذكّر اسمه. وقفت أمامه، صماء خرساء، لا أحر جوابًا.

«غاريث»، قال ومدّ يده مرة أخرى، «سعدتُ بلقائك كثيرًا».

ترددتُ، ثم أعدتُ يدي إلى يده. كانت أصابعه طويلة مستدقة، وإبهامه منتفخ على نحو غريب. لم أبعد عيني عنه.

قلت: «سررت بلقائك أنا أيضًا».

فتح الباب وودّعني خارج الغرفة، ثم سألني، «هل تعرفين الطريق؟»

«نعم».

«حسنًا. انتبهي لنفسك وأنتِ تسيرين».

استدرتُ وتوجّهت إلى مكتب المشرف. أحسست بالارتياح عندما سلّمته القصاصات.

***

بدأ قرن جديد، ومع أنه كان يسود شعور بأن أي شيء يمكن أن يحدث، لم يخطر ببالي قط أن أرى الدكتور موراي يقترب من باب المطبخ. عندما رأته السيدة بالارد يسير على العشب نحو المطبخ، جففت يديها بمئزرها، وسوّت شعرها الذي تهدّلت خصل منه من قبعتها. رفعت مزلاج الباب، ومدّ الدكتور موراي رأسه، وبدأت لحيته الطويلة تتطاير من الهبات الدافئة المنبعثة من الموقد.

«وأين ليزي؟» سألها ونظر إلى حيث أقف إلى جانب الطاولة، أعجن عجينة كيك.

«أرسلتها لتجلب بعض الأشياء يا دكتور موراي، يا سيدي»، قالت السيّدة بالارد، «ستعود بعد قليل، ثم ستساعدها إسمي في نشر الغسيل في غرفة تجفيف الثياب. إسمي تساعدنا كثيرًا».

«حسنًا، قد يكون الأمر كذلك، لكنّي أريد أن تأتي إسمي معي إلى المَنْسَخ».

بشكل غريزي، فتّشتُ جيوبي. نظرت السيّدة بالارد إليَّ. هززت رأسي كما لو أني سأقول إني لم أفعل شيئًا، أعدكِ.

وقالت: «اذهبي الآن يا إسمي. اتبعي الدكتور موراي إلى السكريبي». خلعت مئزري وبدأت أسير كما لو كنت أسير في ضبابٍ كثيف باتجاه باب المطبخ.

عندما وصلتُ إلى المَنْسَخ، رأيت أبي يبتسم. توجد لدى أبي عدة ابتسامات، لكن هذه الابتسامة التي «يزمّ فيها شفتيه» أكثر ابتسامة أحبّها؛ والتي يبذل جهدًا ليبدي ابتسامته من وراء شفتيه المزمومتين، وحاجبيه المرتعشين. أفردتُ أصابعي من قبضتها.

أخذني أبي من يدي وسرنا ثلاثتنا إلى الجزء الخلفي من المَنْسَخ.

«هذه لك يا إيزماي»، قال أبي وانبعثت تلك الابتسامة.

وراء رفّ القواميس القديمة تقبع طاولة خشبية كالتي كنت أجلس إليها في غرفة صفّ باردة في مدرسة كولدشيلز. ارتعشت أصابعي عندما تذكّرت الألم الذي ألمّ بي عندما سقط الغطاء فوقها. همست ساخرة لشيء تردد في رأسي بأن أصابعي لم تعد تنفع لشيء. بدأت أرتجف، لكن يد أبي على كتفي أعادتني إلى المَنْسَخ. عندما رفع الدكتور موراي غطاء الطاولة، ظهرت أقلام رصاص جديدة وقصاصات فارغة وكتابان عرفتهما على الفور.

«إنهما كتابا إلسي»، سمعت نفسي أقول للدكتور موراي، لأوضح له أنني لم آخذهما.

«لقد قرأتهما إلسي يا إسمي، وهي تريد أن تقرأيهما. اعتبريهما هدية عيد ميلاد متأخرة، لا بل، هدية بمناسبة حلول القرن الجديد».

ثم لاحظت أن قطعة من ورق الجدران - خضراء باهتة مزدانة بورود صفراء صغيرة- قد ألصقت في أسفل الغطاء، نفس نوع الورق الذي يكسو جدران غرفة الجلوس في منزل موراي. ثم أدركت أن هذه الطاولة مختلفة عن الطاولات في المدرسة في كولدشيلز من نواحٍ عديدة أيضًا: فهي أكبر حجمًا ومصنوعة من خشب ناعم مصقول، ولها مفصّلات تلمع عندما يسقط عليها الضوء، وهي منفصلة عن الكرسي.

أغلق الدكتور موراي الغطاء ووقف لحظة محرجًا، ثم قال: «حسنًا، إذن. ستجلسين هنا، وسيكلفك والدك بعمل كلّ ما هو مفيد».

بعد أن قال ذلك، أومأ لدا إيماءة سريعة، وعاد إلى مكتبه.

ألقيتُ ذراعيَّ حول دا، وأدركت، لأول مرة، أنني يجب أن أنحني قليلًا لأضع خدّي على خدّه.

في صباح اليوم التالي، ارتديت ثيابي بحرص أكثر من المعتاد. لاحظت الثنيات المجعدة في التنورة التي كنت قد تركتها مرمية على أرضية الغرفة، فاخترت تنورة نظيفة أخرى من الخزانة. أمضيت نصف ساعة وأنا أحاول أن أروّض شعري وأعقده في ضفيرة رفيعة، مشدودة، كما كانت تفعل ليزي، لكن انتهى بي الأمر بأن عقدت شعري في شكل كعكة غير مرتَّبة، كالعادة. ثم بصقت على حذائي وفركته بزاوية ملاءة سريري، ثم دخلت إلى غرفة أبي لأنظر في مرآة ليلي.

«يمكنك أن تأخذيها وتضعيها في غرفتك إذا أردت». أجفلت عندما سمعت صوت دا، وأضاف، «لم تكن أمّك امرأة مزهوّة بنفسها، لكنها كانت تحبّ هذه المرآة».

تضرّج وجهي خجلًا عندما رأيت انعكاس صورتي في المرآة، وأدركت أن أبي يتفحصني ويقارنني. كانت ليلي طويلة القامة ونحيفة مثلي، وقد ورثت عنها بشرتها النقية وعينيها البنيتين. لكن بدلًا من خصلات شعرها الناعمة، توّجت رأسي شعر أبي الأحمر الناري. رأيته في المرآة وتساءلت ما هذا الذي رآه.

قال: «ستكون فخورة بك».

في سانيسايد، دقق أبي الرسائل الواردة في بريد الصباح، وبدلًا من أن أذهب وأنضم إلى ليزي والسيّدة بالارد في المطبخ، ذهبت معه إلى المَنْسَخ. أنار المصابيح الكهربائية الجديدة، وحرّك قطع الفحم في الموقد حتى توهجت. لم تكد درجة الحرارة تتغير كثيرًا، لكن كان هناك وهم بالدفء. وقفت إلى جانب طاولة الفرز، متوترة أنتظر التعليمات.

أعطاني أبي حزمة من الرسائل، وقال «من الآن فصاعدًا، ستكون هذه مهمتك يا إسمي. تجلبين الرسائل وتفرزينها كما رأيتني أفعل الآن. إنك محظوظة لأن الدكتور موراي لم يعد يطلب من الآخرين كلمات كثيرة. فقد كانت تأتينا أكياس مليئة بها، لكن على الرغم من ذلك، يجب أن تفتحي كلّ رسالة لتتأكدي من وجود قصاصات»، وفض مغلفًا، وقال: «هذه رسالة، لذلك، يجب أن تثبّتيها على المغلّف بدبوس ثم تسلميها إلى الشخص المرسلة إليه - هل تعرفين أين يجلس الجميع؟»

هززت رأسي. طبعًا، أعرف.

أخذت الرسائل إلى الجزء الخلفي من المَنْسَخ. كانت طاولتي محشورة في مكان ضيق بين رفيّن مليئين بالقواميس القديمة والجزء المرئي الوحيد من الجدار. تخيّلتها فتحة علبة كبيرة صُنعت خصيصًا لتناسب حجمي، أستطيع أن أرى منها جميع المساعدين الجالسين إلى طاولة الفرز، والدكتور موراي الجالس إلى طاولة مكتبه المرتفع، ولكي يروني، عليهم أن يرفعوا أعناقهم ويستديروا نحوي.

شعرت بالارتياح عندما أدركت أنه لا يزال باستطاعتي أن أراقب الآخرين، ولا يستطيعون مراقبتي، لكن وجودي لم يكن عرضيًا. لقد أصبحت لديّ طاولة، ولم يعد يُطلب من المساعدين تجاهلي، سأخدم الآن الكلمات كما يخدمونها. وقال الدكتور موراي إنه سيمنحني جنيهًا إسترلينيًا ونصف جنيه في الشهر، وهو مبلغ يكاد يبلغ ربع ما يحصل عليه دا، وحتى أنه أقل من أجر ليزي، لكنه يكفيني لشراء أزهار كلّ أسبوع وستائر لغرفة الجلوس، ولن أضطر بعد الآن لأن أطلب نقودًا من أبي عندما أريد أن أشتري فستانًا جديدًا.

***

بدأتُ أتطلّعُ إلى الطقس اليومي لفرز الرسائل التي تأتي بالبريد، وردود المساعدين المتوقعة عندما أسلمها لهم. لكلّ مساعد أسلوب وخطٌ يميزانه، كما كانت أحذيتهم وجواربهم تميّزهم ذات يوم.

كان السيّد مالينغ أول شخص في جولاتي تلك، كان يردد دائمًا كلمة (دانكون) مع انحناءة صغيرة من الجزء الأعلى من جسده. وقلّما كان السيّد بالك يرفع عينيه، وكان ينادي دائمًا ميس موراي. كانت هيلدا قد غادرت السنة الماضية لتدرس في كلية رويال هولواي في مدينة ساري، وحلّت إلسي مكانها، وكانت طاولتها إلى جانب طاولة أبيها. يبدو أن السيّد بالك لم يستطع أن يميّز بيننا، على الرغم من طول قامتي ولون شعري. أما أبي فكان يقول بكلّ بساطة شكرًا؛ سواء رفع بصره أم لم يرفعه، وذلك حسب صعوبة العمل الذي يقوم به.

لكنّي كنت أطيل الوقوف أمام السيّد سويتمان؛ الذي يضع قلمه على الطاولة ويدور في كرسيه، ويسألني دائمًا «ما الشيء الذكي الذي تعلمته في مطبخ السيّدة بالارد يا إسمي؟»

فأقول: «لقد وعدتني بإسفنجة من أجل شاي بعد الظهر».

فيقول: «ممتاز، يمكنك أن تواصلي ذلك».

كانت معظم الرسائل مرسلة إلى الدكتور موراي.

«البريد يا دكتور موراي».

«هل يستحق القراءة؟» يقول وينظر إليَّ من فوق نظارته.

«لا أعرف، لا يمكنني أن أقرر ذلك».

ثم يأخذ الرسائل مني، ويعيد ترتيبها بحسب تقبّله للأشخاص الذين أرسلوها. فيضع دائمًا الرسائل المرسلة من أعضاء «الجمعية اللغوية» في الأعلى، والرسائل المرسلة من مندوبي المطبعة في الأسفل.

عندما أنتهي من توزيع الرسائل، أعود إلى طاولتي وأؤدي المهام الصغيرة التي قد أُكلّف بها، لكنّي أمضي معظم يومي في فرز أكوام القصاصات؛ بحثًا عن كلمات معينة تبدأ بحرف M وأضعها بالترتيب، من أقدم اقتباس إلى أحدث اقتباس.

كانت الأيام التي يجلب فيها البريد رسائل تحتوي على قصاصات هي أفضل أيامي، فأتفحّص كلّ قصاصة وآمل أن أشاطر كلمة جديدة مع أبي أو الدكتور موراي. كان عليَّ أن أدقق كل كلمة، مهما كان ترتيبها في حروف الأبجدية إزاء الكلمات التي جُمعت للتو؛ فقد يقدّم الاقتباس معنى مختلفًا بعض الشيء، أو قد يكون تاريخ نشره قد سبق تاريخ الاقتباسات التي جُمعت من قبل. وعندما تأتي في البريد قصاصات، يمكنني أن أمضي ساعات بين فتحات علب القصاصات، لم أكن أعرف لماذا الوقت يمضي بسرعة.

آب (أغسطس) 1901

عملت بدأب ونشاط، ومضت سنة أخرى. كان كلّ يوم يشبه اليوم الذي سبقه، مع أن الكلمات كانت تلوّن الأيام بألوان مختلفة. فهناك الرسائل التي ترد بالبريد وهناك القصاصات والردود على الرسائل. في فترات بعد الظهر، كنت ما أزال أعيد الكتب إلى مكتبة بودليان، وأدقق الاقتباسات هناك. لم أكن أشعر بالضيق أو بالملل، حتى أن وفاة الملكة فيكتوريا لم توهن عزيمتي، فقد اتشحّتُ بالسواد كالأخريات، لكنّي كنت أسعد بكثير من تلك الأيام التي كنت أنزل فيها تحت طاولة الفرز.

عندما انقلب فصل الشتاء إلى فصل الربيع، انتقل السيد برادلي من المطبعة إلى غرفة القاموس الجديدة في مكتبة أشموليان، وانضم إليه المحرر الثالث؛ السيد كريجي ومساعدان اثنان. لم يوافق الدكتور موراي على المحرر الجديد وضغط على أفراد فريقه للعمل أكثر لإصدار الكلمات بسرعة أكبر، كما لو كان يريد أن يثبت أنه لا توجد ضرورة للمحرر الجديد، مع أننا نعرف جميعًا أن القاموس تأخر عشر سنوات.

في صيف عام 1901، بدأ السيّد بالك يناديني أخيرًا «ميس نيكول».

***

«سيكون الجو حارًا في المَنْسَخ اليوم»، قالت ليزي عندما مددت رأسي إلى المطبخ لأقول لها صباح الخير.

سألتها: «هل يمكنكِ أن تعدّي لنا عصير الليمون؟»

«لقد عدتُ من السوق للتو»، قالت وأمالت رأسها نحو طبق مليء بالليمون الأصفر البراق.

أرسلت لها قبلة في الهواء وعدت إلى المَنْسَخ، أدقق في الرسائل وأنا ذاهبة إليه.

أصبحت لديّ عادة تخمّين ما الذي يوجد في المغلّفات قبل أن أفتحها وأنا أسير في الحديقة باتجاه المَنْسَخ. خلطت كومة الرسائل لأجري تقديرًا سريعًا؛ بعض الرسائل موجهة إلى المحرر، وإذا كانت هناك رسائل الرقيقة فيها قصاصة واحدة فقط، تكون موجهة لي. وهناك رسائل عديدة موجهة إلى الدكتور جيمس موراي؛ معظمها من أشخاص عاديين (أعرف ذلك من خطّهم

وعناوينهم غير المألوفة)، بضع رسائل من أعضاء في الجمعية اللغوية، ورسالة في المغلّف المألوف من مندوبي المطبعة. لا بد أن هذه الرسالة الأخيرة إخطار يتعلق بالتمويل. إذا كانت تقترح أن يقلل الدكتور موراي محتويات القاموس للإسراع في العمل، فإننا سنعاني جميعًا من تعكّر مزاجه، لذلك وضعتها في أسفل الكومة ليبدأ يومه بقراءة التحيات الموجهة من الغرباء وإطراءاتهم.

كانت هناك رسالة أو رسالتان لكل مساعد، ثم، في أسفل الرزمة، وجدت رسالة موجهة إليَّ.

ميس إسمي نيكول، المساعدة الشابة

سانيسايد، المَنْسَخ

شارع بانبري،

أكسفورد

هذه أول رسالة أتلقاها في المَنْسَخ، وأول مرة يُعترف فيها بأنني مساعدة. سرَت قشعريرة في جسدي من الفرحة، لكن سرعان ما تلاشى هذا الشعور عندما أدركتُ أنه خطّ يد ديتي. على الرغم من مضي ثلاث سنوات، كلما تذكرتها تذكرت مدرسة كولدشيلز التي لم أكن أرغب في أن أتذكّرها.

كان اليوم حارًا، والهواء الذي يحيط بطاولتي ساكنًا وخانقًا. قبعت رسالة ديتي منعزلة عن الأكوام الأخرى. صفحة واحدة، وقصاصة واحدة، تسألني عن صحتي وكيف تسير أموري في المَنْسَخ. قالت إنها تلقت تقارير جيدة عني من أكثر من مصدر، واحمرّ وجهي فخرًا.

كانت القصاصة تتناول كلمة (شائع). مع أنني لم أشأ أن أتأثّر بها، فقد تأثّرت. عندما فتشت في فتحات العلب، لم أعثر على اقتباس موازٍ. إنها موجودة في رزمة كبيرة كانت قد فُرزت إلى عشرين معنىً مختلفًا. وبدلًا من أن أضعها في مكانها، أعدتها إلى طاولتي.

تتبعتُ الكتابة بيدي كما كنت أفعل مع أبي قبل أن أتعلّم القراءة. كانت ديتي قد اقتطعت القصاصة من ورقة رقّ ثقيل، وزينت حوافها بزخارف حلزونية تشبه

لفائف المخطوطات. رفعتها إلى وجهي وشممت فيها رائحة أزهار الخزامى المألوفة. تساءلت: هل رشّت العطر على القصاصة، أم أنه كان قريبًا جدًا منها قبل أن تضعها في المغلّف؟

لكي أعاقبها، لم يكن لديَّ شيء إلَّا الصمت. لم أجد الكلمات المناسبة. كم اشتقت إليها.

تناولت قصاصة فارغة من طاولتي، ونسخت فيها كلّ كلمة كتبتها ديتي.

LOVE

.”Love doth move the mynde to merci“

The Babees’ Book, 1557

الحبّ

«الحبّ يجعل العقل رحيمًا»

كتاب الأطفال، 1557

عدتُ أبحث في فتحات العلب، وثبّتُ النسخة في القصاصة الأكثر صلة بها، ووضعت قصاصة ديتي الأصلية في جيب تنورتي. فعلت ذلك لأول مرة منذ فترة طويلة.. شعرت بالارتياح.

***

أمضيت ساعة وأنا أفكّر في ديتي، في الكلمات التي قد أستخدمها لأنهي صمتي. عندما عدتُ إلى الرسائل أخيرًا، أخرجتُ قصاصة أخرى من مغلّفها. لم تكن هذه القصاصة مزخرفة، ولم تكن مثيرة للاهتمام. كانت هناك بعض الكلمات التي لم أسمع بها من قبل، ولم أكد أتخيّل أنها مستخدمة، ومع ذلك، فقد وجدت طريقها إلى القاموس لأن شخصًا عظيمًا كتبها. عندما أصادفها، أقول لنفسي إنها مجرد آثار.

كانت كلمة Misbode إحداها، والاقتباس مأخوذ من (حكاية الفارس) كتبها تشوسر: Chaucer’s The

Knight’s Tale، تقول: “Who hath yow misboden, or offended?” «(*من أساء إليك أو أهانك؟*»)

لا يقلّ عمر هذا الاقتباس عن خمسمائة سنة. تأكدت من أن القصاصة وافية، ثم بحثت عن فتحة العلبة التي توجد فيها القصاصات ذات الصلة. وجدت رزمة صغيرة لكني لم أجد عليها تعريفًا. أضفت اقتباس تشوسر. بعد فترة قصيرة ستُعرّف الكلمات التي تبدأ بحرف M؛ لأن الكلمات بحرف K قد اقتربت من الانتهاء. عدتُ إلى طاولتي. تناولت المغلّف التالي لأُفرغ محتوياته. عندما دققت جميع الرسائل وفرزتها، وزعتها على المساعدين. عندما اقتربت من طاولة الدكتور موراي، سلّمني رزمة من الرسائل التي وصلت الأسبوع الماضي.

قال: «إنها أسئلة بسيطة. أصبحتِ تعرفين الآن ما يكفي لتردّي عليها».

«شكرًا دكتور موراي».

أومأ برأسه وعاد إلى النسخة التي يعمل عليها.

لمدة ساعة أو نحو ذلك، لم يعكّر صفو العمل سوى صوت الرجال وهم يخلعون ستراتهم ويحلّون ربطات أعناقهم. كان المَنْسَخ يئنُّ عندما تهبط الشمس فوق سقفه الحديدي. فتح السيّد سويتمان الباب لتتسرب هبات من الهواء، لكن الجو كان خانقًا.

قرأتُ رسالة تسأل لماذا قُسِّمت كلمة Jew(يهودي) على ملزمتين اثنتين. كان إيراد كلمة واحدة في مطبوعتين محور أكثر من جدال دار بين الدكتور موراي ومندوبي المطبعة. إذ يتعلق هذا الأمر بالإيرادات التي يصرّ عليها المندوبون، وعندما أبلغهم الدكتور موراي أنه سيحصل تأخير في إصدار الملزمة التالية، وقال لهم إن مفردات كلمةJew بحاجة إلى بحث مفصّل أكثر، قالوا له انشر ما يوجد لديك.

استغرق التوصل إلى اتفاق حول كلمةJew ستة شهور، وكان الدكتور موراي يتلقى أسبوعيًا ما لا يقل عن ثلاث رسائل من أشخاص يطلبون منه تفسيرًا عن سبب إصدارها في ملزمتين. كتبتُ مسوّدة ردّ قلت فيه إن متطلبات الطباعة تقتضي وجود أرقام صفحات محددة لكلّ ملزمة، وإنه لا يمكن تعديل اللغة الإنكليزية لتتوافق مع هذه القيود. لذلك يتطلب الأمر أحيانًا تقسيم كلمة إلى ملزمتين، إلا أن معاني كلمة (Jew) ستُجمع كلها وتُنشر في المجلد التالي الذي يضم الحروف منHإلى K.

قرأتُ ما كتبته وشعرتُ بالسعادة. نظرت إلى الدكتور موراي وتساءلت إن كان عليّ أن أطلب منه أن يراجعها قبل أن أُغلق المغلّف وأُلصق عليه الطابع.

كان من المقرر أن يتناول الدكتور موراي طعام الغداء في كنيسة كرايست، لذلك كان جالسًا إلى طاولة مكتبه، وقد وضع على رأسه قلنسوته، وارتدى ثوبه الجامعي؛ الذي بدا مثل جناحين أسودين ضخمين لطائر أسطوري. من الزاوية التي أجلس فيها في الخلف، بدا أشبه بقاضٍ يترأس هيئة محلفين.

بينما كنت أستجمع شجاعتي لأقترب من طاولة مكتبه، وأطلب منه أن يراجع الرسالة التي كتبتها للتو، دفع الدكتور موراي كرسيه إلى الوراء. خدشت أرجل الكرسي ألواح الأرضية، كان من الممكن أن يوبخ أي شخص آخر لو فعل ذلك. رفع جميع الرجال أعينهم ورأوا الغضب الذي بدأ ينبعث من عينيّ المحرّر.

كانت في يد الدكتور موراي رسالة، وكان يحرّك رأسه يمنة ويسرة، رفض بطيء لما قرأه للتو. خيّم صمت مطبق على المَنْسَخ. استدار الدكتور موراي وسحب من الرف مجلد الحرفين A وB.

أحسست بالخبطة التي هوت على طاولة الفرز كأنها خبطة على صدري.

فتح المجلد إلى منتصفه، وراح يقلّب صفحة بعد صفحة، وعندما وجد الشيء الذي يبحث عنه أخذ نَفَسًا عميقًا. مسَحَت عيناه أعمدة صفحات القاموس، وبدأ المساعدون يتململون في أماكنهم. حتى أبي كان متوترًا، وقد وضع يده في جيبه وراح يحرّك قطع النقود المعدنية. مَسَح الدكتور موراي الصفحة بعينيه مرة أخرى، ثم نظر إلى أعلى الصفحة، وأمعن النظر فيها. مرّر إصبعه فوق عمود. لا بد أنه كان يبحث عن كلمة. انتظرنا. بدت لنا الدقيقة ساعة. مهما كانت الكلمة التي يبحث عنها، فلم يجدها.

رفع بصره. كان وجهه أشبه ببركان. ثم توقف قليلًا كما لو أنه سينطق حكمًا، نظر الدكتور موراي إلينا، الواحد تلو الآخر، وقد ضيّق عينيه، فتحتا أنفه تنفثان غضبًا من فوق لحيته الطويلة الفضية. كانت نظراته متجهمة وثابتة، كأنه يبحث عن الحقيقة في قلوبنا. عندما توقفت نظراته عندي، بدأتُ أرتعش. مال رأسه وارتفع حاجباه. كان يتذكّر السنوات التي كنت أقبع فيها تحت طاولة الفرز.

Who hath yow misboden? (*من أساء إليك؟*) تخيلته يقول لنفسه.

كان أبي أول من تتبع نظرة الدكتور موراي إلى المكان الذي أجلس فيه، ثم السيد سويتمان. رفع جميع المساعدين أعناقهم لينظروا إليَّ، مع أن

المساعدين الجدد شعروا بالارتباك. لم أشعر أنني مكشوفة كما شعرت الآن، ودهشت لأنني انتصبت في جلستي. لم أتحرّك ولم أطرق رأسي.

إذا كان الدكتور موراي يفكّر بأن يتهمني، فقد اتخذ قرارًا بألّا يفعل ذلك. التقط الرسالة مرة أخرى وأعاد قراءتها، ثم نظر إلى المجلد المفتوح أمامه. لم تكن هناك جدوى من البحث عنها للمرة الرابعة. وضع الرسالة بين صفحاته وغادر المَنْسَخ من دون أن ينبس بكلمة، وتبعته إليزي.

تنفّس المساعدون الصعداء. جفف أبي جبينه بمنديل. عندما تأكدوا من أن الدكتور موراي قد ذهب إلى المنزل، جازف بعض الرجال وخرجوا إلى الحديقة بحثًا عن نسمة هواء.

نهض السيد سويتمان وتوجه إلى مجلد الكلمات الذي كان لا يزال مفتوحًا على طاولة الدكتور موراي. مجلد الحرفين A وB. أخذ الرسالة وقرأها من أولها إلى آخرها. عندما نظر إليَّ، كان ثمة تعاطف في عينيه، وبدت على وجهه أيضًا مسحة ابتسامة عريضة. ثم لحق به أبي وأنعم النظر في الرسالة، ثم قرأها بصوتٍ عالٍ.

السيد المحترم،

أكتب إليك هذه الرسالة لأشكرك على قاموسك الرائع. لقد اشتركت لأتلقى الملازم فور صدورها، وقد جلّدتُ المجلدات الأربعة كلّها وهي تحتل خزانة كتب صنعتها خصيصًا لها، وآمل أن أراها، ذات يوم وقد امتلأت، مع أنني سأكون سعيدة لأخلّفها لابني. فأنا في العقد السادس وصحتي ليست على ما يرام.

منذ أن أتيحت لي السُّبل، دأبت على التفكير في بعض الكلمات وفهم تاريخها. كنت أرجع إلى قاموسك عندما قرأت كتاب The Lord of the Isles (ملك الجزر) والكلمة التي بحثت عنها هي bondmaid (خادمة مملوكة، عَبدَة). إنها ليست كلمة غامضة، لكن سكوت يستخدم شرطة واصلة. أظن أنها ليست ضرورية. ذُكر مرادف الكلمة الخاصة للذكر، أماكلمة خادمة مملوكة أو عَبدَة، فهي ليست موجودة.

يجب أن أعترف أنني شعرت بحيرة. فقد اتخذ قاموسك في عقلي مكانة مرجع لا جدال فيه. وأدرك أنه ليس من العدل أن نثقل كاهل أي عمل بشري بأن

نتوقع فيه درجة الكمال، ولا يسعني إلا أن أستنتج بأنك، مثلي، غير معصوم من الخطأ، وأنه لا بد أن هذه الكلمة قد سقطت سهوًا.

إني أوّزّك يا سيدي، بنوايا طيبة، ولك مني كلّ الاحترام.

المخلصة، إلخ.

***

سرت بخطوات بطيئة بقدر ما أستطيع فوق المرج بين المساعدين المستلقين على العشب، بيدِ كلٍّ واحدٍ منهم كأس طويلة مليئة بعصير الليمون. عندما بدأت أصعد الدرج إلى غرفة ليزي، خرجت السيدة بالارد من خزانة المؤن، تحمل بيضتين في كل يد.

قالت: «ليس من عادتك أن تمرّي من أمام مطبخي دون أن تلقي التحية».

«هل ليزي موجودة، يا سيّدة بالارد؟»

«حسنًا، صباح الخير أيتها الصبيّة»، قالت، ورمقتني من فوق نظارتها.

«أنا آسفة يا سيّدة بالارد. لقد حدث شيء مربك في المَنْسَخ وأخذنا كلنا استراحة لمدة دقيقة. كنت أتمنى لو كانت ليزي هنا، لعلي...»

«قلتِ شيء مربك؟» سألتني وواصلت طريقها نحو طاولة المطبخ، وراحت تكسر البيضتين على حافة وعاء عميق. نظرت إليَّ لأجيبها.

فقلت: «توجد كلمة مفقودة، والدكتور موراي غاضب».

هزّت رأسها وابتسمت وقالت: «هل يظنون أننا سنتوقف عن قولها إذا لم تكن واردة في قاموسهم؟ لا يمكن أن تكون أول كلمة فقدوها».

«أظن أن الدكتور موراي يعتقد أن الأمر كذلك».

هزّت السيدة بالارد كتفيها بلا مبالاة، ونقلت الوعاء إلى وركها. بدأت تخفق البيضتين حتى أصبح اهتزاز يدها سريعًا وبدا كالضباب، وامتلأ المطبخ دندنة مريحة.

قلت: «سأنتظر ليزي في غرفتها».

بينما كنت أمدّ يدي إلى الصندوق، دخلت ليزي، وقالت: «إسمي، ماذا تفعلين هنا بحق السماء؟»

«المكان وسخ هنا يا ليزي»، قلت، ورأسي لا يزال تحت سريرها الصغير، يدايّ تبحثان في الفراغ. «هذا ما لا أتوقعه أبدًا من أفضل خادمة في أكسفورد».

«اخرجي من هناك يا إسمي. سيتسخ ثوبك».

زحفت من تحت السرير، وسحبت الصندوق معي.

«ظننتُ أنك نسيتِ أمر هذا الصندوق».

تذكّرت قصاصة الصحيفة التي كانت قد أرسلتها ديتي. سأضعها فوق الكلمات الأخرى في الصندوق. لم أستطع أن أواجهها منذ فترة طويلة.

كانت تكسو الصندوق طبقة رقيقة من الغبار. «ليزي، هل تقصدّت أن تحافظي على الصندوق عندما ذهبت إلى المدرسة؟ أم أنك فعلت ذلك بالصدفة؟»

جلست ليزي على السرير وراحت تراقبني، ثم قالت: «أظن أنه لا يوجد سبب لأن أذكر ذلك لأحد».

سألتها، «هل كنتُ طفلة سيئة؟»

«لا، مجرد فتاة لا أمّ لها، مثل الكثيرات منّا».

«لكن لم يكن ذلك هو السبب الذي جعلهم يرسلونني إلى مكان بعيد».

«أرسلوك إلى المدرسة فقط، وربما كان ذلك لأنه لا توجد لديك أمّ تعتني بك. لقد رأوا أن ذلك أفضل شيء يفعلونه من أجلك».

«لكنها لم تكن الأفضل».

«أعرف ذلك، وقد عرفوا هم ذلك أيضًا. لذلك أعادوك»، قالت ليزي وهي تثبّت خصلة من شعري بدبوسها، وسألتـني، «ما الذي ذكّرك به الآن؟»

« أرسلت لي ديتي قصاصة»، قلت لليزي وأريتها لها. عندما قرأتُ الاقتباس، شعرتْ بالارتياح.

ثم نظرتُ إليها بخجل، وقلتُ: «وهناك سبب آخر».

«ما هو؟»

«يعتقد الدكتور موراي أن هناك كلمة مفقودة من القاموس».

نظرت ليزي إلى الصندوق، ومدّت يدها إلى صليبها. خُيّل إليَّ أنها ستغضب، لكنها لم تغضب.

«افتحيه ببطء»، قالت ليزي، «في حال دخل إليه شيء يمكن أن يجعله يجفل ويقفز عندما يرى الضوء».

***

أمضيت فترة بعد الظهر مع قاموس الكلمات المفقودة. دخلت ليزي إلى الغرفة وخرجت منها أكثر من مرة، أحضرت لي شطائر وكوب حليب، ونقلت على مضض رسالة إلى أبي بأنني لست على ما يرام. عندما دخلت إلى غرفتها للمرة الثالثة، أضاءت المصباح.

«أنا متعبة»، قالت وجلست بتثاقل على السرير، فتناثرت القصاصات فوقه: حرّكت يدها فوق القصاصات كما لو كانت أوراق شجرة، وسألتني، «هل وجدتها؟»

«وجدت ماذا؟»

«الكلمة المفقودة».

عادت النظرة التي ارتسمت على وجه الدكتور موراي إليَّ.

قلت: «نعم، وجدتها أخيرًا».

مددت يدي إلى المنضدة التي إلى جانب سرير ليزي وأخذت القصاصة. لا أظن أنني سأعيدها إلى الدكتور موراي، حتى لو لم يكن معكّر المزاج. لم أستطع أن أفكّر في طريقة يجعل وجود الكلمة في يدي أمرًا مقبولًا.

«هل تتذكّرينها يا ليزي؟» سألتها ومددتها إليها.

«لماذا عليَّ أن أتذكّرها؟»

«كانت أول قصاصة. لم أكن متأكدة، لكن عندما أخرجت كل شيء من الصندوق، كانت تقبع في قعر الصندوق. ألا تذكرين؟ كانت تبدو وحيدة هنا».

فكّرت قليلًا، ثم أشرق وجهها، وقالت: «أوه، تذكّرت. عندما وجدتِ دبوس قبّعة أمّي».

نظرتُ إلى الكلمات المحفورة على غطاء الصندوق من الداخل: قاموس الكلمات المفقودة. احمرّ وجهي.

«توقفي عن ذلك الآن»، قالت، ثم أومأت نحو الكلمة التي ما أزال أحملها في يدي، «كيف عرف الدكتور موراي أن هذه الكلمة مفقودة؟ هل يعدّها؟ توجد كلمات كثيرة».

«وصلته رسالة من امرأة كانت تتوقع أن تجدها في مجلد الحرفين A وB، لكنها لم تجدها».

فقالت ليزي: «لا يمكن أن يتوقع الناس أن جميع الكلمات موجودة في القاموس».

«لكنهم يتوقعون ذلك. ويضطر الدكتور موراي أحيانًا إلى أن يكتب لهم ويخبرهم عن سبب عدم ورود كلمة في القاموس. قال لي أبي إن ذلك يحدث لأسباب وجيهة عديدة، لكن هذه المرة، كان الأمر مختلفًا». شعرت بشيء من الاضطراب عندما تذكّرت ما جرى في الصباح. بخلاف المنطق السليم، شعرت بأنني حققت إنجازًا. فقد كنتُ السبب لحدوث شيء بدا أنه في بالغ الأهمية.

رأيت القلق باديًا على وجه ليزي.

«ما هي إذن؟» سألتني، «ما هي الكلمة؟»

فقلت: «Bondmaid»، بتروٍ وبطء، أتحسسها في حنجرتي وعلى شفتيّ: «الكلمة هي «Bondmaid» (خادمة مملوكة، عَبْدة).

نطقتها ليزي: «Bondmaid» ثم سألتني، «ماذا تعني؟»

نظرتُ إلى القصاصة. تعريف الكلمة مكتوب بخطّ دا. استطعت أن أرى مكان الدبوس الذي ثبتت في مكانها جميع القصاصات التي كتبت فيها الاقتباسات، أو

لعلها مسودة طباعة. لو كنت أعرف أنها سقطت من دا، هل كنت سأحتفظ بها؟

«حسنًا، ماذا تعني؟»

كانت هناك ثلاثة تعريفات.

قلت: «خادمة مملوكة، أو عَبْدَة، أو شخص يجب أن يخدم إلى أن يموت».

فكّرت ليزي فيها قليلًا، ثم قالت: «هذا ينطبق عليَّ. أظن أنني يجب أن أخدم عائلة موراي حتى اليوم الذي أموت فيه».

«أوه، لا أظن أنها تصفكِ أنتِ يا ليزي».

فقالت: «حسنًا. لا ترتعبي هكذا يا إسمي. أنا سعيدة لأنني مذكورة في القاموس، أو أنني سأذكر فيه، بسببك»، ابتسمتْ، وأضافتْ، «أتساءل ماذا يُذكر في القاموس عني أيضًا؟»

فكّرت في الكلمات الموجودة في الصندوق. بعضها لم أسمع بها أو أقرأها إلَّا عندما رأيتها في قصاصة. كان معظمها مألوفًا، لكن شيئًا في القصاصة أو في خطّ اليد جعلها عزيزة عليَّ. هناك كلمات سخيفة فيها اقتباسات مكتوبة بخط غير مقروء لن تجد طريقها إلى القاموس أبدًا، وهناك كلمات فيها جملة واحدة فقط؛ كلمات بسيطة، مستحدثة، لم تجد طريقها إلى القاموس على الإطلاق.. لقد أحببتها كلها.

لم تكن كلمة (جارية) كلمة وليدة، وقد أزعجني معناها.

كانت ليزي على صواب؛ فهي تشير إليها كما تشير إلى فتاة مُستَعبّدة من العصر الروماني. تذكّرت غضب الدكتور موراي حينذاك، وشعرت بأن غضبي يزداد ليقابل غضبه. قلت في نفسي، ينبغي ألّا تكون هذه الكلمة. ينبغي ألّا تكون موجودة. يجب أن يكون معناها غامضًا. لا بد أنها كلمة عتيقة، ومع ذلك، لا تزال تُفهم بسهولة الآن كما كانت في أي فترة في التاريخ. تلاشت بهجة حكاية القصة.

«أنا سعيدة لأنها ليست في القاموس يا ليزي. إنها كلمة فظيعة».

«قد تكون كذلك، لكنها كلمة حقيقية؛ سواء أكانت في القاموس أم لم تكن، ستبقى الجواري والأمات موجودات باستمرار».

توجهت ليزي إلى خزانتها لتختار مئزرًا نظيفًا، ثم قالت: «يجب أن أذهب الآن يا إسمي، فقد طلبت مني السّيدة بالارد أن أحضّر العشاء. يمكنك أن تبقي هنا إذا أردت».

«سأبقى إذا لم يكن لديك مانع يا ليزي. أريد أن أكتب رسالة إلى ديتي. أريد أن تذهب الرسالة في بريد الصباح».

«حان الوقت لتفعلي ذلك».

16 آب (أغسطس) 1901

عزيزتي إسمي،

لقد انتظرت رسالتك كثيرًا. أظن أن ذلك تكفير عمّا فعلته، وأنا أستحق ذلك بحق. كان حكمًا صعبًا عليك، وأنا سعيدة بأنه انتهى.

لم أعش في حجز انفرادي قط، وأدرك كلّ ما يمكن أن يقال عنه. لقد كبرتِ وأصبحتِ مثل (شجرة صفصاف) كما قال جيمس عندما وصف الحفلة التي أقيمت في الحديقة بمناسبة انتهاء المجلد من H إلى K. يشكو والدك بأنك أصبحتِ أطول منه الآن، لكنه يشعر بالحزن لأنك بدأت تشبهين ليلي كثيرًا.

أعرف ما يكفي لأشعر بالرضى بأنك تقرأين جيدًا وتتعلمين مهارة أو مهارتين من الأعمال المنزلية المرغوبة لكلّ سيّدة شابة. لقد تلقيت كلّ هذه التفاصيل

بامتنان، لكن ما كنت أتوق إليه، خلال تلك السنوات الماضية، هو شيء عنك يا إسمي؛ أفكارك ورغباتك. إنك تطورين أفكارك والأشياء التي تشعرين بالفضول نحوها.

لذلك كانت رسالتك بلسمًا لي، قرأتها وأعدت قراءتها، وفي كل مرة، أرى دلائل جديدة على ذهنك الوقاد. لا بد أن اللغط الأخير الذي أثير حول كلمة مفقودة قد أثارت اهتمامك، مع أنها لم تُستبعد عن قصد، لأن كلمة (خادمة مملوكة) تنضم إلى عدد من الكلمات الجميلة التي كان يجب أن ترد في المجلد الأول، لكنها لم ترد (لا تذكري، مثلًا، كلمة «أفريقيا» للدكتور موراي: فهي نقطة شديدة الحساسية بالنسبة له).

ما هو جليّ لي هو أنك استوعبت، في الوقت الذي أمضيته تحت طاولة الفرز، أكثر بكثير مما استوعبه معظم الذين جلسوا أمام سبورة طوال ست سنوات. من الخطأ أن يظن أيّ منا أن المَنْسَخ لم يكن مكانًا مناسبًا تكبرين فيه وتتعلّمين منه. فقد كان تفكيرنا مقيدًا بالتقاليد السائدة (الديكتاتور الأكثر ذكاء لكن القمعي). أرجو أن تغفري لنا افتقارنا لسعة المخيلة.

والآن أعود إلى استفسارك الرئيسي.

لسوء الحظ، ليس باستطاعة القاموس أن يُدرج الكلمات التي لا يوجد لديها مصدر نصي. فجميع الكلمات المكتوبة، وأنت محقة لأن تعتقدي أن معظمها مستمد من كتب كتبها رجال، لكن ليس هذا هو الحال دائمًا. فقد أخذت اقتباسات عديدة كتبتها نساء، مع أنهن بالطبع يشكلن أقلية. قد تفاجئين عندما تعلمين أن بعض الكلمات تستمد مصدرها من دليل أو كتيب تقني. أعرف على الأقل كلمة وجدت على ملصق قنينة دواء.

إنك محقة في ملاحظتك بأن الكلمات شائعة الاستخدام التي لم تُدوّن ستُستبعد بالضرورة. إن قلقك من أن بعض أنماط الكلمات، أو الكلمات التي يستخدمها نوع معين من الأشخاص، ستُفقد في المستقبل، ملاحظة ثاقبة النظر. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكنني أن أفكّر بأي حلّ آخر. فكّري في البديل: إدراج كلّ هذه الكلمات، كلمات تأتي وتذهب في سنة أو سنتين، كلمات لا تلتصق بألسنتنا عبر الأجيال. إنها ستملأ القاموس وتعيق تقدمه. ليست كلّ الكلمات متساوية (وبينما أكتب ذلك، أظن أنني أرى قلقك بوضوح أكثر: فإذا اعتُبر أن كلمات فئة معينة جديرة بأن يحافظ عليها أكثر من كلمات فئة أخرى... حسنًا، لقد منحتني فرصة لأن أفكّر).

لقد تبين أن الطموحات المبكرة بأن يكون القاموس سجلًا كاملًا لمعنى وتاريخ جميع الكلمات الإنكليزية مستحيلة تمامًا، لكن دعيني أؤكد لك بأن هناك كلمات جيدة واردة في نصوص أدبية لا تجتاز أيضًا الاختبارات التي وضعها الدكتور موراي والجمعية اللغوية. أرفق لك كلمة من هذه الكلمات.

«Forgiven- ness».

هذه الكلمة مأخوذة من رواية كتبتها أدلين ويتني بعنوان «Sights and Insights» (رؤى وبصائر) قرأتها بيث بعد صدورها بفترة قصيرة. لم تكن مُجامِلة على الإطلاق (فالسيدة ويتني صريحة جدًا في رأيها بأن على المرأة أن تُقصر نشاطاتها على أعمال المنزل وكلماتها للخادمات)، لكنها وجدت هذه الكلمة مثيرة للاهتمام وكتبت القصاصة بنفسها. بعد سنوات، طُلب مني أن أكتب هذه الكلمة مع تعريف لها، لكنّي لم أكمل المسوّدة الأولى.

لأسباب أنا متأكدة من أنني لست في حاجة إلى توضيحها، فقد كان لدي دافع للتفكير في الأمر مؤخرًا. لم أكن أبدًا مثابرة للغاية كما يجب في إعادة الكلمات المرفوضة إلى المَنْسَخ، وها هي هنا – اقتراح والتماس. إذا قبلتم ذلك، فإن روحي ستشعر لحسن الحظ بالوفاء بالعهد والغفران لها (على حد تعبير السيدة ويتني).

في خدمتكم، مع كل الحب

ديتي

الجزء الثالث 1902 - 1907
دَوْرَة الشيء Lap
دَوْرَة الشيء- الجديد Nywe

أيار (مايو) 1902

بعد مضي سنتين على حصولي على أول مرتب لي، طلب مني الدكتور موراي أن أعلّم روزفريث طريقة فرز القصاصات وتدقيق المعاني والأشياء الأخرى التي قد تساعدها على أن تصبح أحدث مساعدة في المَنْسَخ. بعد نصف ساعة، اكتشفتُ أنها ليست بحاجة إلى تعليم. فقد كانت روزفريث، مثل جميع شقيقاتها، تقوم بفرز القصاصات منذ طفولتها. ربما لم تكن تختبئ تحت طاولة الفرز مثلي، لكنها تعرف كلّ ما يجري في المَنْسَخ.

عندما قلت لها «إنك لست بحاجة إلى تدريب»، ارتسمت على وجه روزفريث ابتسامة عريضة. كانت روزفريث تشبه إلسي إلى درجة كبيرة، لكنها أنحف

قليلًا، وأطول قليلًا، وبشرتها أكثر بياضًا، تتشاركان في نفس قسمات وجهها الجميلة، لكن ميل عينيها إلى الأسفل يجعلها تبدو حزينة كأنها لا تبتسم كثيرًا. تركتها عند الطاولة التي ستشارك أختها بها، على يسار طاولة مكتب الدكتور موراي، وعدت إلى طاولتي. قبعت قصاصات الكلمات التي تبدأ بحرف L في أكوام مرتبة على طول حافة الطاولة. عندما جلست، تساءلت كيف سيبدو الأمر لو قمت بفرز القصاصات مع فتاة تشبهني بعض الشيء.

في العادة، آخذ وقتي في قراءة الكلمات التي أقوم بفرزها والتمعن فيها. فإذا كانت الكلمة مألوفة، فإني أتأكد من فهمي لها من المثال الذي اقترحه المتطوع. وإذا لم يكن مألوفًا، فإني أحفظ معناها في ذاكرتي. لقد أصبحت هذه الكلمات الجديدة محور حديثي مع أبي ونحن في طريقنا عائدين إلى المنزل. وإذا لم يكن يعرف الكلمة، أشرحها له، وندرسها معًا في جمل أكثر تفصيلًا.

لكن كلمةlistless(*خائر النفس، فاتر الهمة*) جعلتني أتثاءب. إذ توجد لها ثلاث عشرة قصاصة من المعاني الرتيبة المتشابهة، وكان من السهل أن أترك عقلي يهيم خارج حدود المَنْسَخ. فكّرت في ما قالته لي ديتي عن الحاجة إلى أن يكون للكلمات تاريخ نصيّ. حسنًا، لا بد أنه يوجد تاريخ نصيّ لهذه الكلمة. إن أقرب اقتباس لها مأخوذ من كتاب من عام 1440، لذلك فإن إدراجها في القاموس مؤكد، لكنها ليست مثيرة للاهتمام كالكلمة التي قالتها ليزي، knackered (*متعب جدًا*). لم أسمع ليزي تقول قط إنها فاترة الهمة، لكنها متعبة طوال الوقت.

ثبّتُ جميع القصاصات التي ترد فيها كلمةlistless معًا، بدءًا من أقدم اقتباس إلى أحدث اقتباس. كان أحد تلك الاقتباسات غير مكتمل: كُتبت كلمةlistlessفي الزاوية العليا على اليسار بالإضافة إلى اقتباس، لكن لم يذكر فيها تاريخ أو عنوان كتاب أو مؤلف. كان من المفروض أن أرفضها، لكن قلبي أخذ يخفق بسرعة وأنا أضعها في جيبي.

***

عندما دخلت إلى المطبخ، كانت السيّدة بالارد جالسة أمام الطاولة، وليزي تعدّ شطائر لحم للغداء، وعلى الطاولة ثلاثة أكواب شاي.

«ماذا تعني كلمة knackeredيا ليزي؟»

فقالت السيّدة بالارد ساخرة، «يمكنكِ أن تسألي أي شخص في الخدمة هذا السؤال يا إسمي، ونجيبك كلنا».

صبّت ليزي الشاي وجلست، ثم قالت: «تعني أنكِ متعبة».

«إذن لماذا لا تقولين tired (متعبة)؟»

فكّرتْ في الأمر، ثم قالت: «إنها ليست متعبة بسبب قلة النوم فقط، إنها تعني متعبة من العمل؛ العمل البدني. فأنا أستيقظ قبل الفجر لأتأكد من أن جميع من في المنزل الكبير سيشعرون بالدفء ويتناولون طعام الإفطار عندما يستيقظون، ولا أنام حتى أسمع شخيرهم. أشعر أنني منهكة معظم الوقت، مثل حصان منهك لا يصلح لشيء».

أخرجتُ القصاصة من جيبي ونظرت إلى الكلمة. فكلمة Listless لا تشبه كلمة knackered تمامًا. إنها تعني أن المرء متعب أكثر. نظرت إلى ليزي وعرفت لماذا لا تستخدمها.

«هل لديكِ قلم رصاص يا سيّدة بالارد؟»

ترددت السيدة بالارد، وقالت: «لا يعجبني شكل قصاصة الورق التي في يدك كثيرًا يا إسمي».

أريتها لها، وقلت: «إنها غير كاملة، أترين؟ إنها قصاصة. سأستخدمها مرة أخرى».

هزّت رأسها، وقالت: «ليزي، حبيبتي، يوجد قلم رصاص في خزانة المؤن، إلى جانب قائمة التسوّق. هل يمكنكِ أن تجلبيه لإسمي؟»

رسمت خطًا فوق كلمة Listless وقلبتُ القصاصة. كانت فارغة، لكنّي ترددت. فلم أكتب على قصاصة من قبل قط. فأنا آخذ الكلمات منذ سنوات؛ أقرأها، أتذكّرها، أنقذها، ثم أعود إليها لأرى تفسيرها. أما عندما تخذلني كلمات القاموس، فإنّي لا أتصوّر أن باستطاعتي أن أضيف شيئًا لها.

بينما بدأت أكتب، نظرت ليزي والسيّدة بالارد إليَّ.

KNACKERED

«أستيقظ قبل الفجر لأتأكد من أن جميع من في المنزل الكبير سيشعرون بالدفء ويتناولون طعام الإفطار عندما يستيقظون، ولا أنام حتى أسمع شخيرهم. أشعر أنني منهكة معظم الوقت، مثل حصان منهك لا يصلح لشيء».

ليزي ليستر، 1902

«لا أظن أن الدكتور موراي سيرى أن هذا الاقتباس مناسب»، قالت السيّدة بالارد، «لكن من الجيد أن نراه مكتوبًا. ليزي ليست مخطئة، فالوقوف على قدميك طوال اليوم يجعلكِ منهكة».

«ماذا كتبتِ؟» سألتني ليزي.

عندما قرأتها لها، مدّت يدها تلمس صليبها. تساءلت إن كنت قد أزعجتها.

«لم يُكتب شيء قلته في حياتي»، قالت أخيرًا، ثم نهضت ونظّفت الطاولة.

نظرتُ إلى القصاصة، وقلت إنها ستذهب إلى المكان المخصص لها في إحدى فتحات العلب، وتساءلت ماذا ستقول ليزي عندما يوضع اسمها والكلمات التي قالتها بين أسماء أدباء مشهورين مثل وردزورث وسويفت. قررت أن أكتب تعريفًا وأرفقها مع العبارة التي قالتها ليزي، لكني تذكّرت أن كلّ الكلمات التي تبدأ بحرف K قد صدرت للتو.

تركت ليزي والسيدة بالارد تتناولان طعام غدائهما، وصعدت الدرج درجتين في كلّ خطوة. كان الصندوق تحت سرير ليزي قد امتلأ أكثر من نصفه. وضعت القصاصة التي فيها كلمة knackeredفي أعلى الكومة.

ستكون هذه الأولى، قلت لنفسي. فهي فريدة لأنها لم تأت من كتاب. لكن بخلاف جميع الكلمات الأخرى لم يكن هناك شيء يميّزها عن القصاصات الأخرى. سحبتُ الشريطة التي أعقد بها شعري وربطتها حول القصاصة. بدت وحيدة، لكن كان بإمكاني أن أتخيّل القصاصات الأخرى.

***

قال لي أبي ذات يوم إن الدكتور موراي هو الذي صمّم القصاصات لتكون بهذا الحجم. في البداية كان يرسل قصاصات جاهزة إلى المتطوعين، لكن بعد فترة، طلب منهم أن يكتبوا الكلمات والجمل التي يرسلونها في قصاصات طولها ست بوصات وعرضها أربع بوصات. فلم تكن الأوراق الفارغة متاحة

دائمًا لبعض المتطوعين، وعندما كنت صغيرة، كان أبي يبحث عني تحت طاولة الفرز ليريني القصاصات التي اقتُطعت من صحف ومن قوائم تسوّق قديمة، وورق صرّ يستخدمه الجزارون (بقعة دم بنيّة تظهر بين الكلمات) وحتى صفحات منتزعة من بعض الكتب. ووجدت حينها أن اقتلاع صفحات من الكتب أمر فظيع، فاقترحتُ على الدكتور موراي أن يتجاهل المتطوعين الذين يشوهون الكتب بهذه الطريقة. فضحك دا، وقال إن أسوأ شخص يفعل ذلك هو فريدريك فيرنفال الذي يفكّر الدكتور موراي في طرده أحيانًا، لكن فريدريك فورنيفال هو سكرتير الجمعية اللغوية، وهو صاحب فكرة القاموس.

وقال أبي إن قصاصات الدكتور موراي عبقرية. بسيطة وفعالة، تزداد قيمتها بعد أن أصبح المَنْسَخ مليئًا بالكلمات، ولم تعد هناك أماكن كافية لتخزينها. فقد صممها الدكتور موراي لكي تسع في تلك العلب، ولم تُهدر بوصة واحدة من مساحته.

لكل قصاصة شخصيتها الخاصة بها، وأثناء فرزها تبرز فرصة لأن تُفهم الكلمة المكتوبة فيها. على أقل تقدير، فإنها ستؤخذ وتُقرأ، وتنتقل بعض القصاصات من يد إلى يد، ويصبح بعضها الآخر موضوع نقاش طويل، يتحوّل أحيانًا إلى جدال. وتبقى كلّ كلمة مهمة لفترة من الوقت بنفس أهمية الكلمة التي سبقتها والكلمة التي تليها، بغض النظر من أين اقتُطعت. وإذا كانت كاملة، فإنها توضع في إحدى فتحات العلب أو تُثبّت أو تربط مع قصاصات أخرى، ويتم إبراز توافقها مع القصاصات كبيرة الحجم والملونة القليلة التي قُصَّت وفق التصميم الخاص بها.

في أحيانٍ كثيرة، كنت أتساءل ما نوع القصاصة التي سأُكتب عليها لو كنتُ كلمة، لا بد أنها ستكون قصاصة طويلة جدًا، وربما لونها غير ملائم، وحجمها غير مناسب. خشيت ألَّا أجد مكانًا لها في فتحات تلك العلب.

قررت ألَّا تكون القصاصات التي سأستخدمها مختلفة عن قصاصات الدكتور موراي، وبدأت أجمع كلّ أنواع الورق وأقصّها بالحجم المناسب. كانت القصاصات المفضّلة لديَّ مقتطعة من الورق الأزرق المقوّى الذي استخدمته ليلي ذات يوم. أخذت بضع أوراق منها من درج الطاولة التي يكتب عليها أبي لأكتب عليها كلمات جميلة. أما الأوراق الباقية فكانت مزيجًا من الأوراق العادية والممتازة: كومة من القصاصات الأصلية الفارغة التي وجدتها في إحدى الزوايا المغبّرة المنسية في المَنْسَخ، والتي لم يسأل عنها أحد. قصاصات اقتُطعت من دفاتر تمارين مادة الجبر، وبضع بطاقات بريدية اشتراها دا، لكنه لم يرسلها قط (بالحجم الملائم تقريبًا، لكن ليس بدقة)، وأوراق مقصوصة من

ورق جدران، سميكة بعض الشيء، لكنها مزدانة برسوم جميلة في أحد طرفيها.

بدأت أحملها معي، راجية أن ألتقط كلمات أخرى مثل كلمة knackered.

كانت ليزي مصدرًا عظيمًا بالنسبة لي. فخلال أسبوع، دوّنت سبع كلمات كنت متأكدة من أنها غير موجودة في فتحات العلب تلك. لكن عندما دققت النظر، وجدت خمسًا منها. ألقيت بالقصاصات المزدوجة جانبًا، ووضعت البطاقتين المتبقيتين في الصندوق، وربطتهما معًا بالشريط الذي أزيّن به شعري.

لم يكن المَنْسَخ مثمرًا بالنسبة لي كثيرًا. فقد كان الدكتور موراي يقول أحيانًا شيئًا مثيرًا للاهتمام بلكنته البروغ الأسكتلندية التي تنبعث عادة من تحت أنفاسه. كانت كلمة Glaikit شائعة للتعبير عن عدم الكفاءة أو البطء في العمل، ولم أكن أجرؤ على أن أطلب منه أن يكررها، مع أنني كتبت قصاصة وكتبت إلى جانبها تعريفًا بأنها تعني: شخصأحمق أو ساذج. وعندما بحثت في مجلد الحرفين F وG، فوجئت بأنها موجودة. لم يكن المساعدون الآخرون يذكرون سوى الكلمات التي يقرأونها في كتب مكتوبة بلغة رصينة. أشكّ في أن أحدًا منهم قد أمضى وقتًا طويلًا في الاستماع إلى ما يقال في مطبخ السيّدة بالارد، أو ما يدور على ألسنة البائعين في السوق المغطاة.

مع أنه لم يعد عليَّ أن أقدّم مساعدة في أعمال المطبخ، كنت أفعل ذلك من حين لآخر. فقد كنت أفضّل أن أساعد في المطبخ على أن أعود إلى المنزل وأمضي الوقت وحدي عندما يعمل أبي حتى وقت متأخر من المساء. ومع أن الستائر الجديدة والأزهار الطازجة أضفت بهجة على منزلنا، فقد كنت أفضّل أن أبقى وأتبادل الحديث مع ليزي في أمسيات الصيف الطويلة. وعندما يصبح الطقس باردًا، أشعر أن إشعال كمية من الفحم في الموقد من أجل شخص واحد، هدر لا معنى له.

«هل يمكنني أن أطلب منك أن تسدي لي خدمة يا ليزي؟» كنت واقفة إلى جانبها أمام المغسلة.

«أي شيء يا إسمي. إنك تعرفين ذلك».

«أتساءل إن كان بإمكانك أن تساعديني في جمع كلمات»، قلت ونظرت إليها بطرف عيني لأرى ردّة فعلها. عندما انكمش فكّها، أضفت بسرعة: «ليست من المَنْسَخ».

«أين يمكنني أن أجد كلمات؟» سألتني ليزي ولم ترفع عينيها عن حبات البطاطا التي تقشّرها.

«حيثما ذهبتِ».

«العالم ليس مثل السكريبي يا إسمي. فالكلمات لا تقبع بانتظار فتاة لها أصابع خفيفة لتلتقطها». استدارت وابتسمت.

«هنا تكمن المسألة يا ليزي. أنا متأكدة من أن هناك كلمات رائعة كثيرة تملأ المكان لم تُكتب على قصاصة قط. أريد أن أكتبها».

«لماذا؟»

فقلت: «لأنني أظن أنها لا تقل أهمية عن الكلمات التي يجمعها الدكتور موراي ودا».

«طبعًا هي...»، لكنها توقفت وصححت نفسها، «ما أقصد أن أقوله هو أنها طبعًا لا تقلّ أهمية. فهي مجرد كلمات نستخدمها لأننا لا نعرف شيئًا أفضل».

«لا أظن ذلك. أظن أحيانًا أن الكلمات المناسبة يجب ألَّا تكون صحيحة تمامًا، لذلك يستنبط الناس كلمات جديدة، أو أنهم يستخدمون كلمات قديمة بطريقة مختلفة».

ضحكت ليزي ضحكة خفيفة، وقالت: «لا يعرف الأشخاص الذين أتحدّث إليهم في السوق المغطاة ما هي الكلمات الصحيحة. فمعظمهم لا يكاد يعرف القراءة، ويرتبكون عندما يتوقف رجل متعلّم ويتحدث إليهم».

انتهينا من تقشير البطاطا، وبدأت ليزي تقسمها إلى قطعتين وتضعها في قِدر كبير. جففتُ يديَّ بالمنشفة الدافئة المعلّقة إلى جانب الموقد.

وتابعت ليزي: «بالإضافة إلى ذلك، ليس من المناسب أن تتسكع امرأة تعمل في الخدمة وتستخدم لغتهم، لأن ذلك سيعطي صورة سلبية عن عائلة موراي إذا رآني أحد وأنا أشارك في حديث غير مناسب عندما أنتهي من التسوّق».

تخيّلت أنني جمعت كمية كبيرة من الكلمات وأصبحت بحاجة إلى صندوق جديد لأضعها كلّها فيه، لكن إذا لم تساعدني ليزي، فلن أتمكن من جمع ما يكفي من

الكلمات لأربطها بشريط.

«أرجوكِ يا ليزي. لا يمكنني أن أتسكع في أكسفورد وحدي. إذا لم تساعديني، فإني سأتخلّى عن كلّ ذلك».

عندما انتهت من تقطيع آخر حبة بطاطا، التفتت ونظرت إليَّ، وقالت: «حتى لو ذهبت وتنصّت، فإنه لا يُرحبّ بي إلّا بالحديث مع النساء لأن الرجال، حتى الذين يعملون في المراكب، يتحدثون بتهذيب مع النساء مثلي».

بدأت فكرة أخرى تتشكل في رأسي. سألتها: «هل تظنين أنه توجد كلمات تستخدمها النساء فقط، أو كلمات تقتصر على النساء؟»

فقالت: «أظن ذلك».

«هل يمكنك أن تخبريني ما هي؟»

«ناوليني الملح من فضلك»، قالت وهي ترفع غطاء القدر عن البطاطا.

«حسنًا، هل ستفعلين ذلك؟»

فقالت: «لا أظن أنني أستطيع».

«لِمَ لا؟»

«توجد كلمات لن أقولها، وكلمات أخرى لا أستطيع أن أفسّرها».

«ربما يمكنني أن أرافقك عندما تذهبين إلى السوق. يمكنني أن أتنصّت إلى ما يقلنه. لن أقف في طريقك ولن أضيّع وقتك. سأنصت فقط، وإذا سمعت كلمة مثيرة للاهتمام سأدوّنها».

فقالت: «ربما».

***

في الصباح أيام السبت، بدأت أستيقظ في وقت مبكر لأرافق ليزي إلى السوق المغطاة. أضع في جيبي قصاصات وقلميّ رصاص، وأسير خلف ليزي

مثل خروف مريم. كنا نبدأ بسوق الفواكه والخضروات؛ نشتري الفواكه والخضروات الطازجة أولًا، ثم نذهب إلى محل الجزار أو بائع السمك ثم إلى المخبز ومحل البقالية. ثم نهبط في زقاق ونصعد في آخر، ننظر في واجهات محلات الشوكولاتة أو القبعات أو الألعاب الخشبية الصغيرة، ثم نتوجه إلى محلات الخردوات الصغيرة. كانت ليزي تعود أحيانًا إلى البيت وقد اشترت خيوطًا أو إبرًا جديدة، أما أنا فأعود غالبًا إلى البيت محبطة. فقد كان أصحاب المحلات ودودين ومهذبين، وكانت كلّ الكلمات التي يقولونها مألوفة لديّ.

«إنهم يريدون أن تنفقي نقودك»، قالت ليزي، «وليسوا مستعدين لتلويث أذنيك الرهيفتين».

عندما كنا نمرّ أمام بائع سمك أو رجال يُفرغون عربات محمّلة بالخضروات، كنت أسمع كلمة هنا وهناك، لكن ليزي لم تكن تسألهم عن معناها ولا تسمح لي بالاقتراب منهم.

«بهذه الطريقة لن أتمكن من جمع أي كلمة يا ليزي».

كانت تهزّ كتفيها بلا مبالاة وتواصل طريقها في درب السوق الرث.

«إذن قد أضطر لأن أعود وآخذ كلمات من المَنْسَخ». كنت أعرف أن ذلك سيوقفها.

«لن تفعلي ذلك...؟» قالت.

«قد لا أستطيع أن أتمالك نفسي».

حدقت بي لوهلة، وقالت: «لنر ماذا تبيع مابل العجوز اليوم».

***

كانت مابل أوشونسي امرأة طاردة وجاذبة في آن معًا؛ مثل طرفيْ مغناطيس. وكان الكشك الذي تبيع فيه بضاعتها أصغر كشك في السوق المغطاة: فقد كانت تعرض أشياء قديمة فوق صندوقين خشبيين. كانت ليزي تأخذني عادة من اتجاه آخر في السوق، ولفترة طويلة، لم تكن مابل بالنسبة لي أكثر من صورة عابرة لعظام ناتئة حادة على وشك أن تتمزق وتنبثق من

جلدها الهش الرقيق كالورق، تضع على رأسها قبّعة رثّة لا تكاد تغطي بقعًا من فروة رأسها الذي يكاد يخلو من الشعر.

عندما اقتربنا منها، أدركت أن ليزي تعرف مابل.

«هل أكلتِ اليوم يا مابل؟» سألتها ليزي.

«لم أبع ما يكفي لأشتري كعكة بائتة».

مدّت ليزي يدها إلى سلّة مشترياتنا وأعطتها لفافة خبز.

«من هذه إذن؟» سألتها مابل وفمها لا يزال مليئًا بقطعة الخبز.

«إسمي، هذه مابل. مابل هذه إسمي. والدها يعمل مع الدكتور موراي»، ونظرت إليَّ نظرة تشي بالاعتذار، وأضافت، «إسمي تعمل في القاموس أيضًا».

مدّت مابل يدها: برزت أصابع طويلة رفيعة وسخة من قفازات من دون أصابع. في العادة لا أصافح أحدًا، وغريزيًا أمسح أصابعي المحترقة على قماش تنورتي، كما لو أنني أريد أن أخلّصها من شيء مقيت. عندما مددت يدي، ضحكت المرأة العجوز.

«مهما مسحتِ يدك فلن ينفعك ذلك»، قالت، ثم أخذت كلتا يديَّ بيديها وتفحصتهما كما يفعل طبيب. وراحت تضغط بأصابعها المتسخة على كلّ أصبع من أصابعي، الواحد تلو الآخر، تختبر مفاصلها، وتشدّها وتقوّمها بلطف. كانت أصابعها مستقيمة ورشيقة بقدر ما كانت أصابعي منحنية ومتصلبة.

«هل هذا جيد؟» سألتني.

هززت رأسي. بدت راضية وتركت يديَّ، ثم أشارت إلى محتويات كشكها الصغير، وقالت: «لا شيء يوقفك إذن».

بدأت أنظر إلى الأشياء المعروضة. لا عجب أنها لم تأكل: فكلّ الأشياء التي تبيعها أشياء مكسورة دفعها النهر إلى اليابسة. وكان الشيء الملون الوحيد بين تلك الأغراض، كوبًا وطبقًا مكسورين، لكن لا يزال يمكن استعمالهما، وضعت أحدهما فوق الآخر كما لو كانا قطعتين متطابقتين. قلت في نفسي لا

يمكن لأحد لديه قطعة نقود أن يفكّر في أن يشرب الشاي بهذا الكوب، لكن بدافع الأدب، رفعته وأخذت أتفحّص الورود الرقيقة المرسومة عليه.

«إنه من الخزف» قالت مابل، «والطبق أيضًا. ارفعيهما إلى الضوء».

إنها محقة. إنهما مصنوعان من الخزف الناعم. أعدتُ الورود إلى الطبق الأزرق. كان الجمع بين اللون البني الغريني مبهجًا.. تبادلنا ابتسامة.

لكن لم يكن ذلك كافيًا. فقد أومأت مابل برأسها باتجاه الأشياء المعروضة. لمستُ شيئًا أو شيئين منها. عصا طولها لا يتجاوز طول قلم رصاص، لكنها مقوسة. توقعت أنها خشنة الملمس، لكن تبين لي أنها ناعمة كالرخام. عندما قربّتها من عيني لأرى طرفها المليء بالعقد، برز وجه رجل عجوز. هموم عمر طويل نُحتت في قسمات الرجل العجوز، والتفّت لحيته حول العصا. أحسست بفراشة ترفرف في صدري عندما تخيّلتها فوق الطاولة التي يكتب عليها دا.

نظرتُ إلى مابل التي كانت تنتظر. ابتسمت لي الآن ابتسامة عريضة ومدّت يدها.

أخرجتُ قطعة نقود معدنية من حقيبتي، وقلت لها: «إنها رائعة». فقالت:

.”.Naught else to do with me ’ands now no one wants ’em round their shaft

«لم تعد تنفعني ولم يعد أحد يريدها حول عموده». لم أفهم ما قالته، وعندما لم أجبها كما كانت تتوقع، نظرت إلى ليزي، وسألتها، «هل هي غبية؟»

«لا، يا مابل، إنها لا تفهم طريقتك في التحدث باللغة الإنكليزية».

عندما عدنا إلى سانيسايد، أخرجت قصاصة وقلم رصاص. رفضت ليزي أن تقول لي ما معنى كلمة shaft، لكنها أومأت أو هزّت رأسها ردًا على تخميناتي. من لون وجهها، تأكدتُ أن ما فهمته صحيح.

أصبحنا زائرتين منتظمتين إلى كشك مابل. ازداد عدد مفرداتي، وكان أبي مسرورًا بالأشياء التي أجلبها أحيانًا فيضعها مع أقلامه وأقلام الرصاص في كوب النرد القديم الذي لا يفارق طاولته.

***

كلّما نطقت مابل بضع كلمات، كانت تسعل وتُخرج من حلقها كتل بلغم كبيرة وتبصقها. ظللت أزورها مع ليزي طوال تلك السنة تقريبًا. ظننت أن السعال هو الذي يعوقها عن الكلام. لكن تبين لي أن الأمر ليس كذلك، وإنما يزيد من صعوبة فهمها وفك رموز كلماتها. عندما سعلت مرة أخرى، أعطيتها منديلي لكي تتوقف عن البصق على أحجار الطريق إلى جانب كرسيها. نظرتْ إلى المنديل، لكنها لم تبد أي حركة لتأخذه مني.

«لا، أنا على ما يرام أيتها الشابّة»، ثم انحنت جانبًا وبصقت كلّ ما تراكم في فمها على الأرض. أجفلتُ. كانت سعيدة.

بينما كنت أتفقد أغراضها، لم تتوقف مابل عن التحدث عن الأمور الإجرامية والمالية والجنسية التي يرتكبها أصحاب الأكشاك المجاورة لكشكها الصغير، وكانت تقطع تعليقها قليلًا لتخبرني عن سعر أحد الأشياء المعروضة فوق الصندوقين. بين كلماتها المليئة باللعاب، سمعت كلمة أظن أنني كنت قد سمعتها من قبل؛ كلمة أنكرت ليزي أنها تعرفها، مع أنه كان من الواضح أنها تكذب لأن الحمرة كست وجهها.

«Cunt»، قالت مابل، عندما طلبت منها أن تكررها.

«هيا يا إسمي»، قالت ليزي وأمسكت بذراعي بإلحاح غير معهود.

«Cunt»، قالت مابل بصوت أعلى قليلًا.

«إسمي، يجب أن نذهب. لدينا أشياء كثيرة يجب أن نفعلها».

«ماذا تعني؟» سألت مابل.

«إنها تعني أنها Cunt: عاهرة قذرة»، قالت مابل ونظرت باتجاه كشك بيع الأزهار.

«اخفضي صوتك يا مابل. سيطردونك من هنا من الكلمات التي تستخدمينها، إنك تعرفين ذلك جيدًا»، همست ليزي وهي تحاول أن تبعدني.

«لكن ماذا تعني حقًا؟» عدت أسأل مابل.

نظرت إليَّ، فمها كلّه لثة. شعرت بالزهو لأنني طلبت منها أن تفسّر لي معنى الكلمة، وقالت: «هل لديك قلم رصاص وورقة يا شابّة؟ تريدين أن تكتبيها».

أبعدتُ يد ليزي عن ذراعي، وقلت لها «اذهبي يا ليزي. سألحق بك».

«إسمي، إذا سمع أحدهم أنك تتكلمين بهذه الطريقة... حسنًا، ستعرف السيّدة بالارد حتى قبل أن نصل إلى البيت».

«حسنًا يا ليزي. أنا ومابل سنتكلّم همسًا»، قلتُ والتفتُّ ونظرتُ بحدة إلى المرأة العجوز، «أليس كذلك يا مابل؟»

هزّت رأسها مثل متشرّدة تنتظر طبق حساء. أردتُ أن أسجل كلماتها.

أخرجتُ قصاصة فارغة من جيبي وكتبت في أعلى الزاوية اليسرى كلمة «Cunt».

«yer quim» (*إنه فرجك*) قالت مابل.

نظرتُ إليها بأمل أن أفهم معنى هذه الكلمة، كما يحدث أحيانًا بعد ثانية أو ثانيتين، لكنّي وقفت أمامها حائرة.

«مابل، هذا لا ينفع»، قلتُ وأخذت قصاصة أخرى، وكتبت في أعلى الزاوية اليسرى كلمة «Quim» (*فرج*) ثم قلت: «ضعي كلمة فرج في جملة».

قالت وهي تحكّ مقدمة تنورتها، «فرج أجرب».

فهمتها، لكنّي لم أكتبها. «هل تقصدين عند ملتقى الفخذين؟» همستُ.

«إنك فتاة غبية»، قالت مابل، «لديكِ فرج، ولديَّ فرج، ولدى ليزي فرج، أما نيد العجوز الواقف هناك، فليس لديه فرج. هل فهمتِ؟»

انحنيتُ قليلًا، أحبس أنفاسي لكي لا أشمّ رائحة فم مابل، وهمستُ، «هل تقصدين مهبل؟»

«اللعنة، أنتِ عبقرية».

تراجعتُ قليلًا، لكن ليس قبل أن يهبّ زفير ضحكتها القوي على وجهي؛ التبغ ومرض اللثة.

كتبتُ: *مهبل المرأة*. إنها شتيمة. ثم شُطبتُ كلمة المرأة.

قلت: «مابل، أريد جملة تجعل معناها واضحًا».

فكّرت، ثم همّت لتقول شيئًا لكنها توقفت، وراحت تفكّر. ثم نظرت إليَّ، وقد انتشرت على تضاريس وجهها المعقدة فرحة طفولية.

سألتني، «هل أنتِ جاهزة أيتها الشابّة؟» اتكأت على صندوقها وكتبتُ كلماتها:

There was a young harlot from Kew, who filled her cunt up with glue. She said with a grin, if they pay to get in, they’ll pay to get out of it too.

«كانت هناك مومس شابّة من كيو، ملأت فرجها بالغراء. قالت بابتسامة عريضة، إذا دفعوا ليدخلوا، فإنهم سيدفعون ليخرجوا منه أيضاً).

أسفرت ضحكتها عن نوبة سعال عنيفة احتاجت إلى عدة ضربات سريعة على ظهرها.

عندما توقفت عن السعال، كتبتُ تحت الاقتباس، *مابل أوشونيسي، 1902*.

«و quim؟» سألتها، «هل تعني نفس الشيء؟»

رفعت عينيها ونظرت إليَّ، لا تزال تبتسم، «إنها العصائر أيتها الشابّة»، وحركت لسانها إلى داخل وخارج فمها إزاء شفتيها المتشققتين، «لم يعد عصيري حلوًا، لكن ذات يوم» - وفركت إبهامها على إصبعيها- «كنت آكل جيدًا بسببه. يحبّ الرجال أن يظنوا بأنهم يسببون ذلك لك».

ظننت أنني فهمتُ. كتبتُ: «*إفرازات مهبلية أثناء العلاقات الحميمة*».

«هل هي شتيمة أيضًا؟» سألتها.

فقالت مابل: «طبعًا». كلمة quim كلمة معيبة. يستخدمها الأشخاص أمثالنا كما نستخدم كلمة Cunt»، ثم نظرت نحو كشك بيع الأزهار وقالت: «هي وزوجها

العجوز فرجين حقيرين، ولا يوجد شك في ذلك».

أضفت: *إهانة*.

«شكرًا يا مابل»، قلت، وأعدت القصاصات إلى جيبي.

«ألا تريدين جملة؟»

فقلت: «لقد أعطيتني جملًا كثيرة. سأختار أفضل جملة منها عندما أعود إلى البيت.

فقالت: «ما دام اسمي مكتوبًا عليها».

«لا يريد أحد آخر أن يدعيها لنفسه».

ابتسمت لي ابتسامة لثوية أخرى، وقدّمت لي إحدى عصيها المحفورة، وقالت: «حورية بحر».

سيحبّها أبي كثيرًا. أخرجتُ قطعتيْ نقود من حقيبتي.

فقالت مابل: «أظن أنها تستحق بنسًا آخر».

أعطيتها بنسين اثنين آخرين؛ بنس واحد لكل كلمة، ثم ذهبت أبحث عن ليزي.

***

«وماذا قالت مابل عن نفسها؟» سألتني ليزي في طريق عودتنا إلى سانيسايد.

«أشياء كثيرة في الواقع. لم تعد لديّ قصاصات».

انتظرتُ ليزي لتسألني أسئلة أخرى، لكنها تعلّمت ألَّا تفعل ذلك. عندما وصلنا إلى سانيسايد، دعتني لأشرب كوبًا من الشاي.

فقلت: «يجب أن أدقق شيئًا في المَنْسَخ».

«ألن تضعي كلماتك الجديدة في الصندوق؟»

«ليس بعد. أريد أن أدقق لأرى كيف عُرّفت كلمة cunt في القاموس».

«إسمي»، بدت ليزي يائسة، «لا يمكنك أن تلفظي هذه الكلمة بصوتٍ عالٍ».

«إذن تعرفينها؟»

«لا. حسنًا، أعرفها. أعرف أنها كلمة لا تصلح للمجتمع المهذب. يجب ألَّا تقوليها يا إسمي».

«حسنًا»، قلتُ مسرورة بالتأثير الذي أحدثته الكلمة، «دعينا نطلق عليها الكلمة التي تبدأ بحرف C».

«دعينا لا نطلق عليها أي شيء. لا يوجد سبب يدعو إلى استخدامها على الإطلاق».

«قالت مابل إنها كلمة قديمة جدًا. لذلك ينبغي أن تكون في مجلد الكلمات التي تبدأ بحرف C. أريد أن أرى إلى أي حد اقتربت من تعريفها».

كان السكريبي فارغًا، مع أن سترتيّ أبي والسيد سويتمان كانتا لا تزالان معلقتين على ظهري كرسييهما. توجهت إلى الرفّ وراء مكتب السيد موراي وأنزلت المجلد الثاني من الكلمات. كان مجلد الحرف C أكبر من مجلد الحرفين A وB الذي استغرق جمعه نصف سنوات طفولتي. عندما بحثت في صفحاته، لم أجد فيه الكلمة التي ذكرتها مابل.

أعدتُ المجلد ورحت أبحث في فتحات العلب عن الكلمات التي تبدأ بحرف C. كانت مغبّرة بسبب الإهمال.

«هل تبحثين عن شيء خاص؟» جاءني صوت السيّد سويتمان.

طويت قصاصات مابل في يدي والتفتُّ، وقلت: «لا شيء، لا يمكن أن ينتظر حتى يوم الإثنين»، ثم أضفت، «هل أبي معك؟»

تناول السيد سويتمان سترته من ظهر كرسيه، وقال: «ذهب إلى منزل الدكتور موراي ليحدّثه في أمرٍ ما. لا بد أنه سيعود في أي لحظة».

فقلت له: «سأنتظره في الحديقة».

«صحيح. سأراك يوم الإثنين».

رفعت غطاء طاولتي ووضعت القصاصات بين صفحات كتاب.

***

بدأتُ أذهب إلى السوق المغطاة وحدي. عندما كنت أذهب بمهمة إلى مكتبة بودليان أو أشموليان، كنت أغيّر طريقي وأسير في الأزقة المليئة بالأكشاك والمحلات. أتسكّع ببطء، وأتوقف أمام واجهة محلات صانع القبّعات لأتنصّت على البقال وأجيره الواقفيْن في الشارع، وأتمهل قليلًا عندما أشتري السمك أيام الجمعة على أمل أن ألتقط كلمة غير مألوفة في حديث يدور بين بائع السمك وزوجته.

«لماذا لا يضع الدكتور موراي في القاموس كلمات لم تُكتب؟» سألت أبي في صباح أحد الأيام ونحن في طريقنا إلى المَنْسَخ. كانت في جيبي ثلاث قصاصات جديدة.

«إذا لم تكن مكتوبة، فإننا لا نستطيع أن نتحقق من المعنى».

«وماذا لو كانت شائعة الاستخدام؟ إني أسمع نفس الكلمات كثيرًا في السوق المغطاة».

«قد تكون شائعة في الكلام، لكن إذا لم تكن شائعة في الكتابة، فلا يمكن إدراجها في القاموس. فليس من الملائم أن نأخذ اقتباسًا من بائع الخضراوات، السيّد سميث».

«لكن هل أن بعض الهراء الذي يقوله الكاتب السيّد ديكنز، ملائم؟»

نظر أبي إليَّ بطرف عينه.

ابتسمت وقلت: «Jog- trotty، أتذكر؟»

كانت كلمة Jog- trotty قد أثارت جدلًا حول طاولة الفرز قبل بضع سنوات. فهي تضم سبع عشرة قصاصة، لكنها تذكر كله نفس الاقتباس، وهو الاقتباس الوحيد، كما أكد السيد مالينغ.

إنها Jog- trotty وhumdrum (*شيء رتيب وممل*).

«لكنه ديكنز»، قال أحد المساعدين، «هذا هراء»، قال آخر. ثم قال السيد مالينغ: «المحرر هو الذي يقرر ذلك». وبما أن الدكتور موراي لم يكن موجودًا، فقد وقع القرار على عاتق المحرّر الجديد، السيّد كريجي. لا بد أنه كان معجبًا بديكنز لأنها أُدرجت في المجلد من H إلى K.

«أصبتِ» قال دا، «إذن أعطني مثالًا على كلمة سمعتها في السوق».

«Latch- keyed» قلتُ، عندما تذكرتُ الطريقة التي قالتها السيّدة ستايلز في كشك بيع الأزهار لأحد الزبائن، وكانت نظرتها مصوبة نحوي.

«تبدو هذه الكلمة مألوفة»، قال وبدا سعيدًا، «أظن أنك قد تجدين هذه الكلمة».

بدأ أبي يسير بخطوات أسرع، وعندما وصلنا إلى المَنْسَخ توجّه مباشرة إلى الرف حيث توجد المَلَازم. فتح الملزمة من كلمة Lap إلى Leisurely وبدأ يتصفحها، وهو يكرر «Latch- keyed» تحت أنفاسه.

«حسنًا، تُستخدم عبارة latch- key لفتح قفل بوابة ليلية، أما عبارة Latch- keyed فهي غير موجودة هنا»، وتوجّه نحو فتحات العلب، وتبعته.

لم يكن في المَنْسَخ أحد غيرنا. شعرت بأنني عدتُ طفلة مرة أخرى. قلت في نفسي لابد أنني سأجد Latch- keyed في مكان في الوسط، لا في الأعلى ولا في الأسفل.

«ها هي»، قال دا، وأخذ كومة صغيرة من القصاصات إلى طاولة الفرز، ثم أضاف، «آه، تذكّرت الآن.. أنا الذي كتب هذه العبارة. Latch- keyed وهي تعني أن لدى الشخص مفتاح باب البيت الخارجي».

«إذن، يستطيع الشخص الذي لديه مفتاح البيت الخارجي أن يدخل ويخرج كما يشاء؟»

«هذا هو الاقتراح».

نظرتُ من فوق كتفه وقرأت القصاصة في الأعلى. كانت هناك تعريفات عدة مكتوبة بخطّ دا.

Unchaperoned; undisciplined; referring to a young woman with no .domestic constraint

(*شخص غير مُرافق، غير مُشرف عليه، غير منضبط. إشارة الى امرأة شابّة لا تفرض عليها قيود منزلية*).

«جميع الاقتباسات مأخوذة من صحيفة الديلي تلغراف»، قال أبي ومرّر لي إحداها.

«ولماذا هذا شيء مهم؟»

«صدّقي أو لا تصدّقي، فقد سأل الدكتور موراي نفس السؤال».

«سأل من؟»

«مندوبو المطبعة عندما أرادوا تخفيض التكاليف. إن تخفيض التكاليف يعني اقتطاع كلمات من القاموس. إنهم لا يعتبرون *صحيفة الديلي تلغراف* مصدرًا موثوقًا، ويقولون إنه يمكن الاستغناء عن الكلمات التي تستخدمها».

«أظن أن صحيفة التايمز مصدر موثوق؟»

هزّ أبي رأسه.

نظرت إلى القصاصة التي أعطاني إياها.

LATCH- KEYED

All latch- keyed daughters and knicker- bockerred maidens, and“ ”.discontented people generally

Daily Telegraph, 1895

«*جميع البنات اللاتي لديهن مفاتيح أبواب بيوتهن والخادمات، والأشخاص القلقين بشكل عام*».

الديلي تلغراف، 1895

«إنها لا تعبّر عن إطراء إذن؟»

«يتوقف ذلك على ما إذا كنتِ تظنين أنه يجب مرافقة الشابات باستمرار ومراقبتهن بصرامة ووضعهن تحت قيود منزلية صارمة». ابتسم ثم تحولت نبرة صوته إلى نبرة جادة، «بشكل عام، أظن أنها تُستخدم لانتقاد شخصٍ ما».

قلت: «سأعيد القصاصات إلى مكانها».

لملمتُ القصاصات. عندما وجدت فتحات العلب الخاصة بها، وضعت القصاصة التي كُتب عليها «*البنات اللاتي لديهن مفاتيح أبواب بيوتهن*» في كمّ ثوبي. وقلت لنفسي، إنها نسخة مكررة.

***

في نهاية عام 1902، أصبحتُ واثقة من جمع الكلمات الخاصة بي، لكني بقيت أؤدي المهام الموكلة إليَّ في المَنْسَخ، وأضيف اقتباسات جديدة إلى أكداس القصاصات التي يفرزها متطوعون منذ عدة سنوات. بدأت أشعر بالإحباط من التعريفات التي تُعرِّف بعض الكلمات، وكنت أرغب في أن أضع خطًا على الكثير منها، لكنّي لست في موقع يؤهلني لأن أفعل ذلك. لكن لا يمكن مقاومة الإغواء لفترة طويلة.

«إسمي، هل أنت كتبتِ هذه؟»

دفع أبي صفحة مسودة طباعة على طاولة الإفطار وأشار إلى قصاصة ورق مثبتّة على حافتها. إنها مكتوبة بخطّ يدي. لم يكن ثمة ما يشير في نبرة صوته إلى أن التعديل الذي أجريته جيد أم سيئ. لبثت صامتة.

«متى فعلتها؟» سألني.

«صباح اليوم»، قلت ولم أرفع عينيَّ من صحن طعامي. «لقد تركتها عندما أويت إلى الفراش الليلة الماضية».

جلس أبي وراح يقرأ ما كتبته.

MADCAP

Often applied playfully to young women of lively or impulsive temperament.

”On the boards, she was the merriest, gayest, madcap in the world“.

Mabel Collins, The Prettiest Woman in Warsaw, 1885

(*مجنون، طائش*)

تُستخدم غالبًا من باب المداعبة للشابات ذوات المزاج المفعم بالحيوية أو المزاج الانفعالي.

«على خشبة المسرح، كانت الأكثر مرحًا وبهجة وجنونًا في العالم».

مابل كولينز، رواية «أجمل امرأة في وارسو»، 1885.

بحثتُ عن الكلمة. كان أبي ينتظر مني تفسيرًا. قلت: «إنها تذكر معنى لم يكن موجودًا»، وأضفتُ، «وقد أخذتُ الاقتباس من معنى آخر لم يكن مناسبًا على الإطلاق. في معظم الأحيان، أظن أن المتطوعين فهموها بشكل خاطئ تمامًا».

فقال دا: «كما نفعل نحن أيضًا. لهذا السبب استغرقنا وقتًا طويلًا لإعادة صياغتها».

تضرّج وجهي خجلًا، وأدركتُ أن أبي كان قد ترك صفحة مسودة الطباعة في الخارج؛ لأنه لا يزال يعمل عليها. قلتُ: «لا بد أنك ستكتب شيئًا أفضل، لكنّي قلت لنفسي إنني قد أوفّر عليك قدرًا من الوقت لو صغتها أنا».

«لا. لقد أنهيت العمل بها. أظن أن التعريفات التي وضعتها ملائمة».

«أوه».

«كنتُ مخطئًا». أخذ مسودة الطباعة وطواها. لوهلة، لبثنا صامتين.

«ربما أستطيع أن أقدّم اقتراحات أخرى؟»

رفع أبي حاجبيه.

قلت: «حول المعاني التي أُعطيت للكلمات. عندما أفرزها وأضيف قصاصات جديدة، لعلي أستطيع أن أكتب اقتراحات في أعلى القصاصات التي أظن أنها...» ثم صمتُّ غير قادرة على أن أوجّه انتقادًا.

«غير مناسبة؟» قال دا، «ذاتية؟ تُطلق أحكامًا؟ طنانة؟ غير صحيحة؟»

ضحكنا.

ثم قال: «ربما يمكنك ذلك».

***

ظلّ طلبي معلّقًا في الهواء بينما راح الدكتور موراي يرمقني من فوق نظارته.

«طبعًا تستطيعين»، قال أخيرًا، «إني أتطلّع إلى رؤية ما الذي يمكنك أن تتوصلي إليه».

كانت لديّ كلمات جاهزة لو أنه رفض طلبي، لذلك فوجئت بموافقته السهلة والسريعة. وقفتُ مذهولة أمام طاولة مكتبه.

ثم قال: «يُحتمل تشذيب كلّ ما تقترحينه. إن رأيك سيعود بالفائدة على جهودنا في تعريف اللغة الإنكليزية»، ثم انحنى إلى الأمام، وارتعش شاربه عند طرفيّ فمه، وأضاف، «تحبّ ابنتاي كثيرًا أن تشيرا إلى التحيزات الراسخة لدى المتطوعين المسنين هنا. إني متيقن من أنهما ستكونان سعيدتين لأن تكوني معهما».

منذ ذلك الحين، لم أعد أشعر بأنني شخص زائد عن الحاجة، واعتبرت القيام بفرز القصاصات تحديًا جديدًا. سيخبرني أبي كلما أدرج أحد الاقتراحات التي أقدمها في إحدى الملازم. ازداد ذلك مع ازدياد ثقتي بنفسي، واحتفظتُ بسجل

داخل طاولتي: بقعة صغيرة أضع فيه كلّ معنى كتبته يتم قبوله. مع مرور السنين، امتلأ ذلك الجزء من طاولتي بالإنجازات الصغيرة.

أيار (مايو) 1906

شعرت بحرية كبيرة عندما بدأت أتقاضى مرتبًا، وأصبحت مألوفة لدى العديد من أصحاب المحلات في السوق المغطاة. ظللت أرافق ليزي إلى السوق صباح كل يوم سبت، أحمل سلتي وأملأها بمواد البقالة. وعندما كنا ننتهي من التسوّق، آخذ ليزي إلى محل بيع القماش. وشيئًا فشيئًا، بدأت أستبدل الأشياء المهترئة في بيتنا. بدأت أستمتع بإنفاق نقودي بهذه الطريقة، مع أن أبي لم يلاحظ ذلك أحيانًا. وكنا ننهي جولتنا دائمًا بزيارة محل الخردوات، وكنت أشعر ببهجة كبيرة عندما أشتري خيوطًا جديدة لليزي.

وفي الأيام الأخرى، عندما لا ترافقني ليزي، كنت أزور بعض أصحاب الأكشاك الذين أعرف أن لديهم طريقة خاصة في استخدام الكلمات، الذين يتحدّثون بلهجات من أقصى الشمال أو من الزاوية الجنوبية الغربية من إنكلترا، بعضهم من الغجر أو الأيرلنديين المتنقلين الذين يأتون ويذهبون، معظمهم نساء؛ شيبًا وشبانًا، قلة قليلة منهم يستطيعون قراءة الكلمات التي يقولونها لي عندما أكتبها، لكنهم كانوا جميعًا يحبّون أن يشاطروني إياها. خلال بضع سنوات، جمعت أكثر من مئة كلمة، ثم اكتشفت أن بعضها كان موجودًا فعلًا في فتحات العلب في المَنْسَخ، لكن معظمها لم تكن موجودة. وكلما رغبت في أن أسمع كلمات سوقية، ذهبت لزيارة مابل.

***

امرأة لم أرها من قبل كانت تتفحّص الأغراض التي تعرضها مابل للبيع بنفس الشرود الذي يعتريني عادة. كانتا منهمكتين في الحديث، ولم أشأ أن

أقاطعهما. رحت أتسكع قليلًا بين أصص الأزهار في كشك السيّدة ستايلز.

دأبت على شراء بعض الأزهار من كشك السيّدة ستايلز، كلّ أسبوع، لكن ترددي على كشك مابل في السنوات القليلة الماضية، بدا ملحوظًا. وبما أن بائعة الأزهار لم تكن امرأة ودودة، كان قضاء بالقرب من كشكها صعبًا.

«هل قررتِ ماذا تريدين؟» جاءت السيّدة ستايلز من وراء منضدتها وراحت تعيد ترتيب الأزهار التي لم تكن بحاجة إلى ترتيب.

سمعت مابل تنخر على شيء قالته المرأة. عندما نظرت إليهما، رأيت بشرة شاحبة وخدًا أحمر عندما أدارت المرأة وجهها، قليلًا فقط، لتتحاشى رائحة أنفاس مابل الكريهة التي أدركت أنها لا بد هبّت عليها. تساءلت: لماذا لا تزال هناك. الشعور بالشفقة لا يتطلب أكثر من لحظة واحدة. تملكني شعور غريب بأنني أراقب نفسي كما قد يراقبني الآخرون، ولا بد أن السيّدة ستايلز كانت تراقبني.

كانت بائعة الأزهار تنتظر ردًا مني. اقتربتُ من أصيص قرنفل، كان تناسق ألوانه الفاتحة باهتًا ومنفّرًا بعض الشيء، لكنه مكانه مكّنني من رؤية زائرة مابل بمزيد من الوضوح. انحنيت قليلًا كما لو أنني أتفحّص الأزهار، وشعرت باستياء السيّدة ستايلز مني. سقطت بتلات بعض براعم أزهار البنفسج التي كانت ترتبها بعصبية وعنف.

«هذه لك يا مابل»، قلت بعد بضع دقائق وقدمت لها باقة صغيرة من أزهار البنفسج التي منحت رائحتها ارتياحًا واضحًا لصديقة مابل الجديدة. لم أجرؤ على أن ألتفت وأنظر إلى بائعة الأزهار، لكن مابل كانت وقحة، فأخذت الباقة مني وتفحّصت الورقة البنية الملفوفة بها والشريط الأبيض حولها، ثم قالت بصوت مسموع: «الأزهار هي التي تهم»، ورفعت الباقة إلى أنفها بمتعة مبالغ فيها.

«كيف رائحتها؟» سألتها الشابة.

«لا أعرف. فلم أشمّ شيئًا منذ سنوات»، قالت مابل وأعطت الأزهار للمرأة التي دفنت وجهها فيها وراحت تتنشّقها.

عندما أغمضت عينيها، تفحّصتها جيدًا. كانت طويلة القامة، لكنها كانت أقصر مني، وفي جسدها انحناءات تشبه انحناءات المرأة التي تظهر في صورة إعلان صابون بيرز. وفوق ياقة عالية من الدانتيل، بدت بشرتها شاحبة لكنها

صافية، لا شائبة فيها، وتدلّى شعر أشقر عسلي في جديلة حتى أسفل ظهرها، ولم تكن ترتدي قبّعة.

وضعت الأزهار بين جرس صدئ لا يحتمل أن يقرع مرة أخرى ووجه ملاك منحوت.

التقطتُ وجه الملاك المنحوت، وقلت: «لم أر هذا من قبل يا مابل».

«أنهيته صباح اليوم».

«هل تعرفينها؟» سألتُها.

فأجابت مابل، «منذ قبل أن أفقد أسناني».

لم تبدِ المرأة أي بادرة بأنها ستغادر، وتساءلت إن كنت قد قطعت عليهما حديثًا خاصًا كانتا تنتظران أن أذهب حتى تستأنفانه. أخرجت محفظتي من جيبي، وبحثت عن القطع النقدية المناسبة.

«عرفتُ أنها ستعجبك»، قالت مابل. في البداية، ظننت أنها تتحدّث عن المرأة الشابة التي تتبادل الحديث معها، لكنها أعطتني التمثال الصغير، وأخذت النقود مني.

«اسمي تيلدا»، قالت المرأة، ومدّت يدها لي. ترددتُ.

«إنها لا تحبّ أن تصافح أحدًا»، قالت لها مابل، «إنها تخشى أن تجفلي منها».

نظرت تيلدا إلى أصابعي، ثم نظرت إلى عينيَّ مباشرة، وقالت: «أشياء كثيرة لا تجعلني أجفل». كانت قبضتها قوية. شعرتُ بالامتنان.

قلت «إسمي، هل أنتِ صديقة مابل؟»

«لا، التقينا الآن فقط».

فقالت مابل: «أرواح متآلفة، كما أظن».

انحنت تيلدا وقالت، «إنها تصرّ على أنني dollymop».

لم أفهم.

«انظري إلى وجهها. ألم تسمعي بكلمة dollymop». كانت مابل صريحة ومباشرة في كلامها. أبدت السيّدة ستايلز أنها سمعت شتيمة وحرّكت الدلاء والأصص، وهمهمت كلمات احتجاج غير مفهومة.: «هيا أيتها الشابة، «أخرجي قصاصاتك»، قالت لي مابل.

رفعت تيلدا رأسها.

فقالت لها مابل: «إنها تجمع كلمات».

«أي نوع من الكلمات؟»

«كلمات تتعلق بالنساء. كلمات نابية».

وقفت مصعوقة كبلهاء. فوجئت كما لو أن أبي طلب مني أن أريه ماذا في جيبي.

لكن تيلدا أبدت اهتمامًا، ولم تخف. وقالت: «حقًا؟» وراحت تنظر إلى سترتي الفضفاضة وسلسلة أزهار الأقحوان التي طرزّتها ليزي حول أطراف كميّ، «كلمات نابية؟»

«لا. أحيانًا. كلمات سوقية كالتي تقولها مابل».

أخرجتُ حزمة القصاصات الفارغة وقلم رصاص من جيبي.

«هل أنت dollymop؟» سألتها، لا أعرف إلى أي درجة يمكن أن تكون مسيئة، لكن فضولي دفعني لأعرف معنى هذه الكلمة.

«ممثلة، مع أن ذلك يُعتبر نفس الشيء بالنسبة للبعض»، قالت وابتسمت لمابل، «تقول لي صديقتنا إن صعودها على خشبة المسرح هو الذي جعلها تعمل في هذا المجال».

بدأت أفهم وكتبت كلمة dollymop في أعلى الزاوية اليسرى للقصاصة التي اقتطعتها من صفحة مسودة طباعة مرمية. بدأت أحبّ القصاصات مع أن المتعة التي تنتابني عندما أشطب الكلمات الأصلية وأدوّن الكلمة التي تقولها لي مابل على الجانب الآخر، لم تكن تمرّ من دون أن أشعر بالخجل.

«هل يمكنكِ أن تضعيها في جملة؟» سألتها.

نظرت تيلدا إلى القصاصة، ثم نظرت إليّ، وقالت: «أظن أنك جادة، أليس كذلك؟»

اندفعت الحرارة إلى خدّيَّ. تخيّلت القصاصة من خلال عينيها، وعدم جدواها. لا بد أن ما أفعله يبدو غريبًا بالنسبة لها.

«أعطها جملة»، قالت مابل تحثّها.

انتظرتني تيلدا لأرفع بصري، ثم قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة متوقعة، «بشرط واحد. إننا سنعرض مسرحية «*بيت الدمية*» على خشبة *المسرح الجديد*. يجب أن تأتي اليوم إلى عرض بعد الظهر ثم تذهبي معنا لنتناول الشاي».

«ستأتي، ستأتي. أعطها جملة الآن».

غبّت تيلدا كمية كبيرة من الهواء واعتدلت في وقفتها. سقطت نظرتها وراء كتفي وأعطتني جملتها بلهجة امرأة من الطبقة العاملة لم أسمعها من قبل. «قطعة نقود للـ dollymop ستجعل حضنك دافئًا».

«الخبرة هي التي تتحدث إذا سألتني»، قالت مابل وهي تضحك.

«لم يسألك أحد يا مابل»، قلتُ وكتبت الجملة في وسط القصاصة.

«هل تعني نفس كلمة prostitute(*بائعة هوى*)؟» سألتُ تيلدا.

«أظن ذلك. مع أن dollymop تعني امرأة انتهازية أكثر وأقل خبرة بكثير».

نظرت إليَّ تيلدا وأنا أكتب تعريف الكلمة.

ثم قالت: «هذا يلخص الأمر تمامًا».

«ما هو اسمك الأخير؟» سألتها.

«تايلور».

نقرت مابل بسكينها الصغيرة على الصندوق لتجذب انتباهنا، وقالت: «اقرئيها لي إذن».

تلفتُّ حولي.

مدّت تيلدا يدها لتأخذ القصاصة وقالت: «أعدكِ بأنني لن أرميها».

أعطيتها لها.

DOLLYMOP

.A woman who is paid for sexual favours on an occasional basis

”..A coin for the dollymop will keep your lap warm“

Tilda Taylor, 1906

امرأة تحصل على نقود لقاء خدمات جنسية أحيانًا.

« قطعة نقود للـمومس ستجعل حضنك دافئًا».

تيلدا تايلور، 1906

إنها كلمة جيدة، قلت لنفسي وأعدت القصاصة إلى جيبي، ومن مصدر جيد.

«يجب أن أذهب الآن. يجب أن أبدّل ثيابي لأن المسرحية ستبدأ بعد ساعة»، قالت تيلدا، وأخرجت من حقيبتها برنامج المسرحية.

وقالت: «أؤدي دور نورا. تُرفع الستارة الساعة الثانية».

***

عندما عاد أبي إلى البيت من المَنْسَخ، كنت قد أعددت وجبة الغداء: فطائر لحم كنت قد اشتريتها من السوق وفاصوليا خضراء مسلوقة. وضعتُ مزهرية مليئة بأزهار طازجة على طاولة المطبخ.

عندما بدأنا نتناول الطعام، قلت لدا: «لقد دُعيت لحضور مسرحية «*بيت الدمية*» في المسرح الجديد.

رفع أبي عينيه، متفاجئًا. ابتسم، وقال: «أوه؟ ومن الذي دعاك؟»

«شخص التقيتُ به في السوق المغطاة».

عندما تحوّلت ابتسامة أبي إلى عبوس، استدركتُ قائلة، «إنها امرأة. ممثلة، تشارك في المسرحية. هل تريد أن تأتي معي؟»

«اليوم؟»

«نعم».

لكنه قال: «إني أنتظر أن أمضي فترة بعد الظهر في قراءة الصحف».

بعد الغداء، سرتُ في شارع والتون باتجاه وسط المدينة. عند المطبعة، تدفق حشد من الناس تحت القنطرة بعد أن أنهوا أعمالهم لهذا الأسبوع. كانوا يتحركون بحيوية ويتحدثون بصوت عالٍ، معظمهم يسيرون في الطريق الذي قدمت منه، عائدين إلى بيوتهم في جيريكو، لكن مجموعات صغيرة من الرجال وعدة أزواج شبان كانوا يسيرون باتجاه وسط مدينة أكسفورد. تبعتهم وتساءلت هل سيذهب أحد منهم إلى *المسرح الجديد*.

لكن القافلة الصغيرة التي كنت أسير خلفها تفرّقت في شارع جورج، وتوجه بعضهم إلى الحانات وبعضهم الآخر إلى المقاهي وصالات الشاي، لكن لم يذهب ولا واحد فيهم إلى المسرح.

وصلت في وقت مبكر. كان المسرح شبه فارغ. بدا لي أكبر مما أتذكّره. وعلى الرغم من أن فيه مقاعد تتسع لمئات الأشخاص، لم يكن فيه أكثر من ثلاثين شخصًا. لم أعرف أين سأجلس.

هبطت تيلدا من الدرج المكسو بالسجاد على خشبة المسرح إلى حيث أقف. «قال لها بيل إنه رأى أجمل امرأة تدخل المسرح فعرفتُ أنها أنتِ»، قالت تيلدا وأخذتني من يدي وقادتني إلى الصف الأمامي حيث يجلس شخص واحد فقط.

«بيل، كنتَ محقًا. هذه إسمي».

وقف بيل وانحنى قليلًا بطريقة مسرحية.

«إسمي، هذا أخي بيل. يجب أن تجلسي إلى جانبه في الصف الأمامي حتى أراك. لا بد أنك ستضيعين في وسط الناس لو جلستِ في مقعد آخر»، قالت تيلدا وقبّلت شقيقها على خدّه وتركتنا.

«عندما تجلسين في الصف الأمامي، يمكنك أن تتصوري المسرح ممتلئًا وأنك تجلسين في أفضل مقعد في عرض بيعت تذاكره بالكامل»، قال بيل عندما جلسنا.

«هل هذا شيء يجب أن تفعله كثيرًا؟»

«ليس عادة، لكنه مفيد لهذا العرض».

كان الجلوس إلى جانب بيل يسيرًا، مع أنني كنت أعرف أنني قد لا أشعر بالارتياح. فقد كان يفتقر إلى الكياسة التي اعتدت أن أراها في الرجال الذين يأتون إلى المَنْسَخ. بالطبع، فهو ينتمي إلى طبقة العامة وليس إلى فئة الجامعيين والأكاديميين، لكني لاحظت فيه شيئًا آخر لم أستطع أن أعبّر عنه. قال لي بيل إنه يصغر أخته تيلدا بعشر سنوات، وهذا يعني أنه في الثانية والعشرين من عمره، أصغر مني بسنتين فقط. كان طويلًا بما يكفي لينظر في عينيَّ مباشرة، أنفه يشبه أنف تيلدا الجميل، وله شفتان ممتلئتان لكن يخفيهما كثير من النمش، ويقاسم أخته عينيها الخضراوين، لكن ليس شعرها العسلي: فقد كان شعر بيل داكنًا مثل العسل الأسود.

رحت أنصتُ إليه ريثما ترتفع الستارة. تركّز معظم حديثه حول تيلدا، وقال إنه لا يوجد أحد يرعاه غيرها. ألا يوجد لديهما أبوان؟ سألته.

فقال بيل: «لا. إنهما لم يموتا، وإنما غائبان فقط. لذلك، فإني أتبعها إلى حيث يدعوها المسرح»، ثم أُطفئت الأنوار وارتفعت الستارة.

كانت تيلدا رائعة، أما باقي الممثلين فلم يكونوا بذلك المستوى.

***

«لست متأكدة من أن الشاي سيكفينا بعد ظهر اليوم»، قالت تيلدا عندما غادرنا المسرح أخيرًا، ثم سألتني، «هل تعرفين أين يمكننا أن نشرب شيئًا يا إسمي؟ مكان لا يذهب إليه الممثلون الآخرون».

لم أذهب إلى حانة قط إلَّا مع أبي أيام الأحد لنتناول الغداء، لكننا لم نذهب إليها قط لنحتسي مشروبًا. كنا نبقى معظم الوقت في جيريكو، لكننا ذهبنا ذات مرة إلى حانة صغيرة إلى جانب كنيسة كرايست. ذهبنا إلى شارع سانت ألدايت.

«هل توم العجوز هو صاحب الحانة؟» سألني بيل عندما وقفنا عند مدخل الحانة.

«لقد سُمّيت على اسم *توم العظيم*، الجرس الذي في برج توم»، وأشرت إلى برج الجرس أسفل شارع سانت ألدايت. كنت مستعدة لأن أخبرهما المزيد، لكن تيلدا استدارت ودخلت إلى الحانة.

كانت الساعة الخامسة وكانت حانة «توم العجوز» قد بدأت تمتلئ. كان بيل وتيلدا شخصين يدعوان إلى الدهشة، فقد انسلاَّ بين الحشد مثل سكينة دافئة وهي تقطع قطعة زبدة. تبعتهما، منحنية قليلًا، مطرقة برأسي. لم يكن وقت تقديم وجبات طعام، واستطعت أن أحصي عدد النساء الموجودات في الحانة على أصابع يد واحدة. تخيّلت ليزي وهي تضع يدها على صليبها لو أخبرتها إلى أين ذهبت مساء اليوم.

«هذا لطف كبير منكم»، سمعت تيلدا تقول عندما نهض ثلاثة رجال من على طاولتهم وقدّموها لها.

أمسك بيل كرسيها حتى جلست، وفعل ذات الشيء نفسه، ثم سألني، «ماذا تحبّين؟»

لم أكن متأكدة. فقلت بطريقة كأنني ألتمس موافقتهما، «عصير ليمون».

مع أن نضد البار لم يكن يبعد سوى بضع أقدام، فقد صاح بيل يعلن عن طلبه من فوق رؤوس الرجال الآخرين. في البداية، سُمعت همهمات تأفف، لكن عندما أشار بيل إلى المكان الذي نجلس فيه، أصبحت المرطبات التي طلبناها فجأة أولوية.

غبّت تيلدا كأسالكحول، وسألتني، «هل استمتعتِ بالمسرحية يا إسمي؟»

«كنتِ رائعة».

«شكرًا على قولك ذلك، لكنك تحاشيتِ الإجابة عن السؤال بمهارة».

«لم تكن جيدة جدًا» قال بيل، وأنقذني بذلك.

«قد يكون هذا أجمل شيء قاله أحد عنها يا بيل». قالت ووضعت يدها على ذراعه، «وهذا أيضًا السبب الذي جعل المسرحية تتوقف بدءًا من الآن».

«Fuck»

أجفلتُ. لا من الكلمة، وإنما من سهولة قوله لها.

التفت بيل وقال: «آسف».

«لا تعتذر يا بيل. إسمي تجمع كلمات. إذا كنت محظوظًا، فإنها ستدوّنها على قصاصة صغيرة »، قالت تيلدا ورفعت كأسها الفارغة.

«آسف يا شقيقتي الكبيرة، إن عدم وجود عمل في الآونة الأخيرة قد لا يتيح لنا أن نشرب كأسيّالكحول».

«لكنّي لم أزفّ لك الخبر السار»، قالت تيلدا وعلى وجهها ابتسامة، «كما قالت إسمي، كنتُ رائعة. قال لي ذلك ممثلان من فرقة جامعة أكسفورد التي شكّل أفرادها معظم الجمهور اليوم، وطلبا مني أن أنضم إليهم في مسرحية (*جعجعة بلا طحن*). سأؤدي دور بياتريس. فقد أصيبت الممثلة الأصلية بجدري الماء». صمتت تيلدا قليلًا لتتيح لبيل فرصة الكلام، ثم أضافت، «إنها تتمتع بسمعة عظيمة، والليالي القليلة الأولى تكاد تكون محجوزة بالكامل. اتفقت على جزء من إيرادات شباك التذاكر».

ضرب بيل الطاولة بيده فارتجت الكؤوس، وقال: «هذا رائع. وهل يوجد عمل لي؟»

«طبعًا، فأنا وأنت فريق واحد. ستكون المسؤول عن إلباس الممثلين، وإحضار الطعام لهم أحيانًا. سوف يتشاجرون عليك يا بيل».

عندما عاد بيل إلى نضد البار، أخرجتُ قصاصة. كانت مابل قد استخدمت كلمة «fuck» في صيغة النفي فقط.

«قد تحتاجين إلى أكثر من قصاصة»، قالت تيلدا، «لا يمكنني أن أفكّر بكلمات ذات معانٍ مختلفة أكثر من هذه».

***

لم أجد كلمة Fuck في المجلد من F إلى G في القاموس.

«هل تبحثين عن شيءٍ محددٍ يا إسمي؟» سألني أبي وأنا أعيد المجلد إلى الرفّ.

«نعم، لكنك لا تريد أن أقولها بصوت عالٍ».

ابتسم، وقال: «فهمت. انظري في فتحات العلب. إذا كانت مكتوبة، فإنك ستجدينها هناك».

«إذا كانت مكتوبة، ألا ينبغي أن تكون في القاموس؟»

«ليس بالضرورة. يجب أن يكون لها تاريخ شرعي في اللغة الإنكليزية. وحتى لو كان الأمر ذلك... «صمت»... سأصيغها على النحو التالي: إذا لم ترغبي في أن تنطقيها بصوت مسموع، فربما وجد أحدهم أن إدراجها في القاموس شيء غير لائق».

فتّشت في فتحات العلب. كان عدد القصاصات عن هذه الكلمة أكثر من معظم الكلمات الأخرى، وقد قُسِّمت الكومة إلى معانٍ مختلفة أكثر مما ذكرته تيلدا وبيل، يعود أقدمها إلى القرن السادس عشر.

فُتح باب المَنْسَخ ودخل السيّد مالينغ والسيّد يوكني؛ أحدث المساعدين وأصغرهم سنًا وأكثرهم صلعًا. أعدتُ القصاصات إلى أماكنها وعدت إلى طاولتي لأفرز الرسائل الواردة في البريد.

في الساعة الحادية عشرة، ذهبت وجلست مع ليزي في المطبخ.

«تقول مابل إنك تعرفتِ على صديقة جديدة يوم السبت»، قالت ليزي وهي تصبّ الشاي.

«صديقة وصديق، في حقيقة الأمر.»

«هل ستخبريني عنهما؟»

لم تكد ليزي تقول شيئًا عندما حكيت لها عما جرى في ذلك اليوم. عندما ذكرتُ حانة «توم العجوز» امتدت يدها لتلمس صليبها. لم أخبرها عن الكحول الذي شربته تيلدا، لكنّي تعمدت أن أقول لها إنني شربت عصير الليمون.

«إنهما سيتدربان على المسرحية لبضعة أسابيع»، قلت لها، «أظن أننا نستطيع أن نذهب معًا عند افتتاح المسرحية».

فقالت ليزي: «سنرى»، ثم أزالت بقايا الطعام من المائدة.

قبل أن أعود إلى المَنْسَخ، صعدت إلى غرفتها وأضفت كلمات بيل وتيلدا إلى الصندوق.

***

لم تكن مكتبة بودليان تبعد سوى بضع دقائق عن *المسرح الجديد*، فأصبح كل طلب لإيجاد كلمة أو التحقق من اقتباس فرصة لي لزيارة بيل وتيلدا أثناء تدريباتهما على المسرحية. حماستي للقيام بهذه المهام لم تفت ملاحظة البعض.

«إلى أين أنتِ ذاهبة هذا الصباح يا إسمي؟» كان السيّد سويتمان يسير إلى جانب دراجته في طريقه إلى المَنْسَخ بينما كنت أهمّ أن أركب دراجتي.

«إلى مكتبة بودليان».

«لكن هذه المرة الثالثة التي تذهبين إليها خلال بضعة أيام».

فقلت له: «يبحث الدكتور موراي عن اقتباس، وعليَّ أن أجده. وهذا يجعلني في غاية السعادة أيضًا.. فأنا أحبّ المكتبة كثيرًا».

نظر السيّد سويتمان إلى جدران المَنْسَخ الحديدية وقال: «نعم، يمكنني أن أرى لماذا تحبين ذلك. وما هي الكلمة، إن كان لي أن أسأل؟»

قلت: «Suffrage» (*حقّ الاقتراع*)

«إنها كلمة مهمة».

ابتسمتُ وقلت: «كلّ الكلمات مهمة يا سيّد سويتمان».

فقال «طبعًا، لكن بعض الكلمات تعني أكثر مما قد نتخيّله»، وأضاف، «أخشى أحيانًا أن يكون القاموس قاصرًا عن استيعاب جميع الكلمات».

«كيف يمكن ذلك؟» نسيتُ أنني في عجلة من أمري، «إن الكلمات كالقصص، ألا تعتقد ذلك يا سيّد سويتمان؟ إنها تتغيّر عندما تنتقل من فمٍ إلى فم. إما أن يتوسع معناها أو تُبتر كي تتلاءم مع ما يجب قوله. لعل القاموسَ لا يستطيع أن يعبّر عن كلّ مرادفات الكلمة، خصوصًا إذا لم يُدوَّن عدد كبير منها...» ثم صمتُ، وفجأة تملكني شعور بالخجل.

كانت ابتسامة السيّد سويتمان عريضة، لكنها لم تكن ساخرة، وقال: «وجهة نظرك ممتازة يا إسمي، واسمحي لي أن أقول لك إنك بدأت تتكلمين كما يتكلّم المعجميون».

انطلقت بالدراجة بأسرع ما يمكنني في شارع باركس رود، ووصلت إلى مكتبة بودليان في وقت قياسي عثرت على كتاب (*تعليقات بلاكستون حول قوانين إنكلترا*) بسهولة. أخذته إلى أقرب طاولة، ورحت أدقق في القصاصات الثلاث التي أراد الدكتور موراي أن أتحقق منها. رأيت نفس الاقتباس فيها كلها، بشكل أو بآخر (بشكل أو بآخر هي التي أريد أن تتحققي منها، قال الدكتور موراي).

وجدتُ الصفحة المطلوبة، مسحتها بعينيَّ، ورحت أمرر إصبعي على كل جملة أدقق كل اقتباس مقابلها. كان كلّ اقتباس ناقصًا كلمة أو كلمتين. يا له من يوم سعيد في المكتبة، قلت لنفسي، وأنا أرسم خطًا فوق ما كتبه المتطوعون. بقدر ما أردت أن أعود بسرعة، حرصت على أن أنسخ الاقتباس الصحيح في قصاصة نظيفة.

لذلك، فإن تحديد الأشخاص الذين يحقّ لهم الاقتراع، وسبل إجراء الاقتراع في جميع الأنظمة الديمقراطية أمر في غاية الأهمية.

أعدت قراءة الاقتباس، وتحققت من دقته. بحثت عن تاريخ المطبوعة: 1765. تساءلت من كان بلاكستون يرى أنه يجب أن يُمنح حق الاقتراع. كتبت كلمة

تصحيح في الزاوية اليسرى في أسفل القصاصة وأضفت الأحرف الأولى من اسمي، E.N ثم ثبتّها على القصاصات الثلاث الأخرى.

عندما عدت إلى المَنْسَخ، سلكت الطريق الأطول، وتوقفت عند «المسرح الجديد».

عندما دخلت إلى المسرح، أخذت لحظة لتتكيّف عيناي مع الظلام. كان الممثلون على خشبة المسرح، توقفوا مؤقتًا في منتصف المشهد. كان بضعة أشخاص جالسين في الصفوف الوسطى.

«كنت أتساءل إن كنتُ سأراكِ اليوم»، قال بيل عندما جلست إلى جانبه.

قلتُ: «عندي عشر دقائق. أردت أن أراهم في أزيائهم المسرحية».

كانت بروفة على الثياب. كانت ليلة الافتتاح بعد ثلاثة أيام فقط.

«لماذا تأتين كلّ يوم؟» سألني بيل.

كان عليَّ أن أفكر، ثم قلت: «لأرى شيئًا قبل أن يتشكّل تمامًا. أراه وهو ينمو. أتخيّل أنني جالسة هنا في ليلة الافتتاح، أقدّر كلّ مشهد لأنني أصبحت أفهم الأشياء التي أفضت إليه».

ضحك بيل.

«ما الشيء المضحك؟»

«لا شيء. إنك لا تتكلمين كثيرًا، لكن عندما تتكلمين فإنك تقولين ذلك بطريقة رائعة».

نظرتُ إلى الأرض، وفركتُ يديَّ.

«وأحبّ أنك لا تتحدّثين عن القبّعات أبدًا»، قال بيل.

«القبّعات؟ لماذا أتحدّث عن القبّعات؟»

«تحبّ النساء التحدّث عن القبّعات».

«صحيح؟»

ٍ

«إن عدم معرفتك بذلك يجعلني أحبّك».

فجأة، تبخَّرت كلّ كلمة كنت أعرفها.

***

31 أيار (مايو) 1906

عزيزتي إسمي،

يبدو أن صديقيك الجديدين مثيران للاهتمام. بعبارة مثيرين للاهتمام، أقصد شيئًا غير تقليدي، وهو أمر جيد بشكل عام، لكن ليس دائمًا. إني واثقة من أن بإمكانك أن تعرفي الفرق بنفسك.

أما بشأن إدراج كلمات مبتذلة في القاموس، فإن صيغة الدكتور موراي يجب أن تكون هي الحكم الفصل الوحيد. إنها صيغة علمية صارمة تطبّق على أنماط معينة من الإثباتات والأدلة. فإذا كان الدليل موجودًا، عندها ينبغي أن تُدرج الكلمة. إنها صيغة ذكية لأنها تستبعد المشاعر. عندما تُطبّق بصورة صحيحة، فإن الصيغة تؤدي الغرض الذي وضعت من أجله. وعندما تُركن جانبًا، فإنها تصبح عديمة الجدوى. مرت أوقات وضعت فيها جانبًا (حتى من قبل الشخص الذي وضعها) للتمكن من التعبير عن الرأي الشخصي. إن الكلمات المبتذلة، كما تسميها، هي الضحايا المعتادة. مهما توفرت الأدلة والإثباتات لإدراجها، يوجد أشخاص لا يريدون أن تُدرج تلك الكلمات في القاموس.

من جهتي، أظن أنها تضيف لونًا. إن الكلمة المبتذلة، إذا صيغت بشكل جيد، وقيلت بقوة كافية، فمن الممكن أن تعبّر عمّا يمكن أن تعبّر عنه نظيرتها المهذبة أكثر بكثير.

إذا كنت قد بدأتِ بجمع هذه الكلمات، يا إسمي، هل لي أن أقترح ألَّا تقوليها في الأماكن العامة؛ لأن ذلك لن يجدي نفعًا على الإطلاق. أما إذا كنت تشعرين بالرغبة في أن تعبّري عنها، يمكنك أن تطلبي من السيّد مالينغ أن يترجمها لك إلى لغة الإسبرانتو. ستُدهشين من تنوع هذه اللغة، ومدى تحرر السيد مالينغ عندما يتعلق الأمر بالكلمات المبتذلة.

المخلصة، مع حبي

ديتي

حزيران (يونيه) 1906

افتُتحت مسرحية (*جعجعة بلا طحن*) في المسرح الجديد في التاسع من حزيران. كانت مهمة بيل في ليلة الافتتاح مساعدة الممثلين على ارتداء المِشَدّات والجوارب والشعر المستعار. كانت الأخطاء كثيرة. جلست معه في المقصورة، وشاهدت المسرحية من جانب المسرح.

«هل أُغويتَ ذات يوم؟» سألته ونحن نشاهد تيلدا وهي تمثّل دور بياتريس.

فقال بيل: «لم أستطع أن أجيد التمثيل لأنقذ حياتي، فأتقنت الخياطة».

«حقًا؟»

«وأعمال النجارة والتعامل مع الزبائن وأي شيء آخر قد يُطلب مني». لامست يده يدي، وقال: «وأنتِ؟ هل أغويتِ أنتِ قط؟»

هززت رأسي. عندما بدأت أصابع بيل تداعب أصابعي، لم أبعدها.

«هل تشعرين بها؟» سألني وهو يمرر أصبعه على الندبة في إصبعي.

«نعم، لكن أشعر أنها بعيدة، كما لو أنك تلمسني من وراء قفاز».

لم يكن تفسيرًا صحيحًا تمامًا، فقد كانت لمسة يده مثل همسة في أذني، أنفاسها تسري في جسدي حتى شعرت برعشة.

«هل تؤلمكِ؟»

«لا، أبدًا».

«كيف حدث ذلك؟»

عندما كنتُ صغيرة، كانت الإجابة تشكّل عقدة عاطفية تتشابك في وسط صدري.. لم أكن أملك كلمات كي أفسّرها. لكن يد بيل ظلّت ثابتة فوق يدي، وقد أحببت الدفء المنبعث منها.

«كانت هناك قصاصة ورق...»، قلت.

«كلمة؟»

«ظننت أنها كانت مهمة».

أنصت بيل.

***

كان الوقت في المَنْسَخ يتمدد ويتقلّص دائمًا حتى يلائم مزاجي، لكني قلَّما شعرت بأن الوقت يمرّ بطيئًا. أما منذ أن تعرفتُ على تيلدا وبيل، فقد بدأت أجد نفسي أنظر إلى الساعة كثيرًا.

استمّر عرض مسرحية (*جعجعة بلا طحن*) أسابيع عدة، وكان المسرح يمتلئ حتى آخره في كلّ عرض. حضرتُ ثلاثة عروض بعد الظهر في أيام السبت، وحضرت عرضًا مسائيًا مع أبي. عندما أجلس إلى طاولتي، أصبحت أشعر أن عقارب الساعة توقفت عند الساعة الثالثة والنصف.

عاد الدكتور موراي من اجتماع مع مندوبي المطبعة، وأمضى نصف ساعة كاملة وهو يقرّع المساعدين ويوبخّهم. «مضت ثلاث سنوات ونحن نعمل على الحرف M ، ولم ننشر حتى كلمة mesnalty»، قال بصوت مرتفع. حاولت أن أتذكّر ما الذي تعنيه كلمة mesnalty: مصطلح قانوني من النوع الذي نادرًا ما كنا نلعب به في لعبة أنا ودا. لكن جذرها mesne يذكّرني بكلمة mense التي تعني كريم، طيب، لبق. أمضى أبي فترة أطول من المعتاد في جمع الاقتباسات وكتابة تعاريف لها. في النهاية، وضع الدكتور موراي خطًا حول عدد منها. نظرت إلى حيث يجلس دا، وعرفت أنه لم يندم على دقيقة أمضاها في العمل على هذه الكلمة الجميلة.

عندما انتهت المحاضرة، خيّم صمت مطبق. كان عقرب الساعة قد توقف عند الرابعة. جلس الدكتور موراي إلى مكتبه المرتفع وبدأ يقرأ مسودات الطباعة وقد بدا عليه توتر لم نعهده من قبل. لم يكد أحد من المساعدين يرفع رأسه، ولم ينبس أحدهم بكلمة واحدة. ولم يجرؤ أحد على أن يغادر قبل الساعة الخامسة.

عندما دقت الساعة الخامسة، اتجهت جميع الرؤوس نحو الدكتور موراي الذي لم يتحرك وواصل عمله. في الساعة الخامسة والنصف، التفتت الرؤوس مرة أخرى. من المكان الذي أجلس فيه، بدت كأنها رقصة. انبعث مني صوت خفيف. استدار دا. بقيت *هادئة مثل فأرة*، حذرتني نظرته. ظلّ الدكتور موراي جالسًا، قلمه في وضعية التصحيح والشطب.

في الساعة السادسة، وضع الدكتور موراي مسودات الطباعة التي يعمل عليها في مظروف ونهض من على مكتبه. سار نحو باب المَنْسَخ ووضع المظروف في الصينية التي يجب أخذها إلى المطبعة في صباح اليوم التالي. التفت إلى طاولة الفرز حيث لا تزال رؤوس المساعدين السبعة منحنية، وتوقفت أقلام الرصاص في أيديهم بأمل أن يطلق سراحهم.

«ألا توجد عندكم بيوت تذهبون إليها؟» سأل الدكتور موراي.

شعرنا بالارتياح. انتهت العاصفة.

«هل تريدين أن تقولي لي شيئًا يا إسمي؟» سألني أبي وهو يغلق باب المَنْسَخ.

«ليس الليلة. سآخذ ليزي إلى المسرح، أتذكر؟»

«مرة أخرى؟»

«لم تذهب ليزي إلى المسرح قط».

نظر إليَّ، وقال: «مسرحية *جعجعة بلا طحن*؟»

«أظن أنها ستجدها مسلية ومضحكة».

«هل حضرت مسرحية قبل الآن؟»

«لا، كما أخبرتني».

«ألا تظنين أن اللغة...»

«دا، ما الذي تقوله»، قلت له وقبّلته على جبينه وتوجهت إلى المطبخ. شعرت برفرفة من عدم اليقين في صدري.

كانت ليزي تصلح أفضل فستان لها؛ الذي ترتديه منذ سنوات. لم يكن يجاري الموضة قط، لكنّي كنت أحسب دائمًا أن لونه الأخضر الفاتح يجعلها تبدو فاتحة اللون أكثر. عندما سرنا في شارع ماغدالين، شعرت أنه جعلها تبدو شاحبة. رسمت ليزي شارة الصليب عندما سرنا أمام الكنيسة.

«أوه، ليزي، توجد بقعة هنا»، ولمستُ بقعة دهنية عند خصرها.

فقالت: «كانت السيّدة بالارد بحاجة إلى مساعدة لإعداد الحساء. لم تعد يدها ثابتة كما من قبل، فتناثرت قطرات منه عندما أخرجته من الفرن».

«ألا يمكنك أن تنظفيها؟»

«كان يجب أن تُنقع في الماء، لكن لم يكن هناك وقت. ظننت أننا سنكون أنا وأنت فقط ولن ينتبه إليها أحد».

كان الوقت قد تأخر لعمل أي شيء. كانت تيلدا وبيل ينتظراننا في حانة (*توم العجوز*). نظرتُ إلى ليزي بعيونهما. كانت في الثانية والثلاثين من عمرها، أكبر من تيلدا بشهر واحد، لكن تكسو وجهها تجاعيد وخطوط، وتهدّل شعرها الخفيف الناعم الرمادي الممزوج باللون البني. وبدلًا من أن يذكّرني شكلها بشكل المرأة في صورة إعلان صابون (بيرز)، بدأ شكلها يشبه شكل السيّدة بالارد. لم أكد ألاحظ ذلك من قبل.

«ألا ينبغي أن ننعطف إلى شارع جورج ستريت؟» سألت ليزي عندما واصلتُ السير مباشرة باتجاه كورنماركت.

«في الواقع يا ليزي، ظننت أنك قد ترغبين في أن تتعرّفي على صديقيَّ الجديدين. اتفقنا على أن نذهب إلى حانة توم العجوز قبل أن نذهب لحضور المسرحية».

قالت: «الحانة التي في شارع سانت ألدايت؟»

شبكت ذراعها في يدي، وشعرت أنها متصلّبة.

***

ابتسم بيل ابتسامة عريضة، ولوّحت تيلدا بيدها عندما دخلنا إلى (توم العجوز). ترددت ليزي عند المدخل كما كانت تفعل عندما تقف عند مدخل المَنْسَخ.

قلت لها: «لستِ بحاجة إلى دعوة يا ليزي».

تبعتني، وشعرت أنني المرأة الأكبر سنًا وهي الطفلة.

«لا بدّ أن هذه هي ليزي الشهيرة»، قال بيل وانحنى وأمسك اليد المرخية المدلاة إلى جانبها، «كيف حالك؟»

تمتمت ليزي شيئًا وسحبت يدها بسرعة، وفركتها كما لو أنها تلقت صفعة عليها. تظاهر بيل بأنه لم يلاحظ ذلك، والتفت إلى تيلدا.

«تيلدا، يوجد عدد كبير من الأشخاص عند البار. هيا استخدمي مفاتنك لتحصلي لنا على مشروب»، قال ونظر إلى ليزي، «انظري كيف أنهم سيبتعدون ويفسحون لها الطريق. إنها مثل عصا موسى».

انحنت ليزي نحوي وقالت: «لا أريد مشروبًا يا إسمي».

فقلت لبيل: «عصير الليمون فقط من أجل ليزي».

كانت تيلدا تومئ برأسها مبتسمة وهي تشقّ طريقها وسط حشد متراصٍّ من الرجال الذين ينتظرون أن يطلبوا مشروباتهم. كان على بيل أن يصرخ، «عصير ليمون بالإضافة إلى مشروبنا المعتاد، يا أختي».

رفعت تيلدا ذراعها إقرارًا بأنها رأته. عندما التفتُّ إلى ليزي، رأيتها تنظر إليَّ كما لو أننا التقينا لأول مرة تقيّم من أكون.

«قلت لهم إنني يجب أن أكون في غرفة تغيير الملابس في الساعة السابعة»، قالت تيلدا بعد بضع دقائق، تحمل بيديها الخبيرتين أربع كؤوس، وأضافت، «لقد عرض أحدهم أن يُلبسني ووعد ثلاثة بأنهم سيشاهدون المسرحية. يجب أن أحصل على عمولة عن عدد التذاكر التي ستباع».

تناولت ليزي الكأس التي أعطتها لها تيلدا، وسقطت عيناها على فتحة فستان تيلدا الواسعة، وامتلاء صدرها. نقّلتُ نظري من واحدة إلى أخرى، أرى كلّ منهما بعينيّ الأخرى. خادمة عجوز ومومس.

«بصحتك يا ليزي»، قالت تيلدا ورفعت كأس النبيذ، «بين إسمي ومابل العجوز، أشعر أنني أعرفك منذ فترة»، ثم أمالت رأسها إلى الوراء وأفرغت الكأس، ثم أضافت، «يجب أن أذهب وأغيّر ملابسي. هل سأراكما بعد المسرحية؟»

عندما قلت لها: «طبعًا»، تململت ليزي إلى جانبي، فقلت: «ربما».

«سأتركك تقنعهما يا بيل. هذا أفضل شيء يمكن أن تفعله».

شقّت تيلدا طريقها في الزحام، تجذب إليها نظرة من الرجال، وأخرى من النساء.

***

في يوم الإثنين التالي، صبّت ليزي الشاي من الإبريق الكبير على الموقد وقدّمت الكوب إلى دا.

سألها، «هل استمتعتِ بالمسرحية يا ليزي؟»

صبّت كوبًا آخر ولم ترفع عينيها عن الكوب، وقالت: «فهمت نصفها، لكنّ شكلها أعجبني يا سيّد نيكول. كان من اللطف من إسمي أن تأخذني».

«وهل التقيت بصديقيّ إسمي الجديدين؟ لقد أُعجبت بأداء الميس تايلور عندما رأيتها، لكنّي أريد أن أسمع رأيك لأتأكد من ذلك».

صبّت ليزي كوبًا لي، واستغرقت وقتًا وهي تضيف السكّر الذي تعرف أني أحبّه.

«لا أستطيع أن أقول إنني التقيت بأشخاص مثلهما من قبل يا سيّد نيكول. لديهما ثقة لستُ معتادة عليها، لكنهما كانا مهذبين جدًا معي، ولطيفين مع إسمي».

«إذن فإنك توافقين؟»

«لست في موقع يجعلني أوافق يا سيدي».

«لكن هل ستذهبين إلى المسرح مرة أخرى؟»

«أعرف أنني يجب أن أحبّه أكثر يا سيد نيكول، لكنّي لست متأكدة من أنه مناسب لي. شعرت بتعب شديد في اليوم التالي، ولا يزال عليَّ أن أوقد الموقد، وأعدّ طعام الفطور».

«هل أوافق؟» سألني أبي ونحن نسير في الحديقة إلى المَنْسَخ.

هل أردته أن يفعل ذلك؟ تساءلت.

«ستحبهما. وأجرؤ على القول إنك ستقف إلى جانب تيلدا إذا دار حديث بينكما». ترددتُ عندما تخيّلت تيلدا وهي جالسة في حانة (توم العجوز) بعد انتهاء المسرحية، تحمل سيجارًا في يد، وكأس الكحول في اليد الأخرى، وهي تقلّد آرثر بلفور، وقد عمّقت صوتها، وفخّمت الحروف الصوتية، تسخر من استقالته في العام الماضي من منصبه كرئيس للوزراء. فعلت كلّ ذلك لتُدخل البهجة إلى نفوس جميع المجتمعين؛ الليبراليين والمحافظين، وأنهيت كلامي بالقول: «مع أنني لست متأكدة من أنك ستوافق».

فتح باب المَنْسَخ. وبدلًا من أن يدخل، التفت ونظر إليَّ. أعرفُ هذه النظرة، وانتظرت أن يستحضر حكمة ليلي العظيمة. إذ سيقول إنها كانت تعرف ماذا ستفعل، من دون أن يشجّعني أو يحذّرني.. على الأقل حتى تصله رسالة من ديتي تذكر فيها كلمات يمكنه أن يكررها، لكنه لم يتردد هذه المرة.

«أجد أنني كلما عرّفت كلمات أكثر، قلّت معرفتي. أمضي أيامي وأنا أحاول أن أفهم كيف كان الرجال الذين ماتوا منذ زمن بعيد يستخدمون الكلمات لصياغة معنى لا يكفي لعصرنا فحسب، وإنما للمستقبل أيضًا». أخذ يديَّ في يده وراح يفركهما فوق الندوب، كما لو كانت كلمة ليلي لا تزال مطبوعة عليهما. «إن القاموس كتاب تاريخ يا إسمي، وإذا علّمني شيئًا، فقد علّمني أن الطريقة التي ندرك فيها الأشياء الآن لا بدّ أنها ستتغير. كيف ستتغيّر؟ حسنًا، لا يسعني إلّا أن أتمنّى وأتوقع، لكنّي أعرف أن مستقبلك سيكون مختلفًا عن المستقبل الذي ربما كانت أمّك تتطلع إليه عندما كانت في عمرك. إذا كان لدى صديقيك الجديدين شيءٌ يعلمانك إياه، فإني أقترح أن تنصتي إليهما. لكن ثقي في حكمك يا إسمي على الأفكار والخبرات التي يجب أن تتقبليها والتي يجب أن ترفضيها. سأعطيكِ رأيي دائمًا، إذا طلبته، لكنك أصبحت امرأة بالغة. وفي حين لن يوافق البعض على ذلك، فإني أرى أن من حقّك أن تتخذي قراراتك الخاصة

بنفسك، ولا يمكنني أن أصرّ على الموافقة عليها أم لا». قرّب أصابعي المحترقة من شفتيه وقبّلها، ثم وضعها على خده. كان ذلك يوحي بمشاعر الوداع.

دخلنا إلى المَنْسَخ، وتنشّقت رائحة صباح يوم الإثنين. توجّهت إلى طاولتي.

كانت هناك كومة من القصاصات يجب أن أفرزها وأضعها في فتحات العلب المخصصة لها، وكانت هناك بضع رسائل بحاجة إلى ردود بسيطة وصفحة مسودة طباعة عليها ملاحظة من الدكتور موراي: *تأكدي من أن كل اقتباس يرد في ترتيبه الزمني الصحيح*.. بدا لي أنه لن يكون يومًا صعبًا.

بدأ المَنْسَخ يمتلئ. الرجال ينكبّون فوق كلماتهم. كان تحدي صياغة معانٍ للكلمات يجعلهم يعقدون حواجبهم من التفكير ويثير جدالات هادئة بينهم. رتبتُ الاقتباسات التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الاقتباسات من القرن السادس عشر، ولم يسألني أحد عن رأيي.

قبل الغداء بفترة قصيرة، قال لي أبي إن الاقتراح الذي قدّمته لأحد معاني كلمة mess سيرد في الملزمة التالية مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة. رفعتُ غطاء طاولتي وأضفتُ ثلمًا على خشب الطاولة المليئة بالندوب. لم أشعر بالرضى كما الآن. شعرت بأنني متصالحة مع نفسي. نظرت باتجاه الدكتور موراي الذي كان جالسًا مسندًا ظهره باستقامة إلى ظهر الكرسي، رأسه منكّب على أوراقه أو مسودات الطباعة أو الرسائل، لا يمكنني أن أعرف. كان وجهه مسترخيًا، قلمه يسير بسلاسة. كان الوقت مناسبًا كي أكلّمه. نهضت من على طاولتي ومشيت نحوه بثقة لم أعهدها في نفسي من قبل.

«دكتور موراي، سيّدي؟» قلت ووضعت الرسائل التي كتبت مسوداتها على طاولة مكتبه. لم يرفع عينيه عن الأوراق التي يعمل عليها.

«أنا واثق من أنها جيدة يا إسمي. أرجو أن تضيفيها إلى البريد».

«كنت أتساءل...»

«نعم؟» قال وظل منهمكًا في عمله.

«كنت أتساءل إن كان بإمكاني أن أقوم بأعمال أكثر؟»

فقال: «لا بد أن بريد بعد الظهر سيجلب مزيدًا من الاستفسارات والتساؤلات حول موعد صدور الملزمة التالية. أرجو أن يتوقفوا عن إرسال هذه الاستفسارات، لكنّي سعيد بأنك تستمتعين بالردّ على رسائلهم. لم تتحمل إلسي هذا العمل الممل».

«أقصد أنني أود أن أفعل المزيد بالكلمات. ربما بعض الأبحاث. بالطبع، سأظل أردّ على الرسائل، لكنّي أريد أن أساهم بشكل مجدٍ أكثر».

توقّف قلم الدكتور موراي عن الحركة، وسمعت ضحكة مكتومة نادرة. نظر إليَّ من فوق نظارته، وحدّق بي كما لو كنت ابنة أخت له لم يرها منذ زمن. ثم دفع بعض الأوراق على طاولة مكتبه، ووجد ما كان يبحث عنه، وقرأه بصمت. ثم رفع الرسالة، وقال: «هذه من ميس تومسون، أمك بالمعمودية. لقد طلبت منها أن تبحث عن مرادفات لكلمة قلم رصاص. ربما كان عليَّ أن أطلب ذلك منك». أعطاني الرسالة، وقال: «تابعي الأمر. ابحثي عن اقتباسات ذات دلالة وضعي تعريفًا مناسبًا لها».

4 تموز (يوليه) 1906

عزيزي الدكتور موراي،

أشعر أنني عرّضت شخصيتي للخطر لكي أحصل على هذه الأشياء. صالون تصفيف الشعر هو المكان المناسب لها. عندما طلبت قلم تظليل العين، أعطوني أقلاما بنيّة وكستنائية وسوداء، لا بل بنيّة ضاربة إلى اللون الأحمر، لكن أحدًا منهم لم يعرف ما هو «قلم الشفاه».

المخلصة،

إديث تومسون

***

بدأت المقصورات تمتلئ ولم تصل تيلدا. راح الشاب الذي يؤدي دور بينديك يصيح في وجه بيل.

«إنها أختك. كيف لا تعرف أين هي؟»

فقال له بيل: «أنا لست حارسًا عليها».

نظر الممثل إلى بيل غير مصدّق، وقال: «طبعًا أنت حارس عليها»، ثم اندفع خارجًا، وقد انزاح شعره المستعار، وسال العرق على وجهه المصبوغ بالألوان.

«حقًا أنا لست الوصي عليها كما تعرفين»، قال بيل والتفت إليَّ، ونظر إلى باب خشبة المسرح.

قلت: «إذا لم تأت بعد قليل، فقد يتعين عليك أن تؤدي دور بياتريس. لا بد أنك حفظت كلّ سطر فيه».

فقال: «لقد ذهبت إلى لندن».

«لندن؟»

«العمل، كما تسميه».

«ما هو؟»

«حق المرأة في الاقتراع. لقد ألقت بمصيرها مع إيميلين بانكهورست».

فُتح باب خشبة المسرح وهُرعت تيلدا إلى الداخل، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة، تحمل بين ذراعيها رزمة كبيرة.

«اعتنِ بهذه يا بيل. يجب أن ارتدي ملابسي».

قلت له: «احذر من بينيديك».

«سأكذب عليه كذبة يصدّقها».

تفوقت بياتريس في تمثيلها على بينديك في تلك الليلة. عندما انحنت تيلدا أمام الجمهور، استمر التصفيق لفترة طويلة، حتى أن بينديك غادر خشبة المسرح قبل أن يتوقف الجمهور عن التصفيق.

ثم، بدلًا من أن نذهب إلى حانة «توم العجوز»، قادتنا تيلدا في الطريق المعاكس إلى حانة (النسر والطفل) في شارع سانت غايلز.

شقّت تيلدا طريقها إلى إحدى الغرفتين الأماميتين الممتلئتين. وقفت عند المدخل الضيّق مع بيل، نحاول أن نفهم سبب هذا التجمع. أحصيتُ اثنتي عشرة امرأة في ملابس مختلفة؛ بعضهن ميسورات الحال، لكن معظمهن من الطبقة الوسطى: نساء لا يختلفن عني.

توقفت تيلدا عن الترحيب بالأخريات، وعادت إلى حيث نقف، وقالت: «الرزمة يا بيل، هل يمكنك أن تمررها؟»

أعطى بيل الرزمة إلى امرأة قصيرة، ممتلئة الجسم، فشكرته وقالت له: «أيها الرجل الطيب، إننا بحاجة إلى رجال آخرين مثلك».

«أنا لست ذلك الطائر النادر»، أجابها، وبدا أنه فهم قصدها. أحسست كما لو أنني وصلت في وسط محادثة بينهما.

«شرابك المعتاد؟» سألني بيل.

«هل سيساعدني ذلك على فهم ما يجري؟»

«بعد قليل ستفهمين ما يكفي». سار في الممر الضيّق نحو البار.

« أخواتي»، بدأت تيلدا تقول، «أشكركن على انضمامكن إلى النضال. لقد وعدت السيدة بانكهورست بأنكن ستأتين إلى هنا، وها أنتن هنا». بدت الاثنتا عشرة امرأة سعيدات بأنفسهن مثل تلميذات سمعن استحسان معلمتهن.

«لقد أحضرتُ المنشورات، وتوجد خريطة توضح المكان الذي ستقوم كل واحدة منا بتوزيعها». فتحت تيلدا الرزمة ووزعت عليهن المنشورات التي تظهر عليها صورة امرأة في رداء جامعي تشارك مجرمًا ومجنونًا في زنزانة واحدة.

«شهادة من جامعة أكسفورد شيء رائع»، سمعت امرأة تقول.

«أضيفوها إلى القائمة»، قالت أخرى.

«إسمي»، نادت تيلدا في وسط ذلك الضجيج، «هل يمكنكِ أن تفتحي الخريطة على الطاولة الأخرى؟» ومدّت يدها لتعطيني خريطة مطوية من فوق رؤوس النسوة. ترددتُ، وأنا لا أعرف ما الذي يمكن أن أوافق عليه أيضًا. بدا أنها فهمت، وأمسكت الخريطة ونظرت إليّ بنفاد صبر. هززت رأسي، وانتقلت إلى الغرفة مع النسوة الأخريات.

جلست مولية ظهري إلى النافذة المواجهة للشارع، ووضعت يدي على إحدى زوايا الخريطة؛ كي لا تسقط من فوق الطاولة تحت أعين النسوة المتحمسات. كانت الأحاديث حماسية، يتناقشن حول السبل والتكتيكات، ويتبادلن الطرق والشوارع التي تلائم عناوين بيوتهن.. فقد أرادت بعضهن أن يوزعن المنشورات في أماكن لا يعرفهن فيها أحد، وأرادت أخريات توزيعها في الحيّ الذي يعشن فيه؛ كي يتمكّن من العودة إلى بيوتهن بسرعة في حال تعرضهن لأي صعوبة.

اتفقت معظم النسوة على أن تُوزع المنشورات في الليل. وابتكرت أخريات، اللاتي يخفن من الظلام أو من عدم موافقة أزواجهن، خطة لتغليف كل منشور في المنشورات التي تدعو إلى الامتناع عن تناول المشروبات الكحولية. لقيت الفكرة استحسانًا، لكن الطريقة المناسبة تُركت للاختيار الذي يناسب كل واحدة منهن.

عندما اتفقن على التفاصيل، أعطت تيلدا كلَّ امرأة منهن رزمة صغيرة من المنشورات، وبدأن يغادرن الحانة كلّ اثنتين معًا. وبقيت ثلاث نسوة، أخذتهن تيلدا إلى حيث توجد الخريطة عندما غادرت الأخريات. ذهبت إلى الطرف الآخر من الغرفة الصغيرة بينما أخذن يضعن مزيدًا من الخطط. أخرجتُ قصاصة، وكتبت عليها.

SISTERS

.Women bonded by a shared political goal; comrades

”.Sisters, thank you for joining the fight“

Tilda Taylor, 1906

(الأخوات

نساء يربطهن هدف سياسي مشترك، رفيقات.

«أخواتي، أشكركن على انضمامكن إلى النضال».

تيلدا تايلور، 1906)

غادرت النسوة الحانة وهن يحملن منشوراتهن وحزمة أخرى أكبر حجمًا. عندما عاد بيل كانت تيلدا تطوي الخريطة.

«هل أنت جاهزة لاحتساء ذلك المشروب الآن؟» قال وأعطاها كأس النبيذ وأعطاني كأس البيرة الممزوج بالليمون الذي بدأت أحبّه.

«جئت في الوقت المناسب يا بيل»، قالت تيلدا، وتناولت كأسها وهي تنظر إليَّ، وقالت: «إنه شيء مثير، أليس كذلك؟»

لم أكن متأكدة إن كان ذلك أمرًا مثيرًا للاهتمام بالنسبة لي أم لا. احمرّ وجهي وانتابني شعور بالفضول، وتسارعت خفقات قلبي، لكن ذلك بسبب القلق الذي اعتراني. فلم أكن متيقنة إن كان عليَّ أن أقبل هذه التجربة أم أرفضها.

ثم قالت تيلدا: «هيا اشربي. لا يزال لدينا عمل آخر».

غادرنا الحانة وسرنا باتجاه شارع بانبري. أعطتني تيلدا رزمة من المنشورات مغلفة في ورقة بنية اللون رُبطت بخيط. قد تكون رزمة من مسودات الطباعة التي وصلت من المطبعة مؤخرًا.

«لست متأكدة إن كنت أريد أن أفعل ذلك»، قلت، وأخذتها وشعرت بعدم الارتياح.

فقالت: «طبعًا ينبغي أن تفعلي ذلك»، سار بيل أمامي كي لا يسمع حديثنا.

«أنا لست مثلك يا تيلدا. أنا لست مثل أيٍّ من تلك النسوة هناك».

«ألا يوجد لديك رحم؟ فرج؟ عقل قادر على أن يتخذ قرارًا بين بلفور الدموي وكامبل بانرمان؟ إنك مثل تلك النسوة تمامًا».

أبعدتُ الرزمة عن جسدي كما لو أنها تحتوي على مواد حارقة.

فقالت: «لا تكوني جبانة. كلّ ما نفعله هو أننا سنضع قطعًا من الورق في صناديق البريد. في أسوأ الأحوال سيُلقى بها في النار. وفي أحسن الأحوال ستُقرأ وقد تغيّر بعض العقول. سيظن أي شخص أنني أطلب منك أن تزرعي قنبلة».

«ماذا لو اكتشف الدكتور موراي...»

«إذا كنت تظنين إنه سينزعج من رؤيتها، فاحرصي على ألَّا يراها. الآن، هذا هو طريقك. يوجد ما يكفي لجانبيّ شارع بانبري، بين شارع بيفينغتون وشارع سانت مارغريت».

الطريق يشمل سانيسايد أيضًا. بقيتُ مترددة.

«أظن أنك تعيشين في جيريكو، أليس كذلك؟»

هززت رأسي.

فقالت: «إنها ليس بعيدة عن طريقك»، وأضافت، «بيل اذهب معها».

«وماذا عنك؟» سألتها.

«لن يُدهش أحد عندما يراني أتنشّق هواء الليل من دون شخص يرافقني، أما أنت فإنك بحاجة إلى رجل يسير إلى جانبك. وهذا شيء مؤسف أكثر».

عندما سرنا في شارع سانت غايلز، لم نر سوى بضعة أشخاص؛ رجل وامرأة آخران وعدد من طلاب الجامعة السكارى المهذبين الذين أفسحوا لنا لكي نمرّ في وسطهم. عندما انعطف شارع سانت غايلز إلى شارع بانبري، كان الطريق أمامنا مقفرًا. عاودني الشعور بالقلق، وحلّ محله شعور بالندم.

«هل عليَّ أن أفعل ذلك؟» سألني بيل عندما اقتربنا من أول صندوق بريد بعد شارع بيفينغتون.

كان بيل يعرف ما أعرفه؛ بأنني مختلفة عن تلك النسوة، وأنني قد أتفق معهن، لكنّي لا أملك الشجاعة لأكون واحدة منهن. هززت رأسي عندما مدّ يده ليأخذ الرزمة مني. نقل يده إلى البقعة الصغيرة أسفل ظهري، وشعرت بالامتنان

للقوة التي تتمتع بها. سحبتُ الخيط الذي ربطت به تيلدا الرزمة وأخرجت المنشورات. صورة امرأة مسجونة تتهمني باللامبالاة وعدم التعاطف.

عندما وصلنا إلى سانيسايد، كان حجم رزمتي قد تقلّص كثيرًا. بدأت أسير بخطوات سريعة، وقد منحني بيل موافقة صامتة عندما قلت له إن مزاحه بصوت مرتفع قد يوقظ الناس، ويجعلهم ينظرون إلينا من نوافذ بيوتهم. عندما رأيت صندوق البريد الأحمر، تباطأت خطواتي. عندما كنت صغيرة، كنت أظن أن الدكتور موراي رجل على درجة كبيرة من الأهمية حتى وضعوا له صندوق بريد خاصًا به. كنت أحبّ دائمًا أن أفكّر بأنه مليء بالرسائل التي لا تتحدّث عن شيء سوى عن الكلمات. وعندما تعلّمت حروف الأبجدية، كان أبي يدعني أكتب رسائل خاصة بي، أختلق كلماتٍ وأستنبط معاني، وأكتب جملًا سخيفة لا تعني شيئًا لأحد سوانا. كان يعطيني مظروفًا وطابعًا، وأعنون رسالتي إليه في المَنْسَخ، شارع بانبيري، أكسفورد. ثم أسير في الحديقة وحدي وأخرج من البوابة، وأضع رسالتي في صندوق بريد الدكتور موراي. وفي الأيام القليلة التالية، كنت أراقب وجه أبي وهو يفتح الرسائل التي سُلِّمت إلى سانيسايد، ويفرز القصاصات في الأكوام المخصصة لها ويراجع الرسائل. وعندما يصل أخيرًا إلى رسالتي، ينظر فيها بنفس الجدية التي ينظر فيها إلى الرسائل الأخرى. يقرأها، ويهزّ رأسه كما لو أنه يوافق على مناقشة مهمة، ثم يناديني ليأخذ رأيي. حتى عندما أضحك، كانت تعابير وجهه تظلّ جدية. لا يزال ينتابني شعور بالإثارة عندما أضع الرسائل التي يرسلها المَنْسَخ في صندوق البريد.

«ثمانية وسبعون»، قال بيل في ذلك الصمت المخيّم.

«المَنْسَخ».

«يمكنكِ أن تتجاوزيه إذا أردت».

خطوت خطوة سريعة نحو صندوق البريد أمام البوابة، ووضعت فيه المنشور. سقط إلى أسفل الصندوق بحركة خفيفة.

***

في صباح اليوم التالي، رفع أبي المظلة فوقي وأنا أُفرغ صندوق البريد في سانيسايد. كانت النشرة في أسفل كومة الرسائل، مكشوفة، من دون مغلّف. رأيت حافته وانتابني فجأة شعور بالقلق بأنني أنا التي وضعتها. تساءلت على طاولة من يجب أن أضعها؟ شعرت أن أهميتها قد ازدادت بعد أن وضعتها في

صندوق البريد، وازداد شعوري بالقلق معها. لكن في ضوء الصباح، وبين كل هذه الرسائل التي أرسلها رجال مثقفون ونساء ذكيات، فقد المنشور قوته.

اعتراني شعور بالاستياء. خشيتُ مما يمكن أن يفعله، وخشيت أنه ربما لن يكون له أي تأثير.

قلت: «دا، لقد وعدت الدكتور موراي بأنني سأُدرج بعض الاقتباسات الجديدة في كومة من القصاصات التي يرسلها إلى ديتي لتحريريها ومراجعتها. هل يمكن أن ينتظر البريد هذا الصباح؟»

«أعطني إياه. ستكون بداية سهلة اليوم».

شعرت بالامتنان لاستجابته المتوقعة.

كنت أرى جانب وجه أبي بوضوح من المكان الذي أجلس فيه. بدلًا من أن أفرز القصاصات، رحت أراقب إن كانت قسمات وجهه ستتغير ستظهر عندما يرى المنشور. عندما وصل إلى أسفل الكومة، التقط المنشور. حبستُ أنفاسي.

نظر إلى المنشور، وقرأ التعليق وتأمله لدقيقة بوجه جاد، ثم استرخت قسمات وجهه وابتسم، وهزّ رأسه. عرفت أنه فهم الرسم الكاريكاتوري – الذكاء، ربما؟ أم المناقشة؟ وبدلًا من أن يلقي به جانبًا، وضعه في إحدى أكوام الرسائل. نهض من على طاولة الفرز، ووضع كلّ كومة في المكان المحدد لها.

«قد يثير هذا اهتمامك يا إسمي»، قال أبي ووضع كومة صغيرة من القصاصات على طاولتي، وأضاف: «جاء مع البريد».

عندما أخذت المنشور منه، راح يراقبني. نظرت إليه كما لو كنت أراه لأول مرة.

«إنه جدير بأن تناقشيه مع صديقيك الشابين»، قال أبي ثم عاد إلى مكانه.

كانت تيلدا محقة. فأنا جبانة. وضعتُ المنشور على طاولتي وأخرجت أحدث قصاصة من جيبي.

Sisters (*أخوات*). بحثت عنها في فتحات العلب. وجدت قصاصات كثيرة فيها كلمة «أخوات»، فُرزت وكُتب في أعلاها عدة معان، لكنّي لم أجد أي قصاصة

فيها كلمة comrades(رفاق).

***

بدأت ليزي تمضي وقتًا أطول في المطبخ منذ أن بدأت تعاني السيّدة بالارد من مشكلات صحية. عندما حذّرها الطبيب من الوقوف لفترات طويلة، بدأت تجلس إلى طاولة المطبخ وأمامها إبريق شاي، تصدر تعليمات. عندما دخلت إلى المطبخ، كانت تقلّب صفحات صحيفة أكسفورد كرونيكل، وتذكّر ليزي بأن تملّح الطائر الذي أُحضر منذ قليل.

«لا تكوني بخيلة معه بالملح الآن»، قالت لليزي، «إنه بحاجة إلى كمية كبيرة من الملح ليصبح طريًّا. كلما نُقع فترة أطول، أفضل».

لوت ليزي وجهها قليلًا، لكنها حافظت على ابتسامتها، وقالت: «إنك تطلبين أن أملّح الطيور منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري يا سيّدة بالارد. أظن أنني أعرف ما الذي أفعله».

متجاهلة ما قالته ليزي، قالت السيدة بالارد: «وقعت بعض الاضطرابات في المدينة. قبضوا على داعيات لحقّ المرأة في التصويت وهن يكتبن شعارات على حائط مبنى البلدية. يقول الخبر إنه جرت مطاردتهن في شارع سانت ألدايت، وكن سيتمكن من الهرب لولا أن إحداهن وقعت فتوقفت أخريات ليساعدنها على النهوض».

«حقّ المرأة في التصويت؟» قالت ليزي، «لم أسمع ذلك قبل الآن».

«هذا ما تقوله الصحيفة»، قرأت السيدة بالارد المقالة كلها، «إنهن يُطلقن على أنفسهن اسم «نساء السيّدة بانكهورست».

«مجرد شعارات؟» قلتُ. كنت أتوقع أن يضرمن حريقًا.

«تقول الصحيفة إنهن استخدمن طلاءً أحمر ليكتبن: *النساء: لا توجد لديهن حقوق أكثر من حقوق شخص مُدان*».

«ألم يقل منشورك ذلك يا إسمي؟» سألتني ليزي، الطائر في يديها، وعيناها مصوبتان نحوي.

«المرأة التي وقعت على الأرض هي زوجة القاضي»، تابعت السيّدة بالارد، «والمرأتان الأخريان هما من كلية سومرفيل كولدج. كلّهن سيّدات متعلمات. يا للعار».

«هذا ليس منشوري يا ليزي. لقد جاء بالبريد».

«هل تعرفين من الذي وضعه؟» سألتني دون أن تبعد عينيها عني.

لون قرمزي تدفق إلى رقبتي وغمر وجهي. سمعت ردي وعادت إلى عملها بالطائر. أصبحت حركاتها أقسى قليلًا.

اقتربت لأقرأ المقالة من فوق كتف السيّدة بالارد. إلقاء القبض على ثلاث نساء. بما أنه لم توجّه إليهن أي تهمة، فلن تكون هناك محاكمة. تساءلت إن كانت تيلدا والسيّدة بانكهورست ستصابان بخيبة أمل.

في المَنْسَخ، رحت أبحث في فتحات العلب. وجدت في إحداها كلمة Suffrage(*حقّ الاقتراع*)، وكذلك كلمة suffragist (مؤيد لحقّ المرأة في الاقتراع). أما كلمة Suffragette(مؤيدة لحقّ المرأة في الاقتراع) فلم تكن موجودة. بحثت عن أعداد حديثة من صحيفة (*تايمز أوف لندن*) و(*أكسفورد تايمز*) و(أكسفورد كرونيكل)، وأخذتها إلى طاولتي. وجدتُ في كل واحدة منها مقالات تذكر كلمة Suffragette ، وذكرت إحداها كلمة suffragents، واستخدمت مقالة أخرى كلمة suffragettingبصيغة فعل. اقتطعتها من الصحيفة، ووضعت خطًا تحت الاقتباسات، وثبّت كلّ واحدة منها في القصاصة الخاصة بها، ثم أعدتها إلى فتحات العلب المخصصة لها.

***

انتهى عرض المسرحية لليلة أخرى، وساعدنا أنا وبيل تيلدا على تغيير ثيابها إلى ثياب الشارع.

«إنك مرتاحة كثيرًا يا إسمي»، قالت تيلدا.

«لكنّي أعيش هنا يا تيلدا».

«وزوجة القاضي والمرأتان من كلية سومرفيل أيضًا».

بعد ساعة، ذهبنا إلى حانة (*النسر والطفل*) مرة أخرى. شعرت بأنني ضعيفة بالمقارنة مع نشاط النسوة اللاتي اجتمعن ليقدّمن المساعدة واللاتي حثّهن المنشور الجديد على الانضمام إلى المسيرة التي ستنظمها إيميلين بانكهورست في لندن، وقد بدأن يخططن للسفر للتو. أردت أن يصيبني عزمهن وإصرارهن بالعدوى، لكن عندما خرجنا إلى الشارع، كنت قد أقنعت نفسي بأنني لن أنضم إليهن.

«إنك خائفة، هذا كل شيء»، قالت تيلدا ووضعت يدها على خدي كما لو كنت طفلة. أعطت بيل رزمة من المنشورات وبدأ يسير إلى الخلف. ثم تابعت تيلدا، «المشكلة يا إسمي إنك خائفة بأن ما تفعلينه خطأ. من دون التصويت، فإن كل ما نقوله ليس مهمًا، وهذا الذي يجب أن يخيفك».

***

كانت ليزي واقفة أمام طاولة المطبخ، أمامها سلة الخياطة وكومة صغيرة من الملابس. نظرت نحو خزانة المؤن أبحث عن السيّدة بالارد.

«إنها في البيت مع السيّدة موراي»، قالت ليزي، ثم أعطتني ثلاثة منشورات مجعّدة، «وجدتها في جيب معطفك. لم أكن أتطفّل، كنت أتفحّص الدرزات لأصلح حاشيته». وقفتُ مذهولة. اعتراني شعور بأنني سأقع في ورطة، لكنّي لم أفهم سبب ذلك.

«رأيتها هنا وهناك، سقطت من صناديق البريد وأُلصقت على الجدار في السوق المغطاة. قيل لي ما يقولونه. حتى أنني سُئلت إن كنت سأذهب»، قالت ساخرة، «كما لو أنني أستطيع أن أذهب إلى لندن وأمضي يومًا كاملًا هناك. إنها ستُغرّر بك وتُضللك يا إسمي، لو تركتها تفعل ذلك».

«مَنْ؟»

«أنتِ تعرفين مَنْ جيدًا».

«أعرف ما يقوله لي عقلي يا ليزي».

«قد يكون ذلك صحيحًا، لكنك لم تعرفي قط ما هو جيد بالنسبة لك».

«لا يتعلق الأمر بي فقط. إنه يتعلق بجميع النساء».

«إذن، فأنتِ التي وزعتها؟»

كانت ليزي في الثانية والثلاثين من عمرها لكنها تبدو في الخامسة والأربعين. فجأة، فهمت السبب. فقلت: «إنكِ تفعلين كلّ ما يطلبه منكِ الآخرون يا ليزي، لكن لا يوجد لديك رأي. هذا ما تقوله هذه المنشورات. لقد آن الأوان لأن نُمنح حقّ أن نعبّر عن رأينا».

فقالت: «السيّدات الثريات يردن أن يحصلن على أكثر مما لديهن، هذا كلّ ما في الأمر».

«إنهن يردن المزيد لنا جميعًا»، بدأ صوتي يرتفع، «إذا لم تدافعي عن نفسك، فيجب أن تكوني سعيدة بأن شخصًا آخر يفعل ذلك بالنيابة عنك».

«سأكون سعيدة لو بقيتِ خارج الصحف»، قالت بهدوئها المعتاد.

«عدم الاكتراث هو الذي يمنع النساء من التصويت».

«*عدم الاكتراث*»، قالت ليزي ساخرة، «أظن أنها أكثر من ذلك».

خرجتُ محتدمة، ونسيتُ معطفي.

عندما عدت إلى المطبخ قبل الغداء بقليل، رأيت السيّدة بالارد جالسة إلى الطاولة، أمامها فنجان شاي يتصاعد منه البخار.

«ثلاث شطائر اليوم فقط يا سيّدة بالارد»، قلت، وأنا أنظر من حولي لعلي أرى ليزي.

«لقد فات الأوان»، قالت وأومأت نحو الصحن على الطاولة المليء بالشطائر. في تلك اللحظة، ظهرت ليزي عند أسفل الدرج المفضي إلى غرفتها.

نظرتُ إليها وابتسمت، لكن ليزي هزّت رأسها ولم تقل شيئًا.

قلت: «ذهب الدكتور موراي ليحضر اجتماعًا مع مندوبي المطبعة، وذهب أبي والسيد بالك لزيارة السيّد هارت»، وتابعت، متظاهرة بأننا لم نتشاجر، «يبدو أنها أخطاء إملائية. قال أبي إنهما سيغيبان عدة ساعات».

فقالت السيّدة بالارد، «إذن سنتناول الشطائر مع الشاي يا ليزي».

«ليس من المعقول أن نرميها جانبًا»، ردت ليزي وسارت نحو الطاولة، وبدأت تنقل بعض الشطائر إلى طبق أصغر.

قلت «يمكنني أن أفعل ذلك بنفسي».

«هل ستذهبين إلى المسرح الليلة يا إسمي؟» سألتني ليزي من دون مواربة.

«أظن ذلك».

«لا بدّ أنك حفظتِ المسرحية كلها عن ظهر قلب».

كان ذلك توبيخًا لم أجد ردًا عليه. هذا صحيح، وكان بيل يحبّ أن يستفزني عندما يجدني أكرر كلمات تيلدا، وقال: «يمكنكِ أن تكوني الممثلة البديلة لها».

«هل تريدين أن تأتي؟» سألتُ ليزي.

«لا، كنت مضطرة في المرة الأولى يا إسمي، لكن مرة واحدة تكفي».

لعلها توقفت عند ذلك، لو لم يظهر شعوري بالارتياح على وجهي. تنهدت وخفضت صوتها، «أنت لستِ دنيوية مثلهم يا إسمي».

«لم أعد طفلة».

دفعت السيّدة بالارد كرسيها إلى الوراء وأخذت سلة الأعشاب إلى الحديقة.

«ربما آن الأوان لأن أصبح أكثر دنيوية»، كما قلتِ. إن الأمور تتغيّر. المرأة ليست مضطرة لأن تعيش الحياة التي يقررها لها آخرون. لديها خياراتها، وقد اخترتُ ألّا أعيش بقية أيام حياتي أفعل ما يُطلب مني وأقلق بشأن ما سيفكّر فيه الناس عني. هذه ليست حياة على الإطلاق».

أخرجت ليزي قطعة قماش نظيفة من الدرج ووضعتها فوق طبق الشطائر التي ستتناولها هي والسيّدة بالارد مساء اليوم. اعتدلت في وقفتها وأخذت نَفَسًا عميقًا، وراحت يدها تبحث عن الصليب حول رقبتها.

«أوه، ليزي. لم أقصد...»

«الاختيار شيء رائع، لكن من المكان الذي أنا فيه، تبدو الأشياء كما هي دائمًا. إذا كانت لديك خيارات يا إسمي، فاختاري جيدًا».

***

في العرض الأخير، امتلأ المسرح بالكامل. عندما أُسدلت الستارة، انحنى الممثلون ووقف الجمهور وصفقّ بحرارة، حتى شعر الممثلون بالثمالة حتى قبل أن يحتسوا كأسًا واحدًة. قادتهم تيلدا من المسرح الجديد إلى حانة *توم العجوز*، شابكة ذراعها بذراع ممثلين من كل جانب حتى لفتت انتباه الناس في الشارع.

مشيت خلفهم مع بيل. كنا نفعل ذلك في هذه المسيرة الأسبوعية، وكالعادة وجد بيل يدي، وشجعّني على أن أسندها على ساعده، فاقتربنا من بعضنا كثيرًا. لكن المزاج كان مختلفًا. فقد أرخى يده على يدي، وراحت أصابعه ترسم على بشرتي العارية خطوطًا معقدة. لم يتكلّم كثيرًا، ولم يكن متحمسًا للحاق بهم.

قلت له: «إنهم مبتهجون».

« هكذا يكون الأمر دائمًا في الليلة الأخيرة».

«ماذا سيحدث؟» اقتربت منه، كما لو كنت أتواطأ معه.

«سيكون هناك اعتقال واحد على الأقل، واحد في شيرويل، و...» ونظر إليَّ.

«و؟»

«ستجد تيلدا طريقها إلى سرير أحدهما؛ الشخص الذي يستطيع أن يأخذها خلسة إلى غرفته».

«كيف عرفت؟»

فقال: «إنها عادتها»، كان من الواضح أنه كان يحاول أن يجسّ نبضي، «إنها تصدّهم طوال الموسم؛ لأن الجنس شيء سيئ للمسرحية، لكنها تدعهم يفعلون ذلك عندما تنتهي».

ـَ

لقد عرفت ذلك الآن. كانت تيلدا قد قالت ذلك مرارًا. عندها احمرّ وجهي خجلًا، قالت تيلدا، «إذا كان ذكر الأوزّ قادرًا على أن يفعل ذلك، فلماذا لا تستطيع الأوزة؟» رفضت الحجج التي قلتها، وبدأت أسمعها بأنها حجج مستعارة وليست حججي حقًا.

قالت: «أتعرفين يا إسمي. إن النساء مُهَيّأت ليحببن ذلك».

ثم أخبرتني كيف.

«ماذا تُدعى؟» سألتها في اليوم التالي عندما كانت ذاكرة متعتي المضطربة والغريبة لا تزال حية.

ضحكت تيلدا، وقالت: «هل وجدتها إذن؟»

«وجدت *ماذا*؟»

«النتوء لديك، clitoris (البظر). سأقوم بتهجئتها لك إذا أردت أن تكتبيها». أخرجتُ قصاصة وعقب قلم رصاص من جيبي. قامت تيلدا بتهجئتها، ثم قالت: «قال لي أحد طلاب كلية الطب ماذا يُسمّى، مع أنه لم يفهمها جيدًا».

«ماذا تقصدين؟» سألتها.

«حسنًا، وصفه بأنه بقايا قضيب، قال إنه دليل على أننا ننحدر من آدم. لكنه مثلك، لا يعرف ماذا يمكن أن يفعله، أو إذا كان يعرف، فإنه يرى أن لا علاقة له بذلك». ابتسمتْ، وأضافت، «إنه يجلب المتعة للمرأة، يا إسمي. هذه هي وظيفته الوحيدة. إن معرفة ذلك يغيّر كلّ شيء، ألا ترين ذلك؟»

هززت رأسي، ولم أفهم.

قالت تيلدا: «لقد هُيئّنا لنستمتع به، لا لنتجنبه أو نعاني منه. استمتعي به، مثلهن تمامًا».

بينما تابعنا تيلدا وحاشيتها، بدا بيل خجولًا لأول مرة منذ أن التقيت به.

قال: «لن تعود إلى البيت الليلة».

كان الردّ المناسب على رأس لساني، لكنّي لم أقل شيئًا.

«لقد أصرّت على أن أعرف ذلك».

انتقلت كلماته إليَّ، إلى المكان الذي توجد لديّ كلمة له الآن.

عرفتُ ما الذي سيحدث لو أنني ذهبت معه. كنت أتوق إلى ذلك.

قلت: «لا أستطيع أن أتأخر».

«لن تتأخري».

***

بعد بضعة أيام، التقينا أنا وبيل وتيلدا لاحتساء الشاي في المحطة. قبّل بيل خدّي. إن الذي سيرانا، سيظن أننا صديقان قديمان، أو أبناء عمّ، ربما. لكنهم لن يلاحظوا أنفاسه اللطيفة في أذني، أو الرعشة التي سرت في جسدي بسببها. خلال ثلاث أمسيات، استكشفني. وجد نقاط متعة لم أكن أعرف أنها موجودة. سألني هل يجب أن يبقى في أكسفورد؟ فقلت، إذا كان عليك أن تسأل، فربما لا.

أعطتني تيلدا كيسًا ورقيًا.

ابتسمت وقالت: «لا تقلقي، لا توجد فيه منشورات».

فتحتُ الكيس.

قالت تيلدا: «قلم شفاه، ومكحال وقلم حواجب»، قالت تيلدا، «حصلت عليها بسهولة، ربما ليس من مصفّفة الشعر التي تذهب إليها أمك بالمعمودية. اشتريت لك أيضًا قلم أحمر شفاه. لونه أحمر ليتماشى مع لون شعرك. إنك تحتاجين إلى فستان جديد ليبدو أجمل».

أخرجتُ قصاصة وكتبتُ، «ضعي قلم شفاه في جملة».

«قلم الشفاه يرسم ملامح شفتيها الياقوتيتين كأنه فرشاة رسم».

«كانت تتدرب على ذلك»، قال بيل.

«لا يمكنني أن أكتب ذلك في قصاصة».

«إذا كانت هذه من أجل القاموس الحقيقي، ألا يجب أن تكون واردة في كتاب؟» سأل بيل.

«نعم، يُفترض ذلك، لكن حتى الدكتور موراي يُعرف بأنه يؤلف اقتباسًا عندما لا يكون للاقتباس الموجود معنى واضحًا».

فقالت تيلدا: «هذه هي جملتي، خذيها أو اتركيها».

أخدتها. صبّ بيل مزيدًا من الشاي.

«هل تنتظركِ مسرحية في مانشستر؟» سألتها.

«إن الشيء الذي سيأخذنا إلى مانشستر ليس مسرحية يا إسمي»، قال بيل، «فقد انضمت تيلدا إلى WSPU».

«ماذا تعني؟»

فقالت تيلدا: «*الاتحاد الاجتماعي والسياسي النسائي*».

«تقول السيّدة بانكهورست إن مهاراتها المسرحية ستكون مفيدة «، أردف بيل.

«يمكنني أن أضم صوتي إلى صوتها».

«واجعليها تبدو أنيقة». نظر بيل إلى أخته مفتخرًا.

لا يمكنني أن أتخيّل أن بإمكانه أن يترك أخته أبدًا.

كانون الأول (ديسمبر) 1906

دارت إلسي موراي حول الطاولات في المَنْسَخ، يدها مليئة بالمغلّفات. رحت أراقبها وهي توزع على كلّ مساعد مغلفًا. كان سُمك المغلّف يشير إلى أقدمية المساعد ودرجته العلمية ونوع جنسه. كان مغلّف أبي سميكًا. أما مغلّفي ومغلّفا إلسي وروزفريث، فقد بدت شبه فارغة. وقفت إلى جانب كرسي أختها، وبينما كانتا تتبادلان الحديث، أعادت إلسي خصلة من شعر أختها روزفريث الأشقر وثبتتها في مكانها. عندما تأكدت من أنها ستبقى ثابتة في مكانها، سارت إلسي إلى الطاولة التي أجلس إليها.

«شكرًا يا إلسي»، قلت لها وهي تسلمني راتبي.

ابتسمت ووضعت مغلّفًا أكبر على طاولتي، وقالت: «يبدو أنك كنت تشعرين بالملل في الأيام القليلة الماضية يا إسمي».

«لا، أبدًا».

«إنك فتاة مهذبة. لقد أنهيتُ حصتي من فرز وكتابة الرسائل. أعرف كم أن هذا العمل مضنٍ وممل». فتحتْ المغلّف وأخرجت صفحة مسودة طباعة ودفعتها نحوي، وقالت: «يقول أبي إنك قد ترغبين في أن تجربي تحرير هذه الصفحة».

لم يكن ذلك علاجًا للمزاج الذي هيمن عليَّ، لكنه كان موضع ترحيب. «أوه، شكرًا يا إلسي».

هزّت رأسها مسرورة. انتظرتُ أسئلتها المعتادة.

قالت: «*سيبدأ عرض مسرحية جديدة على خشبة المسرح الجديد هذه الليلة*».

«نعم».

«هل ستذهبين؟»

كنت أحصل على مغلّف كلّ يوم جمعة منذ ست سنوات، وفي كلّ يوم جمعة، كانت إلسي تسألني ما الذي سأشتريه لنفسي. كان دائمًا شيئًا يضفي بريقًا

على بيتنا، لكن منذ أن التقيت بتيلدا، لم أعد أتردد في ردّي تقريبًا: سأذهب إلى المسرح. عندما سألتني ذات يوم، «ما الشيء المثير في مسرحية *جعجعة بلا طحن*؟» تذكّرت بيل، وفخذه الذي كان يلامس فخذي في الظلام في الجزء الخلفي من المسرح، وأعيننا موجهة إلى تيلدا.

قلت: «لا أظن أنني سأذهب إلى المسرح الليلة».

نظرت إليَّ لوهلة. بدت عيناها الداكنتان متعاطفتين.

«كثير من الوقت. قرأت أنها لاقت شعبية كبيرة في لندن، ويتوقعون موسمًا طويلًا».

لكني لم أستطع أن أتخيّل فرقة أخرى أو مسرحية أخرى، وكانت فكرة الجلوس في مقصورة مع شخص آخر غير بيل تجلب الدموع إلى عينيّ.

«يجب أن أذهب»، قالت إلسي ولمست كتفي قليلًا، قبل أن تبتعد.

عندما ذهبت، ألقيت نظرة على مسودات الطباعة التي أعطتها لي. كانت الصفحة الأولى من الملزمة، عليها قصاصة مثبّتة بدبوس على حافتها مثال آخر لكلمة misbode.

كانت تعليمات الدكتور موراي المكتوبة تقول «يجب تحرير الصفحة حتى تصبح مناسبة». تذكّرت الكلمة التي خرجت من مغلّف منذ سنوات؛ خطّ أنيق من سيّدة، وعبارة من تشوسر. كنت أنا وأبي قد لعبناها لمدة أسبوع. هذه الجملة الجديدة جعلتني أتوقف قليلًا. Her misboding sorrow for his absence has almost made her frantic.(*حزنها على غيابه بأن شيئًا كريهًا سيحدث له أفقدها صوابها*).

اشتقت إليهما. كانا كما لو أنهما كتبا مسرحية ورسما مشاهدها، وكلّما كنت معهما، كان لديّ دور أقوم به. لقد أحببته بسهولة: شخصية ثانوية، شخص عادي يمكن أن يؤدي دور البطولة. الآن بعد أن حزما أمتعتهما وغادرا، شعرت أنني نسيت دوري.

لكن هل أفقدني غياب بيل صوابي؟

لقد أعطاني شيئًا أردته منذ أن أمسك بيدي أول مرة. لم يكن حبًّا. لا شيء من ذلك. إنها المعرفة. فقد أخذ بيل الكلمات التي كنت أكتبها على قصاصات وحوّلها إلى أماكن في جسدي. عرّفني على أحاسيس لا يمكن لجملة جميلة أن تعرّفها تقريبًا. مع اقتراب نهايتها، كنت أسمع زفير متعتها تنبعث من أنفاسي، وكنت أشعر بظهري يتقوّس ورقبتي تتمدد لتكشف عن ضربات نبضها. كان استسلامًا، لكن ليس له. مثل خيميائي، حوَّل بيل كلمات مابل السوقية وتصرفات تيلدا إلى شيء جميل. شعرت بالامتنان له، لكنّي لست عاشقة.

اشتقت إلى تيلدا كثيرًا. ترك غيابها حزنًا شديدًا في نفسي. كانت لديها أفكار أردت أن أفهمها وقالت أشياء لم أستطع أن أفهمها. كانت تبدي اهتمامًا بالأشياء التي تهم أكثر، وتبدي اهتمامًا أقل بالأشياء الأقل أهمية.

عندما كنت معها، كنت أشعر بأنني قد أفعل شيئًا غير عادي. وبذهابها، بدأت أخشى أنني لن أفعل ذلك أبدًا.

***

«هل مرضتِ مرة أخرى يا إسمي؟» سألتني ليزي عندما دخلتُ إلى المطبخ لأشرب كأسًا من الماء، «وجهك شاحب قليلًا، هذا شيء مؤكد».

كانت السيّدة بالارد تتفحص حلوى البُودِنْغ لعيد الميلاد، وترشّ عليه قطرات من البراندي. نظرت إليَّ بعينين ضيقتين. زاد عبوسها خطوط وجهها عمقًا. صبّت لي ليزي ماءً من الإبريق على طاولة المطبخ، ثم ذهبت إلى خزانة المؤن وجلبت لي علبة بسكويت.

قلت: «بسكويت يا سيّدة بالارد. هل تعرفين أنه موجود في خزانة المؤن لديك؟»

رمشت بعينيها، واسترخى وجهها، وقالت: «يصرّ الدكتور موراي على شراء بسكويت مكفيتي ويقول إنه يذكّره بإسكتلندا».

أعطتني ليزي قطعة بسكويت، وقالت: «إنها ستهدّئ معدتك».

كان الطعام آخر شيء أريده، لكن ليزي ألحّت على أن أتناول شيئًا. جلستُ إلى مائدة المطبخ ورحتُ أقضم قطعة البسكويت، بينما انهمكت السيّدة بالارد وليزي في عملهما. لم تنجزا عملًا كثيرًا. عندما نظّفت ليزي الموقد للمرة الثالثة، سألتها أخيرًا إن كانت هناك مشكلة.

فسارعت السيّدة بالارد وقالت: «لا، لا، يا حبيبتي. إني متأكدة من أن كل شيء سيكون على ما يرام»، لكن التجهم كسا وجهها من جديد.

«إسمي»، قالت ليزي أخيرًا وهي تضع ملابسها، «هل لك أن تأتي معي إلى الطابق العلوي دقيقة؟»

نظرتُ إلى السيّدة بالارد التي أومأت لي بأن أتبع ليزي. ثمة شيء خطأ، للحظة انتابني شعور بأنني سأصاب بدوار. عندما أخذتُ نَفَسًا عميقًا وزال الشعور بالدوخة، تبعت ليزي وهي تصعد الدرج إلى غرفتها.

جلسنا على سريرها. نظرتُ إلى يديها اللتين وضعتهما في حضنها وقد بدا عليها القلق. مددتُ يداي وأمسكت بيديها. قلت في نفسي لا بد أن لديها خبرًا سيئًا. لعلها مريضة أو لعل حديثي عن الخيارات في البحث عن مكان أفضل هو السبب. قبل أن تنبس بكلمة واحدة، اغرورقت الدموع في عينيَّ.

«هل تعرفين في أي شهر أنتِ؟» قالت ليزي.

حدّقتُ فيها، محاولة أن أطابق الكلمات بشيء يمكنني أن أفهمه.

حاولتْ مرة أخرى. «منذ متى...» قالت ونظرتْ إلى بطني، ثم التقت عيناها بعينيَّ، «... تتوقعين؟»

فهمتُ قصدها. سحبتُ يداي من يديها ونهضتُ واقفة.

قلت لها: «لا تكوني سخيفة يا ليزي. هذا أمر غير ممكن.»

«أوه، يا إسمي، يا لك من حمقاء سخيفة»، ثم عادت وأمسكت يدي وأضافت، «ألا تعرفين؟»

هززتُ رأسي، وقلت: «كيف يمكنك؟»

فقالت: «لقد عرفت كل ذلك من أمّي. كان ذلك قبل أن آتي إلى هنا»، وأردفت، «سيزول الشعور بالدوخة بعد فترة».

نظرتُ إليها كما لو أنها مجنونة، وقلت: «لا يمكن أن أنجب طفلًا يا ليزي».

***

.Expect. Expectant. Expecting

تعني يتوقع، ينتظر دعوة، شخصًا، حدثًا. لكن ليس طفلًا على الإطلاق. لم يرد في أي اقتباس في الكلمات التي تبدأ بحرف D وE إنجاب طفل. حسبت ليزي أنني «أتوقع، حامل» منذ عشرة أسابيع، لكنّي لا أعرف.

في اليوم التالي، مكثت في السرير ولم أذهب إلى المطبخ لأتناول الفطور مع دا. قلت له إن صداعًا قد ألمّ بي، ووافق على أنني أبدو شاحبة. عندما ذهب إلى المَنْسَخ، ذهبتُ إلى غرفته ووقفتُ أمام مرآة ليلي.

نعم، أبدو شاحبة قليلًا، لكن في قميص نومي لم أستطع أن ألاحظ أي تغيير فيَّ. حللت الشريط المعقود حول رقبتي وتركت قميص النوم يسقط على الأرض. تذكّرت بيل وهو يمرّر إصبعه من قمة رأسي حتى أصابع قدميَّ، يسمّي كلّ بقعة من جسدي. عادت عيناي تتبعان مسار أصابعه. سرت قشعريرة في جسدي كما كانت تسري كلما كنا معًا. توقفّتُ عند بطني، عند آثار استدارة قد تكون انتفاخًا لأنني تناولت وجبة كبيرة أو قد تكون ريحًا، أو الثقل الذي أشعر به قبل دورتي الشهرية. لكنها لم تكن أيًا من كلّ ذلك، والجسد الذي تعلّمت أن أقرأه مؤخرًا، لفّه الغموض فجأة.

عدتُ وارتديت قميص النوم وعقدتُ الشريط حول رقبتي بإحكام. عدتُ إلى السرير وسحبتُ الغطاء فوقي حتى رقبتي. استلقيت في السرير ساعات عدة، لا أكاد أتحرك، ولا أريد أن أشعر بما يمكن أنه يحدث في داخلي.

كنت أنتظر، لكني لا أنتظر طفلًا. وإنما أنتظر حلًا.

في تلك الليلة لم أنم جيدًا. في الصباح، شعرت أن حالتي ازدادت سوءًا بسبب الأرق الذي أصابني، ومع ذلك، فقد أصررت على الذهاب إلى المَنْسَخ. وضعت علبة بسكويت «مكفيتي» في درج طاولتي، أقضم منها وأنا أفرز البريد الصباحي والقصاصات. حاولت أن أُدخل بعض التحسينات على المعاني التي اقترحها المتطوعون في الجزء الأعلى من القصاصات، لكن لم يخطر ببالي شيئًا أفضل مما كتبوه.

نظرتُ إلى طاولة الفرز. كان أبي يجلس في مكانه المعتاد، وكذلك السيّد سويتمان والسيّد مالينغ. أما السيّد يوكني، فقد جلس في المكان الذي كان السيّد ميتشل يجلس فيه، وتساءلت فجأة ما نوع الحذاء الذي ينتعله، وهل

يرتدي جوارب بلونين مختلفين. هل سيرحبّون بطفل آخر تحت طاولة الفرز؟ أم أنهم سيتذمرون ويؤنّبون ويدينون؟ سعل أبي وأخرج منديله من جيبه وتمخّط. كان مصابًا بنزلة برد. كان ذلك كلّ ما في الأمر، لكنني أدركت فجأة أنه أصبح أكبر سنًّا، وأكثر شيبًا، وأكثر اكتنازًا. هل ستكون لديه القدرة على أن يكون أمًا وأبًا وجدّة وجدًّا؟ هل من العدل أن يُطلب منه ذلك؟

عند الغداء، انضممت إلى السيّدة بالارد وليزي في المطبخ، وعانيت من قلقهما.

«يجب أن تخبري والدك يا إسمي»، قالت ليزي، «ويجب أن يُرغم بيل على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله».

عندما أجبتها، «لن أخبر بيل»، حدّقت ليزي بي، وكسا وجهها خوف.

على الأقل اكتبي رسالة إلى السيّدة تومسون، فهي ستساعدك على أن تخبر والدك. إنها تعرف ما الذي يجب عمله»، اقترحت السيّدة بالارد.

«لا يزال هناك وقت»، قلت دون أن أعرف إن كان لا يزال هناك - حقًا- وقت أم لا. نظرت ليزي والسيّدة بالارد إلى إحداهما الأخرى، لكنهما لم تقولا شيئًا. خيّم صمت لا يطاق في المطبخ. عندما سألتني ليزي إن كنت أريد أن أرافقها إلى السوق المغطاة يوم السبت، قلت لها نعم.

***

كان السوق مزدحمًا. كان ذلك مبعث ارتياح لي. مشيت إلى جانب ليزي وهي تتنقل من كشك إلى آخر، تختبر صلابة فاكهة، وطراوة أخرى. كان المزاح مألوفًا ومُطمئِنًا. لم يسأل أحد عن صحتي أو يقول لي إنني شاحبة.

في نهاية الأمر، سرنا باتجاه كشك مابل. لم أرها منذ أسابيع. بدت الآن أصغر حجمًا، وازداد ظهرها انحناء بشكل غير طبيعي. كلّما اقتربنا منها أكثر، رأيت أنها تنحتُ شيئًا. عندما اقتربنا أكثر، كانت حركة يديها مدهشة، فقد كانت براعتها لا تتلاءم مع جسدها الضعيف، البائس.

كانت مابل منهمكة في عملها، فلم تلاحظ أننا كنا واقفتين إلى جانب كشكها إلى أن وضعت ليزي برتقالة فوق الصندوق أمامها. لم تكد تظهر على وجهها أي علامات الدهشة، لكنها وضعت السكين التي تنحت بها، وتناولت البرتقالة ومسحتها في ثنايا ثيابها المهلهلة، ثم أخذت سكينها واستأنفت عملها.

«ستعجبك هذه، عندما تنتهي»، قالت وهي ترمقني.

«ما هذه؟» سألتها ليزي.

التفتت مابل إلى ليزي للحظة وأعطتها الشيء الذي تنحته.

«إنه تالييسن، الشاعر، أو قد تكون الساحرة ميرلين. أظن أنه سيعجب ميس كلمات لتعطيه لأبيها»، وعادت ونظرت إليَّ متوقعة أن أمتدح تلاعبها بالألفاظ. ابتسمت ابتسامة خفيفة.

«لا بد أن تكون هذه أو تلك»، قالت ليزي.

فقالت مابل وقد وجهت عيناها إليّ وقد ضيقتهما قليلًا: «شيء واحد، الاسم وحده هو الذي يتغير باستمرار».

أعادت لها ليزي التمثال. أخذته مابل دون أن تبعد عينيها عن وجهي. اضطربتُ، ثم انحنت مابل إلى الأمام.

«إنه ظاهر على وجهك»، همستْ، «إذا خلعتِ معطفك هذا، أظن أنني أستطيع أن أراه».

صياح أصحاب الأكشاك، وقعقعة العربات، والمناقشات التنافسية. كلّ أصوات السوق امتصتها نغمة صاخبة واحدة. غريزيًا رحت أتطلع من حولي، وأزرّر الأزرار المحلولة في أعلى معطفي.

ابتسمتْ مابل وجلستْ. كانت سعيدة بنفسها. بدأ جسدي يرتعش.

حتى تلك اللحظة، كان قلقي يتركز حول كيف يمكنني أن أخبر أبي. لم أفكّر في أي شيء يمكن أن يظن به أي شخص آخر، أو ما هي العواقب التي تترتب على معرفتهم بذلك. تطلّعت حولي مرة أخرى، وشعرت أنني مخلوق صغير لا يوجد مكان يجري إليه ويختبئ فيه.

«لم أسمع متى الزفاف»، قالت مابل.

«كفى يا مابل»، قالت ليزي همسًا.

قطعت كلماتهما الطنين في أذني، وعادت أصوات السوق تغمرني. شعرت بالارتياح للحظة عندما أدركت أنه لم يلاحظ أحد ذلك. لكن تلك اللحظة لم تدم طويلًا، شعرت بدوار خفيف، فاستندت إلى صندوق مابل كي لا أقع على الأرض.

«لا تقلقي أيتها الصبيّة»، قالت مابل، «لا يزال أمامك بضعة أسابيع أخرى. معظم الناس لا يلاحظون ما لا يتوقعون أن يروه».

تكلّمت ليزي بالنيابة عني، شيء من خوفي بدا جليًا في صوتها، وقالت: «لكن إذا كان بإمكانك أن تعرفي يا مابل...»

«لا يملك أحد هنا ما أمتلكه - ماذا ينبغي أن أسميّه- خبرة».

«هل لديك أطفال؟» لم أكد أسمع صوتي عندما سألتها ذلك.

ضحكت مابل وبانت لثتها السوداء البشعة والساخرة، وقالت: «لست إلى تلك الدرجة من الغباء»، ثم خفضت صوتها أكثر، وأضافت، «توجد سبل لتفادي ذلك».

سعلت ليزي وبدأت تلتقط أشياء مختلفة من طاولة مابل، تريني الواحدة تلو الأخرى، وهي تسألني إن كانت قد أعجبتني. كان صوتها أعلى مما يجب.

رمقتني مابل، ثم قالت بصوت وصل إلى كشك بيع الأزهار ووراءه، «ما الذي أعجبك يا صغيرتي؟»

تشاغلتُ، ثم التقطت منحوتة تالييسن غير المنتهية ورحتُ أقلِّبها في يدي. لم أكد أراها جيدًا.

«هذه واحدة من أفضل الأشياء عندي»، قالت مابل، ومدّت يدها نحوها، «لكنها لم تنته بعد. أظن أنني سأنهيها بعد الغداء، إذا أردتِ أن تعودي».

«حان الوقت لنعود يا إسمي»، قالت ليزي وأمسكت بذراعي.

عندما استدرنا لنغادر، قالت مابل: «سأخبئها لك حتى لا يشتريها أحد».

هززت رأسي، وهزّت مابل رأسها أيضًا. ثم غادرتُ أنا وليزي السوق قبل أن ننهي مشترياتنا.

«هل ستأتين لتشربي الشاي؟» سألتني ليزي عندما وصلنا إلى سانيسايد. كان جميع المساعدين يعملون لمدة نصف يوم في أيام السبت، وفي معظم الأحيان، كنت أبقى خلال ذلك بصحبة ليزي في المطبخ أنتظر دا.

«ليس اليوم يا ليزي. أظن أنني سأعود إلى المنزل وأعلّق بعض الزخارف كمفاجأة لدا».

عندما وصلت إلى البيت، صعدت الدرج إلى غرفة دا، ووقفت أمام مرآة ليلي مرة أخرى. لم تكن بطني التي لاحظتها مابل، وإنما وجهي. حدّقت في المرآة، محاولة أن أرى ما رأته، لكن الوجه الذي يحدّق بي ظل نفس الوجه.

كيف أمكن ذلك؟ لابدّ أنه يتغيّر من سنة إلى أخرى، ومع ذلك، لم أستطع أن أراه. أشحتُ بعينيَّ عن المرآة ثم عدت ونظرت إليها بسرعة، محاولة أن ألقي نظرة على نفسي كما لو كنت شخصًا غريبًا. رأيت وجه امرأة، أكبر سنًا مما توقعت، عيناها واسعتان، بنيتان وخائفتان، لكنّي لم أرْ شيئًا يقول لي إني حامل.

عدت إلى الطابق الأرضي وكتبت رسالة قصيرة لأبي. كتبت له إنني ذهبت إلى السوق لشراء ثياب، وإنني سأعود في الساعة الثالثة تقريبًا، وسأجلب بعض المعجنات من أجل شاي بعد الظهر.

ركبتُ دراجتي وعدتُ إلى السوق المغطاة. عندما وصلت، كنت ألهث أكثر من المعتاد. فتى أعرفه هرع إلى المكان الذي وقفت فيه، وعرض أن يسند دراجتي إلى أقرب جدار، وقال إنه سيحرسها من أجلي. أومأت أمّه لي من كشكها، فبادلتها الإيماءة. هل رأت شيئًا في وجهي؟ ألهذا السبب طلبت من ابنها أن يساعدني؟ نظرتُ إلى السوق، لم يضف الصخب إلّا مزيدًا من الفوضى التي تضطرم في رأسي.

عندما بدأت أسير بين المحلات والأكشاك، شعرت بأنني أجذب كلّ العيون نحوي. كان عليَّ أن أتصرّف بصورة طبيعية. رحت انتقل من كشك إلى آخر، وتذكّرت تيلدا والآخرين وهم يتدربون في الكواليس. البروفة لا تكون مقنعة كما هو الأداء الحقيقي. تساءلت إن كنت أُقنع أحدًا.

عندما وصلت إلى كشك مابل، كانت سلتي قد امتلأت. أعطيتها تفاحة.

«يجب أن تتناولي فواكه أكثر يا مابل»، قلت لها، «كي تُبعدي نزلات البرد عن صدرك».

بالغت في ابتسامتها العطنة لأرى فمها الخالي من الأسنان، وقالت: «لم آكل تفاحة منذ أن كنت فتاة في عمرك».

أعدتُ التفاحة إلى سلتي، وأخرجتُ إجاصة ناضجة. أخذتها وضغطت بإبهامها عليها. لو رفضتها، سيصبح فيها ثقبًا عندما أصل إلى البيت.

لكنها لم ترفضها. «إنها لذيذة حقًا»، قالت وهي تلّف لثتها حولها وتدع عصيرها يسيل على ذقنها. مسحته بظاهر يدها الملتفة بالخرق، مزيلة أيامًا من الأوساخ من بقعة صغيرة في جلدها.

«مابل»، بدأت أقول، لكن الكلمات لم تخرج من فمي.

أصبحت شفتا مابل المتشققتين طريتين وهما تمتصان عصير الإجاصة. أحسست بالدم يتدفق إلى وجهي، والغثيان الذي ظننت أنه انتهى عاد في موجة مقززة جعلني أستند إلى حافة صندوق مابل.

«لن توافق ليزي على ما تخططين له»، قالت بصوت خفيض.

إنها الحقيقة التي أجادل بها ليزي منذ أيام، لكنها رفضت أن تسمعني عندما قلت لها من غير الممكن أن أكون حاملًا. كلما ازدادت كلماتي وضوحًا، ازداد توجه يدها إلى الصليب حول عنقها. مثل إيمانها، يقبع هناك دائمًا، مخفيًا وهادئًا وشخصيًا. لكنها في الأسبوع الماضي، بدأت تتعلق به كما لو أنه الشيء الوحيد الذي سيخلّصها من نار جهنم.

كرهت ذلك الصليب لأنه يطلق عليّ أحكامًا. تخيّلته يلوي كلماتي ويهمس ترجمتها في أذنها. كنّا في نوع من لعبة شدّ الحبل، وليزي تقف في الوسط. لم تكن مباراة أردت أن أخسرها.

«أظنّ أن السيّدة سميث لا تزال تعمل في هذه المهنة»، همست مابل وهي تلتقط أشياء لا على التعيين كما لو أنها تُريني قيمتها، «كانت مبتدئة كما يقولون عندما احتجتُ إليها. أراهن أنها أصبحت عجوزًا وأصبحت خبيرة الآن».

بدأت رعشة تسري في يدي ثم امتدت إلى أوصالي كلها، حتى بدأ جسدي كله يرتجف.

«تنفّسي بصورة طبيعية يا فتاتي»، قالت مابل، وقد ثبتت عيناها على عينيَّ.

استندتُ إلى الصندوق وحاولت ألّا أجرع رشفات كبيرة من الهواء، لكن الرعشة في جسدي لم تتوقف.

سألتني، «هل لديك قلمك الرصاص وواحدة من تلك القصاصات؟»

«ماذا؟»

«أخرجيهما من جيبك».

هززت رأسي. لم يكن لذلك أي معنى.

انحنت مابل إلى الأمام، وقالت بصوت أعلى قليلًا، «لقد أعطيتك للتو كلمة وسوف تنسيها إذا لم تكتبيها».

مددتُ يدي إلى جيبي لأخرج قصاصة وقلم رصاص. عندما أصبحت جاهزة، تلاشت الرعشة في جسدي.

«trade» (*مهنة، حِرفَة*) قالت مابل ومالت إلى الوراء قليلًا لكنها لم تبعد عينيها عن وجهي.

كتبتُ كلمة «trade» في الزاوية اليسرى في أعلى القصاصة، وكتبتُ تحتها:

Mrs. Smyth might still be in the trade

(*ربما لا تزال السيّدة سميث تمارس المهنة*).

«هل تشعرين بتحسنّ الآن؟» سألتني مابل.

هززت رأسي.

قالت: «الخوف يكره الأشياء العادية. عندما تخافين، يجب أن تفكّري بأفكار عادية، وأن تفعلي أشياء عادية. أتسمعينني؟ عندها سيتلاشى الخوف، لفترة من الوقت على الأقل».

هززت رأسي مرة أخرى، ونظرت إلى القصاصة. كانت trade كلمة شائعة.

«أين قلتِ إن السيدة سميث تعيش؟» سألتها.

أخبرتني مابل عنوانها، وسجلته في أسفل القصاصة.

قبل أن أغادر، أخرجت مابل شيئًا من داخل ثنايا طيَّات القماش التي تدفئها، وقالت: «هذه لكِ»، وأعطتني قرصًا من الخشب الباهت نحتت عليه عبارة، «*شكرًا على الإجاصة*».

لففت القصاصة حولها ووضعتها في جيبي.

***

كان منزلًا عاديًا ذا مصطبة توجد على جانبيه منازل متشابهة ذات مصاطب. لا يزال إكليل عيد الميلاد معلقًا على الباب، على الرغم من اقتراب السنة الجديدة. دققت العنوان مرة أخرى، ثم نظرتُ إلى امتداد الشارع. لم يكن في الشارع أحد. طرقتُ الباب.

قد تكون المرأة التي فتحت الباب عجوزًا، لكن ظهرها منتصب ترتدي ثيابًا جيدة، ولم تكد تنظر في عيني. ظننت أنني أخطأت العنوان، فبدأتُ أتلعثم معتذرة، لكنها قاطعتني.

«جميل أن أراكِ يا عزيزتي»، قالت بصوت عالٍ تقريبًا، «كيف حالُ أمك؟»

حدّقتُ فيها، مرتبكة، لكن الابتسامة لم تفارق وجهها، وأخذت ذراعي وسحبتني إلى الداخل.

«التظاهر بأن كل شيء على ما يرام»، قالت عندما أغلقت الباب، وأضافت: جميع الجيران فضوليون». ثم نظرت إليّ كما نظرت مابل إليَّ، أمعنت النظر في وجهي ورمقتني من قمة رأسي حتى قدميَّ، ثم قالت: «أظن أنكِ لا تريدين أن يعرف الجميع عن حالتك».

لم أجد الكلمات لأجيبها، ولم تكن السيّدة سميث تطلب جوابًا. أخذت معطفي وعلّقته على مشجب إلى جانب الباب، ثم سارت في الممر الضيق، وتبعتها. أخذتني إلى غرفة جلوس صغيرة، تحفّ جدرانها كتب، ونار خفيفة تشتعل في الموقد. رأيت أين كانت تجلس قبل أن أقرع الباب: أريكة مخملية، زرقاء بلون منتصف الليل تناثرت عليها وسائد كبيرة ناعمة مطرزة برسوم مختلفة. تتسع الأريكة لشخصين، لكن في أحد طرفيها فقط، كان المخمل مهترئًا والمقعد

غائرًا من الجلوس عليه لسنوات طويلة. رأيت كتابًا مفتوحًا على الطاولة إلى جانبها، كعب غلافه مشدود. عندما أذكت السيّدة سميث النار، اقتربتُ من الكتاب. قرأت عنوانه «في عهد الملكة ماري» للبارونة أورتشي. كنت قد اشتريته منذ سنوات من مكتبة بلاكويل. لوهلة نسيت سبب وجودي هنا، وندمت على الإزعاج الذي سببته لها.

«أحبّ أن أقرأ»، قالت السيّدة سميث عندما رأتني أنظر إلى الكتاب، «هل تحبين القراءة؟»

هززت رأسي، لكن فمي كان جافًا جدًا فلم أستطع أن أقول كلمة واحدة. توجهت إلى منضدة جانبية، وصبّت كأسًا من الماء.

«خذي رشفة، لا تجرعيها كلها»، قالت وأعطتني الكأس. فعلت كما قالت.

«جيد»، قالت وأخذت الكأس مني، «الآن، هل يمكنني أن أسأل من الذي نصحك بأن تأتي إليَّ؟»

همستُ، «مابل أوشوغنسي».

فقالت: «يمكنك أن ترفعي صوتك. لا يستطيع أحد أن يسمعنا هنا».

فقلت مرة أخرى: «مابل أوشوغنيسي».

لم تتذكّر السيّدة سميث مابل على الفور، ولم يساعدها وصفي لها كثيرًا. لكن عندما أخبرتها بما أعرفه عن ماضيها، وذكرت لها نبرتها الأيرلندية، بدأت السيّدة سميث تهزّ رأسها.

«كانت زبونة دائمة»، قالت من دون أن تبتسم، «تقولين إن لديها كشكًا في السوق المغطاة؟»

هززت رأسي، ونظرت إلى قدميّ. كانت أرضية غرفة الجلوس مكسوة بسجادة موشاة برسوم وأشكال مختلفة.

ثم قالت: «لم أكن أظن أنها ستنجو من اللعبة».

رفعت عينيَّ، «اللعبة؟»

«من الواضح ليس هذا سبب وجودك هنا».

«أستميحك عذرًا؟»

فقالت: «نوعان من النساء يطرقن بابي، أولئك اللاتي يمارسن الجنس مع آخرين كثيرًا، وأولئك اللاتي يمارسن الجنس قليلًا جدًا». تفحّصتني من رأسي حتى قدميَّ، تفحّصت كل قطعة من ثيابي، ثم أضافت، «أنتِ من النوع الأخير».

«*واللعبة*؟» سألتها مرة أخرى، وذهبت يدي إلى جيبي لأتأكد من وجود قصاصة وقلم رصاص.

«اللعبة هي البغاء»، قالت كما لو أن لا شيء أسوأ من صافرة أو تيار هوائي انطلق من شفتيها، «هناك لاعبون، مثل أي لعبة، لا تكون عادلة دائمًا». عندما تخسرين ينتهي بك الأمر في السجن أو في المقبرة أو هنا».

عندما وضعت يدها على بطني، قفزتُ. عندما بدأت تضغط بأصابعها، حاولت أن أبتعد عنها.

«ابقِ ساكنة في مكانك»، قالت، ووضعت يدًا على البقعة الصغيرة في ظهري وثبتت الأخرى في الطرف المقابل. «حرفة السيّدة وارين، كما يسميها البعض بسبب مسرحية برنارد شو. هل تحبين المسرح؟» سألتني، لكنها لم تنتظر ردًّا، «لقد دُعيت إلى ليلة افتتاح تلك المسرحية. ليست العاهرات وحدهن اللاتي يجدن طريقهن إلى باب منزلي. تأتيني ممثلات أيضًا». توقفت عن الضغط وخطت خطوة إلى الوراء.

«أنا لستُ...»

فقالت: «يمكنني أن أرى أنك لستِ عاهرة ولا ممثلة».

ثم وقفنا هناك، صامتتين. كانت تفكّر، تزن شيئًا في رأسها. وأطلقت أخيرًا نَفَسًا عميقًا، وقالت: «إنه quickening».

، «ماذا يعني ذلك؟» سألتها.

«إنها تعني اِرْتِكاض الجنين. الرفرفة في بطنك تعني أن الجنين قد قرر أن يبقى».

حدّقتُ بها.

«هذا يعني أنك أتيت إليَّ بعد فوات الأوان».

شكرًا لله، قلت في نفسي.

***

GAME

.Prostitution

(اللعبة

البغاء).

The game is whoring. There are players, like any game, though the dice are .always loaded

Mrs. Smyth, 1907

(اللعبة هي ممارسة البغاء. هناك لاعبون، مثل أي لعبة، لا تكون عادلة دائمًا.

السّيدة سميث، 1907)

QUICKENING

.Stirrings of life

Quickening is the fluttering in your belly which means the baby has“ ”.decided to stay

Mrs. Smyth, 1907

ارتكاض الجنين

يبّث الحياة.

(ارتكاض الجنين هي الرفرفة في بطنك التي تعني أن الجنين قد قرر أن يبقى.

السيدة سميث، 1907)

***

عندما عبرت البوابة وأنا أدفع دراجتي، كانت سانيسايد هادئة، وبدأ يحلّ المساء. كانت السماء مكفهرة والمَنْسَخ معتمًا. ذهب الجميع إلى بيوتهم. لمحت ليزي في نافذة المطبخ، ورحت أراقبها لفترة. كانت تتنقل بين الموقد والطاولة. لا شك أنها تعدّ العشاء لعائلة موراي. قالت لي ذات يوم، عندما كنت صغيرة، إنها لا تحب الطهو كثيرًا.

سألتها، «ماذا تحبين؟»

«أحبّ الخياطة وأحبّ أن أعتني بك يا إسمي».

كان جسدي كله يرتعش. أسندت الدراجة إلى جذع شجرة الدردار، وسرت نحو المطبخ.

في المطبخ، وقفت عند العتبة، الباب مغلق خلفي، حرارة الموقد تلفح وجهي، لكن الرجفة لم تتوقف.

نظرت ليزي إليَّ. يدها تحوم فوق صدرها. لديها أسئلة لم تسألها.

عندما ازدادت الرجفة في جسدي، اقتربت مني وضمتني بذراعيها السميكتين، وأخذتني وأجلستني على كرسي، ووضعت كوبًا في يدي. كان حارًا، لكنه لم يكن حارًا جدًا. طلبت مني أن أشربه. فشربته.

«لم يكن عليَّ أن أفعل ذلك»، قلت، ونظرت في وجهها: أسندتُ رأسي إلى بطنها وراحت تمسّد شعري.

عندما تكلّمت، كانت بطيئة وحذرة، كما لو كنت قطة ضالة تخشى أن تهرب قبل أن يساعدها أحد، ثم قالت: «يبدو أن بيل رجل لطيف بما يكفي. يمكنك أن تخبريه بذلك».

ضمتني إليها بقوة أكثر عندما قالت ذلك، لكني لم أبدِ أي حركة. لقد فكّرت في ذلك. تخيّلت ذلك. في قرارة قلبي، كنت متيقنة من أن بيل سيفعل الشيء

المناسب لو عرف، وتيلدا أيضًا. بدأت أتكلّم ببطء وحذر كما كانت ليزي تتكلّم منذ قليل.

«لكني لا أحبّه، ولا أريد أن أتزوج».

تشنّجت قليلًا، وشعرتُ أنها أخذت نَفَسًا، ثم سحبت كرسيًا وجلست أمامي، وشبكت يديها بيدي.

«كلّ امرأة تريد أن تتزوج يا إسمي».

«إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا لم تتزوج ديتي أو أختها؟ لماذا لم تتزوج إلسي أو روزفريث أو إليانور برادلي؟ لماذا لم تتزوجي أنتِ؟»

«لا تحظى النساء جميعهن بالفرصة. وبعضهن... حسنًا، لقد نشأت بعضهن بين كتب كثيرة وأفكار متنوعة، ولا يشعرن بارتياح لهذه الفكرة».

«لا أظن أنني أشعر بارتياح لهذه الفكرة يا ليزي».

«سوف تعتادين عليه».

«لكنّي لا أريد أن أعتاد عليه».

«ماذا تريدين؟»

«أريد أن تبقى الأشياء كما هي. أريد أن أبقى أصنّف الكلمات وأفهم ماذا تعني. أريد أن أحقق شيئًا في هذا الصدد، وأن أُعطى مسؤولية أكبر، وأريد أن أستمر في أن أكسب نقودي بنفسي. أشعر أنني بدأت أفهم الآن من أنا. إن كوني زوجةً أو أمًّا لا يلائمني». خرج كلّ ذلك في دفقة واحدة وانتهى بأن أجهشت في البكاء.

عندما توقفت عن البكاء، عرفت ما الذي يجب أن أفعله. طلبت من ليزي أن تجد لي ورقة وقلمًا. أردت أن أكتب إلى ديتي.

11 شباط (فبراير) 1907

عزيزتي، عزيزتي إسمي،

بالطبع يجب أن تأتي، وسوف أساعد على ترتيب ما يجب ترتيبه. لكن هناك مسألة والدك، وكيف يمكن أن تبدو الأمور. سآتي إلى أكسفورد يوم الجمعة هذا. سأصل في الساعة 11:30 صباحًا وأوّد أن تقابليني في المحطة. سنذهب مباشرة إلى مقهى كوين لاينز كوفي هاوس، إنه بعيد عن جيريكو، وليس من المرجح أن نصادف أحدًا نعرفه هناك. دعي ليزي تقوم بواجباتها في سانيسايد، لكن أكدّي لها أننا سنتحدّث نحن الثلاثة قبل أن نغادر.

حالتك ليست نادرة كما تظنين؛ فقد وجدت العديد من الشابات من الطبقة الميسورة أو المتعلمة أنفسهن في هذا الوضع غير المريح. إنها أقدم معضلة في التاريخ – العذراء مريم، بالفعل (أرجوكِ لا تقرأي هذه الرسالة بصوت عالٍ أمام ليزي، فأنا أعرف أنها لن تحب أن تسمع ذلك) لكنك تفهمين وجهة نظري. ومع أن لديكِ صحبة جيدة، فمن المرجح أن ذلك يهدّئ من روعك. إني ممتنة لأنك تثقين بي وأفضيت لي بذلك قبل أن تتاح لك الفرصة في البحث عن حلول بديلة. فمن ذلك الزقاق، لم تعد عدة سيدات شابات.

أريد أن اقترح عليك شيئًا يا إسمي. إذا كنتِ ستأتين وتعيشين مع بيث ومعي، فإني أريد أن تصبحي مساعدتي في إجراء الأبحاث، فالعمل الذي أقوم به الآن على كتابي «تاريخ إنكلترا» بحاجة إلى تحديث، وأفكّر منذ سنوات عدة في أن أكتب سيرة ذاتية عن جدّي الذي كان، كما تعرفين، عضوًا في البرلمان. كان رجلًا مهمًا لديه أفكار سبقت عصره، أجرؤ على القول إن صديقتك تيلدا كانت ستحبّه كثيرًا. بالطبع، سأحتاج إلى خدماتك في أقرب وقت ممكن. يمكننا مناقشة التفاصيل عندما نتناول الشاي يوم الجمعة.

هل تفهمين ما أقوله يا إسمي؟ إنك ستسدين لي خدمة عظيمة، وعندما ينتهي العمل، ستعودين إلى أكسفورد وتواصلين عملك في المَنْسَخ. إنه دربك، الشيء الذي تريدين أن يكون، يجب ألّا تحيدي عنه.

سأكتب كلّ الأمور المهمة في رسالة إلى الدكتور موراي، وإني واثقة من أنه سيعتبر اقتراحي فرصة سترفع من قيمتك بالنسبة له عندما تعودين إلى أكسفورد.

أما بالنسبة لأبيك. فقد كتبتُ له وأخبرته عن رحلتي، واستخدمت كلمة «nag» (ينقّ) كعذر (إذا كانت الاقتباسات الحالية هي دليلنا لمعرفة معناها، عندها سيُسّجل أن النساء هن المخلوقات الوحيدة اللاتي يفعلن هذا النوع من الإزعاج). تتمثل خطتي في هذه المرحلة في أن أرتب لرؤية هاري في المنزل،

وأهيئه لسماع الخبر، وأهدّئ من حدة أسوأ مخاوفه (التي ستكون كلها لصالحك في الوقت الحالي وفي المستقبل) وسأوضح له أن كل شيء تحت السيطرة. إذن يجب أن تخبريه بكل شيء.. في حدود المعقول. إنه رجل طيب يا إسمي. وهو ليس شخصًا متزمتًا أو متعصبًا أو محافظًا، وإنما هو أب يحبّك كثيرًا. يجب أن تتذكّري أنه يستيقظ كلّ يوم وينظر في صورتك عندما كنت طفلة رضيعة. سيكون هذا الخبر بمثابة صدمة له، وسيحتاج إلى وقت وتفهم، وربما إلى فرصة من الصراخ والهذيان. دعيه يفعل ذلك.

بالإضافة إلى ذلك، هناك أشياء أخرى يجب أن نناقشها، لكني أظن أن من الأفضل أن نتركها حتى نجلس أمام بعضنا يفصل بيننا إبريق شاي جيد.

إذن، سأراكِ يوم الجمعة، الساعة 11:30 صباحًا. لا تتأخري.

المحبّة،

ديتي

***

كانت السماء تمطر؛ لم يكن مطرًا غزيرًا، لكن جميع الذين يسيرون في شارع هاي ستريت فتحوا مظلاتهم ورفعوا ياقاتهم كي لا يتبللوا. رحت أراقبهم بينما كانت ديتي تتكلّم. كانت تسجل الأكاذيب وأنصاف الحقائق التي ستجعل غيابي عن المَنْسَخ يبدو معقولًا.

شربنا إبريقين كبيرين من الشاي في المقهى. عندما خرجنا

إلى الشارع، كان المطر قد توقف، وبدأت شمس باهتة تسطع على الرصيف الندي. رمشت بعينيّ لأبعد وهج الشمس عنهما.

أذار (مارس)1907

بعد أسبوعين، وقف أبي معي على رصيف محطة القطار ننتظر القطار الذي سيقلّني إلى باث. فكّرت في كلّ الأحاديث التي دارت بيننا منذ أن خرجت ديتي من غرفة جلوسنا وأومأت لي بأن أدخل وأكلّمه. لم نقل أشياء كثيرة. تخللت حديثنا إيماءات وتنهدات. وكلما خذلته الكلمات، كان يلمس وجهي ويمسك بأصابعي المحترقة. كنت أعرف كم كان يرغب في أن تكون ليلي موجودة معنا، وكيف أنه يرى أنها لو كانت معنا، لاختلفت الأمور كثيرًا. أعرف أنه كان يفكّر بأنه خذلني، ولست أنا التي خذلته. لكنه لم يقل شيئًا من هذا القبيل، فلم أتمكن إلّاأن أبادله مشاعره بلمسة مني.

عندما وصل القطار، حمل أبي حقيبتي إلى عربة الدرجة الثانية وأجلسني في مقعد إلى جانب الباب. ربما قال شيئًا في تلك اللحظات، لكن جاء ثلاثة أشخاص وجلسوا حولي. قبّل جبهتي وخرج إلى الممر، لكنه لم يغادر المحطة على الفور. ابتسم ابتسامة حزينة، وأدركت فجأة أنني عندما أعود إلى البيت سأكون قد تغيّرت تمامًا، بعكس ما وعدت به ديتي، فقد انحرف طريقي، مهما كان، للتو. وقفت وضممته إليَّ. لم يتركني حتى انطلقت الصافرة معلنة تحرك القطار.

***

كان من المفترض أن بيث ستستقبلني عند رصيف المحطة في باث، لكن عندما أجلت النظر في الرصيف، لم أرْ شيئًا يشير إلى وجودها. نزلت من القطار وانتظرت حيث وضع الحمّال حقيبتي.

لوّحت لي امرأة بيدها. كانت أطول قامة وأكثر نحافة وأكثر أناقة بكثير من ديتي، لكن كان ثمة شبه في شكل أنفيهما. ابتسمتُ عندما دنت مني.

«إنها جريمة حقًا أن ألتقي بك لأول مرة»، قالت، وضمتني إليها بين ذراعيها في عناق لم أتوقعه حتى كدتُ أتعثّر وأقع.

«طبعًا، فأنا أعرف عنك كلّ شيء»، قالت بيث عندما جلسنا في الجزء الخلفي من العربة.

احمرّ وجهي، وأطرقت برأسي.

«أوه، ليس هذا فقط»، قالت كما لو كان ذلك شيئًا تافهًا، «فأنت موضوع حديث إيديث المفضّل، ولا أملّ أبدًا من أن أسمع عنك»، ثم مالت نحوي وأضافت: «يجب أن تسامحينا يا إسمي. فنحن عانستان لا يوجد عندنا كلب، لذلك يجب أن نتناقش دائمًا في موضوع ما».

كان منزل ديتي وبيث يقع بين محطة باث وحديقة رويال فيكتوريا بارك، لذلك كانت الرحلة بالعربة قصيرة. توقفنا أمام منزل مؤلف من ثلاثة طوابق، يشبه في نواحٍ كثيرة البيوت ذات المصاطب الممتدة يسارًا ويمينًا. عندما رأتني بيث أحدّق في نوافذ الغرف في الطابق الأعلى.

قالت: «لقد ورثناه، لذلك لم نضطر لأن نتزوج. بالطبع، إنه كبير جدًا، لكن يزورنا عدد كبير من الأشخاص، وتأتي امرأة صباح كلّ يوم لتنظفّ البيت. تصرّ السيدة ترافيس على أن نبقي الغرف في الطابق الأعلى مغلقة؛ لأن ذلك يوّفر عليها إزالة الغبار. إنها لا تحبّ إزالة الغبار كثيرًا، فوافقنا على طلبها».

كلّ تلك الغرف، قلت في نفسي، كنت سأزيل الغبار بنفسي لو أنهما دعتاني عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري.

كانت بيث تصغر ديتي سنًّا، وتكاد تكون نقيضًا لها في كلّ شيء، إلَّاأنه لم يكن هناك شيء يشي بوجود توتر أو خلاف بينهما. كان يخيّل لي دائمًا أن ديتي تشبه جذع شجرة عظيمة: راسخة بقوة لما تعرف أنه صحيح. بعد مضي بضعة أيام في باث، بدأت أفكر بأن بيث هي مظلة الشجرة. فهي تستجيب، في عقلها وجسدها، لأي قوى تأتي في طريقها. ومع أنها في الخمسين من عمرها، كانت متألقة، وقد أذهلني ذلك.

مُنحت أسبوعًا لأستريح - «حتى أشعر بالاستقرار» قالت بيث- ثم بدأت تدعو زوارًا لاحتساء شاي بعد الظهر.: «لا يمكننا أن نتحدّث عنك طوال الوقت»، قالت مازحة.

في اليوم الذي كان من المقرر أن يصل فيه أول زوار لنا، نادتني الأختان لأنزل إلى الطابق الأرضي لأعدّ صينية من أجل الضيوف. «السّيدة ترافيس مدبرة منزل عادية»، قالت ديتي وهي تنقل قالب الكيك من رفّ التبريد إلى الطبق،» لكن لا يوجد مثيل لقالب *كيك مادیرا* الذي تصنعه».

فقلت: «أظن أنني سأبقى في غرفتي».

«هراء»، قالت بيث وهي تدخل إلى المطبخ، «سيكون كل شيء على ما يرام. سنتحدّث عن مراجعة إيديث لكتابها *التاريخ الإنكليزي*، وسيكون توظيفها لك للقيام بهذه المهمة، أمرًا منطقيًا بالنسبة للجميع»، ثم انحنت نحوي وقالت بنبرة تآمرية، «تعلمين أنك فتاة معروفة».

ذهبت يدي مباشرة إلى بطني التي كانت لا تزال غير مرئية، وتضرّج وجهي. لم تبذل بيث أي جهد لتهدّئ من مخاوفي.

«لا تزعجيها يا بيث»، قالت ديتي.

«لكن الأمر في غاية السهولة»، قالت وهي تبتسم، «لديك سمعة يا إسمي كباحثة بالفطرة. فكما قال الدكتور موراي، إنك تعادلين في معرفتك أي خريج في جامعة أكسفورد، ويحبّ كثيرًا أن يحكي قصتك عندما كنتِ تمضين اليوم كله تحت طاولة الفرز. يقول إن تساهله هذا ساهم في أن تقيمي علاقة قوية مع الكلمات».

تحوّل الرعب إلى شعور بالامتنان، وظلّت الحرارة تغمر وجهي.

ثم أضافت بيث: «بالطبع إنه لا يوافق على أن أقول لك ذلك، لأنه يرى أن المديح يبلّد العقل».

سُمعت طرقات على الباب.

«دائمًا في الموعد المحدد»، قالت بيث لديتي، ثم التفتت إليَّ وقالت: «إذا لم تضعي يدك على بطنك، فلن يلاحظ أحد شيئًا».

جاء ثلاثة رجال محترمين، أكاديميــين يقيمون جميعًا في سومرست عندما لا يدرّسون؛ كان البروفيسور ليتون تشيشولم مؤرخًا في جامعة ويلز ومعاصرًا للأختين، كان يأخذ راحته في حضورهما حتى أنه تناول قطعة كيك من دون أن يدعوه أحد، وجلس على الكرسي المريح دون أن يدعوه أحد. وكان السيد فيليب بروووكس صديقًا أيضًا، لكنه لم يكن في سنّ يمكّنه من رفع الكلفة مع الأختين، وكان عليه أن ينحني كي لا يرتطم رأسه بأعلى الباب، واضطرت بيث إلى أن تقف على أطراف أصابع قدميها لكي تقبّله على خدّه. كان السيّد بروووكس يدرّس الجيولوجيا في يونيفيرسيتي كوليدج في بريستول، كما يفعل مستر شو - سميث، الأصغر سنًا بين الرجال الثلاثة. لم تكن الأختان تعرفانه، لكن مستر بروووكس ألحّ عليه على أن يأتي. وجهه الشاب يشي بالحماسة،

لكن لم يكن بوسعه أن يطلق لحية بعد. تلعثم كثيرًا أثناء مراسم التعرّف على المرأتين.

«ستعتاد علينا مع مرور الوقت يا مستر شو - سميث»، قالت بيث، وتساءلتُ إن كانت تشير إلينا نحن الثلاثة، أو إلى جنس النساء بأكمله.

عندما جلس الرجال، جلسنا أنا وديتي على طرفيْ الأريكة. صبّت بيث الشاي، وأومأت إلي بأن أوزع قطع الكيك. عندما قدّمت لهم كيك ماديرا وأثنوا عليه، جلست ورحت أنتظر أن تسألهم بيث بعض الأسئلة التحريضية التي تكشف عن قدراتهم المعرفية. كنت أتوقع أن أسمع حكايات من هؤلاء السادة والخلافات الفكرية التي تُناقش حول نقاط المنطق الآخذة بالتضاؤل. كنت أتوقع أن أسمع من حين لآخر رأيًا (من باب المجاملة) وكنت أتوقع للتو خيبة أملي للترويض التلقائي للغة الذي سيُلاحظ بسبب ارتدائنا، نحن الثلاثة، تنانير.

لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال في ذلك المساء. فقد جاء هؤلاء الرجال ليستمعوا ويختبروا أفكارهم وأن يتم إقناعهم إذا كانت أراؤهم بخلاف ذلك - ليس مع أحدهم للآخر، وإنما مع الأختين. هبطت نظرات الرجال بشكل مريح على بيث، تتبعها وهي تتحرك لتضيء مصباحًا، يراقبون يديها وهي تتأكد من مستوى الشاي في الإبريق، وتصّب لكل واحد منهم كوبًا آخر. عندما تقول شيئًا، كانوا يميلون نحوها، ويطلبون منها تفسيرًا، ويتناوبون على مناقشة أفكارها ويدمجونها في أفكارهم. كانوا يجادلونها ويدعونها للدفاع عن موقفها. كانت تبتسم في معظم الأحيان قبل أن توجّه ملاحظة لاذعة لفكرة غير منطقية. وإذا اقتربوا من أسلوب تفكيرها، وهذا ما كانوا يفعلونه غالبًا، فلم يكن ذلك في غاية التهذيب، وإنما مثيرًا للدهشة.

كانت مشاركة ديتي في الحديث أقل بكثير، لكنها كانت تميل كثيرًا نحو البروفسور تشيشولم لتناقش معه بهدوء بعض النقاط التي كان الرجلان الأصغر سنًّا يجادلان بيث حولها. وعندما كانت ديتي تُسأل عن رأيها، كان الجميع يصمتون. أما بالنسبة للنقاط المتعلقة بالتاريخ، فقد كان من الواضح أنها كانت الحُجَّة في ذلك، وتحظى كلماتها باحترام شديد لم أره إلّامع الدكتور موراي.

«إنه نفس السؤال الذي تنوي إديث أن تبحث فيه أثناء مراجعة كتابها التاريخ»، قالت بيث في لحظة ما، «لهذا السبب، دعونا إسمي لأن تمكث معنا لفترة من الوقت. ستكون مساعدة إديث في الأبحاث التي تجريها على كتابها».

«أليس هذ عملك يا بيث؟» قال البروفيسور تشيشولم.

«عادة، نعم، لكن كما تعلم عندي مشروع كتابة خاص بي»، قالت ورمته بابتسامة وقحة.

«وماذا سيكون ذلك يا ميس تومسون؟» سألها مستر شو- سميث.

أدارت بيث جسدها كله نحو السؤال، وصمتت قليلًا قبل أن تجيبه.

ثم قالت: «حسنًا. إنه شيء مخجل حقًا. إني أكتب رواية، من أسوأ الأنواع، وستُنشر بمعجزة».

لاحظتُ ابتسامة ترفرف على وجه ديتي عندما مدّت يدها لتأخذ قطعة أخرى من كيك ماديرا.

سألها: «ما هو عنوانها؟».

فقالت بيث بفخر: «*زوجة دراغون*. تجري أحداثها في القرن السابع عشر، ومهمتي في الأشهر القليلة القادمة أن أضيف مزيدًا من الحرارة والعاطفة إلى السرد».

«حرارة؟»

«نعم، حرارة، يا مستر شو – سميث، ولا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى المتعة التي أشعر بها».

فهم الشاب أخيرًا، ولجأ إلى فنجان الشاي الذي يشربه. مددت يدي إلى جيبي لأتحسس أرومة قلم الرصاص وحافة قصاصة.

«بالطبع فإن الإيماءات والحركات شديدة الأهمية»، تابعت بيث قائلة، «فقد يمدّ يده، وقد تأخذها. لكن الإثارة وظيفة جسدية، ألا توافقني الرأي يا مستر شو - سميث؟»

عقدت الدهشة لسانه.

قالت: «طبعًا، فإذا أردت قليلًا من الحرارة في رواية ما، يجب أن يتدفق الدم إلى البشرة، وتتسارع دقات القلب – بالنسبة للشخصيات والقراء على حد سواء، كما أظن».

فقال مستر برووكس: «تقولين إنه ينبغي الكشف عن الرغبة».

فقالت: «طبعًا، هل يريد أحدكم مزيدًا من الشاي؟»

عندما استأذنتُ لمغادرة الغرفة، نهض جميع الرجال واقفين. بدا مستر شو - سميث ممتنًا للاضطراب الذي حدث. أردت أن أدوّن الكلمات التي قالتها بيث قبل أن أنسى الاقتباس بدقة.

عندما عدتُ، كانت هناك زائرة أخرى.

«إسمي، هذه هي السيّدة برووكس».

وقفت السيدة برووكس لتحييني. لم يكد طولها يصل إلى كتفي.

«لا تناديني السيّدة برووكس»، قالت ومدّت يدها، «فأنا لا أجيب إلَّاإذا ناديتني سارة. أنا زوجة فيليب وسائقته».

كانت قبضة يدها قوية ومصافحتها متينة. شككت بأنه لا يوجد شيء ضئيل في شخصيتها.

«هذا صحيح»، قال السيد برووكس، «فقد تعلّمت زوجتي قيادة السيارة، ولم أتعلّمها أنا. لا تستغربي ذلك - معظم أصدقائنا كذلك- لكن هذا الترتيب يلائمنا تمامًا»، ونظر إلى سارة، وأضاف، «لا أسع بسهولة وراء عجلة القيادة، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

فقالت سارة وهي تضحك، «إنك لا تسع في أي مكان بسهولة يا فيليب، ولم تُصنع السيارة لتتلاءم مع قوامي أيضًا، لكنني أحبّها كثيرًا».

أُفرغ إبريق آخر من الشاي، وبقي فتات من قالب الكيك في الطبق عندما أصرّت سارة على أن الوقت حان ليذهبا.

قالت: «يجب أن أوصل هؤلاء السادة إلى منازلهم قبل حلول الظلام».

نهضنا جميعًا. وبينما كان كلّ رجل يودّع بيث، كانت تشاركه في حديث صغير جانبًا. بعد عشر دقائق، أُجبرت سارة على أن تصفّق بيديها مثل مديرة مدرسة لكي يتبعوها إلى خارج الباب.

***

كانت الأختان تجدان متعة كبيرة في دعوة بعض الزوار لمشاركتهما شايًا بعد الظهر، وخلال الشهر التالي، تعرّفت على أشخاص أكثر مما عرفت طوال السنوات التي أمضيتها في المَنْسَخ. لم يُر مستر شو - سميث مرة أخرى، أما البروفيسور تشيشولم، فكان يتردد كثيرًا.

«إنه يظهر بشكل سحري أمام عتبة بيتنا عندما تخبز السيدة ترافيس قالب كيك ماديرا»، همست بيث ذات يوم، «إنه أمر غير عادي حقًا».

في إحدى المرات، انضم إليه فيليب بروووكس، وفي مرة أخرى، جاء فيليب وسارة وحدهما. كان شكل السيدة بروووكس بسيطًا، وعندما تتكلّم، تكون غالبًا فظة وصريحة، وكان ذكاؤها يشحب أمام عقليْ الأختين، لكنها تقول الأشياء بطريقة تبرز فيها الحقيقة بطريقة أو بأخرى. كانت تذكّرني بتيلدا.

عندما لم يعد إخفاء بطني أمرًا سهلًا، بدأت أخرج وأتمشّى خلال زيارات شاي بعد الظهر. في البداية، بدأت أذهب إلى حديقة فيكتوريا بارك أو إلى ذا باث، وعندما يهطل المطر، كنت ألجأ إلى الدير وأنصت إلى فتيان الكورال وهم يتدربون، لكن ديتي سرعان ما وضعت حدًا لهذه النزهات.

«لديك كفاءة مؤرخ للتحقيق يا إسمي» قالت لي ذات يوم على العشاء، «فبدلًا من أن تذهبي وتتسكعي بلا هدف في حديقة فيكتوريا بارك غدًا، أريد أن تذهبي إلى قسم الأرشيف في دار البلدية».

«إيديث، لا تنسي الخاتم»، قالت بيث، وهي تتناول شريحة أخرى من اللحم وتغمرها في المرق.

خلعت ديتي الخاتم الذهبي الذي تضعه في إصبعها الصغير وأعطتني إياه. عرفت ما الذي عليَّ أن أفعله، فوضعته في إصبعي، وكان ملائمًا تمامًا.

«لم أستطع قط أن أضعه في هذا الإصبع»، قالت ديتي.

فأجابتها بيث: «لم تكن لديك رغبة في ذلك قط، لكنه يناسب إسمي».

***

عندما استقبلت الأختان زائرين في المرة التالية، كنت قد ذهبت إلى لندن، أبحث في قسم الأرشيف في المتحف البريطاني وأمضيت بضعة أيام مع دا، ثم ذهبت إلى كامبريدج حيث أقمت مع صديقة متعاطفة لبيث لم تسألني عن زوجي قط.

عملتُ في بحثي بدأب ونشاط، وازدادت مهارتي مع ازدياد حجم بطني. وبدلًا من أن تقيّدني، منحتني ديتي قدرًا من الحرية. وقد مهدت السبيل إلى ذلك برسائل تعريف، كتبت فيها أنني ابنة أختها ومنحتني اسم عائلتها. كانت حريصة على ألّا تربطني بالمَنْسَخ فقط. فأصبحتُ أدخل إلى أقسام الأرشيف والمحفوظات وقاعات القراءة على الفور، وتكون الوثائق التي أحتاج إليها قد جُهِّزت سلفًا لأقوم بتدقيقها.

في البداية، كنت متأكدة من أنني لم أكن أقنع أحدًا. فقد كنت أتعثر أثناء سيري، وأعتذر كثيرًا، وكنت أشعر بالامتنان لأنه يُسمح لي بالدخول. عند مدخل قاعة القراءة في «المدارس القديمة» في كامبردج، رأيت حارسًا يدقق رسالة ديتي مرتين، وكان قلبي يؤلمني من فكرة أنني قد أُطرد قبل أن تتاح لي الفرصة لأتنفّس هذا المزيج المُسكر من الحجر والجلد والخشب المعتّق. وعندما لاحظ الشريط الذهبي في يدي، لم يعد للبطن تحته تأثير كبير، فسمح لي بالدخول، وقفت أمام المدخل لحظة طويلة جدًا.

فسألني الحارس، «هل أنتِ على ما يرام يا سيدتي؟»

فقلتُ: «لا يمكنني أن أكون أفضل من الآن».

شققتُ طريقي بخطوات ثابتة نحو طاولة تقبع في نهاية القاعة. أعلنت الأرضية الخشبية عن قدومي عندما ارتفعت رؤوس القراء المنهمكين في قراءتهم ونظروا إليَّ. لم يفكّر المهندسون الذين صمّموا هذه القاعة العظيمة بنقرات حذاء سيّدة تسير فوق أرضيتها. أقررت بنظرات جميع السادة الدارسين بتعديل استقامة ظهري الذي يؤلمني وبهزّة خفيفة من رأسي. عندما جلست، كنت منهكة من هذا الجهد الذي بذلته.

لا أظن على الإطلاق أنه يوجد مكان آخر ينافس أكسفورد في تاريخها وجمالها، لكن كلما جازفت وخرجت وحدي، كنت أضطر لأن أفكّر في مدى ضآلة معرفتي. كانت أكسفورد والمَنْسَخ كافيين على الدوام. وكانت زياراتنا للعائلة في إسكتلندا تبدو دائمًا طويلة جدًا، وفي المرة التي سافرت فيها وحدي، خشيت أن أغادرها مرة أخرى. ورغمًا عني، بدأت أستمتع بهذه المغامرة الجديدة، على الرغم من صعوبة تجاهل السبب الذي دعا إليها.

لم تكن الأختان متواطئتين في محنتي فحسب، وإنما بدا أنهما سعيدتان بها. فعند الإفطار، كانتا تدأبان على سؤالي إن كنت قد نمت جيدًا، وإن كنت ما أزال أشتهي تناول أطعمة غريبة. (لم يكن هناك شيء يثير إحباط بيث). وكانتا تسجلان وزني ونمط نومي في دفتر صغير، وفي أحد الأيام، سألتني بيث، بخجل غير معهود، إن كنت أسمح لها بأن ترى جسدي عاريًا.

قالت «أريد أن أرسمه».

كنت قد اعتدت على الوقوف عارية أمام المرآة، أتتبع منحنيات جسدي من الثدي حتى العانة. كنت أحاول أن أسجّلها في ذاكرتي، فوافقت.

عندما بدأت بيث ترسمني، طلبت مني أن أقف إلى جانب النافذة في غرفة نومي، وأنظر من النافذة إلى الحديقة التي كانت في حالة فوضى من الألوان والحواف التي تغطيها أعشاب مفرطة في النمو. كانت شجرة التفاح مفعمة بالحياة، تتناثر أزهارها على الأرض أسفلها. قلت في نفسي كم أن إهمالها بهذا الشكل أضفى عليها جمالًا خاصًا. سقط ضوء الشمس على بطني، وكانت حرارته دليلًا على عريّ. لكنني لم أشعر بالخجل أو بالحرج. كانت بيث تجلس على السرير، وكنت أسمع صوت خربشة قلم الفحم على الورقة.

عندما طلبت مني أن أرفع يدًا، وأضع الأخرى تحت تكّور بطني، فعلت كما طلبت مني. كانت بشرتي دافئة، وضغطتُ عليها. ثم أحسست بحركة تحت الجلد المشدود. استجابة. عكس كل التوقعات، رحت أداعب الشيء المتنامي في داخلي، وهمست بضع عبارات ترحيب.

لم ألاحظ عندما وضعت بيث ورقة الرسم جانبًا. جاءت وغطت كتفي برداء نوم وذهبت إلى الباب ونادت ديتي.

«جميلة»، قالت ديتي وهي تنظر إلى اللوحة، لكنها نظرت إليَّ بصعوبة، ثم غادرت بهدوء كما جاءت، لكنني رأيتها تجفف دموعها.

***

«ستأتي سارة برووكس لنتناول الشاي معًا بعد الظهر اليوم»، قالت ديتي عندما كنا نتناول طعام الغداء. كانت عادة تخبرني في اليوم السابق.

«سأذهب وأتمشّى في حديقة فيكتوريا بارك. الطقس اليوم رائع».

نظرت ديتي إلى بيث، ثم نظرت إليَّ، وقالت: «في الواقع، نريد أن تبقي معنا».

نظرتُ إلى بطني التي أصبحت ضخمة الآن ولم يعد بالإمكان إخفاؤها، ثم نظرتُ إلى ديتي نظرة مليئة بالتساؤل.

فقالت: «إنهم أناس طيبون».

في البداية، لم أفهم. فقد حُرمت من صحبة أحد سوى صحبة الأختين منذ شهر نيسان (أبريل)، عندما زارنا أبي بمناسبة عيد ميلادي الخامس والعشرين. لقد اقتربنا من شهر حزيران (يونيه). وقد أصبحت ضخمة.

نهضت بيث من على مائدة المطبخ، وبدأت تُشغل نفسها بإبريق القهوة، ثم قالت: «لم يتمكّنا من إنجاب طفل يا إسمي بنفسهما. سيكونان أبوين صالحين لطفلك».

بدأت الكلمات تسقط في مكانها عندما مدّت ديتي يدها عبر الطاولة لتمسك بيدي. لم أسحبها بعيدًا، لكنّي لم أستطع أن أبادلها الضغط على يدها. شعرت بضيق في تنفسي، ولم أعد قادرة على قول شيء من الفراغ الذي تكوّن في صدري. لم يكن مجرد ضيق في التنفّس، وإنما عدم التمكن من إيجاد كلمات. اعتراني شعور بأنني فهمت بدقة، لكني لم أجد الكلمات المناسبة.

في محيط ذلك الشعور، رأيت بيث تستدير من الموقد، إبريق القهوة في يد، لكن لم تكن قسماتها مريحة بالابتسامة التي كانتا تحاولان إظهارها. ماذا رأت حتى انخسف وجهها وارتعشت يدها؟ انسكبت قهوة على الأرض، لكنها لم تتحرك لتنظّفها، وإنما نظرت إلى أختها. لم أرها مترددة هكذا قط.

***

لم أستطع أن أقرّر ما الذي سأرتديه، مع أن خياراتي كانت قليلة. عندما رأيت سارة في المرة الأخيرة، كنت أظن أن بطني لم تكن ظاهرة. أما الآن، فإني أتساءل إن كانت تعرف طوال الوقت. أزعجتني هذه الفكرة، وجعلتني أشعر بعدم الارتياح. ارتديت ثوبًا يُبرز صدري، وكان ضيقًا جدًا حول وسطى، ثم وقفتُ أمام المرآة. كان ثمة شيء فاحش فيه، وشيء مدهش. مررت أصابعي المحترقة فوق منحنى صدري، فوق حلمتي، فوق انتفاخ الطفل تحت الجلد المشدود. أحسست به يتحرك، ورأيت التموج تحت قماش الثوب.

غيّرت ثوبي وارتديت بلوزة وتنورة، أعارتني إياهما ديتي. ارتديت فوقهما معطفًا منزليًا.

عندما دخلتُ إلى غرفة الجلوس، نهضت سارة واقفة. أرادت الأختان أن تكون فترة بعد الظهر مريحة إلى أكبر قدر ممكن، فبقيتا جالستين وراحتا تلقيان عبارات ترحيب غير رسمية بدت مصطنعة وفرحة بشكل مبالغ فيه: «تفضّلي»؛ «ألن تشربي معنا الشاي يا إسمي؟»؛ «كنّا نقول إن الجو دافئ»؛ «قطعة كيك *مادیرا* يا سارة؟»

تجاهلتهما سارة وجاءت مباشرة إلى المكان الذي أقف فيه. أخذت كلتا يديَّ في يديها، وقالت: «إسمي، إذا كنتِ تفضلين ألّايحدث ذلك، فإني أفهم لأن ذلك سيكون أصعب عليك بكثير من أي شخص آخر. يجب أن تأخذي وقتك، ويجب أن تكوني متيقنة من ذلك».

كان شعورًا بالندم والحزن والخسارة، كان شعورًا بالأمل والارتياح. وكان أشياء أخرى لا اسم لها، لكنّي شعرت بها في أحشائي، وكان بإمكاني أن أذوق مرارتها. لقد جاء الإحباط بعدم القدرة على التعبير عن أي من تلك المشاعر في شكل سيل من الدموع.

أمسكتني سارة، ولفّت ذراعيها القويتين حولي وتركتني أنفجر في البكاء على كتفها. بدت صلبة غير خائفة.

عندما صبّت بيث الشاي أخيرًا، كنّا كلنا نمسح دموعنا وأنوفنا.

شربنا الشاي وتناولنا الكيك، ورأيت فَتفُوتة من الكيك قد علقت في زاوية فم سارة. لاحظت كيف أنها كانت تنصت إلى كل ما قالته بيث، ولم تقاطعها قط، لكنها لم تكن توافق على ما تقوله دائمًا، وكانت تردّ عندما تتاح لها الفرصة لذلك. استمعت إلى صوتها وتذكّرت كيف كانت تضحك بسهولة. تساءلت إن كانت تجيد الغناء.

تحاشيت التفكير بما يمكن أن يحدث بعد انتهاء فترة الحمل. لم أسأل أسئلة ولم تشر الأختان إلى ذلك قط. هل كانت هذه هي الخطة دائمًا؟ تساءلت.

طبعًا كانت كذلك.

هل يجب أن تكون؟

طبعًا، كان يجب أن تكون.

كانت طفلة. كنت أعرف ذلك، مع أنني لا أستطيع أن أقول كيف عرفت. وقد بدأت أحبّها.

«إسمي؟» قالت بيث.

كانت النساء الثلاث ينتظرنني لأردّ على شيء لم أسمعه.

«إسمي»، قالت سارة، هل تمانعين إن جئت لزيارتك مرة أخرى؟»

نظرتُ إلى ديتي. عندما أنتهي من مراجعة كتاب التاريخ الذي تؤلفه، سأعود إلى أكسفورد، وأستأنف عملي في المَنْسَخ. كانت قد قالت ذلك، وقد وافقت على ذلك.

لا بد أنه توجد كلمة تعبّر عمّا كنت أشعر به حينذاك، لكن على الرغم من كلّ السنوات التي أمضيتها في المَنْسَخ، لم أستطع أن أتذكّر كلمة واحدة.

هززت رأسي.

***

ظلّ الطقس دافئًا، وازداد حجمي ضخامة. كانت ديتي سعيدة بالأبحاث التي أجريها، وأصرّت على أن أظل مستلقية على الأريكة ساعات طويلة، أدقق التعديلات التي تجريها على كتابها. عندما بدأت سارة تأتي لتتناول الشاي بعد ظهر كل يوم ثلاثاء، كنت أجلس صامتة أراقبهن وأستمع إلى حديثهن. كنت أجد شيئًا جديدًا أحبّه فيها في كل مرة، لكنها كانت ساعات غير مريحة، ولم تتغير مشاعري المتناقضة. كنت أريد أن أقول أشياء كثيرة، لكن صبّ الشاي وتقديم كيك *مادیرا* ظلاّ يقفان عثرة في طريقي.

ثم، في أحد أيام الثلاثاء، دخلتُ إلى غرفة الجلوس ووجدت سارة لا تزال تعتمر قبعتها وترتدي قفازات قيادة السيارة.

قالت: «قلت في نفسي أن أخذكِ معي في نزهة».

اعتراني شعور بالارتياح بشكل غير متوقع. أخذتُ نفسًا عميقًا كما لو كنت موجودة للتو في الهواء الطلق.

«أنا وأنتِ فقط»، تابعت قائلة والتفتُّ إلى الأختين اللتين أومأتا برأسيهما في آن معًا.

فوجئت عندما فتحت باب السيارة من طراز دايملر إلى جانب السائق وساعدتني على الصعود إليها. لم أسافر في سيارة خاصة إلّانادرًا، ولم أركب قط سيارة تقودها امرأة. كانت لدى سارة ساقان قصيرتان، وذراعان قصيرتان، يشارك جسدها كله في قيادة السيارة. ظلّت تميل إلى الأمام لتغيّر تروس السرعة، ثم تعود وتضغط على الدواسات. كانت كما لو أن محرّك دمى هو الذي يحرّك ذراعيها ورجليها. سعلت لأخفي ضحكتي.

سألتني، «هل أنتِ متوعكة اليوم؟»

فقلت: «لا، أبدًا».

لم تصرّ سارة قط على أن نفتح حديثًا، وكان يبدو أنها تشعر بارتباك غير عادي عندما تتكلم - فقد أجابت ذات مرة على تعليق حول الطقس وراحت تشرح العلاقة بين الضغط البارومتري والمطر- لذلك كانت رحلتنا صامتة باستثناء صوت تحريك التروس والتعليقات التي تسخر من الآخرين أحيانًا على طريقة قيادتهم.

عندما وصلنا إلى «ملعب باث الترفيهي» كنت قد ملأت ثلاث قصاصات باقتباسات مختلفة لعبارة damn- dunderhead (اللعنة – مغُفّل). بدا وكأنها كُتبت أثناء نوبة شلل ارتجافي.

«فريق سومرست يلعب ضد فريق لانكشاير لنيل البطولة»، قالت سارة، وهي تساعدني على النزول من مقعدي وأرفع رأسي لأرى لوحة النتائج. «فريق لانكشاير يحقق 181 نقطة، إنه هدف ليس صعبًا، فأخذ فيليب إجازة من عمله. هل تحبين الكريكيت يا إسمي؟»

«لست متأكدة. لم أجلس قط وأشاهد مباراة كاملة».

«إنك شديدة التهذيب ولا تريدين أن تقولي إنها لعبة تستغرق وقتًا طويلًا، وإن مشاهدة العشب وهو ينمو شيء مثير أكثر من مشاهدتها. لا، لا تنكري ذلك، يمكنني أن أرى ذلك على وجهك». وشبكت ذراعها في ذراعي، وكيّفت نفسها بسهولة مع طول قامتي، ورحنا نسير حول محيط الحديقة البيضاوية، ثم قالت: «في المساء، ستُدهشين بأنك استطعتِ أن تفكري بهذا الأمر».

كان السيّد بروووكس في أرض الملعب، وتساءلت إن كانت سارة قد تعمّدت أن نأتي في هذا الوقت بالذات. فمنذ أن أعربا عن نيتهما، لم يرافق زوجته لتناول الشاي في منزل الأختين. قلت في نفسي لا بد أنه رأى أن يترك هذا الأمر للنساء. لم أقل لنفسي إن «هذا الأمر» قد لا يتم، إلّا بعد أن رمى كرته الأولى. أدركت أنهما يتوددان إليَّ، وفي لحظة ما، عليَّ أن أقبل أو أرفض عرضهما لي. عندما خلع قبعته وأعطاها للحكم، انعكست أشعة الشمس على رأسه الأصلع. كان أطول من سارة، وراح يقفز في الملعب على ساقين طويلتين رفيعتين، ثم رمى الكرة بذراعين تشبهان طاحونة هوائية.

«كانت فكرة فيليب»، قالت سارة عندما رمى كرته الثانية.

«حول ماذا؟»

«أن آتي بك لتشاهدي المباراة. أوه، كانت تلك رمية قصيرة، ستنطلق مباشرة إلى حدود الملعب».

انطلق تصفيق من أحد جانبيْ الملعب البيضاوي.

«لن يكون حظنا جيدًا. يمكنني أن أقول إنه مشتت الفكر، المسكين. أراد أن يثير إعجابك بلعبه».

«أنا؟»

«نعم، كما قلت لك، كانت فكرته هو. كان يرغب في أن يأتي لتناول الشاي، لكني أصررت على ألّايأتي. فالأمر غير مريح، ألا ترين ذلك؟»

أطرقت برأسي إلى الأرض.

«أظن أنه كان يأمل أن يتمكن من إظهار مهاراته الأبوية ويقدم لك عرضًا جيدًا».

مع أنني أحببت صراحتها، لكنها فاجأتني.

«حسنًا، انتهت المباراة بالنسبة له. بعد خمس عشرة رمية، سيكون سعيدًا لأنه حان الآن وقت الشاي».

شاهدت لاعبي الكريكيت يغادرون الملعب ويتجهون إلى غرف النادي. عندما نظر فيليب في اتجاهنا، لوّحت له سارة بيدها. وبدلًا من أن يتبع أفراد فريقه، سار نحونا. كان يسير بخطوات طويلة، مع انحناءة طفيفة.

«أرجو أن تقولي إنك وصلتِ للتو»، قال وهو يقترب منا.

لم أعرف إن كان احمرار وجهه من الخجل أم سفعة الشمس.

«أخشى أننا لم نستطع أن نفعل ذلك يا عزيزي. فقد وصلنا عندما قذف شارب الكرة بمضربه». وقفت سارة على أطراف أصابع قدميها لتقبّله، وتساءلتُ إن كانت انحناءة فيليب لكي يتأقلم مع الزواج.

نظر إلى لوحة النتائج، وقال: «من الآن فصاعدًا، أظن أنني سألعب في فريق الدفاع»، ثم التفت إليَّ وعيناه العسليتان تلمعان.

قال: «إسمي، من الجميل أن أراكِ مرة أخرى».

لم أعرف ماذا ينبغي لي أن أقوله له. هززت رأسي، مع ابتسامة خفيفة. عندما مدّ يده الضخمة، مددت له يدي. رأى أصابعي المحترقة ولم يجفل منها، لكنّي كنت ما أزال أتوقع أن تكون قبضته ضعيفة كي لا يسحق ما بدا أنها أصابع هشة جدًا. لكن قبضته كانت قوية بما يكفي، ولم يدع يدي تنفك من قبضته. عندما ترك يدي، كان ذلك في اللحظة المناسبة تمامًا.

قال لي أبي ذات يوم إن باستطاعتك أن تعرفي أشياء كثيرة عن الرجل من الطريقة التي يمسك بها يدك.

***

كان يوم الثلاثاء، وكانت السيّدة ترافيس قد حصلت على إجازة اليوم. كان من المقرر أن تأتي سارة بعد الظهر لنتناول الشاي. كانت الأختان في المطبخ تعدّان الشاي. عندما دخلتُ، كانت ديتي ترتب قطع الكيك في طبق، وكانت بيث تسخّن إبريق الشاي. كنت على وشك أن أسألهما إن كان بإمكاني أن أساعدهما، عندما شعرت بتدفق سائل بين ساقيّ. قبل أن أتأكد ما هو ذلك الشيء، شعرت أنه يتدفق إلى الخارج. عندما شهقتُ التفتت الأختان.

قلت: «أظن أنها مياهي».

أمسكت ديتي قطعة كيك وأمسكت بيث إبريق الشاي. لبضع ثوان لما تكادا تتحركان. ثم بدأتا فجأة ترفرفان مثل دجاجتين مذعورتين: تدوران في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه تتكلّمان في وقت واحد. بدأتا تتجادلان فيما إذا كان عليَّ أن آكل أم أتجنب الطعام، وهل أظل أشرب شاي أوراق التوت أم أتوقف عن شربه. هل أستلقي أم أستحمّ.

«أنا متأكدة من أن الطبيب قال إنها يجب ألَّا تستحمّ».

«لكنّي أتذكّر السيدة موراي قالت إن الاستحمام يمنحها شعورًا بالراحة، وقد أنجبت مئات الأطفال»، قالت ديتي ولم تتخلَّ عن رصانتها ودقتها المعتادتين.

لم أشعر بالرغبة في أن آكل أو أشرب أو أستحمّ، لكن لم يخطر ببال إحداهن أن تسألني.

«أظن أنني يجب أن أغيّر ثيابي»، قاطعتها. كنت ما أزال واقفة في البركة التي جعلت الأختين ترتبكان.

«هل بدأ الألم؟» سألتني بيث.

«لا. أشعر كما كنت أشعر قبل عشر دقائق، لكني أشعر بمزيدٍ من الرطوبة».

كنت آمل أن يهدّئ ردّي من روعهما، لكنهما نظرتا إليَّ حائرتين. عندما سمعتا قرعًا على الباب، اندفعتا كلاهما لتريا من بالباب، وتركتاني وحدي في المطبخ.

«أين هي؟» سمعتُ صوت سارة.

دخلت النساء الثلاث إلى المطبخ، تتقدمهن سارة، ترتسم على وجهها المنمّش ابتسامة كبيرة.

« هذا كلّه شيء طبيعي تمامًا»، قالت وهي تنظر إليّ حتى تأكدت من أنني فهمت. ثم التفتت إلى الأختين وقالت بنبرة جادة: «هذا طبيعي تمامًا». عندما رأت قطع الكيك على طاولة المطبخ والبخار يتصاعد من إبريق الشاي، قالت: «آه، ممتاز. الشاي هو الشيء المناسب. سننضم إليكما أنا وإسمي بعد عشر دقائق»، وأمسكتني من ذراعي وقادتني إلى أعلى الدرج.

في غرفة نومي، جثت سارة على ركبتيها أمامي، وخلعت إحدى فردتيْ حذائي، ثم الأخرى، ومن دون أن تقول شيئًا مدّت يدها تحت تنورتي وخلعت كلساتي.

أحسست بأصابعها تمشي على طول كلّ ساق من ساقيّ وهي تدحرج الكلسات إلى الأسفل. شعرت بقشعريرة بعد ذلك. لم تسألني سارة إن كان بإمكانها أن تعتني بي، وإنما فعلت ذلك على الفور.

«هل ما حدث شيء طبيعي؟» سألتها.

«لقد تدفقت مياهك يا إسمي. وقد تدفقت صافية. إنه أمر عادي».

«لكن الدكتور سكانلان قال إن الآلام ستبدأ بعد ذلك مباشرة. لا أشعر بأي فرق».

رفعت عينيها إليّ، يدها تداعب ربلة ساقي بشرود.

قالت: «سيبدأ الألم بعد خمس دقائق أو خمس ساعات، وعندما يبدأ، سيكون شديدًا كالشيطان».

كنت أعرف أن ما قالته صحيح، لكنّي أملت أن هناك استثناءات. شعرت بشحوب وجهي. غمزتني.

«أنصحك بأن تشتمي. فهي ستخفف عنك الألم عندما يبلغ أسوأ حالاته، لكن يجب أن تكوني مقنعة في ذلك. لا بفتور أو من تحت أنفاسك، اصرخي بأعلى صوتك. الولادة هي المرة الوحيدة التي يمكنك أن تفعلي ذلك».

سألتها، «كيف عرفت؟» سألتها.

نهضت واقفة.

«أين تضعين ثياب النوم؟»

أشرتُ إلى الخزانة، وقلت: «الدرج الأسفل».

«لقد أنجبتُ طفلين»، قالت سارة عندما أخرجت ثوب نوم نظيفًا، «لكن لسوء الحظ، لم تكن ماؤهما صافية».

ساعدتني على رفع ثوبي فوق رأسي، ثم القميص التحتي. جثت على ركبتيها مرة أخرى واستخدمت القميص التحتي لتجفف ساقيَّ. خلعت سروالي الداخلي، وتفحّصت كل بقعة في القماش المبلل قبل أن تقرّبه من أنفها.

رجعتُ إلى الوراء مجفلة.

فقالت وهي تبتسم لي: «الرائحة كما يجب أن تكون»، ثم أردفت، «لقد ساعدتُ أختي أيضًا على ولادة خمسة من أطفالها. كانت رائحة كلّ سراويلها تشبه هذه الرائحة وكان كلّ طفل منهم يصرخ».

ألقت السروال الداخلي فوق كومة الملابس الأخرى. لم يعد هناك شيء آخر يمكنني أن أخلعه. أصبحت عارية تمامًا.

«هل ستبقين؟» سألتها.

«إذا أردتِ أن أبقى».

«هل تشتم النساء عادة أثناء الولادة؟»

أدخلت ثوب النوم من رأسي. انتفخ، ثم استقر فوق بشرتي كالنسيم. ساعدتني على إيجاد فتحتيْ الكمين.

«إذا كنّ يعرفن الكلمات المناسبة فمن الصعب ألَّا يفعلن ذلك».

«أعرف بعض الكلمات السيئة، جمعتها من امرأة عجوز في السوق في أكسفورد».

«حسنًا، أن تسمعيها في السوق شيء، وأن تخرج من فمك شيء آخر»، قالت وأخذت ثوب نومي من خلف الباب وساعدتني على ارتدائه، «إن بعض الكلمات أكثر من كونها مجرد حروف مكتوبة على صفحة، ألا ترين ذلك؟» قالت وهي تعقد الوشاح حول بطني بأفضل ما تستطيع، «لها شكل وقوام. إنها تشبه الطلقات، مليئة بالطاقة، وعندما تطلقين نَفَسًا واحدًا يمكنك أن تشعري بحافتها الحادّة على شفتيك. قد تكون شافية لو استخدمتها في سياقها الصحيح».

فقلت: «مثل عندما يتجاوز أحدهم الطريق أمامك وأنت ذاهبة إلى مباراة الكريكيت؟»

ضحكت، وقالت: «يا إلهي. يسمّي فيليب ذلك فمي المتحرك. أرجو ألا تكوني قد شعرت بالإهانة».

«فوجئت قليلًا، لكنّي أظن أنني بدأت أحبك في تلك اللحظة».

لم تعد هناك كلمات. وقفت سارة على أصابع قدميها وقبّلتني على خدي. انحنيت قليلا لأصل إليها.

ATTEND

.To direct one’s care to; to take care or charge of, to look after, tend, guard

(يعتني بـ

يوجّه المرء عنايته لــ؛ يعتني بـ، يتولّى، يرعى، يحرس.

TRAVAIL

.Of a woman: to suffer the pains of childbirth

(بالنسبة للمرأة: أن تعاني من آلام الولادة)

DELIVERED

.Set free; disburdened of offspring; handed over; surrendered

يطلق سراح؛ يحرّر من عبء الولادة؛ يسلّم؛ يستسلم.

RESTLESS

.Deprived of rest; finding no rest; esp. uneasy in mind or spirit

محروم من الراحة؛ لا يجد راحة؛ خصوصًا مضطرب في العقل أو الروح.

SQUALL

.A small or insignificant person

A sudden and violent gust, a blast or short storm. To scream loudly or .discordantly

شخص ضئيل أو تافه عديم القيمة.

هبوب عاصفة مفاجئة وعنيفة، عاصفة شديدة أو قصيرة. يصرخ بصوت عالٍ أو متنافر النغمات.

***

أحاط الضوء حواف الستائر. خلت الغرفة من ازدحامها السابق. حلّ النظام محلّ الفوضى من جديد. غطت رائحة الخزامى على رائحة الدم والغائط.

Shit (*خراء*). قلت هذه الكلمة بصوت عالٍ، مرات ومرات. وقلت كلمات أخرى كانت قد علّمتني إياها مابل. كان حلقي أجشَ عندما نطقتها. لم أحلم بأن أقولها قط.

مع أنني حلمت. فقد بكت طفلة في الحلم.

ظلت تبكي. ثدياي تألما من صوت بكائها.

***

مع أنهن كن يتحدثن همسًا، فقد سمعت حديثهن.

«من الأفضل ألا تراها، وإلاّ غيّرت رأيها». القابلة.

«إنها تريد تغذية»، يا سارة.

«إن الإبقاء على طفل ولد خارج إطار الزواج، يدينها ويدينه. سأُحضر مرضعة». القابلة.

***

أزحتُ الغطاء وأنزلتُ ساقيَّ على جانب السرير. عضلات لم أعهدها من قبل بدأت تئن من شدة الألم. وخزة فظيعة جعلتني أصرخ. لديَّ ذاكرة عن هذا الألم الذي حجبه الأثير.

حاولت أن أنهض، لكن رأسي بدأ يخفق بقوة واستحالت الأصوات التي كانت حادّة منذ لحظات إلى أصوات رتيبة، غائمة، كما لو أنني انزلقت تحت الماء في الحمّام. جلستُ وأغمضتُ عينيَّ. في العتمة خلف جفنيَّ رأيت صورة سلبية لوجه، نقطتا ضوء ثابتتان تحترقان في شبكية عينيَّ. عندما وقفت أخيرًا، أحسست أن أحشائي ستندلق إلى الخارج. مددت يدي إلى الأسفل لأوقف

التدفق، لكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، فقد وضع أحدهم حزامًا تحته منشفة.

«عودي إلى السرير يا فتاتي»، سمعت سارة تقول. لم تبرح الغرفة، وقد بدا النمش الذي يكسو وجهها بلونه كاملًا، عيناها مثبتتان عليَّ، لا ترّفان.

قالت: «يجب أن أُرضعها».

إنها فتاة، قلت لنفسي.

«يجب أن أرضعها».

***

NURSE

Of a woman: to suckle, and otherwise attend to, or simply to take care, or charge of an infant.

(*بالنسبة للمرأة: أن تُرضع، تعتني بـ، تحيط الرضيع بعنايتها، أو تتعهد برعايته*).

***

كنّ جميعهن هنا: ديتي وبيث وسارة والقابلة. يراقبنني وأنا أُرضع. يسمعونها وهي ترضع، وأنا أسمعها وهي ترضع، لكنهن لا يشعرن بقوة مصّها على حلمتيّ، أو بوزنها على بطني. لا يشممن رائحتها. لمدة نصف ساعة، كان ضجيجها الخفيف الصوت الوحيد في الغرفة. لم تعبّر إحداهن عن أملها أو مخاوفها.

«الدموع طبيعية جدًا»، قالت القابلة.

منذ متى أنا أبكي؟

***

كم مرة أرضعتها؟ لم أستطع أن أحصي عدد المرات، مع أنني كنت أنوي أن أفعل ذلك. أصبح الزمن شيئًا مرنًا، لم يعد الحد الفاصل بين الأحلام واليقظة واضحًا. بدأن يتناوبن على الجلوس معنا، ولم يتركننا قط. أردت أن أدفن وجهي في ذلك المكان اللطيف تحت صِوان أذنها، وأتنشق رائحتها الدافئة التي تشبه رائحة البسكويت. «يمكنني أن ألتهمك»، أردتُ أن أقول لها. أردتُ أن أنزع ثيابها، وأتتبّع كلّ ثنية في جسدها، وأقبلّها من رأسها حتى أخمص قدميها، وأهمس لها حبّي في مسامّ بشرتها.

بعد انقضاء أسابيع عدة. لم أفعل شيئًا من كل ما كنت أريد أن أفعله.

***

جلست سارة على طرف السرير، يدها الضخمة المكسوة بالنمش تداعب الزغب الذهبي على رأس طفلتنا. «يمكنك أن تغيّري رأيك».

حاولتُ أن أتخيّلها بمئة طريقة وطريقة.

قلت لها: «ليس عقلي فقط الذي يحتاج إلى تغيير».

كانت تعرف ذلك. عندما نظرت إليّ، رأيت ارتياحًا يتصارع مع ظلال من الندم. أظن أنها كانت سعيدة، لأنني قلت ذلك بصوتٍ عالٍ. أولت ظهرها لي، واستغرقت وقتًا أطول من المعتاد وهي تطوي فوطة جديدة.

«هل آخذها؟» سألتني سارة.

لم أستطع أن أفكّر في أي طريقة للرد عليها. نظرت إلى الأسفل ولاحظت أن الحليب قد تجمّع على حافة فمها النائم. تحركتُ قليلًا ورأيتها تسقط على ذقنها. أحسست بثقلها. لقد أصبحت أثقل مما كانت عندما حملتها أول مرة. حاولت أن أفكّر بكلمة تستطيع أن تعبّر عن جمالها.

لم أجد أي كلمة. لا توجد هناك كلمة يمكن أن تضاهي جمالها. لن تكون هناك أبدًا كلمة تضاهيها.

أعطيتها لسارة. بعد بضعة أشهر، هاجرتْ سارة وفيليب إلى جنوب أستراليا.

الجزء الرابع 1907- 1913
أسى Sorrow
أسى- التعدُّد Polygenous

أيلول/سبتمبر 1907

لا توجد نهاية للكلمات، لا نهاية لمعانيها، أو لطرائق استخدامها. يعود تاريخ بعض الكلمات إلى عصور قديمة لا يعدو فهمنا الحديث لها أكثر من صدى للأصل، تحريف لها. كنت أعتقد أن العكس هو الصحيح، أن الكلمات الممسوخة التي تعود إلى الماضي ما هي إلّا مسوّدات خرقاء لما يمكن أن تصبح، وأن الكلمات التي تشكّلت على ألسنتنا، في عصرنا، صحيحة وكاملة. لكنّي بدأت أدرك، في الواقع، أن كلّ شيء يأتي بعد النطق الأول هو تصحيف لها.

لقد نسيت شكل أذنها بدقة، ولون عينيها الأزرق الخاص. لقد أصبحتا أغمق في الأسابيع التي أرضعتها فيها. ربما ازدادتا قتامة الآن. كنت أستيقظ كلّ ليلة على صراخها الشبحي وعرفت أنني لن أسمع قط كلمة واحدة مغلّفة في موسيقى صوتها. كانت رائعة عندما كنت أحملها، شفافة، قوام بشرتها ورائحتها والصوت اللطيف الذي ينبعث منها عندما ترضع لا يمكن أن يكون سوى ما كان. لقد فهمتها تمامًا.

في فجر كلّ يوم، أعيد خلق تفاصيلها؛ أبدأ بالأظافر الشفافة في أصابع قدميها الصغيرة صعودًا إلى أطرافها المكتنزة، وبشرتها التي بلون القشدة، حتى رموشها الذهبية التي لا تكاد تظهر. ثم أبذل جهدًا لأتذكّر بعض الأشياء الصغيرة، وأدركت أن ذاكرتي عنها ستبهت وتتلاشى مع مرور الأيام والشهور والسنوات.

Lie- child؛ هكذا أطلقت القابلة عليها، لكني لم أرها في المجلد «من Leisureness إلى Lief» ، فتشتُ في فتحات العلب: وجدت خمس قصاصات تُعرّف الكلمة: *طفل مولود خارج إطار الزوجية، لقيط*، لذلك استُبعدت من القاموس، وكُتبت ملاحظة في أعلى القصاصة: نفس معنى «love- child - excise» (*ابن زنى*).

لكن هل هي كذلك؟ هل أحببتُ بيل؟ هل اشتقتُ اليه؟

لا، لقد نمت معه فقط.

لكنّي أحببتها، أشتاق إليها.

لا يمكن تعرّيفها بأيّ كلمة من الكلمات التي وجدتها، ثم توقفت أخيرًا عن البحث عنها.

بدأت أعمل، أجلس إلى طاولتي في المَنْسَخ، ورحت أملأ الفراغات في عقلي بكلمات أخرى.

20 أيلول (سبتمبر) 1907

عزيزي هاري،

ِ

أرفقت في صفحات النشرات العديدة عن القاموس والحياة في السكريبي، بضع كلمات تثير قلقي. فأنتَ لست من ذلك النوع الذي يبالغ، وأرى أنك تنحو إلى التفاؤل حتى عندما لا يكون هناك شيء يدعو إلى ذلك، لذلك لا يمكنني إلّاأن أفترض أن قلقك على إسمي صحيح ومبرر.

لقد سمعت عن تقلبات المزاج تلك عند النساء اللاتي عانين مما عانت، وعلينا أن نفكّر في احتمالية أنها حزينة. حالتها ليست غير مألوفة. (كانت السنة الماضية بمثابة درس جيد في هذه الأمور، وستدُهش عندما تعرف عدد الشابات اللاتي يجدن أنفسهن في ورطة. بعض القصص التي سمعتها تقشعّر لها الأبدان، ولن أكررها هنا. يكفي أن أقول إن عزيزتنا إسمي محظوظة لأن لديها أبًا محبًّا). لذلك، يجب أن نواصل إحاطتها برعايتنا إلى أن تعود إلى طبيعتها السابقة.

إننا نشعر بالضياع التام من دونها. كما تقول بيث، فإن استفسارها المستمر جعلنا صادقتين معها. قد يتوقع المرء أن تتجاوز هذه المحنة، ويجب أن أعترف أنه مرت أوقات تمنيت فيها أن تتقبل فقط حكمة الآخرين، لكنها بحاجة إلى إقناع، وإني متيقنة من أن كتاب التاريخ الذي أؤلفه سيكون الأفضل لها.

لكنك تقول لي الآن إنها أصبحت أكثر هدوءًا، فسمحت لنفسي أن أستفسر عن بعض الأمور.

عندي صديقة لديها كوخ صغير في شروبشاير يقع بين التلال ويطلّ على ويلز (طبعًا، إذا كان النهار صافيًا). وقد توفي المستأجر منذ مدة، لذلك، فإن الكوخ فارغ الآن. أمضيت أنا وبيث أسبوعًا فيه منذ فترة ليست بعيدة. تؤكد بيث أن المشي هناك رائع؛ حيث توجد دروب منحدرة عديدة لاختبار القلب وإلهاء العقل.. هذا ما تحتاج إليه إسمي تمامًا، يمكنني أن أكفل أنها ستشعر بالراحة في هذا المكان: ومع أنها لا تلائم بعض السيدات الشابات، لكن إسمي ليست فتاة صعبة الإرضاء.

حجزت الكوخ لشهر تشرين الأول (أكتوبر). وكتبتُ أيضًا إلى جيمس وأدا موراي، ووافقا على أن ترافق ليزي إسمي في هذه الرحلة. قبل أن تحتجّ يا هاري، كنت كتومة جدًا حول هذا الأمر، مع أنني كنت بحاجة إلى أن أجد حيلة ما، فقلت إنني سمعت أن إسمي تعاني من نزلة برد أصيبت بها عندما كانت في باث. فوافق جيمس على الفور على ضرورة أن تستعيد عافيتها وقوتها. وهو يؤمن إيمانًا راسخًا بأن باستطاعة المشي معالجة كلّ شيء، وحرص على أن يذكر بأنه لا يوافق على أن يتدثر الشخص بأردية ويجلس على كرسي

الاستلقاء على شاطئ البحر ما إن يبدأ السُّعال. ظننت أنه ربما اعترض على غياب ليزي لمدة طويلة، لكنه قال إنها لم تحصل على أكثر من بضعة أيام إجازة منذ سنوات، وهي تستحق أن تحصل على إجازة الآن. لقد أرسلت موافقتي في بريد بعد الظهر في نفس اليوم (مع بضع كلمات لم يكن يتوقعها لأسبوع آخر، فقط للتأكد من أنه لن يغيّر رأيه).

عزيزي هاري، أرجو أن تناسبك هذه الترتيبات، وبالطبع أرجو أن تناسب إسمي أيضًا. إني متيقنة من أننا لن نواجه أي مشكلة لإقناعها. إن رحلة القطار من أوكسفورد إلى شروزبري مباشرة، وتؤكد لي صديقتي عن تعاون جارها السيّد لويد الذي يتقاضى مبلغًا ضئيلًا لقاء العناية بالكوخ. سيستقبل الفتاتين ويوصلهما إلى الكوخ.

المخلصة، إلخ.

إديث

***

وصلنا إلى غوبليرز دينغل عندما بدأت الشمس تميل إلى الغروب، وبدأ البرد يحلّ محل النهار المعتدل. أصرّ السيد لويد على أن يشعل النار في الموقد قبل أن يذهب، عندما انحنى ليوقد النار، قال لنا إنه سيأتي أو إنه سيرسل ابنه ليتفحص الموقد ويوقد المدفأة في غرفة النوم بعد ظهر كل يوم، وقال إن السقيفة مليء بالحطب وسيوقد المدفأة في وقت أبكر إذا دعت الضرورة.

عندما ودّعنا نهضت ليزي واقفة. انحنى لها قليلًا، ومع أن المكان مكاني، فقد ردّت عليه.

قالت: «شكرًا يا سيد لويد، إننا في غاية الامتنان».

«كلّ ما تحتاجين إليه يا ميس ليستر. أقيم على مسافة عشر دقائق في الزقاق من هنا».

عندما ذهب، بدأت ليزي ترتّب البيت. عندما وقفت عند مدخل الباب، أراقب عربة السيد لويدز وهي تبتعد على درب العربات الطويل إلى الزقاق، سمعتها تفتح الأدراج والخزانات، تتحقق من الأغذية وأدوات المطبخ فيها. ملأت إبريق الشاي ووضعته على الموقد.

«يجب أن نشعر بالامتنان لأن الخزانة ممتلئة»، قالت وهي تفتح غطاء علبة الشاي المعدنية وتصبّ الماء المغلي في غلايّة الشاي قبل أن تلتفت إليّ. كنت ما أزال واقفة عند الباب.

«تعالي واجلسي يا إسمي». أمسكت ليزي ذراعي وقادتني إلى كرسي أمام طاولة المطبخ الصغيرة. بعد أن وضعت الكوب الذي يتصاعد منه البخار أمامي، لمست ذراعي، ونظرتْ في عينيّ، وقالت: «إنه حار، انتبهي»، كما لو كنتُ فتاة في الخامسة من عمري. كان لديها سبب لهذا التحذير.

بدت ليزي أطول قامة وجسدها أكثر استقامة. كان كوخ غوبليرز دينغل صغيرًا. في غياب سلطة السيّدة موراي وتعليمات السيّدة بالارد، بدت ليزي أكثر شجاعة وثقة بنفسها على نحو لم أره فيها من قبل إلَّا نادرًا. فقد راحت تستكشف كلّ زاوية وركن في الكوخ في محاولة لفهم خصائصه الغريبة المتعددة. لقد أصبحت سيّدة هذا المكان، قلت لنفسي في صباح اليوم الثاني، واخترقت الفكرة ضباب عقلي مثل شعاع ضوء، لكنّي سرعان ما توقفت عن التفكير في هذا الأمر.

جلستُ في المكان الذي طلبت مني ليزي أن أجلس فيه، ورحت أراقب حركتها التي لم تتوقف من حولي. فإذا وقفت، فذلك لأنها ساعدتني على الوقوف. لم أقاومها قط، لكنّي لم أكن قادرة على عمل أي شيء من تلقاء نفسي.

بعد وصولنا ببضعة أيام، جاء السيد لويد ووقف عند باب المطبخ يحمل بيده قالب كيك صنعته السيّدة لويد، وسلة بيض. اضطرت ليزي، مرة أخرى، على أن تتكلّم معه؛ استطاعت أن تقول ثلاث جمل بدلًا من الجملتين السابقتين.

في اليوم التالي، أرسل السيّد لويد ابنه تومي ليضرم نار الموقد. أصرّت ليزي على أن يتناول الشاي معنا، وراحت تسأله عن إمكانية التنزه في المنطقة.

«هناك درب يصعد مباشرة إلى التل حيث توجد أجمة من أشجار الزان»، قال وفمه مليء بقطعة الكيك التي صنعتها أمّه، «إنه وعر، لكن المشهد جميل، ومن هناك يمكنك الذهاب إلى المكان الذي ترغبين، لكن احرصي دائمًا على أن تغلقي البوابة».

***

انحنت ليزي لتعقد رباط حذائي؛ هذه الحركة المألوفة بالنسبة لي منذ سنوات. كانت حاسرة الرأس، وقد نما شعرها الرمادي من منتصف رأسها مثل أسلاك. لقد بدأت تتقدم في العمر، قلت في نفسي، لكنها كانت تكبرني بثماني سنوات فقط. كانت تبدو دائمًا أكبر سنًا. تساءلت إن كانت تتمنى أن تعيش حياة مختلفة، لو تخيّلت أن غوبليرز دينغل منزلها الصغير. تساءلت إن كانت تتوق لأن يكون لديها طفل، ربما لن تنجبه أبدًا.

خلع السيد لويد قبّعته ونظر في عينيها مباشرة عندما بدأ يكلّمها. كلّ ما تحتاجين إليه ميس ليستر.. تضرّج وجهها خجلًا، كما لو كانت هذه أول مرة يكلمها رجل بهذه الطريقة. لكنها تقدّمت في العمر الآن، قلت لنفسي؛ تقدمت في السن ولم يعد بوسعها أن تفعل شيئًا غير ما اعتادت على أن تفعله منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها. تنحني لتعقد رباط حذائي، تنحني لتنفذّ عملًا تلو الآخر استجابة لطلب شخص آخر. سقطت دمعة أو دمعتان من دموعي على شعرها، لكنها لم تلاحظ ذلك.

عندما وصلنا إلى الدرب، تبللت حواف تنورتينا بعد أن عبرنا الحقل الصغير إلى جانب الكوخ، وكنت قد بدأت ألهث. عندما كانت ليزي تحرص على إغلاق البوابة، كان يتاح لي وقت لأقيّم الطريق الوعر وغير المستوي كما حذّرنا تومي، وكانت قمة التلة - من يعرف كم يبلغ ارتفاعها- غير مرئية من خطّ الأشجار المتعرّج، وامتدت أغصان ملتوية تكسوها الطحالب فوق الدرب هنا وهناك، وأدركت أنه لا بد أن هذا الدرب لم يطرقه شيء أطول من خروف.. أردت أن أعود.

«هذا سيساعدك»، قالت ليزي وهي تصعد التل إلى جانبي تمسك بيدها عصا متينة.

حاولت أن أصيغ جملة يمكن أن تقنعها بأن تدعني أعود إلى الكوخ، لكنها هزّت رأسها رافضة، ودفعت العصا إلى يدي. لاحظت احمرار خدّيها من الجهد الذي بذلته، وعينيها اللامعتين. تمسكت بالعصا حتى تأكدت من أنني لن أتركها، كما لو كانت تمرر عصا في سباق تتابع. أحكمتُ قبضتي عليها، فتركتها. ثم التفتت وسارت أمامي حتى وصلنا إلى درب ضيّق.

شعرت بالارتياح عندما ابتعد الدرب عن الأشجار، وسار في طريق ملتوٍ لا يُسبر غوره عبر التلة، كما لو أن الأغنام التي صنعته حاولت التقليل من شدة

انحداره. كانت ليزي واثقة من أنها تسير في الدرب الصحيح، وكانت خطواتي تتعثر خلفها على نحوٍ متناغم. سرنا صامتتين حتى رأت ليزي سلّمًا صغيرًا.

قالت: «من هنا».

حاولت ليزي أن ترفع تنورتها لتصعد إلى السلّم الخشبي، لكن عندما أفلتت يدها لتتمسك بدرجة السلّم، سقط قماش تنورتها وعلقت في الخشب المتآكل. لم يخطر ببالي أن أُحضر معي تنورة لها شقّ، ولا هي أيضًا. كان عليَّ أن أعرف ذلك؛ فقد أمضيت سنة في إسكتلندا حيث كان المشي مصدر الراحة الوحيدة التي أستمدّها عندما كنت في تلك المدرسة الرهيبة، وكانت التنانير القصيرة ذات الشقّ جزءًا رئيسيًا من الزي المدرسي الرسمي. أما ليزي فلم تغادر أكسفورد قط، وهي التي حزمت أمتعتنا لكلينا.

بدأت ليزي تضحك، ثم قالت: «سنرتدي بناطيل غدًا».

«لا يمكننا أن نرتدي بناطيل».

فقالت: «لا يوجد لدينا خيار. فكلّ الثياب التي في خزانة الملابس في الكوخ ثياب رجالية»، وأضافت، «أنا متأكدة من أن أحدًا لن يمانع لو استعرناها».

في اليوم التالي، وضعت ليزي بنطالين على السرير لنرتديهما بعد الإفطار.

«هل ارتديتِ بنطالاً من قبل يا ليزي؟» سألتها عندما انضممت إليها في المطبخ.

«لم أرتدِ بنطالًا في حياتي قط»، قالت وهي تبتسم كما لو أنها تعرف المتعة التي بانتظارها.

كانت ليزي قد طهت طبقًا من الشوفان في الليلة الماضية على حرارة الموقد الواطئة، ووضعت فوقه قشدة طازجة كان السيّد لويدز قد طلبها لنا، وغطتها بقطع التفاح الذي كانت قد طهته قبل أن أستيقظ.

«كل شيء يؤلم»، قلت، وأمسكت حواف الكرسي لأجلس عليه.

فقالت ليزي: «أعرف، لكنه ألم نافع للصحة، وليس ألمًا مرهقًا».

«الألم هو ألم».

«لا أذكر يومًا لم أشعر فيه بألم في أي جزء من جسدي. هذه أول مرة يخطر لي أنه قد يكون دليلًا على شيء جيد، وليس مرضًا».

أخذت ملعقتي وحركّت التفاح والقشدة في العصيدة. أحسست بألم في مركز جسدي، حتى أنني لم أستطع أن أتحرك، لكن في ذلك الصباح، شعرت أنه أصبح أقل حدّة.

بعد أن تناولنا طعام الإفطار، ارتدت ليزي بنطالًا واسعًا وقميصًا أكبر من حجمها.

«إنهما كبيران جدًا عليك يا ليزي».

«لا شيء لا يمكن تثبيته بحزام»، قالت وراحت تبحث عن حزام في خزانة الملابس، «ولا يوجد هنا أحد ليطلق علينا أحكامًا؟»

«قد يأتي السيّد لويد في أي وقت».

تغيّر لونها قليلًا، لكنها هزّت كتفيها بلا مبالاة، وقالت: «لا يبدو أنه من ذلك النوع الذي يطلق أحكامًا على الآخرين».

كان بنطالي مفصّلًا لرجل أصغر حجمًا، أو ربما لنفس الرجل عندما كان أصغر سنًّا. فقد كانت الساقان قصيرتين، لكنهما أفضل حول الخصر. أصرّت ليزي على أن أرتدي قميصًا واسعًا أيضًا كي لا تضطر إلى غسل بلوزاتي كلّ يوم.

«توجد جوارب سميكة في الدرج»، قالت ليزي، «يحمي كاحليك من أن يُخدشا».

في المطبخ، انحنت ليزي وعقدت رباط حذائي، ثم عقدت رباط حذائها. وجدنا قبعتين معلقتين على خطاف وراء باب خزانة المؤن فوضعناهما على رأسينا. ثم أخذت العصا التي احتفظت بها من البارحة ووضعتها في يدي.

وقفنا أمام بعضنا، بعد أن ارتدينا كامل ثيابنا. تفحصتني ليزي، وقالت: «تبدين كأنك متشرّدة»، ثم نظرت إلى ثيابها واستدارت لأبدي إعجابي بها. ضحكت ضحكة خافتة، ثم استحالت الضحكة الخافتة ضحكة أعلى، ثم غلب عليها الضحك حتى دمعت عيناها وسال أنفها. كانت على صواب. فقد تخيّلت أهالي

أكسفورد وهم يلقون قطع خبز ونقود نحاسية في قبعاتنا. لم أضحك، لكنني لم أتمالك نفسي عن الابتسام.

***

بدأنا نخرج ونتمشّى بعد الإفطار وبعد ظهر كلّ يوم. كنت أسير وأنا أتكئ على العصا، لكنّ حاجتي إليها بدأت تخفّ عندما بدأت أشعر أنني أصبحت أقوى. لم أكن أعرف أنني كنت ضعيفة إلى هذه الدرجة، لكن السير والعصيدة التي تصنعها ليزي والكعك الذي ترسله لنا السيدة لويدز؛ أعادت شيئًا من الحيوية إلى نفسي. أصبحت أنام أقل وألاحظ أكثر.

لم يعد وجه ليزي يحمرُّ خجلًا عندما تتحدّث مع السيّد لويد؛ فقد أصبحت تنظر إلى عينيه مباشرة، وعندما كان يسألها عن شيء، أصبحت تبدي رأيها من دون أن تطرق بوجهها إلى الأرض. بعد أسبوع، بدأت السيّدة لويد تحضر قالب الكيك الذي تعدّه بنفسها، وكان يصحبها السيّد لويد أو تومي بعد الظهر وتبقى حتى بعد أن يوقد المدفأة. وأصبح من عادة ليزي أن تخبز قليلًا من البسكويت صباح كل يوم، وتعدّ المائدة استعدادًا لشاي بعد الظهر. كانت تعدّ المائدة لأربعة أشخاص، مع أن السيّد لويد كان يعتذر دائمًا عن تلبية دعوتها.
«سأمنعكما من قول ما تريدان قوله»، قال ذات يوم وهو يخرج من المطبخ ضاغطًا قبعته على بطنه، وانحنى إلى الوراء قليلًا كما لو كان يستأذن حضرة ملك.

ما إن يذهب، حتى تعدّ ليزي طبقًا مليئًا بالبسكويت وشرائح كبيرة من الكيك الذي صنعته السيّدة لويدز، ثم تضع الإبريق على الموقد حتى يغلي، وخلال ذلك، تُشغل نفسها بتجهيز أوراق الشاي والإبريق. وتبدأ السيّدة لويد الجالسة في الكرسي أمام الموقد، تستأنف حديثها من حيث توقفت البارحة. وكانت النكات تنتقل بينهما ذهابًا وإيابًا مثل لعبة كرة الريشة، كما لو كانت إحداهما تعرف الأخرى طوال حياتهما. شعرت أنني أرى ليزي كما ينبغي أن تكون.

وجدت نفسي أتساءل لماذا لم تقدّم السيّدة لويد يد المساعدة قط؛كان لديّ وقت كثير للتفكير، بعد أن أبعد تحفّظي كلّ المحاولات المهذبة للاندماج مع الآخرين. فقد رفضت كلّ الأسباب الواضحة: الوقاحة، والكسل، والإرهاق من العناية ببيتها وأطفالها الأربعة. وفي النهاية، قلت إنها اللطافة. فلم تكن السيّدة لويدز امرأة متطلبة، ولم تكن تراقب الشاي وهو يُصبّ من الإبريق لتقول إن كان خفيفًا أم كثيفًا؛ فقد كانت تقرّ ببساطة أن هذا هو مطبخ ليزي، كوخ ليزي الصغير، وأنها ضيفتها. لقد رأيت ليزي وهي تعدّ الشاي طوال حياتي، لكنها

كانت تعدّه دائمًا لعائلة موراي أو للسيّدة بالارد (التي تراقب الشاي دائمًا عندما تصبّه ليزي) أو لي: سيّدتها أو رئيستها أو المكلّفة برعايتي. صدمتني الفكرة. فلم أرْ ليزي مع صديقة قط.

بدأت أختلق أعذاري. بقدر طفيف من الاحتجاج، بدأت ليزي تعدّ المائدة لشخصين.

لقد صُممت شروبشاير كنوع من علاج شعوري بالاكتئاب. لم أستطع أن أفكر في الأمر بوضوح شديد قبل الآن، لكن عندما بدأ ثقل العيش من دونها يزداد عليَّ، أدركت أنني ربما ألقيت بنفسي في نهر شيرويل لو كان لديّ وقتٌ كافٍ لأفكّر في الأمر.

كان صعود التلة يتطلب مني مجهودًا، وكنت أعرف أنني لن أصل إلى القمة أبدًا دون أن أشعر بألم في رئتيَّ وساقيَّ، مهما بلغت لياقتي البدنية. كنت أشتكي منها في الأيام القليلة الأولى؛ أجلس وأبكي بسبب ضيق التنفّس الذي ينتابني، وبسبب أشياء أخرى. لم أكن أريد أن أبقى هنا، لكن ليزي لم تكن تسمح لي بأن أعود.

قالت: «إنه ذلك النوع من الألم الذي يحقق شيئًا».

فقلت وأنا أبكي، «يحقق ماذا؟».

قالت وهي تشدّني كي أقف على قدميَّ: «الزمن كفيل بذلك».

وفي ظهيرة أحد الأيام، وصلتُ إلى قمة التل من دون دموع أو تذمر. وقفتُ ووضعت يديَّ على وركيَّ، أتنشق الهواء البارد وأنظر إلى ما وراء الوادي باتجاه ويلز. كنت أرى هذا المشهد كلّ يوم منذ أسابيع، أما الآن، فقد رأيته لأول مرة، أنه جميل جدًا.

قلت: «أتساءل ماذا تُدعى هذه التلال».

فقالت ليزي: «تُدعى وينلوك إيدج، كما قال السيد لويد».

نظرت إليها بدهشة. تساءلت، ماذا تعرف أيضًا؟

بعد ذلك توقفت عن مراقبتي بدقة، وعندما تكون لديها حكايات أكثر مع السيّدة لويد تتطلب أكثر من إبريق شاي أحيانًا، كانت تدعني أخرج وأتمشّى وحدي بين التلال.

«أنا خادمة مملوكة للقاموس»، سمعت ليزي تقول للسيّدة لويد بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنت أنتعل حذائي الطويل.

«وتقولين إن إسمي الشابة واحدة من اللاتي يبحثن عن كلمات؟» سألت السيّدة لويد.

فضحكت ليزي ورمقتها بنظرة، وقالت وهي تغمزني: «يمكنك أن تقولي ذلك».

«لا أستطيع أن أفكّر في شيء أكثر مللًا من ذلك»، قالت السيّدة لويد، «هل تذكرين أنك اضطررت إلى أن تكتبي نفس الكلمة مرات ومرات إلى أن تصبح الحروف مائلة بنفس الطريقة؟ الأرقام تبدو منطقية أكثر بالنسبة لي لأن معناها لا يتغيّر أبدًا».

فقالت ليزي: «لم أجعل الحروف كلّها تميل بنفس الطريقة قط».

«هناك أشخاص كثيرون لم يفعلوا ذلك»، أجابتها السيدة لويد، ومدّت يدها وتناولت قطعة بسكويت أخرى.

أخذتُ عصا المشي المستندة إلى الباب.

«هل ستكونين على ما يرام؟» سألتني ليزي. كان صوتها خفيفًا، لكن عينيها يقظتان.

فقلت «نعم، استمتعا بالشاي».

بينما رحت أتسلق التل، تساءلت ما هو الحديث الذي يدور بين ليزي والسيّدة لويد الآن. كانت هذه أول مرة تخطر لي هذه الفكرة، وصُدمت عندما وجدت نفسي مستغرقة في التفكير في هذا الأمر. عندما مشيت، تباعدت الأغنام وتناثرت في الدرب، لكنها لم تبتعد كثيرًا. راحت تراقبني وأنا أمرّ، وتذكّرت الأعين المتفحصة عندما كنت أدخل إلى قاعة القراءة في كامبريدج. لم يكن ذلك يزعجني كثيرًا، وإنما شعرت بشيء من الانتصار كما لو أنني حققت إنجازًا.

***

نزلت ليزي من العربة، وقفز تومي خلفها. «سأجلب تلك يا ميس لستر»، قال وهو يمدّ يده إلى السلة المليئة بالسلع في الخلف.

«شكرًا يا تومي»، قالت له ليزي وراحت تراقبه وهو يأخذ السلة إلى المطبخ، ثم نظرتْ إلى السيّدة لويد، وقالت: «يا له من صباح جميل يا ناتاشا. من المؤكد أنني سأشتاق إلى نزهاتنا» .

ناتاشا! يا له من اسم غريب لزوجة مزارع. واصلت مراقبتهم من خلال نافذة غرفة النوم المفتوحة. اهتز جسد السيدة لويد عبر المقعد الأمامي للعربة الصغيرة وانحنت لأسفل لتضع يدها على خد ليزي المستديرة لأعلى، وسمعتها تقول: "بوستين" "Bostin". لم أعرف ما الذي تعنيه، لكن بدا أن ليزي تعرف معناها. غطّت يد السيّدة لويد بيدها كما لو كانت ممتنة لهذا التعليق. واصلتا وداعهما بنبرات أكثر هدوءًا. عندما رأيت تومي عائدًا إلى العربة، هبطتُ الدرج بسرعة لأودعهما وألوّح لهما بيدي.

ما إن عدنا إلى المنزل، حتى التفتُّ إلى ليزي، وسألتها، «ماذا كانت السيّدة لويد تقصد عندما قالت bostin؟»

استدارت ليزي نحو الموقد وهي تنتظر حتى يغلي الإبريق.

«أوه، إنها كلمة تَحَبُّب».

«لكنّي لم أسمع بها من قبل».

«ولا أنا»، قالت ليزي وهي تنقل كوبيْ الشاي من جانب الحوض حيث تركتهما ليجفّا في الصباح، «قالتها ناتاشا مرة أو مرتين، وسمعتها من أشخاص آخرين. حسبتُ أنها كلمة أجنبية، فسألتها من أين جاءت».

«ماذا قالت؟» بحثتُ في جيبي، لكنه كان فارغًا. صبّت ليزي الماء الساخن في الإبريق، ثم فتحت علبة الشاي لتضع أوراق الشاي في الإبريق.

«الكلمة من هنا، إنها ليست أجنبية على الإطلاق».

نظرت في أنحاء المطبخ، فلم أجد شيئًا أكتب عليه أو به.

«يوجد دفتر وأقلام رصاص في أعلى درج إلى جانب سريرك»، قالت ليزي وهي ترفع الإبريق وتديره لتدفئ جوانبه، «أحضريها أولًا».

كانت ليزي جالسة إلى الطاولة عندما عدتُ. كان البخار يتصاعد من كوبينا، وكان هناك صحن من البسكويت ومقصّ إلى جانب الإبريق.: «لنقصّ الصفحة بالحجم المناسب»، قالت ليزي

عندما أصبحتُ مستعدة، بدأت ليزي. تذكّرتُ مابل العجوز، والاحترام الشديد الذي كانت تبديه لهذه العملية. ما هو الشيء الذي كان يجعلهما تعتدلان في جلستهما وتفكران بعمق قبل أن تتكلما؟ لماذا كانتا تبديان كلّ ذلك الاهتمام؟

"بوستين"، نطقت بها ليـزي وهي تلفظ حـرف n بعنايـة،

"تعنـي: شـخص محبـوب، وجميـل" واحمـر وجههـا خجلًا

"هل يمكنك أن تذكريها في جملة"؟

"نعم أستطيع، لكن يجب أن تكتبي تحتها اسم ناتاشا".

"طبعا" سأفعل.

ليزا ليستر، صديقتي المحبوبة والجميلة

دونتها كاملة على القصاصة، ثم نزعت قصاصة أخرى.

"وmairt؟ ماذا تعني؟"

قالت ليزي: تعني "صديقة. ناتاشا هي صديقتي،

خمنت تهجئــة الكلمــة، وتوقعت بأمل أن أضيف هذه الكلمات الجديدة إلــى خزينتي. لقد مّر وقت طويل منذ أن فكرت في هذا الأمر.

غدًا سنغادر كوبلرز دينغل. سأشتاق إلى التلال الخضراء المتموجة. سأشتاق إلى الصمت والسكون. عندما وصلنا، وجدت المكان هادئًا جدًا، وكانت أفكاري صاخبة جدًا. لكن تبين لي أن الصمت لم يكن كاملًا: فقد كان الوادي يدندن ويغني ويثغو. عندما تُسمع أفكاري وتُناقش، وعندما يخيّم نوع من السلام، أبدأ

أنصتُ إلى الوادي كما ينصت أحد إلى موسيقى أو إلى ترانيم مقدّسة. كان هناك عزاء في إيقاعها يجعل قلبي يخفق ببطء.

في رأي ديتي، أصبحت أبدو أفضل. كانت رسائلها تصلني بانتظام، وإن لم أكن أرسل لها رسائل بانتظام في البداية. استعدتُ مؤخرًا عادة الكتابة لها، ومن الواضح أن كلّ ذلك دليل على تحسنّ صحتي. وكتبت ديتي أنها تلقت رسالة أخرى غير متوقعة من ليزي.

كتبتها السيّدة لويد. يا لها من شجاعة من ليزي أن تسأل. كتبتُ «كل شيء مرتفع أو عميق أو لا نهاية له - توجد أماكن كثيرة يمكنك زيارتها بنفسك، ومع ذلك فإن إسمي تعود كل مرة إلى البيت دون أن يبدو أنها حاولت». كم أتمنى أن يكون الجميع صريحين مثلها.

هل أشعر بأنني أفضل حالًا؟ قبل أن أذهب إلى شروبشاير، كنت أشعر بالانكسار كما لو أنني سأسقط من فوق سقالة لو أزيحت من تحتي. لم أعد أشعر بذلك الآن، لكن ثمة صدع رفيع في وسط جسدي، وظننت أنه لا يمكن رأبه. تذكّرت ليزي عندما اعتذرت للسيّدة لويد في أول زيارة لها لنا، عن الثلم الموجود في الفنجان.

«ثلم واحد لا يمنع من شرب الشاي»، قالت السيّدة لويد.

***

في نهاية آخر يوم لنا، اكتست السماء لونًا ورديًا، قلت في نفسي إنها هدية الوداع. أعدّت ليزي طبقًا للرحلة من الجبن والخبز ومخلل خيار حلو صنعته السيّدة لويدز، ووضعته فوق العشب إلى جانب الكوخ.

«الله موجود في هذا المكان»، قالت من دون أن تشيح بنظرها عن وينلوك إيدج.

«هل تظنين ذلك يا ليزي؟»

«نعم. إني أشعر بوجوده هنا أكثر مما كنت أشعر بوجوده في الكنيسة. فهنا يبدو كما لو أننا جُرِّدنا من ثيابنا كلها، وزالت البثور من أيدينا التي تكشف مكانتنا، ومن لهجاتنا وكلماتنا. إنه لا يهتم بكل هذه الأشياء. إن ما يهمّ هو من أنتِ في قلبك. لم أحبّه قط كما ينبغي لي أن أحبّه، أما هنا فقد أصبحت أحبّه».

«لماذا؟» سألتها.

«أظن لأن هذه أول مرة يلاحظني فيها».

لم يقل أحد منا شيئًا للحظات طويلة. تسللت أشعة الشمس من خلال شقوق غيمة طويلة وهبطت فوق وينلوك إيدج ولونغ ميند وراءها.. كانت إحداهما أشبه بظل للأخرى.

«هل تظنين أنه سيغفر لي يا ليزي؟» لم تكن أكثر من مجرد فكرة، لكنّي عرفت أنني قلت الكلمات.

لبثت ليزي صامتة، وخلّدت أخيرًا لونغ ميند ذكرى غروب الشمس، مخلّفة مشهدًا طبيعيًا من التلال الزرقاء. عندما نهضتْ ودخلتْ إلى الكوخ، أدركت أنني أحمل عبء مغفرتها . تخيّلت محنتها. أرادت أن تطمئنني، لكنها لم تستطع أن تكذب وقد أدار الله وجهه إليها.

الدندنة التي تملأ أذني منذ أن أنجبتها، والغشاوة التي أُسدلت فوق عينيّ، والثقل الذي أشعر به في ذراعيَّ وساقيَّ وثدييَّ، رُفعت كلها مرة واحدة. فقد أصبحتُ أسمع وأرى وأشعر بقوة إلى درجة أنها سرقت أنفاسي وبثت الذعر في نفسي. سرت رعشة في جسدي، رجفة برد مفاجئة. كانت هناك أوهى رائحة دخان فحم وأصوات طيور تنادي بعضها، صوت أغانيها واضحة ومميزة مثل أجراس كنيسة. كان وجهي مبللًا بالخسارة والحبّ والندم. وقد نُسج حوله كله خيط من شعور مخزٍ بالراحة والخلاص.

أخرجت ليزي بساطًا مزدانًا بجميع ألوان غابة خريفية. لفّته حول كتفيّ وشدّته بذراعيها الصلبتين.

«ليس هو الذي سيغفر لك يا إسمي»، همست في أذني، «لن يغفر لك أحد إلّاأنتِ نفسك».

تشرين الثاني (نوفمبر) 1907

ترجّلنا من القطار، أنا وليزي. وضعنا حقائبنا على الأرض، ورفعنا ياقات معطفينا لاتقاء برد شهر تشرين الثاني. كانت شروبشاير صيفنا الهندي، وبدأ الشتاء يغمر أكسفورد. بينما رحنا ننتظر عربة أجرة تقلّنا إلى سانيسايد، كان عليَّ أن أتذكّر أنه يوجد نهر متدفق وراء تلك المباني المشيدة من الأحجار الصلبة.

في سانيسايد، أوراق الأشجار القرمزية لا تزال تتدلى من شجرة الدردار التي تنتصب بين المَنْسَخ والمطبخ. وقفتُ أنا وليزي تحتها لنودّع بعضنا. كان في هذا الوداع شيء من الثقل، كما لو كنا سنغادر في اتجاهين مختلفين، بينما عدنا في واقع الأمر إلى أرض مشتركة ومألوفة لكلينا. لكن شيئًا قد تغيّر. فقد أصبحت ليزي مختلفة، أو لعلي بدأت أراها الآن بصورة مختلفة، امرأة تجاوزت حاجتي إليها. عندما غادرنا أكسفورد، كانت مكلفة برعايتي، كما دائمًا. أما الآن، فقد عانقت إحدانا الأخرى كصديقتين، وسرت الراحة في كلا الاتجاهين.

في شروبشاير، وجدت كلّ واحدة منا شيئًا تتوق إليه، لكن عندما ضممتها إليَّ، خشيت أن تكون ثقة ليزي الجديدة هشة جدًا وتعود لتعيش كما كانت تعيش في أكسفورد. كانت قلقة عليَّ، وقد عبّرت عن ذلك في فضاء عناقنا الهادئ.

«لا يتعلق الأمر بالمغفرة يا إسمي. لا نستطيع دائمًا أن نتخذ الخيارات التي نحبّها، لكن باستطاعتنا أن نحاول تحقيق أفضل ما يمكننا أن نرضى به. لاّ تشغلي بالك كثيرًا بهذا الأمر».

فتّشتْ في وجهي، لكنّي لم أستطع أن أمنحها ذلك الشعور بالطمـأنينة الذي تريده. ضممتها إليَّ بقوة أكثر قليلًا، لكنّي لم أعدها بشيء.

كانت السيدة بالارد متكئة على عكاز وتمسك باب المطبخ مفتوحًا لليزي. التفتتُ نحو المَنْسَخ. آن الأوان لنعود إلى حياتنا.

كلما عدتُ إلى البيت، بدا لي المَنْسَخ أصغر حجمًا. شعرت بالامتنان له عندما عدتُ من زيارتي إلى بيت ديتي: إنه يحيط بي، وطالما بقيت داخل جدرانه التي تحفّها الكلمات من كل جانب، شعرت بأنني محمية. أما هذه المرة، فكان الأمر مختلفًا. وقفت عند المدخل، لا تزال حقيبة السفر ثقيلة في يدي، وتساءلت كيف يمكن أن يكون لي مكان هنا.

كان هناك ثلاثة مساعدين جدد؛ جلس اثنان منهما إلى طاولة الفرز، ووضعت للمساعد الآخر طاولة جديدة قريبة جدًا من طاولتي. رآني أبي أحوم حول المكان، وارتسمت على وجهه ابتسامة هددت بأن تغمرني. دفع كرسيه إلى الوراء بسرعة حتى كاد ينقلب ويقع، عندما حاول أن يمسك به، طارت الأوراق التي يعمل عليها. وضعت حقيبتي على الأرض وهرعت لمساعدته، وانحنيت إلى أسفل طاولة الفرز وجلبتُ قصاصة سقطت تحت الطاولة، أعطيتها لأبي الذي أمسك بيدي ورفعها إلى شفتيه، وراح يفتّش في وجهي، كما فعلت ليزي منذ قليل.

هززت رأسي، وابتسمت له ابتسامة صغيرة. كان راضيًا، وكانت هناك أشياء كثيرة يريد أن يقولها، لكن كان هناك أشخاص كثيرون ينظرون إلينا. توقف العمل قليلًا حول طاولة الفرز، وشعرت بالغباء لأنني جئت مباشرة إلى المَنْسَخ بدلًا من أن أذهب إلى المنزل. كنت أعرف أن أبي يعمل، وخشيت أن أعود إلى البيت وهو فارغ.

شبك أبي ذراعي بذراعه وجعلني ألتفت نحو المساعدين الجدد.

«السيّد كوشينغ، السيّد بوب، هذه ابنتي إسمي».

نهض السيّد كوشينغ والسيّد بوب؛ أحدهما طويل أشقر، والآخر قصير أسمر، ومدّ كلّ منهما يده لمصافحتي، لكنهما سرعان ما سحبا يديهما ليتيح أحدهما للآخر فرصة مصافحتي أولًا. كانت يدي لا تزال معلقة بيننا بشكل محرج، من دون مصافحة. لو لم يكونا منشغلين بتقديم أحدهما على الآخر، لتساءلت إن كانا لا يريدان أن يلمسا بشرة ذائبة، لكنهما ضحكا، ثم حثّ أحدهما الآخر على أن يصافحني أولًا، واستمرت هذه المهزلة.

«انحنيا فقط للسيّدة الشابة وحاولا ألَّا يصدم أحدكما رأسه برأس الآخر»، قال السيد سويتمان من الجانب الآخر من طاولة الفرز، وأضاف، «هل ترين ما الذي يمكن أن يحدث عندما تغادريننا يا إسمي؟ يجب أن نتحمل الكوميديين في قاعة الموسيقى».

انحنى السيّد كوشينغ، الأطول قامة، معطيًا الفرصة للسيّد بوب ليأخذ يدي.

«حسنًا، هذا غش»، قال السيّد كوشينغ، «يا صديقي الانتهازي. الثروة تفضّل الشجعان».

بدأ كلّ من الشابين يخاطبني بالتناوب؛ كانا مسرورين بلقائي، وقالا إنهما سمعا كثيرًا عن عملي، وأعربا عن سعادتهما عندما حدّثهما أبي عن الأبحاث التي أجريتها من أجل كتاب ميس تومسون - كانا قد درسا كتاب (*تاريخ إنكلترا*) ذاك في المدرسة- وأعربا عن أملهما بأن تكون رئتاي قد استفادتا من الفترة التي أمضيتها في شروبشاير. تضرّج وجهي خجلًا من فكرة أنني كنت موضوع حديثهما، الصحيحة منها والكاذبة.

«سيكون الدكتور موراي سعيدًا برؤيتك ميس نيكول»، قال السيد كوشينغ، «البارحة فقط، ذكر بشكل عابر أننا نشغل ضعفيْ المساحة في الغرفة، لكننا ننتج نصف نسخة من التي تنتجها الشابة التي تجلس في الجزء الخلفي من المَنْسَخ. أخمّن أنه يقصدك أنتِ، وهذا من دواعي سروري»، وانحنى مرة أخرى.

سارع بوب إلى القول: «لم نشعر بالإهانة عندما قال ذلك، فنحن جديدان هنا، جئنا لنعمل خلال الفصل الدراسي، مكافأتنا لدراسة فقه اللغة. أظن أنني تعلّمت خلال الشهر الماضي أكثر مما تعلّمته خلال سنة في جامعة باليول، أيضًا أرفع قبعتي تقديرًا لك يا ميس نيكول».

تناهى إلينا صوت تنهيدة من الجزء الخلفي من المَنْسَخ. «إنك تعكّر صفو الهدوء يا سيّد بوب»، قال أبي مبتسمًا.

«تمامًا»، قال السيّد بوب، وأومأ هو والسيد كوشينغ نحوي، ثم عادا وجلسا على كرسييهما.

أمسكني أبي من مرفقي وقادني إلى الجزء الخلفي من المَنْسَخ.

«سيّد دانكورث، هل لي أن أعرّفك على ابنتي إسمي».

أنهى السيّد دانكورث التصحيح الذي يقوم به، ونهض من على كرسيه، وهزّ رأسه هزة خفيفة، وقال: «ميس نيكول».

عدما بادلته الإيماءة والتحية، عاد وجلس وراح يركّز على الصفحات أمامه قبل أن نغادر أنا ودا.

«ليس مؤقتًا»، قال أبي عندما ابتعدنا عن مجال سمعه.

***

في اليوم التالي، ازداد المَنْسَخ ازدحامًا. كان الدكتور موراي جالسًا إلى طاولة مكتبه المرتفع، وكانت إلسي وروزفريث موراي تتنقلّان بين الرفوف كما كانتا تفعلان غالبًا عندما يكون والدهما منهمكًا في العمل. رحبتا بي وعانقتاني. كان دفء ترحيبهما غير مسبوق، وغمرتني السعادة من أجل ذلك.

«أرجو أن تكوني بخير الآن يا إسمي»، قالت إلسي بصوت خفيض، وتساءلت ما القصة التي حُكيت لها. لكن قبل أن نبدأ حديثًا آخر، قاطعنا الدكتور موراي.

قال: «آه، جيد»، عندما رآني واقفة مع ابنتيه. جاء يحمل ورقة بيد، وكومة من القصاصات باليد الأخرى، وأضاف، «لقد سبّب اشتقاق كلمة prophesy (*يتنبأ*) شيئًا من القلق للسيد كوشينغ. من الواضح أين شرد في تفكيره». نظر السيّد كوشينغ إليَّ وهزّ رأسه موافقًا، ثم أضاف، «لعلك تستطيعين مراجعة الجهود التي بذلها وتُدخلين التصحيحات اللازمة؟ يجب أن تكون جاهزة للتنضيد بعد أسبوع»، وأعطاني الدكتور موراي الأوراق، ثم استدرك وقال: «ستكون رحلة جيدة على القدمين. إنها تجعل عالم المرء جيدًا، ألا توافقين؟»

فقلت: «نعم، يا سيدي».

نظر إليَّ كما لو أنه يحاول أن يحكم على صدق إجابتي، ثم استدار وعاد إلى مكتبه.

سرتُ حول طاولة الفرز، وقلت صباح الخير للسيّد سويتمان و «*بونان ماتينون*» للسيّد مالينغ، وأرخيت يدي فوق كتف أبي قليلًا. ربَت على يدي، وعندما استدار لينظر باتجاه الجزء الخلفي من المَنْسَخ، أدركت أنها بادرة مصالحة. لم أكد أستطيع أن أرى المكان الذي أعمل فيه والذي طالما أحببته وراء كتلة جسد السيّد دانكورث، الذي وُضِعت طاولته بشكل متعامد مع الطاولة التي أجلس إليها.

عندما اقتربتُ، رأيت سطح طاولتي مكدسًا بكتب وأوراق أعرف أنني لم أتركها عليه عندما غادرت منذ شهر. تذكّرت أن القصاصات التي تضم كلمات نسائية تقبع في داخلها، تنتظر أن تنضم إلى الكلمات الأخرى القابعة في الصندوق تحت سرير ليزي.. شعور بالقلق رفرف داخل صدري.

لا بدّ أن السيّد دانكورث قد سمع وقع خطواتي وأنا أقترب، لكنه لم يلتفت. وقفت إلى جانبه للحظة، أتأمله. كان ضخمًا، ليس بدينًا، وكان أنيقًا جدًا، يفرق شعره الأسود القصير من المنتصف في خط مستقيم، ولم تكن له لحية أو

شارب، أظافره مقلّمة مثل أظافر النساء.. لابدّ أنه اختار أن يجلس موليًا ظهره للجميع.

«صباح الخير يا سيّد دانكورث»، قلت له.

نظر إليَّ، وقال: «صباح الخير ميس نيكول».

«أرجو أن تنادني إسمي».

هزّ رأسه وعاد ينظر إلى عمله.

«سيّد دانكورث، كنت أتساءل إن كان بإمكاني أن أستعيد طاولتي؟» لم يبدِ أي إشارة بأنه سمع ما قلته، فقلت من جديد، «سيّد دانكورث، إني...»

«نعم، يا ميس نيكول، لقد سمعتك. إذا كان بإمكاني أن أنهي هذه العبارة، وسأفعل ما تطلبينه».

«نعم، بالتأكيد». وقفت أنتظر الإذن كي أواصل عملي. كم من السهل أن أعود إلى مكاني.

ظل مكبًا على أوراقه. من المكان الذي أقف فيه، كان بإمكاني أن أرى خطوطًا مسطرة مستقيمة على نسخة غير مرغوب فيها، وتصحيحات كُتبت بخط أنيق على الهوامش. كان مرفقه الأيسر مستندًا إلى الطاولة، ويده تفرك صدغه كما لو كان يغوي الكلمات لتخرج من دماغه. أدركت شيئًا من المكان الذي أقف فيه، فتحوّل انطباعي الأول عنه، الذي لم يكن جيدًا على الإطلاق، إلى شيء من الإيجابية.

مرّت دقيقة، ثم دقيقة أخرى.

«سيّد دانكورث؟»

سقطت يده بخبطة قوية على الطاولة، وارتفع رأسه فجأة. رأيت كتفيه يرتفعان وهو يأخذ نفسًا عميقًا وتخيّلت عينيه تتدحرجان نحو السماء. دفع كرسيه إلى الوراء وتحرّك بين طاولته وطاولتي. بالكاد كان هناك مكان يتسع له.

«دعني أساعدك»، قلت وأخذت كتابًا من على طاولتي وحاولت أن أنظر في عينيه.

أخذ الكتاب مني، وأشاح بعينيه، وقال: «لا حاجة إليه. يوجد نظام. أنا سأفعل ذلك».

أخذ آخر كتاب، وأنا ما أزال أنتظر، أمسّد تنورتي بأطراف أصابعي لأرى إن كان سيعود إلى طاولتي ويرفع الغطاء. للحظة، عدت بذاكرتي إلى المدرسة، أقف في رتل مع الفتيات الأخريات، مستعدات لتفتيش دروج مقاعدنا وجواربنا وسروالينا الداخلية. لم أكن أفهم لماذا كانوا يهتمون بذلك كثيرًا. عاد السيّد دانكورث إلى كرسيه، وأعادني صوت احتجاجه إلى المَنْسَخ. كان قد انتهى. أصبح سطح طاولتي عاريًا الآن، وامتد جدار من الكتب على طول الحافة الأمامية والجانبية لطاولة السيّد دانكورث. حاجز حقيقي.

جلستُ وفرشتُ كومة القصاصات لكلمة prophesy. رتبتها بحسب تواريخها، ثم أشرت إلى الملاحظات التي أعدّها السيد كوشينغ.

***

مضى أسبوع، وأصبح المَنْسَخ يبدو مثل صديق قديم عليّ أن أتعرّف عليه من جديد. كان السيّد بوب والسيّد كوشينغ ينهضان واقفين كلما دخلت إلسي أو روزفريث، ويتنافسان على مساعدتهما أو على كيل المديح والإطراء لهما. كانت ثرثرتهما تزعج الجميع تقريبًا ما عدا أبي الذي كان يكافئ اهتمامهما بي بابتسامات وإيماءات صغيرة. ولم يكن الدكتور موراي يشجع على ذلك كثيرًا، فقد قال: «أيها السادة، كلما ازداد عدد الكلمات التي تستخدمانها في إطراء السيدات، انخفض عدد الكلمات التي تقومون بتعريفها. إن استمرار استخدامكما للغة الإنكليزية يسيء إليها في حقيقة الأمر»، فيعودان إلى عملهما بسرعة.

أما السيّد دانكورث، فكان مختلفًا تمامًا. فقد كانت الكلمات الوحيدة التي تمرّ بيننا تدور حول الإزعاج الحتمي لأنني مضطرة للمرور إلى جانب منضدته لأصل إلى طاولتي. «المعذرة يا سيّد دانكورث»، «اعذرني يا سيّد دانكورث»، «حقيبتك يا سيّد دانكورث، ربما تستطيع أن تضعها تحت طاولتك كي لا أضطر لأن أمرّ من فوقها؟»

«إن عمله ممتاز»، قال لي أبي مساء أحد الأيام عندما كنت أعدّ العشاء. كانت خادمة قد بدأت تأتي أربعة أيام في الأسبوع، لذلك، كان علينا أن نعدّ ثلاث

وجبات عشاء بأنفسنا. أصبح كتاب (*التدبير المنزلي*) الذي كتبته السيدة بيتون مليئًا بالبقع من كثرة استخدامي له، وعلى الرغم من ذلك، لم أحرز أي تحسن في الطهو.

«إنه يمتلك عينًا ثاقبة يكتشف فيها بسرعة وجود عدم اتساق أو تكرار، وقلَّما يرتكب خطأً».

«لكنه شخص غريب الأطوار، ألا تظن ذلك؟» أحضرت سمكة القدّ المُقطَّعة إلى المائدة؛ حيث قبعت مثل بركة راكدة داخل حوافها المليئة بالبطاطا المهروسة.

«كلنا غريبو الأطوار بعض الشيء يا إسمي، مع أن المعجميين أكثر الناس غرابة».

«لا أظن أنه يحبني كثيرًا»، قدّمت طبق السمك لدا، ثم وضعتُ طبقي، وأضفت، «لا أظن أنه يحبّ الناس كثيرًا. إنه لا يفهمهم. يجب ألَّا تأخذي الأمر بشكل شخصي»، قال أبي وأخذ رشفة من الماء وتنحنح، ثم أضاف، «وماذا عن السيّد بوب والسيّد كوشينغ؟ كيف وجدتهما؟»

«لطيفان جدًا، ومضحكان بشكل ما». كنت قد طهوت سمكة القدّ أكثر من اللازم ولم أضع فيها كمية كافية من الملح. بدا أن أبي لم يلاحظ ذلك.

«نعم، إنهما شابان لطيفان، هل تفضّلين أحدًا على الآخر؟ قيل لي إنهما ينتميان إلى عائلتين جيدتين». أخذ رشفة أخرى من الماء، وأردف قائلًا، «أتساءل يا إسمي. هل أنت... أقصد، هل تفكرين...»

وضعتُ السكين والشوكة على المائدة ونظرتُ إليه. بدأت حبات عرق تتجمع على صدغيه. حلّ ربطة عنقه قليلًا.

«دا، ما الذي تحاول أن تقوله؟»

أخذ منديله وجفف جبينه، وقال: «كانت ليلي ستتدبر كلّ هذه الأمور».

«ستتدبر ماذا؟»

«مستقبلك، أمنك، الزواج وأشياء من هذا القبيل».

«*الزواج* وأشياء من هذا القبيل؟»

«لم يخطر ببالي قط أن هذا شيئًا ينبغي أن أرتّبه. ديتي عادة... لكن يبدو أن ذلك لم يخطر ببالها أيضًا».

«ترتيب؟»

«حسنًا، ليس ترتيبًا. إنه *تيسير*.» نظر إلى طعامه ثم عاد ونظر إليَّ. «لقد خذلتك يا إسمي. لم أكن أولي انتباهًا كبيرًا. لم أكن متأكدًا حقًا ما الذي يجب أن أهتم به، والآن...»

«وماذا الآن؟»

«والآن قد بلغتِ الخامسة والعشرين»، قال مترددًا.

حدّقت به. أشاح بعينيه. تناولنا الطعام بصمت لبعض الوقت.

«ما هي بدقة العائلة الجيدة يا دا؟»

استطعت أن أرى أنه شعر بالارتياح لتغيير الموضوع قليلًا.

«حسنًا، أظن أنها شيء يتعلق بالسُّمعة بالنسبة لبعض الناس، والمال بالنسبة لآخرين، وقد يكون التعليم أو الأعمال التجارية الناجحة بالنسبة لآخرين».

«لكن ماذا تعني بالنسبة لك؟»

مسح فمه بمنديل، ثم وضع سكينه وشوكته في الصحن الفارغ.

«حسنًا؟»

اقترب مني وجلس إلى جانبي، وقال: «الحبّ يا إسمي. الأسرة الجيدة هي الأسرة التي يسود فيها الحبّ».

هززت رأسي، وقلت: «شكرًا لله على ذلك، لأنني لا أمتلك التعليم ولا المال، وتتوقف سمعتي على الأسرار والأكاذيب»، ودفعت صحني بعيدًا محبطة. لم يكن السمك صالحًا للأكل.

«يا إلهي، يا فتاتي العزيزة. أعرف أنني خذلتك، لكنّي لا أعرف كيف أصلح الأمور».

«ألا تزال تحبّني بعد كل ما جرى؟»

«طبعًا أحبّك».

«إذن فإنك لم تخذلني». رفعتُ يده ورحت أداعب بشرته المكسوة بالنمش على قفا يده. كانت جافة، أما راحة يده وأطراف أصابعه فقد كانت ناعمة كالحرير. كانت دائمًا كذلك، وكنت أجد ذلك دائمًا شيئًا غريبًا. «لقد ارتكبتُ أخطاء يا دا، واتخذتُ خيارات، وأحد هذه الخيارات أنني لا أرغب في الزواج».

«هل هذا ممكن؟» سألني.

«نعم، أظن ذلك. لكن لم يكن هذا ما أردته».

«لكن يا إسمي، الحياة صعبة على النساء اللاتي لا يتزوجن».

«يبدو أن ديتي تأقلمت مع هذا الوضع، وتبدو إليانور برادلي سعيدة، وروزفريث وإلسي ليستا مخطوبتين، كما أعرف».

أمعن النظر في وجهي، محاولًا أن يفهم ما الذي أقوله، ماذا يعني. كان يصحح المستقبل الذي يرى أن يكون مستقبلي، يحذف حفل الزفاف، وزوج ابنته، والأحفاد. غشا حزن في عينيه. فكرت بها.

«أوه، يا دا». سقطت الدموع، ولم يمسح أحد منا خدّيه. «أعتقد أنني اتخذت القرارات الصحيحة. أرجوك، أرجوك، لا تتوقف عن حبّي. إنه أفضل شيء تفعله».

هزّ رأسه.

«عدني».

«أي شيء».

«لا تحاول أن تصلح الأمور. فأنت رجل معجمّيّ لامع، لكنك لستَ وسيط زواج».

ابتسم، وقال: «أعدك».

***

لفترة من الوقت، لم يعد المَنْسَخ مكانًا مريحًا. على الرغم من أنني لم أكن موافقة، ولم يعد أبي يشجع على جهودهما الرامية إلى إثارة إعجابي، لم يفهم السيّد بوب والسيّد كوشينغ بسرعة. «إنهما بطيئان قليلًا في كل شيء»، علّق أبي بابتسامة تشي بالاعتذار.

لكن السيّد دانكورث كان سبب عدم ارتياحي. فقبل أن يأتي، كانت طاولتي تحظى بقدر كبير من الخصوصية وفي موقع جيد. فقد كنت أؤدي عملي من دون تدخل من أحد، وعندما أريد أن أستريح قليلًا، كنت أنحني قليلًا إلى يميني لأرى طاولة الفرز ومكان الدكتور موراي. وإذا انحنيت أكثر قليلًا، فإني أرى كلّ من يدخل من باب المَنْسَخ ويخرج منه. أما الآن، فلم أعد أرى سوى جزء من كتفيّ السيّد دانكورث المنحنيين وشعره كله، عندما أنظر إلى يميني. بدأت أشعر أنني أصبحت سجينة.

ثم بدأ يراقب عملي.

كنت أقل المساعدين تأهيلًا في المَنْسَخ. حتى روزفريث كانت تتفوق عليَّ لأنها أنهت دراستها، لكن لم يجلب أحد ذلك إلى انتباهي؛ كما فعل السيّد دانكورث الذي كانت له طريقة خاصة في التعامل مع كلّ شخص في المَنْسَخ، وذلك استنادًا إلى المكانة التي يرى أنه يشغلها في التسلسل الهرمي؛ فقد كان ينحني أمام الدكتور موراي، ويبدي احترامًا كبيرًا لدا وللسيّد سويتمان، بينما يتجاهل السيّد كوشينغ والسيّد بوب لأنهما، كما أظن، كانا «مبتدأين». وكانت لديه ردة فعل غريبة تجاه إلسي وروزفريث.. لست متأكدة إن كان يميّز إحداهما عن الأخرى، لأنه لم ينظر في عينيّ أيّ منهما قط، لكنه كان يتحاشاهما كما لو كانا يمثّلان حافة يمكن أن يسقط منها. ولم يصحح أو يسأل أيًا منهما قط، وبدأت أفكّر أن اسم والدهما يحميهما من تدقيقه وازدرائه اللذين يحتفظ بهما لي.

«هذه غير صحيحة»، قال لي ذات يوم عندما عدت من فرصة الغداء. كان يقف إلى جانب طاولتي، يمسك بيده الضخمة ورقة مربعة صغيرة، عرفت أنها تهجئة مختلفة لكلمة كنت قد أضفتها في صفحة مسودة طباعة أقوم بتحريرها.

«عفوًا؟»

«بناء جملتك غير واضح. لقد أعدتُ صياغتها».

درتُ من حوله وجلستُ إلى طاولتي. لا بد أن ورقة مربعة جديدة قد ثُبتت على صفحة مسودة طباعة بخطّ السيّد دانكورث الدقيق. قال ما ينبغي أن تقوله، وحاولت أن أعرف مدى اختلافه عمّا كتبته.

«سيّد دانكورث، هل يمكنني أن أرى الأصل الذي كتبته أنا؟»

لم يجب، وعندما رفعتُ عينيَّ، رأيت أن الأوان قد فات.

كان واقفًا إلى جانب المدفأة، يراقب النار وهي تشتعل.

***

كانت زينة عيد الميلاد لا تزال تتدلّى من أغصان الأشجار، داخل البيوت وخارجها. عندما سرنا نحو سانيسايد، أشار أبي إلى كل نسخة مزخرفة كان يراها من خلال نوافذ غرف الجلوس على امتداد شارع سانت مارغريت رود. كنا قد اختلقنا لعبة كهذه ذات مرة، نبحث عن تلك المساحات لأضخم شجرة أو أكثرها سحرًا، نحاول أن نحزر ما هي الهدايا التي كانت موجودة تحتها، ومن هم الأطفال الذين سيهرعون لفتحها؟. لم أعد أرغب في أن ألعب هذه اللعبة الآن. فلم أحسب عيد الميلاد من بين خساراتي، لكن أصبح من الواضح أنني تخليت عنه عندما تخليت عنها. بينما كان أبي يحاول أن يخرجني من المزاج التأملي الذي هيمن عليّ، تساءلت ما الذي خسرته أيضًا؟.

عندما وصلنا لم يكن هناك أحد في المَنْسَخ. قال أبي إنه سيكون لنا وحدنا حتى يعود السيّد سويتمان والسيّد بوب والسيّد كوشينغ يوم الأربعاء. كانت عائلة موراي في إسكتلندا ولن تعود حتى السنة الجديدة، وسيبدأ المساعدون الآخرون في العودة في نهاية الأسبوع.

«والسيّد دانكورث؟» سألته.

فقال أبي «أول يوم اثنين من السنة الجديدة»، وأضاف، «لديك أسبوع كامل من دون أن يقف فوق كتفيك ويراقبك».

لا بدّ أن شعورًا بالارتياح قد ارتسم على وجهي. ابتسم، وقال: «ليست كلّ الهدايا التي توضع تحت الشجرة مغلّفة».

مضت الأيام القليلة التالية في جوٍ من الحنين إلى الماضي. ففي صباح كلّ يوم، نجمع الرسائل ثم أفرزها وأراجعها وأضعها على طاولة الشخص المرسل

إليه. وإذا كانت هناك قصاصات، فإنها تصبح عملي الصباحي.

عندما عاد السيد سويتمان، أمضى بضع دقائق وهو يذرع الغرفة ويلقي نظرة على طاولة الفرز والطاولات الأخرى الصغيرة، ثم قال أخيرًا: «قد يبدو كما لو أن كوشينغ وبوب قد خرجا الآن لفرصة الغداء، لكنّي أبلغت بشكل مؤكد بأنهما لن يعودا بعد اتفاق وديّ مع الدكتور موراي»، وأضاف، «فقد أحصى موراي مساهمتهما وكانت سلبية واقترح عليهما أن يبحثا عن عمل آخر في مجال المصارف. فقال بوب إنها نصيحة جيدة، وتصافح الجميع».

كان مكانهما إلى طاولة الفرز مليئًا بالأوراق والكتب.

«إذن هل يمكنني أن أرتب المكان؟» فتحتُ غلاف كتاب أو كتابين للتعرف على أصحابها.

قال السيد سويتمان: «فكرة ممتازة، وعندما تصبح نظيفة ومرتبة، فإنها ستصبح ملائمة للسيّد دانكورث تمامًا، ألا تظنين ذلك؟»

نظرتُ إليه، وسألته، «هل تظن أنه سيفضّل هذا المكان؟»

«كان موراي يريد أن يجلس دانكورث معنا، لكن كوشينغ وبوب كانا بحاجة إلى إشرافنا عليهما، ذلك لم يكن هناك مكان له. لا يوجد لديّ أدنى شك في أنك ستستعيدين سلامك وهدوئك قبل أن نكتسب كلنا عادة كتابة عام 1908 بدلًا من عام 1907».

لم أستعد سلامي وراحتي. فقد قال السيّد دانكورث إنه اعتاد على طريقته في العمل، وأن انتقاله إلى طاولة الفرز سيؤثر. طبعًا، قلت لنفسي. فإذا انتقل إلى هناك، سيصعب عليه أن يراجع ما أعمله.

ظل السيّد سويتمان يعرض هذا الاقتراح، وظل السيّد دانكورث متشبثًا بردّه بأنه مرتاح بالترتيب الحالي، شكرًا جزيلًا، مع هزة خفيفة برأسه.

***

عندما أصبحت الأيام أطول مع قدوم الربيع، اعتدل مزاجي. فقد بدأت أتطلع إلى أداء مهام خارج المَنْسَخ، وأخذت مسارًا مثلثًا بين سانيسايد والمطبعة ومكتبة بولديان.

كنت آخذ كتبًا من السلة الموضوعة إلى جانب الباب وأضعها في الصندوق في مؤخرة الدراجة عندما جاء الدكتور موراي إليّ..

«مسودات الطباعة المصححة للسيّد هارت، والقصاصات لكلمة romanity»، وأعطاني ثلاث صفحات مليئة بعلامات التحرير وحزمة صغيرة من القصاصات، مرتّبة ومرقّمة ومربوطة بخيط. بينما كنت أضعها في حقيبتي، لفت أحد التصحيحات انتباهي. يجب أن تنتظر. مشيت بدراجتي إلى شارع بانبري رود باتجاه شارع ليتل كلارندون.

كان شارع ليتل كلارندون عند ناصية الشارع من المطبعة، مكتظًا باستمرار. تركتُ دراجتي إلى جانب نافذة صالة الشاي، وجلست إلى إحدى الطاولات في داخل الصالة، وانتظرت النادلة لتحضر لي إبريق الشاي، ثم أخرجتُ مسودات الطباعة من حقيبتي. كانت هناك سبع صفحات مزدوجة؛ ثلاث صفحات من دا، وثلاث صفحات من السيّد دانكورث، وصفحة واحدة من ديتي. كانت صفحة ديتي مُجَعَّدة بسبب وضعها في مغلّف عادي، لكن مثل الصفحات الأخرى، كانت أطرافها مليئة بتعليقات ومفردات جديدة مكتوبة بخطّ يدها المألوف. كان الدكتور موراي قد أضاف ملاحظات أخرى إلى جانب ملاحظاتها، موافقًا أو غير موافق.. فقد كانت كلمته دائمًا هي الكلمة الأخيرة.

كانت الكلمة المصححة التي أبحث عنها قد أجراها دا، كلمة إضافية مثبّتة على حافة مسودة الطباعة. كان هناك خط مسطرة مستقيم فوق كل كلمة، أعاد السيد دانكورث كتابتها. متى؟ تساءلت. وهل يعرف أبي ذلك؟ أزلتها من مسودة الطباعة.

فتّشت في جيوب تنورتي، وسررت عندما وجدت عددًا صغيرًا من القصاصات الفارغة وعقب قلم رصاص. مثل التنورة، لم يُستخدم أيّ منها منذ فترة طويلة. أخذتُ قصاصة وأعدتُ كتابة العبارة كما كتبها دا، ثم أعدتها إلى مكانها الأصلي. دققتُ في مسودات الطباعة الأخرى التي تخص دا، ووجدت موضعين أو ثلاثة أو أربعة مواضع تدّخل فيها السيّد دانكورث.

عندما بدأت أعيد كتابة التعديلات الأصلية التي كان قد كتبها دا، بدأت ثقتي بنفسي تزداد مع كل كلمة، لكن عندما وصلت إلى آخر كلمة، تجمّدت يدي. كانت كلمة: *الأم*. ذكرت مسودة الطباعة المعنى الأول بأنها والدة، لكن السيّد دانكورث أضاف إليها عبارة، *امرأة أنجبت طفلًا*.

فتركتها.

تشرين الثاني (نوفمبر) 1908

رفعت ليزي بصرها وهي تعجن على طاولة المطبخ.

قالت: «رأيت وجهًا مضطربًا لم أره من قبل قط».

«لقد ارتكبت ثلاثة أخطاء صباح اليوم. إن ذلك يجعلني متوترة جدًا»، قلت وارتميت على الكرسي.

«دعيني أحزر. السيّد سويتمان»؟ السيد مالينغ؟ أم لعلك تتحدثين عن السيّد دانكورث؟»

بدأت ليزي تسمع هذا النوع من الشكوى منذ عودتنا من شروبشاير قبل سنة. أهرب إلى مطبخها كلما استطعت. كانت تستمع إليّ وهي لا تزال تعمل حولي، أما إذا تلقت رسالة من السيّدة لويد، فكانت تعدّ إبريق شاي وطبقًا من البسكويت خبزته في الصباح، وأنا أقرأ لها الرسالة بصوت عالٍ. كانت تكرر ذلك صباح كلّ يوم من تلك الأيام التي أمضيناها في شروبشايرٍ، وكنت أحرص دائمًا على ألّا أحشر نفسي بينها وبين صديقتها. كنت أقرأ الرسالة بعناية، من دون تعليق أو توقف، وعندما أنتهي، آخذ قلمًا وورقة من درج المطبخ، وانتظر ليزي حتى تصيغ ردّها الذي كان يبدأ دائمًا بعبارة *عزيزتي ناتاشا*.

أما اليوم، فلم تكن هناك رسالة ولا بسكويت. تناولت شطيرة من الطبق فوق طاولة المطبخ. «إنه يراقبني»، قلت وأنا أقضم الشطيرة.

رفعت ليزي حاجبيها بدهشة.

«ليس بتلك الطريقة. بالتأكيد ليس بتلك الطريقة. إنه لا يستطيع أن يقول صباح الخير، لكنه لا يتورع أن يقول لي إنني ارتكبت خطأً في القواعد أو

الأسلوب. قال لي هذا الصباح إنني تجاوزت حدودي في معنى كلمة psychotic (*ذُهاني*)؛ في رأيه أن الإناث يَنْحُونَ إلى المبالغة، لذلك ينبغي عدم توظيفهن في الأعمال التي تتطلب الدقة».

«وهل تجاوزت حدودك؟» قالت تستثيرني.

فأجبتها بابتسامة، «لا، لم أفعل ذلك قط».

واصلت ليزي عجن العجينة.

«عندما عدت من فرصة الغداء البارحة، ترك على طاولتي نسخة من كتاب *قواعد هارت*. ووضع ملاحظات على التصويبات التي أجريتها مع أرقام الصفحات التي يجب أن أشير إليها لتحسين تصويباتي».

«هل كتاب *قواعد هارت مهم؟*»

«إنه مخصص للمنضّدين والقارئين في المطبعة، لكنه يساعد على التأكد من أن جميع الذين يعملون في القاموس يكتبون بنفس الطريقة، مستخدمًا نفس تهجئة الإملاء».

«هل تقصدين أن هناك عدة طرائق في الكتابة وتهجئة الكلمات؟»

«أعرف أنها تبدو مثل كلمة codswallop (هراء)، لكن نعم، يمكن أن يسبب أصغر شيء أكثر المناقشات جدلًا»

ابتسمت ليزي وقالت: «وماذا يقول *كتاب القواعد عنها؟*»

«لا شيء. إنها ليست كلمة شائعة».

«لكنكِ كتبتها في قصاصة. أتذكّر أنك فعلت ذلك، هنا على هذه الطاولة».

«لأنها كلمة ممتازة».

«هل أفاد؟ عندما أعطاك *كتاب القواعد؟*»

«لا. أصبح يجعلني أشكّ في كل شيء؛ فقد بدأت الأشياء المتأكدة منها تبدو مضطربة فجأة وأشكّ بها. وبدأت أبطئ في عملي وأرتكب أخطاءً أكثر».

شكلت ليزي العجينة ووضعتها في علبة من الصفيح، ثم رشّت قليلًا من الدقيق.. كانت واثقة وهي تفعل ذلك، كما كانت واثقة من كل ما تحتاج إلى عمله في المطبخ. ومنذ أن وقعت السيّدة بالارد آخر مرة، لم تعد تأتي إلّا لإعداد شواء يوم الأحد، وتسجّل قوائم الطلبات الأسبوعية، وأصبحت ليزي تفعل كلّ شيء، مع أن عدد أفراد عائلة موراي أصبح أقل بعد أن كبر جميع الأطفال وغادر معظمهم البيت. كانت خادمة تأتي أحيانًا لتساعدها في أعمال المنزل.

«هل سترافقينني إلى السوق يوم السبت؟» سألتني ليزي بحرص، «العجوز مابل تسأل عنك».

مابل. لم أرها منذ ذلك الحين... الفكرة لن تتشكل من تلقاء نفسها. منذ متى؟ منذ أن طلبت منها مساعدة؟ منذ أن ذهبت إلى بيت ديتي؟ منذ أن ولدتها؟ هذا ما كان يحدث كلّما فكّرت في آخر زيارة لمابل. كانت لحظة فارقة في الزمن، وكلما تذكرتها أفكّر *فيها*. أتساءل كيف احتفلت سارة وفيليب بعيد ميلادها الأول. ما الهدية التي قدماها لها بمناسبة عيد الميلاد. تصوّرتها تمشي، وتمنيت لو أنني كنت قد سمعت أول كلمة تنطقها.

«تركت لك كلمة»، قالت ليزي، فرفعت عيني ونظرت مجفلة. للحظة لم أكن متأكدة عمّن تتحدّث. «تقول إنها تحفظها. لم أسألها، لكنّي لا أظن أن مابل تشتاق إلى هذا المكان».

***

استيقظت في الصباح الباكر، وارتديت ثيابي من دون عناية. شعرت بالتوتر لأنني سأرى مابل، شعرت بالخجل لأنني لم أرها منذ زمن. عندما انهالت رسائل بريد الصباح من الشق في الباب، شعرت بالسعادة لأصرف انتباهي قليلًا؛ كانت إحدى القصاصات البريدية التي ترسلها تيلدا من حين لآخر. كانت الصورة في المقدمة صورة مجلسيْ البرلمان في ويستمنستر.

2 تشرين الثاني (نوفمبر) 1908

عزيزتي إسمي

كنتِ قد أخبرتني ذات يوم أنك تتمنين أن يكون شعارنا «أقوال لا أفعال» بدلًا من «أفعال لا أقوال»، وقد ضحكت على سذاجتك. لكن عندما سمعت بأن موريل ماترز قد قيّدت نفسها بسلسة في الموقد على الحاجز في رواق السيدات في مجلس العموم، لم أستطع إلَّا أن أفكّر فيك.

كان ذلك عملًا عبقريًا لجذب الاهتمام (أنا متأكدة من أن السيدة بانكهورست تتمنى لو أنها فكّرت في ذلك)، لكن كلماتها هي التي حركت العقول. فهي أول امرأة تتحدّث في مجلس العموم، وكانت كلماتها ذكية وفصيحة. قد لا يسجلّها هانسارد، لكن الصحف سجلتها. من الواضح أنها امرأة أسترالية. لعل حقها في التحدّث في برلمانها هو الذي منحها الثقة لتلقي كلمة في برلماننا.

قالت: «لقد جلسنا وراء هذا الحاجز المهين منذ زمن بعيد، وقد آن الأوان لكي تُمنح المرأة في إنكلترا صوتًا لسنّ التشريعات التي تؤثّر عليها بقدر ما تؤثّر على الرجل. إننا نطالب بحقها في التصويت».

«اسمعوا، اسمعوا» يجب أن نصرخ جميعًا.

محبتي

تيلدا

أستراليا، قلت في نفسي. ستصبح قادرة على التصويت. وضعت البطاقة البريدية في جيبي وتمنيت أن التفكير فيها بأن تعيش حياة أفضل في الطرف الآخر من العالم يحميني من الشعور بالندم.

***

توقفتُ أنا وليزي في وسط حشد الصباح المتدافع أمام كشك الفواكه.

«لدي قائمة طويلة»، قالت ليزي، «سأراك بعد قليل».

ذهبتُ، لكني بقيت واقفة في مكاني للحظة. رأيت كشكًا مائلًا، كان مثيرًا للشفقة في فقره وافتقاره إلى المواد الموجودة فيه، بينما كانت دلاء وأصص السيّدة ستايلز المليئة بالأزهار، بعكسها تمامًا.

اقتربت أكثر، وأقرّت مابل بوجودي بهزّة برأسها كما لو أنها رأتني البارحة. كانت أشبه بهيكل عظمي ملتفة في تلك الخرق، وكان صوتها صدى لنفسه. ما هذا النَفَس الذي يقرقر في صدرها؛ رطبًا وخطيرًا. عندما انحنيت لأسمع ما الذي ستقوله، كان تسوّس أسنانها طاغيًا. كان كلّ ما تبقى معروضًا فوق صندوقيها؛ أشياء قليلة مكسورة وثلاثة عصي منحوتة. كنت قد رأيت واحدة منها في زيارتي الأخيرة لها منذ أكثر من سنة. كانت رأس رجل منحوت بدقة.

رفعتها وسألتها، «هل هذه أنتِ يا مابل؟»

فهمست: «في الأيام الأفضل».

أما العصوان الأخريان فكانتا محاولتيْ نحت فاشلتين، صنعتهما يدان لا تكادان قادرتان على أن تمسكا سكينًا. عندما رفعتهما وأدرتهما نحوي، حزنت عندما عرفت أنهما آخر الأشياء الموجودة لديها.

«ألا يزال ثمنها بنسًا واحدًا؟»

أصيبت بنوبة سعال قوية وبصقت في خرقة، ثم استطاعت أن تقول: «إنها لا تساوي بنسًا واحدًا».

أخرجتُ ثلاث قطع معدنية من محفظتي ووضعتها على الصندوق.

«تقول ليزي إنك تريدين أن تقولي لي شيئًا».

هزّت رأسها. عندما أخرجت قصاصاتي وقلم رصاص، مدّت يدها إلى ثنايا ثيابها. أخرجت مابل حفنة من القصاصات ووضعتها فوق الصندوق بيننا، ثم أدارت وجهها إلى وجهي وأصدرت صوتًا جعلني أظن أنها ستبصق مرة أخرى. لكنها كانت ضحكة، عيناها النديتان تبتسمان.

«لقد ساعدتني»، قالت مابل وهي تنظر إلى السيّدة ستايلز التي كانت تسوّي دلاء الأزهار، «قلت لها إني أغلق فمي عندما تأتي سيدات ليتشممن أزهارها. قلت لها إن ذلك أفضل من أجل العمل. يجب أن توافق». ومرة أخرى، ضحكت ضحكتها المليئة بالرذاذ.

التقطتُ القصاصات؛ كانت مجعّدة ووسخة، كان حجمها مناسبًا كُتبت فيها أشياء تشبه الأشياء التي كنت سأكتبها.

«متى؟» سألتها.

«عندما سافرتِ. ظننت أن هذه ستجعلك سعيدة عندما تعودين. مهما حدث»، ومدّت يدها إلى ملابسها مرة أخرى، وقالت: «لقد احتفظتُ بهذه لك أيضًا».

منحوتة أخرى ذات تفاصيل رائعة. مألوفة.

قالت مابل: «تالييسن». أخرجت قطعة أخرى من النقود من محفظتي.

«لا، أيتها الشابة» قالت مابل وهي تلوح بالنقود، «إنها هدية».

كنت أتجنب مابل، لكن حالتها الآن، هذا اللطف وسببه أوقعني في كمين. شعرت أنني مشلولة وغير قادرة على أن أوقف سيل الذاكرة؛ مثل إناء، ملأني الحزن حتى لم يعد يتسع وبدأ يفيض ويبلل وجهي.

«سمعت أنه كان لديك morbs»، قالت مابل، رافضة أن تبعد عينيها عني، «إنه شيء طبيعي».

وصلت ليزي في تلك اللحظة ووقفت إلى جانبي، تحمل بيدها منديلًا. وضعت ذراعها فوق كتفي، وقالت: «ستكون مابل على ما يرام»، أساءت فهم ما قالته لي مابل، «أليس كذلك يا مابل؟»

حدّقت مابل بي للحظة أطول، ثم وضعت يدها على ذقنها متخذة وضعية شخص يفكّر. بعد لحظة، قالت: «لا، لا أظن ذلك». وكما لو أنها تريد أن تؤكد على فكرتها، تحوّلت الكلمة الأخيرة إلى سعال عنيف مليء بالبلغم حتى ظننت أنه سيضعضع عظامها، كان ذلك كافيًا لأعود إلى نفسي.

«كفى مزاحًا»، قالت ليزي ووضعت يدها برفق على ظهر مابل.

عندما توقفت مابل عن السعال وجفت دموعي، سألتها، «morbs؟ ماذا تعني يا مابل؟»

«إنها حزن يأتي ويذهب»، قالت، ثم صمتت قليلًا لتلتقط أنفاسها، «أنا أحزن، أنتِ تحزنين، حتى ميس ليزي هنا تحزن، لكنها لا تعبّر عن ذلك لأحد، أظن أنه قَدَر المرأة».

«لا بدّ أنها مشتقة من كلمة morbid (*سقيم، عليل*)» قلت لنفسي عندما بدأتُ أكتبها في قصاصة.

فقالت مابل: «أظن أنها مشتقة من كلمة grief (*حزن، كآبة*) بسبب ما فقدناه وما لم نحصل عليه قط ولن نحصل عليه أبدًا. كما قلت، إنه قَدَر المرأة. ينبغي أن تكون في قاموسك. من الشائع جدًا أنها غير مفهومة».

غادرنا أنا وليزي السوق المغطاة، تدور في رأس كلّ منا أفكارها، فقد صُدمنا من حالة مابل.

«أين تعيش؟» شعرت بالخجل لأنه لم يخطر لي أن أسألها من قبل.

فقالت ليزي: «في دار العجزة في شارع كولي رود. إنه مكان بائس مليء بالبؤساء».

«هل ذهبت إلى هناك؟»

«لقد أخذتها إلى هناك بنفسي. وجدتها نائمة في الشارع، وقد تكدست كومة من الخرق فوق صندوقها ذاك. حسبتُ أنها ميتة».

«ماذا بإمكاني أن أفعل؟»

«استمري في شراء منحوتاتها وكتابة كلماتها. ليس في استطاعتك أن تغيّري الواقع».

«هل تظنين ذلك حقًا يا ليزي؟»

نظرت إليَّ، قلقة من هذا السؤال.

وتابعتُ، «من المؤكد أن الأمور قد تتغير إذا أراد عدد كافٍ من الناس أن يفعلوا ذلك»، ثم حدّثتها عن الكلمة التي ألقتها موريل ماترز في البرلمان.

«لا أستطيع أن أرى شيئًا يمكن أن يتغيّر بالنسبة لأشخاص مثل مابل. كل هذه الضجة التي يثيرها الذين ينادون بحق المرأة في التصويت، ليست للنساء مثلي ومثلها، إنها للسيدات الغنيات اللاتي يردن دائمًا أن يقوم شخص آخر بتنظيف أرضية بيوتهن وإفراغ قدورهن». كان في صوتها نبرة قلّما سمعتها

منها، وأضافت، «حتى لو حصلن على حقّهن في التصويت، فإني سأظل bond-maid عند السيدة موراي».

bond- maid (أَمَة، خادمة مملوكة) إذا لم أجدها وأشرح معناها، فهل سترى ليزي نفسها بصورة مختلفة؟

قلت: «إذا استطعتِ، هل تغيّرين الأشياء».

هزّت ليزي كتفيها بلا مبالاة، ثم توقفت قليلًا لتضع حقائبها على الأرض. فركت يديها في المكان الذي تركت فيها المقابض أخاديد حمراء. كانت حقيبتي أخف وزنًا، لكنّي فعلت الشيء نفسه.

«أتعرفين؟» قالت، عندما واصلنا السير، «تظن مابل أن كلماتها ستُكتب في القاموس، وسيوضع اسمها أمام تلك الكلمات. سمعتها تتبجح بتفاخر للسيدة ستايلز، لكني لم أجرؤ على أن أقول لها إن ذلك لن يحدث».

«لماذا تظن ذلك؟»

«لماذا لا تظن ذلك؟ فأنتِ لم تخبريها أن ذلك لن يحدث».

كانت خطواتنا بطيئة، وعلى الرغم من الطقس البارد، سالت بضع قطرات من العرق على وجه ليزي. فكّرت في جميع الكلمات التي جمعتها من مابل ومن ليزي ومن نساء أخريات: نساء يفرغن أحشاء السمك أو يقصصن القماش أو ينظفن حمامات عامة للسيدات في شارع مجدلين. كنّ يعبّرن جميعهن عن آرائهن بكلمات وعبارات تلائمهن، وكن يقفن باحترام شديد عندما أكتب كلماتهن على قصاصات؛ كانت هذه القصاصات ثمينة جدًا بالنسبة لي، فخبأتها في الصندوق للحفاظ عليها. لكن خبأتها ممن؟ هل أخشى أن يراها أحد ويجد أنها غير مناسبة؟ أم أنني أحتفظ بهذه المخاوف لنفسي؟

لم أحلم قط أن لدى النسوة اللاتي أعطينني هذه الكلمات أي آمال تتجاوز القصاصات التي أكتبها عليها، لكن أصبح من الواضح فجأة أن أحدًا غيري لن يقرأها، ولن تُنصّد أسماء النساء المكتوبة عليها. ستضيع كلماتهن وأسماؤهن ما إن أبدأ أنساهن.

لم يكن (قاموس الكلمات المفقودة) الذي أعدّه أفضل حالًا من ذلك الحاجز في رواق السيدات في مجلس العموم؛ فهو يحجب ما تنبغي رؤيته، ويُسكت ما ينبغي سماعه. عندما ترحل مابل وأرحل أنا، لن يعود الصندوق أكثر من كونه نعشًا.

***

ثم، عندما صعدت إلى غرفة ليزي، فتحتُ الصندوق ووضعتُ كلمات مابل بين التصحيحات التي أدخلها السيّد دانكورث سرًا. فوجئت بعدد القصاصات التي جمعتها.

منذ أن اكتشفت تصحيحات السيّد دانكورث غير الرسمية، أصبحت أتحقق من مسودات الطباعة قبل أن أسلّمها إلى السيد هارت، مع أنني لم أكن أزيل التصحيحات التي وضعها السيّد دانكورث إلّا إذا رأيت أنها لا تضيف شيئًا إلى التعديل الأصلي.

بدأت أراقبه. أراقبه عندما يفتش في الأرفف عن قصاصات أو عن كتب، أو عندما يتشاور مع الدكتور موراي، أو عندما يجلس إلى طاولة الفرز ليسأل أحد المساعدين الآخرين سؤالًا. كنت أراه يختلس النظر إلى ما يقومون به، لكنّي لم أره قط يضع على عملهم إشارة بقلمه الرصاص.

في صباح أحد الأيام، وصل السيد دانكورث في وقت مبكر إلى المَنْسَخ بينما كنت أنهي فنجان الشاي مع ليزي. كان أبي قد ذهب مع الدكتور موراي ليحضرا اجتماعًا مبكرًا مع المحررين الآخرين في مكتبة أشموليان.

رأيت السيد دانكورث يدخل إلى المَنْسَخ، وبدأ يقلّب في مسودات الطباعة المحررة التي تنتظر وضعها في السلة إلى جانب الباب. قلت: «ليزي، انظري»، فاقتربت من نافذة المطبخ؛ رأينا السيّد دانكورث يأخذ مسودة طباعة من الكومة وأخرج قلم رصاص من جيب صدره.

«إذن، أنتِ لستِ الوحيدة التي لديها أسرار في السكريبي».

كنت قد قررتُ أن أحتفظ بسرّ السيّد دانكورث.. أحببته رغمًا عني أكثر من قبل لأنه يفعل ذلك.

نظرتُ الآن إلى داخل الصندوق ورأيت كلمات مابل في يد السيد دانكورث الأنيقة. لا بدّ أنها ستحبّ ذلك، قلت لنفسي، أما هو فلن يحبّ ما سيقرأه. قرأت

قصاصات لا على التعيين، من قصاصاته وقصاصاتها. ليس تمامًا، كان قد كتب في الزاوية العليا من قصاصة عرفت أن السيد سويتمان هو الذي كتبها.. يبدو أن التعديلات التي أدخلها هي الوحيدة التي لم ينتبه لها الدكتور موراي الدقيق. وضع السيّد دانكورث خطًا فوق التعريف وأعاد كتابته، لم يعد دقيقًا في رأيي، مع أنه اختصر كلمتين. كنت قد أعدت كتابة تعريف السيّد سويتمان الأصلي، ووضعت تصحيح السيّد دانكورث في جيبي. كانت تتناقض تمامًا مع قصاصات مابل المليئة بالأخطاء الإملائية والمكتوبة بأسلوب طفولي. لا بد أن السيّدة ستايلز قد بذلت جهدًا كبيرًا حتى صاغتها.

أعدت قراءة المعنى الذي كتبته لكلمة morbs. ليس تماما، قلت في نفسي. لم تكن مابل morbid(*عليلة*) ولا أنا كذلك. حزينة، نعم، لكن ليس دائمًا. أخرجت قلم رصاص من جيبي، وأدخلت التصحيح.

MORBS

.A temporary sadness

I get the morbs, you get the morbs, even Miss Lizzie ’ere gets the morbs . . “
”.. A woman’s lot, I reckon

Mabel O’Shaughnessy, 1908

(حزن مؤقت.

«أنا أحزن، أنتِ تحزنين، حتى ميس ليزي هنا تحزن... أظن أنه قَدَر المرأة»

مابيل أوشوغنيسي ، 1908)

وضعتُ القصاصة في الصندوق ووضعت منحوتة تالييسن في الأعلى.

***

في يوم السبت التالي، رافقتُ ليزي إلى السوق المغطاة مرة أخرى. كالعادة، كان مزدحمًا، لكننا شققنا طريقنا بين جموع الناس.

«ماتت» صاحت السيّدة ستايلز من كشكها عندما رأتنا قادمتين، «أخذوها بالعربة البارحة».

نظرت السيّدة ستايلز للحظة في عينيَّ، ثم انحنت لترتب أصيص قرنفل. التفتُ أنا وليزي نبحث عن مابل.

«كانت قد توقفت عن السعال. قلت في نفسي إنه الصمت المبارك، ثم ساد الهدوء». توقفتْ قليلًا عن ترتيب الأزهار وأخذت نفسًا عميقًا جعل القماش يتمدد فوق ظهرها المحني. ثم وقفت تواجهنا، وقالت: «كانت المسكينة قد ماتت منذ ساعات». نقلّت السيّدة ستايلز نظرها مني إلى ليزي ثم عادت تنظر إليَّ، لم تتوقف عن مسح يديها بمئزرها، فمها مشدود حول أدنى رعشة، «كان من المفترض أن ألاحظ ذلك منذ فترة».

اختفى المكان الذي كانت تشغله مابل للتو، وتمددت الأكشاك المجاورة وملأت الفراغ الذي تركته. وقفت هناك لمدة دقيقة أو ساعة، لا أعرف أيهما، وبذلت جهدي لأتخيّل كيف كانت مابل وصندوقاها اللذان تضع عليهما بضاعتها تتسع في ذلك الحيّز الضيّق، وبدا أن أحدًا من المارة لم يلاحظ غيابها.

أيار (مايو) 1909

عندما انتقل السيد دانكورث إلى طاولة الفرز، شعرت كأن مشدًّا ضيّقًا جدًا يلتف حولي قد أرخي أخيرًا وأصبح فضفاضًا. كانت إلسي هي التي جعلت ذلك يحدث.

«أتعرفين يا إسمي» قالت في صباح أحد الأيام، عندما حاولت أن أقترح عليها كلمة معينة قد تحتاج إلى عين مدربة وأكثر مهارة من عيني، «إن كلّ من يساهم بنسخة في القاموس يترك أثرًا له، مهما كان أبي أو السيد دانكورث يرغبان في أن يكون العمل متسقًا ومتجانسًا. حاولي أن تأخذي تعليقات السيّد دانكورث على أنها مجرد اقتراح، وليست رأيًا حاسمًا».

بعد أسبوع، سمعتها تعلّق بأنه أصبح من الصعب عليها أن تصل إلى بعض الرفوف بسبب قرب طاولة السيّد دانكورث منها. بعد ظهر ذلك اليوم، تحدّث الدكتور موراي مع السيد دانكورث، وعندما جئت في اليوم التالي، رأيت السيد دانكورث جالسًا إلى طاولة الفرز قبالة السيّد سويتمان، يفصل بينهما حاجز من الكتب المكدسة.

قلت: «صباح الخير يا سيّد سويتمان ويا سيّد دانكورث».

ابتسامة من أحدهما، وإيماءة من الآخر. كان السيّد دانكورث لا يزال لا ينظر في عينيّ مباشرة. بعد أن أزيحت طاولته، أصبحت طاولتي مرئية خلف أحد الرفوف.

جلستُ ورفعتُ غطاء الطاولة. كانت أطراف الورقة التي تحفّها في الداخل مجعّدة، لكن الورود ظلت صفراء كما كانت. بينما كنت أمرر أصابعي فوق الأزهار، رحت أعدّ السنوات منذ أن جلست إلى هذه الطاولة لأول مرة. هل كانت تسع سنوات أم عشر سنوات؟ لقد حدثت أشياء كثيرة خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من ذلك، فلم أحرز أي تقدم.

«حسنًا، يبدو ذلك مألوفًا»، قالت إلسي، «أتذكّر أننا فعلنا ذلك منذ فترة طويلة».

للحظة لبثنا صامتتين، كما لو أن إلسي أيضًا أدركت فجأة أن الوقت قد مرّ بسرعة. لم أفكّر كثيرًا في حياتها خارج المَنْسَخ أو حياة روزفريث. فقد أصبحتا مساعدتين لأبيهما منذ أن كانتا صغيرتين. إني أحسدهما الآن، كما حسدتهما دائمًا، لكنّي بدأت أتساءل الآن إن كان هذا ما تطمحان إليه، أم أنهما قبلتا ذلك فقط.

«كيف حال دراستك يا إلسي؟» سألتها.

«لقد أنهيت دراستي. أجريت امتحاناتي في حزيران (يونيه) الماضي». كان وجهها مشرقًا بفخر.

«مبروك»، قلت لها، «لم أكن أعرف».

«طبعًا، لا يوجد حفل تخرّج. ولا توجد شهادة. لكني أعرف أنني كنت سأحصل على ذلك لو كنت أرتدي بنطالًا».

«لكن يمكنك أن تحصلي عليها في مكان آخر، أليس كذلك؟»

«نعم، لكن لا داعي للعجلة. فلن أذهب إلى أي مكان آخر». نظرت إلى مسودات الطباعة التي في يدها كما لو أنها تحاول أن تتذكّر ما هي، ثم مدّت يدها نحوي وقالت: «من أبي. بحاجة إلى قراءة تدقيق سريعة. يريد أن تذهب إلى المطبعة صباح الغد».

أخذت مسودات الطباعة، وقلت: «طبعًا». ثم نظرت إلى مكان طاولة السيّد دانكورث، وأضفت، «وشكرًا لك».

«هذا شيء صغير».

«يتوقف ذلك على كيف ترين الأمر».

هزّت رأسها، ثم سارت إلى جانب طاولة الفرز واتجهت إلى طاولة الدكتور موراي؛ حيث توجد كومة الرسائل التي تنتظر كتابة مسوّدة ردود عليها.

كان غطاء طاولة مكتبي لا يزال مفتوحًا. كلّ ما أحتاج إليه في عملي موجود في هذا الدرج: أوراق ملاحظات، قصاصات فارغة، أقلام رصاص، أقلام حبر، كتاب (*قواعد هارت*) توجد تحته أشياء لا علاقة لها بعملي: رسالة من ديتي، وبطاقات بريدية من تيلدا، وقصاصات فارغة من ورق مزخرف جميل، ورواية. عندما رفعتها، سقطت منها ثلاث قصاصات. عندما رأيت اسم مابل اغرورقت الدموع في عيني. قلت في نفسي إن ذلك يكفي ليجلب الحزن، ثم ابتسمت.

كانت تحتوي كلّ قصاصة على نفس ذاتها، لكن بأشكال مختلفة. تذكرت الصدمة التي انتابتني عندما سمعتها، ثم فرحة مابل وسرعة دقات قلبي عندما كتبتها أول مرة. كانت كلمة Cunt قديمة قدم التلال، كما قالت مابل، لكنها غير موجودة في القاموس. بحثت عنها.

كانت قصاصات الكلمات التي تبدأ بحرف C قد وضعت في صناديق، أما الكلمات التي ستصدر في ملحق فقد وضعت في الرفوف القريبة من طاولتي التي بدأ الدكتور موراي يجمعها فور صدور الملزمة التي تضم الكلمات «منA إلى Ant». كان الدكتور موراي يتوقع أن اللغة الإنكليزية ستتطور أسرع مما

باستطاعتنا أن نعرّفها»، قال لي دا، «فعندما يصدر القاموس أخيرًا، فإننا سنعود إلى حرف A ونبدأ بملء الفجوات».

كادت فتحات العلب تمتلئ بقصاصات فيها كلمات تكميلية نُظِّمت بدقة، لذلك لم أستغرق وقتًا طويلًا لأعثر على كومة القصاصات السميكة التي تضم الاقتباسات المأخوذة من كتب يعود تاريخها إلى سنة 1325. كانت الكلمة قديمة بقدم ما قالته مابل. وإذا طُبّقت صيغة الدكتور موراي، فلا بد أنها واردة في المجلد السميك وراء مكتبه.

نظرت إلى الزاوية العليا من القصاصة، وبدلًا من أن أجد المعلومات المعتادة، وجدت ملاحظة مكتوبة بيد الدكتور موراي تقول ببساطة، تُستبعد. بذيئة، وكتب أحدهم سلسلة من التعليقات، يُفترض أنها أُخذت من بعض المراسلات. كان الخطّ المكتوب بها يشبه خطّ إلسي موراي، لكنّي لم أستطع أن أتأكد من ذلك:

“The thing itself is not obscene!”

James Dixon___

(«الشيء نفسه ليس بذيئًا».

- جيمس ديكسون)

“A thoroughly old word with a very ancient history.”

Robinson Ellis____

(«كلمة قديمة جدًا ذات تاريخ عتيق جدًا».

- روبنسون إليس)

“The mere fact of its being used in a vulgar way does not ban it from the English language.”

John Hamilton___

(«إن مجرد كونها تُستخدم بطريقة مبتذلة لا يعني أن تُحظر من اللغة الإنكليزية»).

- جون هاميلتون)

نظرت إلى الزاوية العلوية من القصاصات مرة أخرى، ولم أجد تعريفًا. أعدتُ القصاصات إلى مكانها وعدت إلى طاولتي. في قصاصة فارغة، كتبت:

CUNT

1. Slang for vagina

2. An insult based on the premise that a woman’s vagina is vulgar.

1- كلمة عامية مرادفة لكلمة مهبل.

2- كلمة مهينة على اعتبار أن مهبل المرأة كلمة سوقية.

جمعتُ كلمات مابل ووضعتها في كومة صغيرة وثبّتُ عليها التعاريف التي دوّنتها، ثم رحت أبحث عن قصاصات أخرى. هناك حفنة منها كان يجب أن يكون مكانها في الصندوق تحت سرير ليزي، لكنها أُخفيت بسرعة في وقت ما، ثم نُسيت. جمعتها ووضعتها بين صفحات الرواية لأحتفظ بها.

أمضيتُ ما تبقى من فترة بعد الظهر في تدقيق مسودات الطباعة التي أعطتها لي إلسي، أرفع عينيَّ من حين لآخر لأراقبها. كانت تتحرك في المَنْسَخ بطريقتها الدؤوبة، مستعدة دائمًا لتنفذ ما يطلبه منها والدها. هل تجادلان حول هذه الكلمة؟ أم أنها اكتشفت أنها مفقودة فبدأت تبحث عن سبب اختفائها؟ هل عرف الدكتور موراي أنها دوّنت الحجج المتعلقة بإدراج الكلمة في الزاوية العلوية من القصاصة، أم أنها وضعتها مع كلمات الملحق التكميلي؟ لا، بالطبع لا. فقد عاشت بين سطور القاموس بقدر ما عشتُ أنا.

«هل أنتِ مستعدة لنذهب؟» سألني دا.

فوجئت عندما أدركت أن الوقت قد تأخر كثيرًا. فقلت: «أريد أن أُنهي مسودة الطباعة هذه، ثم سأذهب لأرى ليزي. اذهب أنت».

***

«ماذا تفعلين بحق السماء؟» قالت ليزي عندما دخلت إلى غرفتها ورأتني جالسة على الأرض، منحنية فوق الصندوق. «يبدو أنك تبحثين عن تفاحات».

«هل تستطيعين أن تشمي الرائحة يا ليزي؟»

فقالت: «طبعا أستطيع. كنت أتساءل دائمًا إن كان هناك شيء زحف إلى داخل الصندوق ومات فيه».

«رائحته ليست كريهة، إنها رائحة... حسنًا، لا أعرف حقًا كيف أصفها». عدتُ وانحنيت إلى الأمام آملة أن تكشف الرائحة عن نفسها.

فقالت ليزي: «هذه الرائحة تشبه رائحة شيء كان ينبغي أن يُّهوّى الصندوق منذ فترة».

ثم عرفتُ. فقد بدأت تنبعث من صندوقي رائحة تشبه رائحة القصاصات القديمة الموجودة في المَنْسَخ.

خلعت ليزي مئزرها الذي تناثرت فوقه بقع من الشواء، وارتدت مئزرًا نظيفًا كما اعتادت السيّدة بالارد أن تفعل قبل أن تنقل الشواء إلى المائدة. كما لو أن الدلائل التي تشير إلى تعبهن وكدحهن شيء مسيء. قبل أن ترتدي ليزي مئزرها النظيف، ضممتها وعانقتها.

«أنت محقة تمامًا».

أبعدتني عنها، وقالت: «بعد كل هذه السنوات تظنين أنني أفهمك يا إسمي، لكن لا توجد لدي أدنى فكرة عمّا تتحدثين».

«هذه الكلمات»، قلتُ ومددت يدي إلى الصندوق وأخرجت منه حفنة منها، «لم تُعط لي كي تُخبأ. يجب تهويتها. يجب أن تُقرأ وتُناقش وتُفهم. ربما أُهملت، لكنها مُنحت فرصة مثل جميع الكلمات التي في المَنْسَخ».

ضحكت ليزي وأدخلت فتحة مئزرها النظيف من رأسها، وقالت: «هل تفكّرين إذن في أن تؤلفي قاموسًا خاصًا بك؟»

«هذا تمامًا ما أفكّر به يا ليزي. قاموس يضم الكلمات المتعلقة بالمرأة. الكلمات التي يستخدمنها والكلمات التي تشير إليهن. الكلمات التي لن تجد طريقها إلى قاموس الدكتور موراي. ما رأيك؟»

تجهّم وجهها. ثم قالت: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك. بعض هذه الكلمات غير لائق».

لم أتمالك نفسي عن أن أبتسم. ستكون ليزي سعيدة لو اختفت كلمة cuntمن اللغة الإنكليزية.

«لديك قواسم مشتركة مع الدكتور موراي أكثر مما تعرفين».

«لكن ما الهدف من ذلك؟» قالت، والتقطت قصاصة من داخل الصندوق ونظرت إليها، «نصف الأشخاص الذين يقولون هذه الكلمات لن يتمكنوا من قراءتها أبدًا».

«ربما لا»، قلت وأنا أرفع الصندوق وأضعه على سريرها، «لكن كلماتهم مهمة».

نظرنا إلى فوضى القصاصات داخل الصندوق. تذكّرت المرات التي بحثت فيها في المجلدات وفي فتحات العلب عن الكلمة المناسبة فقط لأفسّر المشاعر التي كانت تنتابني. في أحيانٍ كثيرة، لم تكن الكلمات التي اختارها رجال القاموس كاملة.

«إن قاموس الدكتور موراي يورد كل شيء يا ليزي. أحيانًا كلمة وأحيانًا معنى. فإذا لم تُدوّن، فإنها لن تّؤخذ في الاعتبار». وضعت قصاصات مابل الأولى في كومة على السرير، «أليس من الجيد أن تُعامل الكلمات النسائية كما تُعامل أي كلمة أخرى؟»

بدأت أغربل القصاصات والأوراق الموجودة في الصندوق. أخرجت الكلمات النسائية ووضعتها جانبًا. بدأت بعض الكلمات تتكدس في كومة مع اقتباسات مختلفة من نساء مختلفات. لم أكن أعرف أنني جمعت كلّ هذه الكلمات.

مدّت ليزي يدها تحت سريرها وسحبت سلّة الخياطة. «ستحتاجين إلى هذه إذا أردتِ أن تحافظي عليها بالترتيب»، قالت ووضعت دبابيسها أمامي. أصبحت وسادة الدبابيس مثل قنفذة مليئة بالأشواك.

عندما انتهيت من فرز جميع الكلمات الموجودة في الصندوق، كان قد حلّ الظلام في الخارج. بدأت أصابعنا - كلانا- تؤلمنا من تثبيت القصاصات

بالدبابيس.

«احتفظي بها»، قالت ليزي عندما أعدت لها وسادة الدبابيس، «من أجل الكلمات الجديدة».

***

كانت هناك فتحة صغيرة جدًا في جدار المَنْسَخ فوق طاولتي مباشرة، لاحظت وجودها عندما بدأ برد الشتاء الماضي يخز ظاهر يدي كالإبرة، حاولت أن أسدّها بقطعة ورق في شكل كرة، لكنها ظلت تسقط من الفتحة، ثم أدركت أنني أستطيع أن أرى من تلك الفتحة؛ فقد رأيت أجزاء أشخاص وهم يدخنون سجائرهم، ورأيت أبي والسيّد بالك وهما يَحْشُوَان غليونيهما ويتبادلان الحديث حول أمور تتعلق بالقاموس. كنت أفكّر دائمًا بكلمة Gossipiania عندما تصل إلى أذني بعض أطراف أحاديثهما، كانت قد كُتبت هذه الكلمة، لكنها شُطبت في مسودة الطباعة النهائية. أصبحتُ أميّز جميع المساعدين من ثيابهم، وانتابني شعور غريب بأنني عدت أقبع تحت طاولة الفرز.

كان عمود الضوء الخفيف يتحرّك فوق صفحتي مثل مزولة شمسية، فبدأت ألاحظ عندما يختفي. عندما تناهى إليَّ صوت دراجة هوائية تُسند على جدار المَنْسَخ، ملتُ ونظرت من الفتحة. رأيت بنطالًا غير مألوف وقميصًا غير مألوف، وردنين مثنيين مرفوعين حتى المرفقين. أصابع ملطخة بالحبر بدأت تفك إبزيم حقيبة ملطخة بالحبر، كانت الأصابع طويلة، لكن الإبهام ممدودًا بشكل غريب. كان الرجل يدقق في محتويات حقيبته، كما أفعل قبل أن أجتاز بوابة المطبعة. نظرت إلى الأعلى، في مناورة خجولة، في محاولة لأرى وجهه. لم يكن ذلك ممكنًا.

ابتعدتُ عن الفتحة وانحنيت قليلًا إلى يميني لأتمكن من رؤية باب المَنْسَخ.

وقف عند العتبة. كان طويل القامة، نحيلًا، حليق الذقن، شعره أسود مجعّد. عندما رآني أنظر من خلف رف الكتب، ابتسم. كنت بعيدة جدًا فلم أر عينيه، لكنّي عرفت أنهما زرقاوان بلون المساء، تكادان تكونان بنفسجيتين.

كنت قد نسيت اسمه، مع أنني تذكّرت ما قاله لي عندما أخذت كلمات إلى المطبعة أول مرة. كنت في ذلك الوقت مجرد فتاة، وكان في غاية اللطف.

منذ ذلك الحين، لم أره إلا من مسافة بعيدة عندما كنت أذهب وأبحث عن السيد هارت في المطبعة. كان المنضّد يقف دائمًا عند المنضدة في الجانب الآخر من غرفة التنضيد، تحجبه الصينية التي تجمع الحروف كلها. كان يرفع عينيه أحيانًا عندما أدخل من الباب، يبتسم دائمًا، لكنه لم يلوّح لي بيده قط. لم أكن أعرف أنه يأتي إلى سانيسايد.

بالإضافة إليّ، كان السيد دانكورث الشخص الآخر الموجود في المَنْسَخ. راقبته وهو يرفع رأسه ليرى الشخص الذي دخل للتو. استغرق ثانية ليصدر حكمه.

«نعم؟» قال بالنبرة التي يحتفظ بها للرجال ذوي الأظافر المتسخة. أحكمتُ قبضتي حول قلمي الرصاص.

«لديّ مسودات طباعة للدكتور موراي. من حروف Si إلى Simple.

«سآخذها»، قال السيّد دانكورث ومدّ يده، لكنه لم ينهض من على كرسيه.

«وأنت من؟» سأله المُنَضّد.

«عفوًا؟»

«يريد المشرف أن يعرف من هو الشخص الذي استلم مسودات الطباعة، إذا لم يكن الدكتور موراي نفسه».

نهض السيّد دانكورث من على طاولة الفرز واقترب من المُنَضّد، وقال له: «يمكنك أن تخبر المشرف بأن السيّد دانكورث هو الذي تسلم مسودات الطباعة»، وأخذ الصفحات قبل أن يعطيها له.

من مكاني في الجزء الخلفي من الغرفة، حبستُ أنفاسي، وازدادت حدة غضبي وإحساسي بالحرج. أردتُ أن أتدّخل لأرّحب بالمُنضّد إلى المَنْسَخ، لكن من دون أن أعرف اسمه، سأبدو غبية.

«سأحرص على أن أفعل ذلك، يا سيّد دانكورث»، قال المُنَضّد وهو يحدّق في وجه السيّد دانكوورث. «بالمناسبة، اسمي غاريث، يسرني أن ألتقي بك»، ومدّ يده الملطخة بالحبر، لكن السيّد دانكورث حدّق بها وراح يفرك يده على جانبيْ بنطاله. فأنزل غاريث يده، وأومأ له إيماءة طفيفة، ثم نظر بسرعة إلى المكان الذي أجلس فيه، ثم استدار وغادر المَنْسَخ.

أخذتُ قصاصة فارغة من طاولتي وكتبتُ:

GARETH

.Compositor

(غاريث

مُنَضِّد).

***

كنت واقفة داخل باب المَنْسَخ، أقرأ مقالة في مجلة أوكسفورد كرونيكل ريثما ينهي الدكتور موراي بعض المراسلات التي يريد أن آخذها إلى السيد برادلي.

كانت قطعة صغيرة مدفونة في الصفحات الوسطى.

أُلقي القبض على ثلاث مناصرات لحقّ المرأة في التصويت بعد احتجاجهن على السطح ضد رئيس الوزراء هربرت أسكويث، وأرغمن على تناول الطعام في سجن وينسون غرين بعد عدة أيام من إضرابهن عن الطعام، وسُجِّن بتهمة العصيان المدني وإحداث أضرار جنائية بعد أن ألقَين حجارة على الشرطة من سطح بينغلي هول في برمنغهام؛ حيث كان السيد أسكويث يعقد اجتماعًا عامًا لمناقشة الميزانية. ومُنعت النساء من الحضور.

بدأ حلقي ينقبض. «كيف تُجبر امرأة بالغة على تناول الطعام بالقوة؟» قلت، لا أخاطب أحدًا محددًا. بحثتُ في عمود الكلمات، لكن لم يكن هناك تفسير للإجراءات التي اتخذت، ولم تُذكر أسماء النسوة. تذكّرت تيلدا. كانت آخر بطاقة بريدية أرسلتها لي من برمنغهام كتبت فيها إن *النساء مستعدات لعمل شيء أكثر من مجرد التوقيع على عرائض.*

«شيء للسيّد هارت في المطبعة،»، أجفلتُ عندما سمعت الدكتور موراي يقول لي، «لكن اذهبي إلى مكتبة أشموليان أولًا. السيّد برادلي ينتظر هذه». وأعطاني رسالة كُتب على غلافها برادلي مع المسودات الطباعية الأولى لحرف T.

كان مبنى مكتبة أشموليان عظيمًا وضخمًا بقدر ما كان المَنْسَخ متواضعًا وصغيرًا. كان مشيّدًا من الحجارة وليس من الصفيح، تحيط بمدخله تماثيل

نصفية لرجال أنجزوا شيئًا؛ لا أعرف ما هو. عندما رأيتهم لأول مرة، شعرت بأنني ضئيلة وأن هذا المكان ليس مكاني، لكن بعد فترة، بدأوا يشجعون طموحًا مفعمًا بالتحدي، وبدأت أتخيّل أنني أدخل إلى هذا المكان وأجلس في مكتب المحرر. لكن إذا كانت المرأة تُمنع من حضور اجتماع مناقشة الميزانية العامة، فلا يحقّ لي أن أحقق هذا الطموح.

فكّرت في تيلدا، رغبتها الشديدة في القتال. وفكّرت في النسوة اللاتي سُجّن. هل يمكنني أن أجوع؟ تساءلت. إذا كان ذلك سيساعدني على أن أصبح محررة؟

صعدت الدرج حتى وصلت إلى الأبواب المزدوجة الضخمة المؤدية إلى غرفة القاموس؛ كانت الغرفة جيدة التهوية والإضاءة، جدرانها حجرية وسقفها مرتفع على أعمدة حجرية إغريقية. يستحق القاموس مكانًا كهذا، وعندما رأيتها أول مرة تساءلت لماذا مُنح السيّد برادلي والسيّد كريجي شرف أن يشغلا هذه الغرفة وليس الدكتور موراي. عندما سألت دا، قال لي: «إنه شهيد القاموس، والسكريبي يناسبه تمامًا».

نظرت في أرجاء الغرفة الرحبة، أحاول أن أرى المساعدين الجالسين وراء أكداس من الأوراق التي تغطي كل طاولة. نظرت إليانور برادلي من فوق حاجز الكتب ولوّحت لي.

أزاحت بعض الأوراق عن الكرسي. جلستُ وقلتُ لها: «عندي رسالة لوالدك».

«جيد. إنه يأمل في أن يحصل على موافقة الدكتور موراي حول المسألة التي يتناقش حولها هو والسيد كريجي».

«يتناقشان؟» رفعت حاجبًا متسائلة.

«حسنًا، إنهما مهذبان، لكن كلّ واحد منهما يأمل في أن يحصل على إيماءة باتجاهه من الرئيس». ثم نظرت إلى المغلف الذي أحمله بيدي، «سيكون أبي سعيدًا لحلّ هذه المسألة بطريقة أو بأخرى».

«هل هي عن كلمة معينة؟»

«لغة كاملة»، قالت إليانور، وعيناها المؤطرتان بإطار سلكي ضخمتان بالثرثرة. قالت بصوت منخفض، «السيد كريجي يريد أن يقوم برحلة أخرى إلى

الدول الإسكندنافية وهولندا. يبدو أنه ألقى دعمه وراء حملة للاعتراف بالفريزيين».

«لم أسمع بهم من قبل».

«إنهم أعضاء قبيلة جرمانية».

«طبعًا»، قلت، وتذكّرت حديثًا من جانب واحد دار بيني وبين السيّد كريجي أثناء الحفلة التي أقيمت في الحديقة بمناسبة صدور مجلد الحرفين O وP. لقد جعله موضوع اللغات الجرمانية يشعر بالحيوية منذ أكثر من ساعة.

«يرى أبي أن ذلك خارج نطاق محرر قاموسنا للغة الإنكليزية. إنه يخشى أن حرف R لن يكتمل أبدًا إذا ظل السيّد كريجي يجري وراء أهداف أخرى».

فقلت: «إذا كانت هذه هي حجته، فأنا متيقنة من أنه سيحظى بدعم الدكتور موراي».

نهضت واقفة لأذهب، ثم ترددت، وقلت: «إليانور، هل قرأتِ شيئًا عن مناصرات حقّ المرأة في الاقتراع اللاتي زجّ بهن في السجن في برمنغهام؟ وأنهن يُطعمن بالقوة».

تغيّر لون وجهها وأطبقت على فكها، وقالت: «نعم. إنه شيء مخز. مثل القاموس، يبدو أن التصويت حتمي. لماذا يجب أن نعاني كثيرًا ولأمد طويل، لا أستطيع أن أفهم ذلك».

«هل تظنين أننا سنعيش ونرى أننا سنحصل عليه؟» سألتها.

ابتسمت، وقالت: «حول هذا السؤال، فأنا متفائلة أكثر من بابا والسير جيمس. أنا متيقنة من أننا سنحصل عليه».

لم أكن متيقنة تمامًا، لكن قبل أن أقول أي شيء آخر، اقترب السيد برادلي.

***

قدتُ دراجتي بأسرع ما يمكنني بين مكتبة أشموليان وشارع والتون. لم تكن السماء التي بدأت تظلم هي التي حفزتني على أن أقود دراجتي بسرعة بقدر ما حفزني خوفي على تيلدا والنساء مثلها.. والخوف علينا كلنا إذا أخفقت جهودهن، لم يهدّئ ذلك من حدّة مخاوفي.

عندما وصلت إلى المطبعة، وضعتُ دراجتي بين دراجتين أخريين، غضبت لأني لم أجد مكانًا يتسع لها بسهولة. عبرت الساحة المربعة، عابسة في وجوه الرجال، وأبحث في وجوه النساء إن كنّ يعرفن شيئًا عن الإطعام القسري. لم يظهر ذلك على وجوههن. تساءلت كم واحدة منهن تشعر بأنها عديمة الجدوى كما أشعر.

بدلًا من أن أذهب إلى مكتب السيّد هارت، توجهت إلى غرفة التنضيد. كانت القصاصة التي كتبت عليها اسم المنضّد في جيبي. أخرجتها ونظرت إليها، مع أنه لم تكن هناك حاجة لأن أتذكّر. عندما وصلت إلى الغرفة، بدأت أسير بخطوات وئيدة.

كان غاريث ينضّد كلمات.. عندما دخلت، لم يرفع بصره، لكني لم أرغب في أن أنتظر حتى يدعوني للدخول. أخذتُ نَفَسًا عميقًا وبدأت أسير بين طاولات التنضيد.

أومأ الرجال برؤوسهم وبادلتهم الإيماءة، وتبدّد غضبي مع كل إيماءة ودية.

«مرحبًا ميس. هل تبحثين عن السيد هارت؟» سألني شخص مألوف لا أعرف اسمه.

قلت: «في الواقع، أردت أن ألقي التحية على غاريث». لم أكد أعرف أن الصوت الواثق هو صوتي.

لم يُبد أحد اهتمامًا لأنني أتجول في غرفة التنضيد، وخطر لي أن الخوف الذي كان يعتريني دائمًا ربما كان من صنعي أنا. عندما وصلت إلى طاولة غاريث، كنت قد استنفدت الحماسة التي دفعتني للقائه، وتلاشت ثقتي.

رفع عينيه. وجهه لا يزال مركّزًا على شيء، وسرعان ما ارتسمت ابتسامة على وجهه، وقال: «يا لها من مفاجأة جميلة يا إسمي».

هززت رأسي، وأدركت فجأة أنني لم أحضّر شيئًا لأقوله له.

«هل تمانعين إذا انتظرت حتى أنهي تنضيد هذا القسم؟ أصبح مصفّ الحروف ممتلئًا تقريبًا».

أمسك غاريث مصّفّ الحروف بيده اليسرى؛ كان يشبه صينية فيها صفوف من حروف التنضيد المعدنية، ثبتّها في مكانها عندما ضغط عليها بإبهامه بقوة، طارت يده اليمنى حول المنضدة أمامه، وجمعت مزيدًا من الحروف المعدنية من الحجرات الصغيرة التي ذكّرتني بفتحات علب الدكتور موراي، لكن هذه أصغر حجمًا، كل حجرة فيها مخصصة لحرف واحد وليس لحزمة من الكلمات.. سرعان ما امتلأ مِصَفّ الحروف.

ارتفعت عيناه، ولاحظ اهتمامي، وقال: «تتمثل الخطوة التالية في تحويلها إلى مصّف الحروف»، وأشار إلى إطار خشبي إلى جانب منضدته، وأردف، «هل تبدو مألوفة بالنسبة لك؟»

نظرت إلى مِصّف الحروف. ماعدا الفجوة التي سيوضع فيها الحرف الجديد، كان بحجم وشكل صفحة من الكلمات، لكن أي صفحة من الكلمات، لم أعرف، فقلت: «تبدو كأنها لغة مختلفة».

«من الوراء إلى الأمام، لكنها ستكون صفحة في الملزمة التالية للقاموس، ما إن أدخل هذا التصحيح».

وضع مِصّف الحروف بحذر شديد وفرك إبهامه.

«إبهام المُنضّد»، قال، ورفعه أمامي لأراه جيدًا.

«كان عليَّ أن أعرف أكثر من مجرد التحديق فيه».

«لا بأس أن تحدّقي فيه، فهو يشير إلى حرفتي، هذا كل ما في الأمر». ثم نزل من على كرسيه، وقال: «لدينا جميعًا إبهام، لكنّي واثق من أنك لم تأتِ إلى هنا لتتحدثي عن الإبهام».

كنت قد دخلت إلى غرفة التنضيد من أجل شيء لا أعرفه. شعرت الآن بالحماقة.

«السيّد هارت»، قلت بارتباك، «ظننت أنني قد أجده هنا». نظرت حولي كما لو أنه قد يكون مختبئًا وراء إحدى النضد.

«سأرى إن كان باستطاعتي أن أعرف أين هو»، قال غاريث ونفض الغبار عن كرسيه بقطعة قماش بيضاء، «يمكنك أن تجلسي هنا إذا أردتِ، ريثما تنتظرين».

هززت رأسي، وتركته يدفع الكرسي تحتي. نظرت إلى حروف الطباعة التي لا تزال مثبتة على مِصّف حروف الطباعة. بدا أن من المستحيل أن أفكّ رموزها؛ لا لأن الحروف مصفوفة من الخلف إلى الأمام فحسب، وإنما لأنه لم يكن هناك اختلاف كبير مع الخلفية. كان لونها كلّها رماديًا مائلًا إلى البرونزي.

إذا كان المنضدون الآخرون قد أبدوا اهتمامًا بالمرأة الغريبة التي تتحدث مع غاريث، فلم يعودوا يبدون أي اهتمام.

التقطت بعض حروف التنضيد من أقرب حجيرة؛ نظرت إلى المصّف مرة أخرى. قال إنه يلائم صفحة في القاموس. استغرق ذلك بعض الوقت، لكن الكلمات بدأت تتشكل في نهاية الأمر. عندما بدأت تتشكل، بدأت أشعر برعب متزايد.

b. Common scold: a woman who disturbs the peace of the neighbourhood by her constant scolding.

(ب- امرأة سليطة اللسان: امرأة تعكّر صفو الحيّ بسلاطة لسانها باستمرار).

هل هذا ما تفعله تلك النسوة في سجن وينسون غرين؟ نظرت إلى مسودات الطباعة إلى جانب مصّف الحروف. يبدو أن ذلك الحرف لم يُنضّد لأول مرة. كان غاريث يدقق في التنقيحات المحررة. كانت هناك ملاحظة من الدكتور موراي مثبّتة على حافة إحدى العبارات.

لا حاجة لتعريف عبارة SCOLD’S BRIDLE (لجام السَّلِيطات) ببساطة ارجع إلى الكلمة ذات الصلة BRANKS (*لجام السَّلِيطات*).

قرأت العبارة التي سيجري تحريرها.

c. scold’s bit, bridle: an instrument of punishment used in the case of scolds etc., consisting of a kind of iron framework to enclose the head, having a sharp metal gag or bit which entered the mouth and restrained the tongue.

(ج. لجام التوبيخ، لجام: أداة عقاب تُستخدم في حالة التوبيخ والتقريع وما إلى ذلك، تتكون من نوع من إطار حديدي ليحيط بالرأس، له كمامة أو قطعة معدنية حادة تدخل في الفم وتقيّد اللسان).

تخيّلت أنهم يجعلونهن يركعن، ويفتحون أفواههن عنوة، ويُدفع فيها أنبوب، فتصبح صرخاتهن مكتومة. ما الضرر الذي يلحق بالغشاء الحساس لشفاههن وأفواههن وحلوقهن؟ عندما ينتهي ذلك، هل سيكون بإمكانهن أن يتكلمن؟

فتشّت في طاولة التنضيد، واخترت كل حرف من علبة مختلفة: s وc وo وl وd. كان لهذه الحروف وزن، دحرجتها في راحة يدي، وخزت حوافها الحادة بشرتي وتركت عليها آثار حبر صفحات منسية.

فُتح باب غرفة التنضيد، ودخل غاريث مع السيّد هارت. وضعت الحروف الطباعية في جيبي بسرعة، ودفعت الكرسي إلى الخلف.

«التصحيحات الأولى للحرف T»، قلت ومددت يدي بمسودات الطباعة إلى السيد هارت.

أخذها مني ولم يلاحظ بقع الحبر في أصابعي. بسرعة وضعت يدي في جيبي. لم ينتبه غاريث لما فعلته أيضًا، ومن زاوية عيني رأيته يدقق الحروف التي كان ينضدها. لم يجد شيئًا ناقصًا، ثم نقل بصره إلى الصينية. تشبثّت بحروف الطباعة، وأحسست بحوافها الحادة، وأحكمت قبضتي عليها حتى بدأت تؤلمني.

«ممتاز»، قال السيد هارت وهو ينظر إلى الصفحات. «إننا نحرز تقدمًا»، ثم التفت إلى غاريث، وقال: «سنراجع هذه غدًا. تعال وقابلني في الساعة التاسعة».

فقال غاريث، «نعم سيدي».

اتجه السيّد هارت نحو مكتبه، وهو لا يزال ينظر إلى مسودات الطباعة.

«يجب أن أذهب»، قلت وابتعدت عن غاريث من دون أن أنظر إليه.

«أرجو أن تأتي مرة أخرى»، سمعته يقول.

***

عندما سرت بدراجتي إلى خارج المطبعة، كانت السماء مكفهرة. قبل أن أصل إلى طريق بانبري رود، بدأ المطر يهطل بغزارة. عندما وصلت إلى المَنْسَخ، كانت ثيابي تقطر ماء وجسدي يرتجف.

«قفي»، صاح السيّد دانكورث عندما فتحت باب المَنْسَخ.

توقفت، في تلك اللحظة، أدركت كيف أبدو. كان الجميع ينظرون نحوي.

وقفت روزفريث في المكان الذي تجلس فيه إلى مكتب والدها، وقالت: «سيّد دانكورث، هل تقترح أن تظلّ إسمي واقفة تحت المطر طوال فترة بعد الظهر؟»

فقال بصوت منخفض، «ستبلل أوراقنا كلها»، ثم عاد وانحنى فوق عمله كما لو أنه لم يكن مهتمًا بما سيحدث بعد ذلك. لبثت واقفة في مكاني. وبدأت أسناني تصطك.

«لم يكن ينبغي لأبي أن يُرسلك. كان بإمكان أي شخص أن يرى أنها ستُمطر». أخذت روزفريث مظلة من المشجب، ثم أمسكت ذراعي، وقالت: «تعالي معي. سيعود مع أبيك بعد قليل، وسينزعجان كلاهما لو رأياك في هذه الحالة».

رفعت روزفريث المظلة فوقنا واجتزنا الحديقة حتى وصلنا أمام منزلها. قلّما دُعيت إلى الجزء الرئيسي من منزل عائلة موراي، ويمكنني أن أحصي على أصابع يد واحدة المرات التي اجتزت فيها الباب الخارجي. في تلك اللحظة، تخيّلت أنني أشعر بعض ما تشعر به ليزي كل يوم من أيام حياتها.

«انتظري هنا»، قالت روزفريث عندما أُغلق الباب الخارجي خلفنا. سارت نحو المطبخ، وسمعتها تنادي ليزي. بعد دقيقة، كانت ليزي واقفة أمامي، تجففني بمنشفة دافئة.

«لماذا لم تنتظري خارج المطبعة؟» سألتني ليزي عندما جثت أمامي وراحت تخلع حذائي وجواربي المبللة.

«شكرًا يا ليزي، سآخذ منك من هنا»، قالت روزفريث، وأخذت منها المنشفة وصعدنا الدرج إلى غرفة نومها.

كنتُ أكبر من روزفريث بسنتين تقريبًا، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنت أشعر دائمًا بأنني أصغر منها. بينما راحت تفتش في خزانة ملابسها عن ثياب تناسبني، رأيت فيها الثقة العملية التي تتمتع بها أمها. كان أبي قد قال لي إن

السيدة موراي مرشحة لنيل لقب (فارسة) كما أن الدكتور موراي مرشح لنيل لقب (فارس)، «فلولاها، لتعثرت مسيرة القاموس منذ زمن بعيد».

كم يجب أن تكون واثقًا بنفسك لتعرف كيف يجب أن تتصرف: مثل أن يكون لديك تعريف عن نفسك مكتوبٌ بوضوح بخط عريض.

«أنتِ أطول مني وأنحف، لكن أظن أن هذا يناسبك». وضعت روزفريث تنورة وبلوزة وكنزة صوف وملابس داخلية على سريرها، وخرجت لأبدّل ثيابي.

قبل أن أخلع تنورتي، فتشتُ في جيوبها. يوجد في أحدها منديل وقلم رصاص وحزمة قصاصات فارغة مبللة. عندما ذهبت لأرمي حزمة القصاصات في سلة المهملات، لم أتمالك نفسي من ألّا ألقي نظرة على الأوراق على طاولة روزفريث. كان كلّ شيء مرتبًا بدقة وترتيب. كانت هناك صورة لأبيها بعد حصوله على لقب (فارس)، وصورة لجميع أفراد الأسرة في حديقة سانيساید. وكانت هناك مسودات طباعة ورسائل في مراحل مختلفة من إنجازها. رأيت اسم متلقي الرسالة التي كانت تعمل عليها مؤخرًا. إنه مدير سجن وينسون غرين. تقول: *سيدي العزيز. أود أن أعترض. كان ذلك أقصى ما ذهبت إليه، وإلى جانبها نسخة من صحيفة التايمز اللندنية.*

أخرجتُ من جيبي الآخر حروف التنضيد التي سرقتها من غاريث، والقصاصة التي كتبتُ عليها اسمه. كادت تكون شفافة من تبللها بالمطر، لكن اسمه ظلّ واضحًا.

بعد أن ارتديت ثياب روزفريث، لففت حروف التنضيد المعدنية في منديلي الرطب ووضعته في أحد جيوب التنورة. وأخذت القصاصة التي عليها اسم غاريث. كان يعرف أنني أخذت حروف التنضيد. سأخجل كثيرًا عندما أزوره مرة أخرى. ألقيت القصاصة في سلة المهملات.

ثم عدت إلى طاولة روزفريث. منحت صحيفة تايمز اللندنية النسوة في وينسون غرين مساحة عمود أكبر. لم تكن تيلدا واحدة منهن. ليس هذه المرة، قلت لنفسي. شارلوت مارش ابنة الفنان آرثر هاردويك مارش. وكان والد لورا أينسوورث مفتش مدرسة محترمًا، أما ماري لي، فهي زوجة عامل بناء. بهذه الطريقة تُعرّف النساء.

عادت إلى ذاكرتي كلمة Bondmaid (*خادمة مملوكة*) وأدركت أن الكلمات التي تُستخدم غالبًا لتعريفنا، هي كلمات تصف صلتنا بالآخرين. حتى الكلمات الأكثر لطفًا واعتدالًا؛ *بِكْر، زوجة، أمّ* - تخبر العالم إن كنا عَذْراوات أم لا. ما الكلمة الموازية لكلمة عذراء بالنسبة للذكر؟ لم أجد. ما هي الكلمة التي توازي كلمة *سيّدة، عاهرة، سليطة اللسان*؟ نظرت من النافذة إلى المَنْسَخ؛ المكان الذي توضع فيه تعريفات كلّ هذه الكلمات. ما الكلمات التي ستعرّفني؟ ما الكلمات التي ستُستخدم لإطلاق حكم عليَّ أو تحتويني؟ فأنا لستُ عذراء، ومع ذلك، فأنا لست زوجة رجل. ولا توجد لدي رغبة في أن أكون كذلك.

عندما قرأت كيف كنّ «يعاملن»، أحسست بشبح الكمامة والألم الذي يحدثه ذلك الأنبوب وهو يكشط الغشاء من الخدّ إلى الحلق حتى المعدة؛ إنه ضربٌ من الاغتصاب. ثقل الأجسام التي تدفعك إلى الأسفل، تقيّد يديك اللتين تخرمشان وقدميك اللتين تركلان، ترغمك على أن تفتحي فمك. في تلك اللحظة، لم أكن متيقنة إنسانية مَنْ الأكثر عرضة للخطر؛ إنسانية المرأة أم إنسانية السلطة. وإذا كانت هذه إنسانية السلطة، فالعار عارنا جميعًا. ما الذي فعلته أنا، بعد كل شيء، لمساعدة القضية منذ أن غادرت تيلدا أكسفورد؟

عادت روزفريث وهبطنا الدرج معًا. «هل أنت «suffragette» (*مناضلة بحق المرأة في الاقتراع*) يا روزفريث؟» سألتها.

«أنا لا أتسلل ليلًا وأهشمّ النوافذ، إذا كان هذا هو سؤالك. أفضّل أن أسمي نفسي suffragist (*مؤيدة لحق المرأة في الاقتراع*)».

«لا أظن أن بإمكاني أن أفعل ما تفعله بعض النساء». «تتضورين جوعًا أو تصبحين مصدر إزعاج عام؟ إما أن تموتي جوعًا أو أن تكوني مثيرة للشغب».

«لا هذا ولا ذاك».

توقفت روزفريث على الدرج واستدارت نحوي، وقالت: «ولا أظن أنني أستطيع أن أفعل ذلك أيضًا. ولا يمكنني أن أتخيّل... حسنًا، لقد قرأتِ الصحف، لكن النزوع إلى القتال ليس السبيل الوحيد يا إسمي».

عادت روزفريث تهبط الدرج وتبعتها على مسافة درجتين. كانت هناك أشياء كثيرة أردت أن أسألها عنها، لكننا، مع أننا نشأنا، رغمًا عنا، في ظلّ القاموس، فقد شعرت بأننا نعيش في عالمين منفصلين.

وقفنا قليلًا أمام المطبخ، ورحنا نراقب المطر. «من الأفضل أن أجري»، قالت روزفريث أخيرًا، «أما أنتِ فقد تبللتِ بما يكفي ليوم كامل، لذلك انتظري هنا في الدفء حتى يتوقف المطر. لا نريد أن تصابي بنوبة برد». فتحت مظلتها وجرت من المطبخ إلى المَنْسَخ.

كانت ليزي جاثمة أمام الموقد. «انظري إلى وجهك يا إسمي. ما مشكلتك بحق السماء؟»

«الصحف يا ليزي. ستُصدمين لو عرفتِ ما الذي يجري».

«لا حاجة لقراءة الصحف، فالسوق يفي بالغرض نفسه». وضعت قليلًا من الفحم فوق ألسنة اللهب المتصاعدة، وأغلقت باب الموقد الحديد الثقيل محدثة صوت ارتطام قوي. بدا جسدها متيبسًا عندما استوت واقفة.

«وهل يتحدّثون عما يحدث لمناصرات حقّ المرأة في التصويت في برمنغهام؟» سألتها.

«نعم. إنهم يتحدّثون عن ذلك».

«هل هم غاضبون؟ بشأن الإضراب عن الطعام والإطعام القسري؟»

«بعضهم»، قالت وبدأت تقطّع الخضراوات وتضعها في قِدر كبير، «يظن آخرون أن ما يفعلنه خطأ. ويقولون من الأسهل بكثير أن يحصل المرء على ما تريد بطريقة مهذبة، وليس باللجوء إلى العنف».

«لكن هل يرون أنهن يستحققن ما يحدث لهن؟ إنه تعذيب».

«يرى البعض إنه لا يمكن تركهن يمتن من الجوع».

«وما هو رأيك أنتِ يا ليزي؟»

رفعت بصرها. كانت حواف عينيها متورمة وحمراء من تقشير البصل، وقالت: «لن أمتلك تلك الشجاعة».

لم يكن ذلك جوابًا، لكني ربما قلت الشيء نفسه، لو كنت صادقة مع نفسي.

***

11 نيسان (أبريل) 1910

عزيزتي إسمي، عيد ميلاد سعيد.

لا يمكنني أن أصدّق أنك بلغت الثامنة والعشرين من العمر، لأن ذلك يجعلني أشعر بأنني تقدمت في السنّ كثيرًا. هذه السنة، في ضوء مخاوفك المستمرة، أرفقتُ كتابًا بقلم إميلي ديفيز؛ كانت إميلي صديقة أمي وقد شاركتْ في حركة حق المرأة في الاقتراع لمدة نصف قرن، لديها نهج مختلف تمامًا عن نهج السيّدة بانكهورست، وهي تؤمن بقوة بتأثير المساواة في تعليم المرأة، حججها مقنعة إلى درجة كبيرة. آمل أنك إذا قرأتِ كتاب (أفكار حول بعض الأسئلة المتعلقة بالمرأة)، فقد تفكرين في أن تحصلي على شهادة جامعية، وهذا ما يقودني إلى رسالتك.

قرأتها بصوت عالٍ أثناء الفطور. أنا وبيث نشاطرك مخاوفك، مع أننا لا نشعر بالعجز كما يبدو أنكِ تشعرين.

إنها ليست معركة جديدة، ومع أن تصرفات جيش إيميلين بانكهورست النسائي ستلفت الانتباه، بالتأكيد، إلى هذه القضية، فقد لا تؤدي إلى التوصل إلى حلّ مُرضٍ بسرعة. سوف نحصل على حقّ التصويت عاجلًا أم آجلًا، لكن لن يكون ذلكِ نهاية الأمر. إذ سيستمر النضال، ولا يمكن أن يتوقف ذلك على النساء المستعدات لأن يتضورن جوعًا فقط.

كان جدّنا صريحاً ومفوهًا حول موضوع حقّ المرأة في التصويت عندما كان (الاقتراع العام) الجدال السياسي السائد حينذاك. أتساءل كيف سيعرّف قاموسنا كلمة (عام). في ذلك الوقت، كانت تعني جميع البالغين، بغض النظر عن عرقهم أو دخلهم أو ما يملكونه، لكنها لم تكن تعني النساء، وقد شجب جدّنا ذلك بقوة. وسُمع وهو يقول إنها ستكون حملة طويلة، ولكي تنجح، يجب خوضها على جبهات عديدة.

إنك لستِ جبانة يا إسمي. يؤلمني كثيرًا أن أرى أي امرأة شابة تفكّر بهذه الطريقة لأنها لم تتعرّض لعمل وحشي بسبب قناعاتها. إذا كانت تيلدا تشن حملتها لصالح الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة، فهذا يليق بها تمامًا؛ فهي ممثلة وتعرف كيف تستفزّ الجمهور. إذا أردتِ أن تكوني مفيدة، واصلي ما كنت تفعلينه دائمًا. ذات مرة، قلتِ إن بعض الكلمات تعتبر أهم من كلمات أخرى لمجرد كتابتها. كنتِ تجادلين بأن كلمات الرجال المتعلمين أهم بكثير من كلمات الطبقات غير المتعلمة؛ من بينها النساء. اعملي ما تجيدين عمله يا عزيزتي إسمي: واصلي عمِلك في جمع الكلمات التي نستخدمها وسجليها.

عندما يتم التطرق إلى مسألة حق المرأة في الاقتراع السياسي، يجب الكشف عن أوجه عدم المساواة الأقل وضوحًا. من دون أن تدركي ذلك، فإنك تعملين حقًا لصالح هذه القضية. كما قال جدّنا، ستكون لعبة طويلة. أدّي دورك في موقع تجيدينه، ودعي الآخرين يؤدون دورهم.

الآن، لننتقل إلى أخبار أخرى. لقد فكّرت مطولًا وبجدية عمّا إذا كان الصمت هو الأفضل، لكن بيث أقنعتني بأن الصمت فراغ مليء بالقلق والخوف. كتبت لي سارة وأخبرتني أنهم استقروا بشكل مريح في أديلايد، وأن ميغان الصغيرة تكبر وتزدهر. توجد أشياء أخرى يمكنني أن أنقلها لك حول هذا الموضوع، لكنّي سأنتظر حتى تسأليني.

أما فيما يتعلق باستفساراتك، فقد أدلت سارة للتوّ بصوتها في أول انتخابات لها. أليس هذا شيئًا رائعًا؟ إذ تمارس النساء في جنوب أستراليا هذا الحقّ طوال الخمس عشرة سنة الماضية. بقدر ما أستطيع أن أفهمه، لم يضطر أحد إلى تهشيم زجاج نوافذ أو تجويع نفسه حتى ينال هذا الحقّ. لا شك أنك تدركين أن عددًا قليلًا من تلك النسوة الرائعات قد سافرن إلى إنكلترا لدعم هذه القضية. هل تذكرين الشابة التي قيدت نفسها بسلسال بالحاجز في رواق السيدات وألقت كلمة في مجلس العموم؟ حسنًا، إنها فتاة محلية من مدينة أديلايد في جنوب أستراليا. من جميع الروايات، فإن جنوب أستراليا ليست الأسوأ في مجال حق المرأة في التصويت. بالعكس، فقد كتبت سارة أنها مكان جميل عندما تعتادين على الحرارة فيها. لا يبدو أن المجتمع قد انهار تمامًا. إنها مجرد مسألة وقت قبل أن يحدث ذلك هنا.

قبل أن أختم رسالتي، تريد بيث أن أخبرك أن رواية (زوجة دراغون) قد طُبعت مرة ثانية. يبدو أن الكفاح من أجل حق المرأة في الاقتراع لا يتعارض مع الرومانسية التي تهزّ كيان المرء. إننا كائنات معقدة.

المخلصة،

ديتي

.Megan. Meg. MeggyMay

ميغان، ميغ، ميغي فاي

كان لها اسم وها هي تكبر وتزدهر. كان ذلك كلّ ما كنت بحاجة إلى أن أعرفه. كل ما أستطيع أن أعرفه من دون أن أنفجر.

مضى عيدا ميلاد آخران. أصبحت ميغان في الثالثة من عمرها، ثم الرابعة. أصبح الحديث عنها جزءًا من هدية ديتي السنوية لي، كما كانت قصة ليلي ذات يوم. ترسل لي كتابًا، رسالة، خطواتها الأولى، كلماتها الأولى. كان الكتاب يُنحَّى جانبًا باستمرار، وسرعان ما تُنسى أخبار ديتي. بذلت جهدًا كبيرًا لأتذكر حركة أيامي.

كانون الأول (ديسمبر) 1912

سنة بعد أخرى، بدأت تطرأ تغييرات طفيفة على المَنْسَخ؛ فقد تكدّست الكتب ورُكّبت مزيد من فتحات العلب لتستوعب عددًا أكبر من القصاصات، وتركت بين الرفوف الجديدة فجوة تتسع لكرسي قديم أحضرته روزفريث من المنزل أصبح ملاذًا أثيرًا لدى السيد مالينغ عندما يريد أن يدرس نصًا أجنبيًا. وبدأت اللحى حول طاولة الفرز تزداد بياضًا، وطالت لحية الدكتور موراي كثيرًا.

لم يكن المَنْسَخ مكانًا صاخبًا قط، لكن كانت تُسمع فيه أصوات تضافرت لتُحدث همهمة مريحة. فقد اعتدتُ على سماع صوت حفيف الأوراق، وخربشة الأقلام، وأصوات الإحباط التي تميّز كل شخص كأنها بصمة تميّز كل واحد منهم. فإذا وجد الدكتور موراي مشكلة في كلمة ما، كان يهمهم وينزل من على كرسيه ويخرج ويقف أمام مدخل المَنْسَخ ليملأ رئتيه بهواء نقي. وكان السيد دانكورث يحدث بقلمه صوتًا أشبه بإيقاع بندول الساعة، نقرة بطيئة تتناغم مع إيقاع فكرته. أما أبي فلم يكن يصدر أي صوت. وإنما يخلع نظارته ويفرك قصبة أنفه، ثم يريح ذقنه على يده، ويرفع عينيه إلى السقف كما يفعل عادة عندما يعجز عن مواصلة حديث أثناء العشاء.

وكانت تنبعث من إلسي وروزفريث أصواتًا مترافقة. فقد كنت أحبّ أن أسمع صوت حفيف تنورتيهما وهما تمسحان الأرض عندما تنحيان لتلتقطا قصاصات سقطت على الأرض سهوًا (قصاصات يقذفها الهواء، أراقبها لأرى أين ستسقط حتى أنحني وألتقطها إذا لم يلتقطها أحد قبلي). فتيات موراي - كنت ما أزال أفكّر بهما بهذه الطريقة، مع أننا تجاوزنا كلنا الثلاثين من العمر- سيملأن الهواء أيضًا برائحة الخزامى والورد التي أتنشقّها كمنشّط لتغطّي على رائحة الرجال أحيانًا.

وفي بعض الأحيان، يخيّم سكون تام على المَنْسَخ حتى يصبح لي كله. يحدث ذلك عادة قبل صدور إحدى الملازم؛ إذ يعقد المحررون وكبار مساعديهم اجتماعاتهم في مكتبة أشموليان لحلّ جدالاتهم التي تنشأ في آخر لحظة، وتنتهز إلسي وروزفريث الفرصة وتذهبان إلى مكان آخر.

عندما يصبح المَنْسَخ لي وحدي، أطوف عادة بين الطاولات والرفوف أبحث عن كنز من قصاصات صغيرة. في هذا اليوم بالذات، كنت في عجلة من أمري. فقد أمضيت فترة الشاي الصباحية في غرفة ليزي، أفرز المزيد من القصاصات في الصندوق بعد أن أصبحت لديَّ مجموعة صغيرة من الكلمات النسائية أردت فرزها وتصنّيفها.

رفعت غطاء طاولتي وأخرجتُ صندوق الأحذية الذي أضع فيه الكلمات التي أجمعها، والذي كان قد امتلأ نصفه بحزم صغيرة من القصاصات؛ تمثّل كل حزمة منها كلمة ثُبتّت عليها معانيها والاقتباسات التي حصلت عليها من نساء عدة. فرشتُ القصاصات الجديدة على طاولتي، بعضها كلمات كنت قد عرّفتها، وبعضها جديدة تحتاج إلى تعريف ووضع اقتباسات لها. كانت هذه أكثر الأشياء التي أستمتع بها؛ التفكير في الكلمة، وتنوعاتها، وتحديد الكلمة الرئيسية، ثم صياغة تعريف مناسب لها. لم أكن وحدي قط في هذه العملية، وإنما كنت أسترشد دائمًا بصوت المرأة التي استخدمتها، وعندما تكون مابل هي تلك المرأة، فإني أمعن النظر فيها لفترة أطول قليلًا، لأتأكد من أنني توصلت إلى المعنى المناسب، وعندما كنت أفعل ذلك، أتخيّل ابتسامتها التي تكشف عن لثتها.

تقبع الآن في درج طاولتي وسادة الدبابيس التي أعطتني إياها ليزي، أخذت منها دبوسًا وثبّت به اقتباسات كلمة git؛ كانت تيلدا أول من أعطاني اقتباسًا لهذه الكلمة، لكن مابل كانت تحبّ أن تستخدمها عندما تريد أن تتكلّم عن رجل لا تحبه. حتى ليزي كانت تستخدمها أحيانًا. إذن فهي إهانة، لكنها ليست كلمة مبتذلة، ولم تستخدمها مابل قط للإشارة إلى السيّدة ستايلز، لذلك لا بدّ

أنها تشير إلى الرجال فقط.. ثبّتُ الدبوس في زاوية القصاصة وبدأت أفكر بتعريف لها.

«ما هذه؟»

وخز الدبوس إبهامي ففغرت فمي، رفعت بصري. كان السيّد دانكورث واقفًا إلى جانبي، يحدّق في فوضى اللصاقات المنتشرة فوق طاولتي، كانت مكشوفة. من الواضح أنها ليست الكلمات التي يفترض أن أعمل عليها.

«لا شيء مهم»، قلت وأنا أحاول أن ألملم القصاصات وأكوّمها، وابتسمت له، مدركة الغباء الذي ارتسم على وجهي: امرأة ناضجة محشورة في مقعد مدرسي.

انحنى قليلًا لينظر إلى الكلمات عن قرب. حاولت أن أدفع كرسيَّ إلى الخلف، لكنّي وجدت أنني لم أستطع أن أفعل ذلك. بقيت للحظة عالقة في مكاني، بينما ظلت عيناه تمعنان النظر.

«إذا لم تكن مهمة، فلماذا تفعلينها؟» سألني، ومدّ يده نحوي فانحنيت لأتحاشاه. التقط كومة القصاصات.

ذاكرة مفاجئة خطرت لي على الفور، ذكرى خيّل إليَّ أنها دُفنت في طيات الزمن. كان حجم جسدي أصغر، وكان المقعد يشبه هذا، لكن الشعور بأنني لا أملك السيطرة على ما سيحدث بعد ذلك كان قويًا جدًا. شعرت بالضيق. تركت نفسي أتخيّل أن حياتي مختلفة عن حياة الكثير من النساء اللاتي رأيتهن، لكن في تلك اللحظة، اعتراني شعور بأنني مقيدة، عاجزة، لا أستطيع أن أفعل شيئًا مثلهن.

ثم تملكني شعور بالغضب.

«ليست ذات أهمية بالنسبة لك»، قلت له، «مع أنها مهمة جدًا»، ودفعتُ الكرسي بقوة أكبر حتى اضطر السيّد دانكورث إلى أن يقف جانبًا.

نهضت من مكاني ووقفت إلى جانبه، أكاد ألتصق به كما لو أن أحدنا سيقبّل الآخر. كان جبينه مجعدًا كما لو كان يركّز تفكيره على شيء، وقفزت شعيرات بيضاء سلكية من الشعر الأسود اللامع عند فرقة شعره المستوية؛ كانت شعرات منفلتة، وفوجئت لأنه لم يقتلعها. تعثّر إلى الوراء. مددت يدي لآخذ القصاصات، لكنه ظلّ ممسكًا بها.

استدار نحو طاولة الفرز، وأخذ قصاصاتي معه، نشرها على الطاولة كما لو كانت أوراق لعب، ثم راح يحركّها بأصابعه. فكّرت في استخدام القوة البدنية.. سأكتب قصاصة عنها عندما ينتهي كلّ ذلك.

توقف السيّد دانكورث ليقرأ كلمة أو كلمتين كما لو أنه كان يفكّر في قيمتها. يمكنني أن أعرف متى يزداد اهتمام عالم اللغة فيه: فقد لانت جبهته، واسترخت شفتاه المزمومتان. تذكّرت تلك الأوقات النادرة التي ظننت فيها أنه ربما يجمعنا شيء مشترك. كلما طال تفكيره في كلماتي، تساءلت أكثر هل بالغتُ في ردة فعلي.

تهدّل كتفاي، واسترخى فكّي. كم كنت أتوق إلى أن أتحدّث مع أحد عن الكلمات النسائية، وعن موقعها في القاموس، والعيوب في طريقة استبعادها. في تلك اللحظة، تخيّلت أنني أنا والسيّد دانكورث حليفان.

فجأة جمع القصاصات معًا، غير عابئ بترتيبها، وقال: «كنتِ على صواب وعلى خطأ يا ميس نيكول»، «فمشروعك ليس مهمًا بالنسبة لي، لكنه أيضًا ليس ذا أهمية على الإطلاق».

عقدت الصدمة لساني. عندما أعاد لي كومة القصاصات، ارتعشت يدي كثيرًا فسقطت.

نظر السيد دانكورث إلى القصاصات المتناثرة على الأرض التي يعلوها الغبار ولم يتحرك لمساعدتي على جمعها، وإنما عاد إلى طاولة الفرز وبدأ يبحث في أوراقه حتى وجد الشيء الذي جاء ليبحث عنه، وغادر.

انتقلت ارتعاشة يدي إلى أنحاء جسدي. جثوت على ركبتيَّ لألملم القصاصات لكني لم أتمكّن من وضعها بالترتيب لأنني فقدت القدرة على التركيز، وبدا لي أنه لم يعد لها معنى. عندما سمعت باب المَنْسَخ يُفتح مرة أخرى، أغمضت عينيّ من الخوف بأنه قد يكون السيّد دانكورث – المهانة إذا رآني جاثية على ركبتيّ.

انحنى شخص إلى جانبي وبدأ يلتقط القصاصات، أصابعه طويلة وجميلة، لكن إبهام يده اليسرى مشوّه. إنه غاريث، المُنصّد. كانت لديّ ذكرى غامضة بأن ذلك قد حدث من قبل. التقط قصاصة تلو الأخرى، ونفض الغبار عن كل واحدة منها قبل أن يعطيها لي.

ثم قال: «ستتمكنين من فرزها لاحقًا، أما الآن، فمن الأفضل أن تأخذيها وتنهضي من هذه الأرض الباردة».

«كان ذلك خطأي»، سمعت نفسي أقول.

لم يجبني غاريث، وإنما ظل يناولني القصاصات. مضت سنوات على سرقتي حروف الطباعة، وعلى الرغم من صداقته لي، فقد استطعت ألّا أشجعه على أي شيء يمكن أن يتجاوز تعارفًا مهذبًا.

«إنها مجرد هواية»، قلت، «فليس مكانها هنا».

توقف غاريث للحظة، لكنه لم يقل شيئًا. ثم التقط القصاصة الأخيرة، ومرر إصبعه فوقها وقرأ الكلمة بصوت عال: «Pillock». رفع بصره وابتسم، وظهرت خطوط حول عينيه.

«يوجد مثال على طريقة استخدامها»، قلت واقتربت منه أكثر لأشير إلى الاقتباس المكتوب في القصاصة.

«تبدو صحيحة»، قال وهو يقرأها، ثم سأل، «ومن هي تيلدا تايلور؟»

«إنها المرأة التي استخدمت هذه الكلمة».

«إذن فهي ليست كلمة من كلمات القاموس؟»

تشنجت وقلت، «لا. ولا واحدة منها».

«لكن بعضها شائع جدًا»، قال وهو يتفحّصها.

«إنها شائعة بين الذين يستخدمونها، لكن كلمة شائعة ليست شرطًا أساسيًا لتُدرج في القاموس».

«من يستخدمها؟»

كنت مستعدة لخوض المعركة التي لم أخضها منذ بضع دقائق. قلت: «الفقراء، الأشخاص الذين يعملون في السوق المغطاة، النساء. لذلك فهي ليست مكتوبة ومستبعدة. ومع أنها تُكتب أحيانًا، فإنها تظل مستبعدة من القاموس لأنها لا تُستخدم في مجتمع مهذب». مع أنني شعرت بالإرهاق، فقد تملكني

شعور بالتحدي. كانت يداي لا تزالان ترتعشان، لكنّي كنت مستعدة لأن أمضي قدمًا. نظرت في عينيه مباشرة، وقلت: «إنها كلمات مهمة».

«إذن من الأفضل أن تحافظي عليها»، قال غاريث ونهض واقفًا وأعطاني آخر قصاصة.ثم مدّ يده، وساعدني على النهوض على قدميّ.

أعدتُ القصاصات إلى طاولتي ووضعتها تحت الغطاء، ثم التفتُّ إلى غاريث، وسألته، «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

فتح حقيبته وأخرج مسودات طباعة آخر ملزمة. قال وهو يحملها: «من كلمة Sleepإلى كلمة Sniggle»، وأضاف، «إذا لم تكن هناك تعديلات كثيرة، يمكننا أن نبدأ الطباعة قبل عيد الميلاد». ابتسم، أومأ برأسه، ثم وضع مسودات الطباعة على طاولة مكتب الدكتور موراي، وغادر المَنْسَخ. ظننت أنه سيلتفت ويبتسم مرة أخرى، لكنه لم يفعل. لو كان قد التفت، لقلت له ربما ستكون هناك تعديلات كثيرة.

***

عاد الجميع إلى المَنْسَخ بعد الغداء، وانتظرت حتى يشي بي السيّد دانكورث. فقد أصبحت في سن لا يستطيعون فيها طردي، لكن ساد وقت وصمت كافيان لأتخيّل عشرات العقوبات الأخرى، تبدأ كلها بإهانتي لو طُلب مني أن أُفرغ ما في جيوبي، وينتهي بي الأمر بألّا تطأ قدمي المَنْسَخ بعد الآن.

لكن السيّد دانكورث لم يذكر شيئًا عن كلماتي للدكتور موراي. راقبته لأيام، أحبس أنفاسي كلما كان لديه سبب لاستشارة المحرر، لكنهما لم ينظرا نحوي قط. أدركت أن كلماتي لم تكن مهمة للسيد دانكورث فحسب، وإنما أضيع وقتي عليها، بينما يفترض أن أمضي هذا الوقت في العمل على مفردات القاموس.

***

كنت أجيب على استفسار إملائي؛ استفسار أضحى شائعًا جدًا منذ صدور المجلد من «كلمة Ribaldric إلى كلمة Romanite». *سأل الكاتب، لماذا يفضّل القاموس الجديد استخدام rime بينما كلمة rhyme شائعة الانتشار؟ فالعادة والحس السليم يصرّان على الكلمة الأخيرة. هل أُعتبر أميًّا؟* إنها مهمة تُقابل بالجحود بما أنه لا يوجد ردّ معقول. كان صوت دراجة غاريث المألوف سببًا كافيًا لأتركها غير مكتملة. وضعت قلمي على الطاولة ونظرت باتجاه الباب.

كانت هذه زيارته الثالثة إلى المَنْسَخ منذ أن ساعدني على التقاط كلماتي من الأرض منذ بضعة أسابيع.

«شاب لطيف»، قال أبي عندما رأى غاريث وهو يلقي التحية لأول مرة.

سألته، «هل هو لطيف مثل السيّد بوب والسيّد كوشينغ؟»

فقال دا: «أنا متأكد من أنني لا أعرف ماذا تقصدين: وأضاف، «إنه المشرف على المنضّدين. أحد الأشخاص القلائل الذين يثق بهم السيد هارت لشدة تقيّده بالأسلوب». ثم نظر إليّ ورفع حاجبيه، وأردف، «لكن هذه المحادثات تجري عادة في المطبعة».

عندما فُتح الباب، سطع ضوء نهار شاحب. رفع المساعدون رؤوسهم، وهزّ أبي رأسه محييًا قبل أن ينظر نحوي. نزل الدكتور موراي من على كرسيه.

كنتُ بعيدة جدًا فلم أسمع حديثهما، لكن غاريث كان يشير إلى جزء من مسودة طباعة ويشرح شيئًا للدكتور موراي. رأيت أن الدكتور موراي يوافق: سأل سؤالًا، وأنصت، وهزّ رأسه، ثم دعا غاريث ليأتي إلى طاولة مكتبه، وراحا يدققان معًا بعض الصفحات الأخرى. لاحظت أن السيّد دانكورث تجاهل كلّ ما يجري.

انتظر غاريث عندما بدأ الدكتور موراي يكتب رسالة سريعة للسيد هارت. عندما أنهى كتابتها، ووضعها غاريث في حقيبته، خرج الشاب والدكتور موراي معًا إلى الحديقة.

رأيتهما وراء الباب. الدكتور موراي يتمطّى كما يفعل أحيانًا بعد أن ينحني فوق مسودات الطباعة طوال فترة الصباح. تغيّر أسلوبهما وأصبح أكثر حميمية. قال لي أبي إن السيّد هارت مريض من الإرهاق، وخمنّت شعورًا متبادلًا بالقلق.

عاد الدكتور موراي إلى المَنْسَخ وحده. فوجئت بثقل الأنفاس التي بدأت تخرج من رئتيّ. ترك الباب مفتوحًا، وبدأ هواء كانون الأول (ديسمبر) المنعش يهبّ بين الطاولات. ارتدى اثنان من المساعدين سترتيهما. وألقت روزفريث شالًا حول كتفيها. لم أكن أتفق عادة مع رأي الدكتور موراي بأن الهواء النقي يحافظ على توقد الذهن، لكنّي شعرت بدفء شديد فلم يعد بإمكاني أن أفكّر بوضوح. ولأول مرة، كنت سعيدة بذلك، ثم عدت إلى تبرير تهجئة كلمة rime.

«هذه لك». كان ذلك غاريث.

لوهلة، كان من المستحيل أن أنظر إلى الأعلى. فقد انتقلت كلّ الحرارة التي كانت في جسدي إلى وجهي الآن.

«إنها كلمة ينبغي أن تضميها إلى مجموعة كلماتك. إحدى كلمات أمّي؛ كانت تستخدمها بهذه الطريقة طوال الوقت، لكن لم أجدها في الملازم التي نحتفظ بها للطباعة». كان يتحدّث بصوت خفيض، لكنّي سمعت كلّ كلمة قالها. لم أزل لم أرفع عينيّ. لم تكن لديّ ثقة بأنني سأتمكن من أن أقول له شيئًا، وإنما ركّزت على قصاصة الورق التي وضعها غاريث أمامي. لا بد أنه أخذها من كومة القصاصات الفارغة الموجودة على الرف إلى جانب الباب. كانت أكثر الكلمات شيوعًا، لكن المعنى كان مختلفًا. فأنا أعرفها منذ أن كنت طفلة صغيرة.

CABBAGE

”.Come here, my little cabbage, and give me a hug“

Deryth Owen

(كَرنَب، مَلفُوف

«تعالي يا ملفوفتي الصغيرة، وعانقيني».

ديريث أوين).

ديريث، يا له من اسم جميل. كانت الجملة تشبه الجملة التي تقولها لي ليزي.

قال: «لدى الأمهات مفردات خاصة بهن، ألا تظنين ذلك؟»

«في الواقع، لا أعرف»، ونظرتُ إلى دا، «فأنا لم أعرف أمّي قط».

بدا غاريث متفاجئًا، وقال: «أنا آسف».

«أرجوك، لا داعي للأسف. كما يمكنك أن تتخيّل، فلدى والدي طريقته الخاصة في الكلمات».

ضحك، وقال: «حسنًا، نعم».

«ووالدك؟» سألته، «هل يعمل في المطبعة؟»

«أمّي كانت تعمل في المطبعة. كانت تعمل في قسم التجليد عندما كانت فتاة. هي التي رتبت فترة تدريبي في المطبعة عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري».

«لكن ماذا عن والدك؟»

فقال: «كنت أنا وأمي فقط».

نظرتُ إلى القصاصة التي في يدي وحاولت أن أتخيّل المرأة التي كانت تطلق على هذا الرجل عبارة «ملفوفها الصغير». قلت: «شكرًا على القصاصة».

«أرجو ألَّا تمانعي في أن أراك وأكلمك مرة أخرى».

نظرت إلى طاولة الفرز. كانت هناك نظرة أو نظرتان خفيتان باتجاه طاولتي، ورأيت ابتسامة غريبة على وجه أبي مع أن عينيه كانتا مثبتتين على عمله.

فقلت: «أنا سعيدة جدًا لأنك فعلت ذلك»، ونظرت إلى وجهه، ثم عدتُ ونظرت بسرعة إلى القصاصة.

«حسنًا، سأحرص على أن أفعل ذلك مرة أخرى».

عندما ذهب، فتحتُ غطاء طاولتي ورحت أفرز القصاصات في صندوق الأحذية حتى وجدت المكان الذي ينتمي إليه غاريث.

كانون الثاني (يناير) 1913

عندما كنت أقود الدراجة نحو مكتبة بودليان، رأيت جمهرة من الناس يتحلقون حول نصب الشهداء. كان بإمكاني أن أتجنب ذلك الحشد وأذهب من شارع باركس رود كما أفعل عادة، لكني قدتُ الدراجة في شارع بانبري رود إلى أن حوّل الحشد مسار طريقي.

إعلانات عديدة أُلصقت في شوارع أكسفورد، وتناثرت منشورات في الشوارع، ونشرت جميع الصحف مقالات مؤيدة ومعارضة. فقد تجمع أفراد الجمعيات المناصرة لحق المرأة في الاقتراع في أكسفورد في مسيرة سلمية من سانت كليمنت حتى نصب الشهداء. كانوا سينطلقون بعد ساعات قليلة وساد شعور بالتوقع والإثارة. كانت السماء صافية، لكن قرقعة عاصفة رعدية وشيكة بدأت تلوح في الأفق.

كان عدد الأشخاص في مكتبة بودليان أقلّ مما هو في العادة. أخذت وقتي في البحث في رفوف كتب الفن في مكتبة بودليان. كانت الكتب التي أراد الدكتور موراي أن أدققها قديمة، وبدت الاقتباسات كأنها مكتوبة بلغة أجنبية يسهل إساءة فهمها. جلستُ في مقعد ناعم مهترئ بسبب جلوس أجيال عديدة من العلماء والدارسين ماتوا منذ زمن بعيد، وتساءلت كم امرأة جلست عليها.

عدتُ إلى الطريق الذي جئت منه. كان الموكب قد وصل، وازدادت أعداد المتجمهرين. كان عدد النساء يفوق عدد الرجال بنسبة ثلاثة إلى واحد، لكنّي فوجئت بالرجال الموجودين هناك: رجال من جميع الفئات والمشارب. رجال بربطات عنق ورجال من دون ربطات عنق. رجال يشبكون أيديهم بأيدي نساء. ورجال يقفون وحدهم. تجمع الرجال في مجموعات صغيرة، يعتمرون قبعات ويرتدون سترات من دون ياقات، أذرعهم مثنية أمامهم، وأرجلهم متباعدة.

أسندتُ دراجتي إلى درابزين المقبرة الصغيرة إلى جانب كنيسة القديسة مريم المجدلية، ثم وقفت جانبًا.

عندما قرأت عن المسيرة، أملت في أن تعود تيلدا إلى أكسفورد لأراها. كنتُ قد كتبتُ لها رسالة ووضعت فيها منشورًا وقلت: سأنتظر إلى جانب الكنيسة الصغيرة بالقرب من نصب الشهداء.

فأرسلت لي بطاقة بريدية.

سنرى. لم يُدع الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة للمشاركة (لا تعتنق كثير من السيدات المتعلمات في أكسفورد آراء السيدة بانكهورست). لكنّي سعيدة بأنك انضممت إلى جماعة الأخوات، وستضيفين صوتك إلى ندائهن - حان الوقت لذلك.

امرأة تقف أمام منصة أقيمت إلى جانب نصب الشهداء تلقي كلمة. كان من الصعب رؤيتها من مكاني أو سماع ما تقوله بسبب صيحات الاستهجان والصخب. كانت المنشورات التي وزعت قد طلبت ألّا نولي اهتمامًا بالذين يشوشون على المسيرة، أما الرجال والنساء الذين يشجعون المرأة التي تتكلّم، فكانوا يفعلون ذلك أيضًا، وكان هناك عدد كبير من المعارضين الذين يصرخون من كل جانب. ثم اندلع صوت موسيقى صاخب من مكبّر صوت وُضِع في نافذة مفتوحة في مبنى كلية سانت جون، ثم انبعثت سحابة دخان غلايين من الرجال الواقفين إلى جانب المنصة. بدأت مجموعة أخرى تغني بصوت مرتفع جدًا فلم يعد بالإمكان سماع أي شيء آخر. من المكان الذي أقف فيه على الجانب، شعرت بأنني معرضة للخطر بشكل غريب.

بدأ الناس المتحلقون حول نصب الشهداء يتحركون. وقفت على أطراف أصابع قدميَّ لأرى ما الذي يجري؛ رأيت اضطرابًا شديدًا ينتقل عبر بحر الناس باتجاهي، وسرعان ما أدركت ماذا يعني كلّ ذلك عندما برز أمامي رجلان، شبك أحدهما ذراعيه بالآخر، وراح كلّ منهما يوجه لكمة للآخر. كان الرجل الذي يرتدي قميصًا ذا ياقة وربطة عنق أضخم حجمًا، لكن ذراعيه كانتا تلوحان في الهواء لا تصيب قبضتاه هدفهما. أما الرجل الآخر، فقد كان أكثر دقة في توجيه لكماته. لم يكن يرتدي سترة على الرغم من البرد، وقد شمّر عن كمّي قميصه حتى مرفقيه. تراجعتُ بضع خطوات، لكن شارع مجدلين كان مكتظًا بالناس، ودُفعت بقوة إلى الدراجات المركونة على درابزين مقبرة الكنيسة.

ثم رأيت الشرطة على ظهور الجياد يتقدمون ويشقّون طريقهم بين حشود الناس. أثارت الخيول الفزع فتفرق الناس وراحوا يجرون؛ نصفهم جرى في اتجاه شارع برود، ونصفهم الآخر في اتجاه سانت جيلز. عندما خطوت خطوة شعرت بضربة على قدمي. رأيت أحذية نسائية ورجالية وقد تناثر التراب حول حواف بناطيل الرجال. أنهضني أحدهم، لكن سرعان ما أُلقيت على الأرض مرة أخرى. رفعتني امرأتان لا أعرفهما وطلبتا مني أن أعود بسرعة إلى المنزل، لكنّي تسمّرت في مكاني.

«عاهرة».

وجه أحمر فظ، يكاد يلامس وجهي، الأنف مكسور منذ سنوات ولم يعد كما كان. كتلة من البصاق. بدأت ألهث. رفعت ذراعيَّ لأحمي وجهي، لكن البصقة التي كنت أتوقعها أصابتني.

«هيه، هيا اذهبي من هنا».

كان صوت امرأة، صوتًا عاليًا. قاسيًا... ثم تبعه صوت لطيف. «إنهم جبناء». كانت الكلمات والنبرة مألوفة لي. تركتُ ذراعيَّ تسقطان، وفتحت عينيَّ. إنها تيلدا. سحبتني بعيدًا، ومسحت البصاق الذي سال على خدّي. «إنهم يخشون أن تتوقف زوجاتهم عن تنفيذ أوامرهم». ألقت منديلها على الأرض ثم خطت خطوة إلى الوراء.

«إسمي. إنك أجمل من قبل». قالت تيلدا وضحكت من النظرة التي ارتسمت على وجهي.

نشب شجار آخر بالقرب منا، وللحظة غمرني شعور بالسعادة. ثم رأيت الشخص المشارك في هذا الشجار.

«غاريث؟»

عندما التفت، استغلّ الرجل الآخر الفرصة ووجّه إليه لكمة قوية أصابت شفة غاريث، وارتسمت ابتسامة متكلفة على وجه الرجل الغريب الذي عرفته من أنفه المكسور. تمكّن غاريث من البقاء واقفًا على قدميه، لكن الرجل هرب قبل أن تتاح لغاريث فرصة الانتقام منه.

«شفتك تنزف» قلتُ عندما اقترب غاريث مني. عندما لمسها أجفل، ثم ابتسم عندما رأى قلقي، ثم أجفل مرة أخرى.

«سأعيش»، قال، «ماذا فعلتِ لهذا الرجل حتى أثرتِ غضبه بهذا الشكل؟ كان متوجهًا إليكما مباشرة».

فقالت تيلدا: «لقيط». عندما التفت غاريث نحوها، أسرعت وقالت: «أوه، ليس أنت. فأنت فارسنا الذي يرتدي الدرع البراق». وانحنت له بطريقة مسرحية، وارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة. عندما رأى غاريث ذلك، بدا مرتبكًا.

«تيلدا»، قلت وأمسكت ذراعها، «هذا غاريث. إنه يعمل في المطبعة. إنه صديقي».

«صديق؟» قالت ورفعت حاجبيها.

تجاهلتها لكنّي لم أستطع أن أنظر إلى غاريث مباشرة، «غاريث، هذه تيلدا. التقينا منذ بضع سنوات عندما جاءت فرقتها المسرحية إلى أكسفورد».

فقال غاريث: «تشرّفت بلقائك يا تيلدا»، وأردف، «هل جئتِ من أجل عرض مسرحية أم من أجل هذا؟» بدا مرتبكًا

«لقد دعتني إسمي للمجيء، ورأت السيّدة بانكهورست أنها فرصة لنشر الوعي. لهذا السبب أنا هنا».

كان هناك الكثير من الصراخ وصفارات الإنذار، وبدأ رجال الشرطة يلاحقون النساء في شارع برود ستريت. قلت: «أظن أننا يجب أن نذهب».

عانقتني تيلدا، وقالت: «اذهبي، أظن أنك في أيدٍ أمينة»، ثم أضافت، «لكن تعالي إلى حانة توم العجوز مساء يوم الجمعة. لدينا أشياء كثيرة نريد أن نتحدث عنها»، ثم التفتت إلى غاريث، وقالت: «ويجب أن تأتي أنت أيضًا. عدني بأنك ستأتي».

نظر غاريث إليّ متسائلًا. نظرت تيلدا إليّ منتظرة سماع ردي. بدا كما لو أن الزمن لم يمرّ منذ أن رأيتها آخر مرة. بدأت الجرأة والخوف يتصارعان في داخلي. لم أشأ أن ينتصر الخوف.

فقلت: «طبعًا»، ونظرت إلى غاريث، «ربما يمكننا أن نذهب معًا؟»

شقّت ابتسامته ختم شفته المجروحة التي بدأت تنزف من جديد. مددت يدي إلى جيب ثوبي لكنّي اكتشفت أنه لا يوجد لديَّ منديل.

«قصاصة ورق صغيرة تفي بالغرض»، قال، محاولًا ألَّا تمتد الابتسامة من عينيه إلى شفتيه، «إنها أسوأ من جرح الحلاقة بقليل».

أخرجتُ قصاصة فارغة وقطعتها من الزاوية. مسح شفته بكم قميصه، ثم وضعتُ القصاصة فوق الجرح، فتبقعت باللون الأحمر على الفور، والتصقت به.

«سأراكما كليكما يوم الجمعة»، قالت تيلدا وهي تغمزني، ثم سارت باتجاه شارع برود ستريت حيث بدا أن الحشد بدأ يتجمع.

استدرتُ أنا وغاريث وسرنا في الاتجاه الآخر.

***

«إسمي! يا إلهي، ماذا حدث؟» قالت روزفريث عندما رأتنا ندخل من بوابة سانيسايد. نظرت إلى غاريث لتسمع منه تفسيرًا.

«خرجت المسيرة عند نصب الشهداء عن السيطرة».

لم نكد أنا وغاريث نقول شيئًا عندما سرنا في شارع بانبري رود. فقد أربكتنا تيلدا، وجعلتنا خجولين.

«هل حدث ذلك في المسيرة؟» سألت روزفريث. رمقتني من الأعلى إلى الأسفل. كانت تنورتي ممزّقة وملوثة، وقد تهدّل شعري، وكان خدّي لا يزال يؤلمني من المكان الذي لم أتوقف عن فركه لأزيل قذارة كراهية ذلك الرجل. «يا إلهي»، مضت تقول، «كانت ماما هناك مع هيلدا وغوينيث. من الجيد أنكما ذهبتما معًا، مع أن ذلك لم يفدكما كثيرًا».

عندما وجدت لساني، قلت: «أوه، لا، لقد رأينا بعضنا هناك بالصدفة. لا أعرف لماذا ذهب غاريث إلى هناك».

نقلّت عينيها من غاريث إليَّ، يساورها الشك.

لم أتمكن من النظر إليها مباشرة فالتفتُ إلى غاريث، وسألته، «لماذا ذهبتَ إلى هناك؟»

فقال «نفس السبب الذي جعلك تذهبين».

«لستُ متأكدة لماذا ذهبت»، قلت لنفسي وله.

في تلك اللحظة، دخلت السيّدة موراي من البوابة مع أكبر وأصغر ابنتيها. كنّ ثلاثتهن في حالة جيدة وفي غاية الحماسة. ركضت روزفريث نحوهن.

سار غاريث معي إلى المطبخ وعرّفته على ليزي. وساعد في شرح ما حدث.

«دعني أعطيك شيئًا من أجل شفتك تلك»، قالت ليزي وبللت قطعة قماش نظيفة وأعطتها له.

أزال القصاصة من الجرح ورفعها أمامنا لنراها، وقال: «لقد أوقفت القصاصة النزيف حتى الموت».

«ما هي بحق السماء؟» سألته ليزي وهي تحدق فيها.

«زاوية قصاصة»، قال غاريث والتفت إليّ بابتسامة.

فقلت: «إنني ممتنة لذلك جدًا. كان ذلك الرجل مرعبًا».

لم يكن من المنصف أن تسخر تيلدا منك».

«كانت تستفزني فقط».

«ماذا تقصد؟»

«كانت تريد أن تتأكد من أنني أقف على الجانب الصحيح».

ابتسمتُ، وقلت: «وهل أنت واقف مع الجانب الصحيح؟»

بادلني الابتسامة، وقال: «نعم».

بدا أكثر ثقة مني، وشعر جزء مني بالخجل، وقلت: «أظن أحيانًا أنه ربما كان هناك أكثر من جانبين».

«من الأفضل ألا تنحاز إلى جانب المناصرات لحق المرأة في التصويت، فهن يجعلن الأمور تسير ببطء بسبب سوء تصرفهن»، قالت ليزي وهي تقدم لغاريث كأسًا من الماء.

قال لها: «شكرًا ميس ليستر».

«نادني باسم ليزي. فأنا لا أردّ على أي اسم آخر».

رحنا ننظر إليه وهو يشرب الماء. عندما انتهى، أخذ الكأس إلى المغسلة وغسل الكأس. نظرت ليزي إليَّ بدهشة.

«يسلك الناس دائمًا سبلًا مختلفة كي يصلوا إلى المكان نفسه»، قال غاريث عندما التفت إلينا، «وحقّ المرأة في التصويت لن يكون مختلفًا».

عندما غادر غاريث، أجلستني ليزي وغسلت وجهي. ومشّطت شعري، وعقدته في شكل كعكة.

«لم أر رجلًا مثله قط»، قالت، «ربما ما عدا والدك. فهو أيضًا يغسل كأسه».

ارتسمت على وجهها نفس النظرة التي ترتسم عادة على وجه أبي عندما يأتي غاريث إلى المَنْسَخ. فتجاهلتها.

قالت: «لم تقولي حتى الآن لماذا ذهبتِ إلى هناك».

لم أستطع أن أخبرها شيئًا عن تيلدا. فهذا هو الموضوع الوحيد الذي نتجنب الخوض فيه، ولن تساعد الأحداث التي جرت اليوم أن على أن ترفعها في نظر ليزي. فقلت لها: «كنت عائدة من مكتبة بودليان».

«ألم يكن من الأسرع أن تأتي من شارع باركس رود».

«كان هناك الكثير من الغضب يا ليزي».

«حسنًا، إني سعيدة لأنك لم تصابي بأذى شديد أو لم يُقبض عليك».

«ممَ يخافون؟»

تنهدت ليزي وقالت: «كلّهم يخشون أن يفقدوا شيئًا، أما بالنسبة للأشخاص مثل ذلك الشخص الذي بصق على وجهك، فإنهم لا يريدون أن تعتقد زوجاتهم أنهن يستحققن أكثر مما لديهن. عندما أفكّر بأن رجالًا كهؤلاء قد يكونون البديل، فإني أشعر بالسعادة لأنني أعمل في الخدمة».

عندما عدت إلى المَنْسَخ كان النهار قد شارف على الانتهاء. كانت البطاقة البريدية التي أرسلتها في الأعلى. قرأتها مرة أخرى ثم كتبت قصاصة جديدة على نسختين.

SISTERHOOD

I’m glad you have joined the sisterhood and will be adding your voice to“ ”.the cry

Tilda Taylor, 1912

(جماعة الأخوات

لكنّني سعيدة بأنك انضممت إلى جماعة الأخوات وستضيفين صوتك إلى ندائهن.

تيلدا تايلور، 1912)

فتّشتُ في الملازم. كانت كلمة Sisterhood قد نُشرت للتو، ويشير معناها الأساسي، بطريقة أو بأخرى، إلى الأخواتية التي تعيشها الراهبات، أما اقتباس تيلدا فإنه يشير إلى المعنى الثاني: *تُستخدم بشكل فضفاض للإشارة إلى عدد من الإناث اللاتي لديهن هدف أو صفة أو دعوة مشتركة، تنطوي غالبًا على معنى سيئ.*

ذهبت إلى فتحات العلب ووجدت القصاصات الأصلية. كانت القصاصات المقتطعة من الصحف تشكل معظم الاقتباسات. وورد في إحدى القصاصات أنهن إناث يثرن بسبب أمور لا يعرفن عنها شيئًا، ووضع أحد المتطوعين خطًا تحت كلمة «*جماعة الأخوات اللاتي يصرخن*». وكانت أحدث قصاصة مأخوذة من مقالة كُتبت عام 1909، وصفت النساء اللاتي ينادين بحقّ المرأة في الاقتراع *بأنهن أخوات على درجة عالية من التعليم، يحدثن ضجيجًا وصراخًا، ولا يوجد لديهن أطفال ولا أزواج.*

كانت كلها صفات مهينة، وشعرت بالارتياح عندما عرفت أن الدكتور مـوراي رفضها. وعلى الرغم من ذلك، فقد أعدت كتابة التعريف الذي نشر في قصاصة جديدة، ووضعت نسخة من اقتباس تيلدا أمامها، ثم وضعتها في فتحة العلبة المخصصة للكلمات التكميلية.

عندما ابتعدتُ عن الرفوف، لاحظت أن أبي يراقبني.

«ما رأيك في الصحف باعتبارها مصدرًا للمعاني؟» سألني.

«ماذا رأيتَ أيضًا؟»

ابتسم، لكن بدا أنه بذل جهدًا ليبتسم، وقال: «لا أمانع في ما تضيفينه إلى فتحات العلب يا إسمي. حتى لو لم تأت اقتباساتك من نص، فقد تشجّع على البحث عن شيء مشابه. إن أقرب شيء يجعلنا نفهم الكلمات الجديدة هي

المقالات الصحفية. يمضي جيمس جزءًا كبيرًا من وقته هذه الأيام في مناقشة مدى صلاحيتها».

تذكّرت القصاصات التي قرأتها للتو. قلت له: «لست متأكدة. ففي غالب الأحيان، لا يعدو كونها أكثر من مجرد رأي، وإذا أردتَ أن يُعرّف الرأي ما الذي يعنيه شيء ما، عليك إذن أن تراعي على الأقل جميع الأطراف. فليس لدى جميع الأطراف صحف تتحدّث باسمهم».

«إذن، من الجيد أن بعض الصحف تتحدث عنهم».

***

جلسنا أنا وأبي معًا في غرفة الجلوس. حاول كلّ واحد منا أن يبدأ حديثًا، لكننا لم نستطع. حاولنا كلانا ألَّا نبدي لهفتنا إذا سمعنا قرعًا على الباب. كانت الساعة السادسة. كان أبي جالسًا أمام النافذة المطلة على الشارع، يتحرك قليلًا كلما رأت عيناه أحدًا، وأحبس أنفاسي عند سماع صوت البوابة تغني، ثم أحررها عندما لا أسمع صوته.

بدا أبي أكثر نشاطًا وحيوية من قبل. عندما قلت له إن غاريث عرض أن يرافقني إلى حانة توم العجوز، ابتسم كما لو أنه شعر بالارتياح، لكنّي لم أستطع أن أفسّر شعوره هذا. هل هو سعيد لأن غاريث سيرافقني لأنني سأرى تيلدا، أم لأن شابًا محترمًا سيزورنا؟ لا بدّ أنه يظن أن هذه الأخيرة لن تحدث أبدًا. مهما كان الأمر، فهذه أول مرة منذ عدة أسابيع أرى خطوط جبهته تسترخي.

«تبدو متعبًا مؤخرًا يا دا».

«إنه الحرف S. لقد مضت أربع سنوات ولم نصل بعد حتى منتصف الطريق. إنه عمل sapping (*يستنزف الطاقة*)، stupefying (*يُذهل العقل*)، soporific (*منوّم*)...» ثم صمت ليفكّر في كلمة أخرى.

فقلت: « Slumberous (نعسان)، somnolent (وسنان)، somniferous (باعث على النوم)».

«ممتاز»، قال وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ذكّرتني بألعاب الكلمات التي كنا نلعبها منذ سنوات. ثم نظر من فوق كتفي نحو النافذة. اتسعت ابتسامته. غنّت البوابة أخيرًا. شعرت بوخز قطرات العرق تحت إبطي، واعتراني شعور

بالسعادة عندما نهض أبي ليجيب على قرع الباب. وقف هو وغاريث يتحدثان في البهو بضع دقائق. وقفت ورحت أتفحّص وجهي في المرآة فوق المدفأة. قرصتُ خدّي.

***

لم أزر حانة توم العجوز منذ أن غادرت تيلدا أوكسفورد. عندما اقتربنا منها أنا وغاريث، أحاطت بي ذكريات عن بيل، ثم ذكريات *عنها*.

«هل كل شيء على ما يرام يا إسمي؟»

رفعت بصري ونظرت إلى اللافتة المعلّقة فوق باب الحانة الصغيرة، لوحة رسمت عليها صورة برج جرس كنيسة كرايست.

قلت: «نعم». فتح غاريث باب الحانة لأدخل أولًا.

كانت الحانة مزدحمة كما دائمًا. في البداية، ظننت أن تيلدا لم تأت. ثم رأيتها جالسة إلى طاولة مع ثلاث نساء أخريات في الجزء الخلفي. لا أظن أنها أحدثت الهرج الذي فعلته قبل سبع سنين: شققنا طريقنا أنا وغاريث بين مجموعات صغيرة من الرجال. لكن لم يسمعها أحد من الرجال تلك الكلمات اللطيفة. لم أشعر بالترحيب كما كنت أشعر في ذلك الحين.

نهضت تيلدا من كرسيها وعانقتني، وقالت: «أيتها السيدات، هذه إسمي. أصبحنا صديقتين بسرعة عندما كنتُ في أكسفورد آخر مرة».

«هل تعيشين هنا؟» سألتني إحدى النساء.

«نعم»، قالت تيلدا وشدّتني بذراعها، «مع أنها تختبئ في سقيفة صغير».

عبست المرأة. التفتت تيلدا إليَّ، وقالت: «إلى أين وصل تقدم قاموسك يا إسمي؟»

«وصلنا إلى حرف S».

«يا إلهي، حقًا؟ لماذا تسيرون ببطء شديد؟» تركتني وجلست.

نظرت النساء الأخريات إليّ ينتظرن ردًّا على سؤالها. لم تكن هناك كراسي إضافية.

«إننا نجمع في الوقت نفسه كلمات تبدأ بأحرف أخرى. إنها عملية مرهقة». لم تقل إحداهن شيئًا للحظة. اقترب غاريث أكثر قليلًا، وكنت سعيدة لأنه رافقني.

«وهذا...»، ترددت تيلدا وتظاهرت بأنها تفتش في ذاكرتها، «غاريث، أليس كذلك؟»

فقال: «يسعدني أن أراكِ مرة أخرى، ميس تايلور».

«تيلدا، أرجوك. وهؤلاء السيدات الجميلات هنّ شونا وبيتي وجيرت».

كانت شونا أصغر النسوة الثلاث، لا تتجاوز العشرين من عمرها. أما المرأتان الأخريان فكانتا أكبر مني بما لا يقل عن عشر سنين.

«لقد عرفتكِ الآن»، قالت جيرت، «كنت تساعدين تيلدا في تلك الليلة في حانة النسر والطفل»، ونظرت إلى تيلدا، «هل تتذكرين يا تيلدا؟ كانت تلك أول نزهة حقيقية لي خارج البيت».

فقالت تيلدا: «الأولى من بين العديد من النزهات».

«وستكون هناك نزهات كثيرة في المستقبل، بحسب الوتيرة التي نسير عليها». نظرت جيرت إليَّ، وأردفت، «لسنا قريبات من التصويت أكثر مما كنا عليه قبل عشر سنوات». استدارت بضعة رؤوس نحونا. عندما حدّقت تيلدا بهن أدرن وجوههن.

«وما رأيك في كلّ ذلك يا غاريث؟» قالت تيلدا.

«منح المرأة حقّ التصويت؟»

«لا، ثمن لحم الخنزير. طبعًا حقّ المرأة في التصويت».

فقال: «إنه يؤثر علينا جميعًا».

«إذن فأنت تؤيد»، قالت بيتي وقد فضح صوتها أصولها الشمالية، وتساءلت إن كانت قد جاءت من مانشستر مع تيلدا.

«طبعًا».

«لكن إلى أي مدى يمكنك أن تمضي؟» سألت بيتي.

«ماذا تقصدين؟»

«حسنًا، من السهل قول الشيء الصحيح»، ونظرت نحوي، «لكن لا معنى للكلمات من دون عمل».

فقال غاريث: «وفي بعض الأحيان، قد يصنع العمل كذبة من كلمات طيبة».

«وماذا تعرف عن كفاحنا يا غاريث؟» أسندت تيلدا ظهرها على الكرسي ورشفت رشفة من كاس النبيذ.

رجت ألتفت من واحدة إلى أخرى.

قال غاريث: «كان على أمّي أن تربيني وحدها عندما كانت تعمل في المطبعة. إني أعرف أشياء كثيرة».

عندما أطلقت جيرت صوتًا ساخرًا، رمقتها تيلدا بنظرة فصمتت. رفعت جيرت كأس الشيري إلى شفتيها، ورأيت خاتمًا ذهبيًا وخاتم ألماس كبيرًا في إصبعها. كانت أعلى من بيتي بطبقة اجتماعية أو طبقتين. ظلّت شونا صامتة طوال الحديث، رأسها محني باحترام، وخطر ببالي فجأة أنها قد تكون خادمة جيرت. بدأ قلبي يخفق بقوة.

«وماذا تعرفين عن كفاحنا يا جيرت؟» سألتها. بذلت شونا ما بوسعها لإخفاء ابتسامة.

«عفوًا؟»

«حسنًا، يبدو لي أننا لا نكافح جميعًا بنفس الطريقة. أليس صحيحًا أن السيّدة بانكهورست كانت مستعدة للتفاوض لأن تحصل النساء ذوات الأملاك والمتعلمات على حقّ التصويت، لكن ليس النساء مثل أمّ غاريث مثلًا؟»

جلست تيلدا فاغرة فمها، ابتسامة في عينيها. اعترى جيرت وبيتي الذهول، لكنهما لم تنبسا بكلمة. رفعت شونا عينيها لحظة، ثم عادت وأطرقت في حضنها. لاذ الرجال الجالسون إلى جانبنا بالصمت على الفور.

«ممتاز يا إسمي»، قالت تيلدا ورفعت كأسها الفارغة، «كنت أتساءل متى ستنضمين إلينا».

***

كانت ليلة باردة من ليالي كانون الثاني (يناير). عندما بدأنا نسير في شوارع أكسفورد عائدين إلى جيريكو، عرض غاريث أن أرتدي معطفه.

«أنا على ما يرام»، قلت له، «لكنك ستتجمّد من البرد إذا خلعته».

لم يلّح عليَّ. سألني، «ماذا تعني تيلدا بانضمامك؟»

«إنها تظن دائمًا أنني لا أستطيع أن أقرر عندما يتعلق الأمر بحق المرأة في التصويت».

«تبدو أفكارك شديدة الوضوح بالنسبة لي».

«حسنًا، قد يكون هذا أكثر شيء قلته حول هذا الموضوع، لكن تلك المرأة، جيرت، كانت سيئة ولم أستطع أن أتحملها».

فقال غاريث: «ولم يعجبني ما كنّ يلمحن إليه».

«*ماذا تقصد؟*»

«*أفعال لا أقوال*». فكّر قليلًا، ثم قال، «إسي، هل تعرفين لماذا جاءت تيلدا إلى أكسفورد؟»

إسي. لم ينادني غاريث من قبل قط إلَّا ميس نيكول. سرَت قشعريرة في جسدي.

«إنك تشعرين بالبرد»، قال وخلع معطفه ووضعه فوق كتفيّ. لامست يده عنقي بينما كان يعدّل ياقتي. حاولت أن أتذكّر ماذا سألني قبل قليل.

«جاءت من أجل المسيرة»، قلت وشددت معطفه حولي. كان دفئه لا يزال فيه، «وأنا. كنّا صديقتين لفترة من الزمن».

بدأنا نسير بخطوات وئيدة في شارع والتون، ومررنا من وراء سومرفيل كولدج، وتوقفنا عندما وصلنا إلى المطبعة. كانت مظلمة تمامًا، ما عدا الوهج البرتقالي المنبعث من أحد المكاتب فوق القنطرة.

«هارت»، قال غاريث.

«ألا يذهب إلى البيت أبدًا؟»

«المطبعة هي بيته. إنه يسكن في الطابق مع زوجته».

«وأين تسكن؟»

«بالقرب من القناة. كوخ عمال نشأت فيه مع أمّي. عندما ماتت، سمحوا لي أن أبقى فيه. إنه صغير جدًا ورطب جدًا لتعيش فيه أسرة».

«هل تحبّ العمل في المطبعة؟» سألته.

اتكأ غاريث على السور الحديدي، وقال: «هذا كلّ ما أعرفه. ليست مسألة حبّ».

«هل تخيّلت يومًا حياة مختلفة؟»

نظر إليَّ، ورفع رأسه قليلًا، وقال: «إنك لا تسألين الأسئلة المعتادة، أليس كذلك؟»

لم أعرف ماذا أقول.

ثم تابع قائلًا: «الأسئلة المعتادة ليست مثيرة للاهتمام عادة»، وأضاف، «أتخيّل أحيانًا أنني سافرت إلى فرنسا أو إلى ألمانيا. لقد تعلّمت أن أقرأ كلتا اللغتين».

«قراءة فقط؟»

«هذا كل ما يتطلبه عملي. كنت أتعلّم منذ أن كنت متدربًا. لقد فعل هارت ذلك. لقد أسس معهد كلارندون لتعليم العمال الجهلة، ولإعطاء الفرقة مكانًا للتدرب».

«هل توجد فرقة؟»

«طبعًا. وجوقة إنشاد».

عندما واصلنا السير، قلّت المسافة التي تفصل بيننا، لكننا لذنا بالصمت عندما انعطفنا إلى شارع أوبزرفاتوري. تساءلت هل سيطلب غاريث مني أن نخرج معًا مرة أخرى. كنت آمل أن يفعل ذلك، وتساءلت إن كنت سأقبل. عندما وصلنا إلى المنزل، كان أبي جالسًا في غرفة الجلوس أمام النافذة كما كان في بداية المساء. فتح الباب قبل أن أقرع الباب. لم يكن بوسعنا، أنا وغاريث، إلّا أن يودّع أحدنا الآخر.

***

لم تغادر تيلدا أكسفورد.

«أنامُ مع إحدى صديقاتي»، قالت لي، «لديها قارب ضيق عند مرفأ جدول كاسل ميل. أستطيع أن أرى برج جرس كنيسة القديس برنابا من النافذة إلى جانب سريري».

«هل هي مريحة؟»

«مريحة إلى حد كاف. وهي دافئة. إنها تعيش فيها مع أختها، لذلك قد يكون المكان ضيقًا بعض الشيء. إننا نتناوب عندما نغيّر ثيابنا». ابتسمت ابتسامة عريضة.

كتبتُ عنواني على قصاصة وأعطيتها لها، وقلت: «في حال...».

***

مضى الشتاء وحلّ الربيع. عندما سألت تيلدا عن سبب بقائها في أوكسفورد، قالت إنها تجمع عضوات للانضمام إلى (*الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة*). عندما ضغطتُ عليها، غيّرت الموضوع.

«ظننت أنني سأراك أكثر أثناء وجودي هنا»، قالت بعد ظهر أحد الأيام عندما كنا نسير في درب جدول كاسل ميل ذي الدربين، «لكن يبدو أنك تمضين وقت فراغك كلّه مع غاريث».

«هذا غير صحيح. نتناول الغداء معًا في جيريكو من حين لآخر، وقد رافقني إلى المسرح عدة مرات».

فقالت تيلدا: «إنك تحبين المسرح دائمًا. أوه، إسمي، يحمرّ وجهك خجلًا مثل تلميذة». أخذت ذراعي في ذراعها، وقالت: «أراهن أنك لا تزالين عذراء».

ازداد وجهي احمرارًا وأطرقت برأسي. لو أنها لاحظت، فقد اختارت ألَّا تقول شيئًا، وسرنا قليلًا من دون أن يقول أحدنا شيئًا. كان سطح الجدول مرتفعًا، وأحسست بلسعة بعوضة في مؤخرة رقبتي. «كيف حال القارب الضيق، فقد أصبح الطقس دافئًا الآن؟»

«يا إلهي. يبدو كأنني أعيش في علبة سردين تحت الشمس. نشعر كلّنا بأننا لسنا على ما يرام».

«يمكنك أن تأتي وتمكثي معنا، كما تعرفين. أنا متأكدة من أن أبي لا يمانع في رفقة إضافية». عرضت عليها، وأنا أعرف أنها سترفض.

فقالت: «لن أبقى هنا طويلًا. لقد أوشكت مهمتي على الانتهاء».

«إنك تتكلمين كما لو كنت في الجيش».

«وأنا كذلك يا إسمي. في جيش السيدة بانكهورست»، وأخذت تحية وهمية، وأضافت، (الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة).

قلت لها: «بدأت أحضر بعض الاجتماعات المحلية المتعلقة بحق المرأة في الاقتراع التي تحضرها السيدة موراي وبناتها»، وأضفت، «ويحضر بعض الرجال أيضًا، مع أن النساء هنّ اللاتي يتكلمن معظم الوقت».

فقالت تيلدا: «الكلام هو كل ما يفعلنه».

فقلت: «لا أظن أن هذا صحيح، فهن يصدرن مجلة، وينظّمن جميع أنواع الاجتماعات والمناسبات».

«ومع ذلك فهو مجرد كلام، أليس كذلك؟ نفس الكلمات يعيدونها ويكررونها، وماذا تغيّر؟»تذكّرت غاريث عندما سألني لماذا جاءت تيلدا إلى أكسفورد. كنت أعرف أنها لم تأت من أجلي، ربما جاءت لتزور صديقتها التي تعيش في الزورق الضيق. لكني أدركت الآن أنها جاءت لسبب مختلف تمامًا، لكنّي لم أرغب في أن أعرفه.

«كيف حال بيل؟» سألتها، ولم أنظر إليها.

كانت تيلدا تذكر بيل أحيانًا، لكنها تذكره دائمًا بصورة عابرة، وكنت ممتنة لأنها تفعل ذلك. لكنها ستغادر أكسفورد بعد فترة قصيرة. فجأة شعرت أنني أريد أن أعرف شيئًا عنه.

«بيل؟ ذلك الحقير. لقد حطّم قلبي. فقد حبّل فتاة غبية ولم يعد ينصت إليّ. غضبت منه غضبًا شديدًا».

«Knapped؟»

ابتسمت ابتسامة عريضة. «أعرف تلك النظرة. ألا تزالين تضعين تلك القصاصات في جيوبك؟»

هززت رأسي.

«أخرجي إحداها إذن».

توقفنا عن المشي، ومدّت تيلدا شالها على العشب إلى جانب الدرب. جلسنا.

«هذا جميل»، قالت بينما بدأت أجهّز قصاصة وقلم رصاص، «كما كنتِ تفعلين منذ زمن».

شعرت بذلك أيضًا، لكنّي كنت أعرف أن شيئًا لن يكون كما كان من قبل. «Knapped» قلتُ وكتبتها في القصاصة، «ضعيها في جملة».

استندت إلى مرفقيها، ورفعت وجهها إلى أول يوم صيفي. أخذت وقتها كعادتها، تريد أن يكون الاقتباس مناسبًا.

«حبّل بيل فتاة غبية وأصبح الآن أبًا، يعمل طوال النهار ونصف الليل ليطعم طفلته التي لا تتوقف عن البكاء والعويل».

كان من المفترض أن يكون معنى كلمة knapped واضحًا منذ أول مرة قالتها، لكن جِدَّة الكلمة جعلتني صمّاء لا أسمع الكلمات من كلا جانبيها. ارتعشت يداي قليلًا عندما أنهيت كتابة الجملة.

«إنه أب؟» قلت، وأنا أراقب وجه تيلدا. ظلّت عيناها مغمضتين من أشعة الشمس، ولم يتحرك فكها.

«ليتل بيلي بانتينج، أسميّه. عمره خمس سنوات. جميل مثل برعم، يحبّ عمته تيدي». ثم نظرت إليّ، «لا يزال يناديني هكذا، مع أنه يستطيع أن يتكلّم مثل أي شخص آخر. إنه ذكي مثل بيل عندما كان في عمره».

نظرت إلى القصاصة.

KNAPPED

.Pregnant

Bill got some silly girl knapped and now he’s a daddy, working all day and“
”.half the night to feed his squalling babe

Tilda Taylor, 1913

(حامل

«حبّل بيل فتاة غبية وأصبح الآن أبًا، يعمل طوال النهار ونصف الليل ليطعم طفلته التي لا تتوقف عن البكاء والعويل».

تيلدا تايلور، 1913)

لم يخبرها بيل شيئًا عنّا. لم يتبجّح ولم يعترف. لم تكن تلك المرة الأولى، منذ أن تخليّت عنها، التي تمنيت لو أنني استطعت أن أحبّه.

***

ناداني الدكتور موراي، وقال: «إسمي، أتوقع أن يزداد حجم عملك ومسؤولياتك خلال الأشهر القليلة القادمة».

هززت رأسي كما لو أن ذلك لا شيء، لكنّي كنت أتوق إلى تحمّل مزيدٍ من المسؤولية.

«سيغادرنا السيد دانكورث في نهاية اليوم وسيبدأ العمل مع فريق السيد كريجي غدًا»، وتابع الدكتور موراي، «أعتقد أنه سيكون رديفًا قويًا لمحررنا الثالث. إنك تعرفين، أكثر من معظم الناس، أنه رجل صارم ودقيق». اهتزت شعيرات لحيته وارتفع حاجباه قليلًا، « هذه الخصائص ستعجّل كثيرًا من وتيرة العمل في أقسام كريجي».

خبران ساران في حديث واحد. لم أكد أعرف كيف أجيب.

«حسنًا، ماذا تقولين؟ هل تقبلين ذلك؟»

«نعم، دكتور موراي. طبعًا. سأبذل قصارى جهدي لأملأ الفراغ».

«إن أفضل ما لديك يكفي يا إسمي»، وعاد يركّز انتباهه على الأوراق أمامه.

انتهى حديثه معي، لكنّي لم أتحرك من مكاني. عضضت على شفتي وعصرت يديّ. تحدّثت بسرعة قبل أن أتمكّن من أمنع نفسي.

«دكتور موراي؟»

«نعم»، لم يرفع عينيه.

«إذا كان عليّ أن أؤدي مزيدًا من العمل، فهل سينعكس ذلك على راتبي؟»

«نعم نعم. طبعًا. اعتبارًا من الشهر القادم».

كان من الواضح أن السيّد دانكورث يفضّل أن يذهب من دون أي حفل وداع، لكن السيّد سويتمان لم يدع الأمر يمرّ من دون وداعه. ففي نهاية اليوم، نهض من على كرسيه وبدأ يودّعه، ثم حذا المساعدون الآخرون حذوه، وكرّر كلّ واحد منهم المجاملات المعتادة والتعليقات حول دقة ملاحظة السيد دانكورث. ولم يكن أحد يعرف أشياء عديدة عن السيد دانكورث ليقول له شيئًا محددًا.

عانى السيد دانكورث من تمنياتنا الطيبة ومصافحتنا له، وجفّف يده مرات عدة على ساق بنطاله.

«شكرًا يا سيّد دانكورث»، قلت له وقد أعفيته من عناء مصافحة يد أخرى، فأملتُ رأسي له قليلًا. بدا أنه شعر بالارتياح. وعندما قلت له: «لقد تعلّمت منك الكثير»، ارتبك، وقال: «أنا آسف لأنني لم أُظهر لك مشاعر الامتنان دائمًا».

حاول السيّد سويتمان إخفاء ابتسامته العريضة. سعل وعاد إلى مكانه إلى طاولة الفرز، ثم انسحب الآخرون. حاولت أن أنظر في عينيّ السيّد دانكورث مباشرة، لكنه ركّز بصره وراء كتفي الأيمن.

«أهلًا بك ميس نيكول»، ثم استدار وغادر المَنْسَخ.

بعد ذلك بقليل، وصل غاريث، وسلّم الدكتور موراي بعض مسودات الطباعة التي كان ينتظرها، وسلّم على أبي والسيّد سويتمان، ثم جاء إليَّ.

قال: «آسف لقد تأخرت، فقد اختار السيّد هارت بعد ظهر اليوم أن يذكّرنا جميعًا بالقواعد».

«القواعد التي في كتيّبه؟»

فضحك غاريث، وقال: «أول الغيث قطرة يا إس. فلكلّ غرفة في المطبعة قواعدها الخاصة بها. لا بد أنكِ رأيتها معلّقة على الحائط عندما تدخلين؟»

هززت كتفي بطريقة تشي بالاعتذار.

«حسنًا، يرى المشرف أننا نغضُّ البصر عنها، وحرص على أن يقرأها كلّ واحد منا بصوت عالٍ قبل أن يغادر المطبعة مساء اليوم»، ثم ابتسم، وأضاف، «بصفتي المديرِ الجديد، كان عليَّ أن أكون آخر شخص».

«مدير؟ أوه، غاريث، مبروك». ومن دون أن أفكّر، قفزت وعانقته.

فقال غاريث، «لو كنت أعرف أن ردة فعلك ستكون هكذا، لكنت قد طلبت ترقية منذ زمن».

التفت أبي والسيد سويتمان ليريا سبب ما يحدث. وابتعدت قبل أن تطوقني ذراعا غاريث.

مضطربة، أخذت حقيبتي وربطت قبعتي، وتوجهت إلى أبي وقبّلته على رأسه، وقلت: «قد أعود إلى المنزل في وقت متأخر الليلة. قالت السيّدة موراي إنه قد يكون اجتماعًا طويلًا».

«لن أنتظر، إذا كنت ترين ذلك يا إسي، لكنّي متأكد من أن غاريث سيوصلك إلى المنزل بأمان»، قال أبي وابتسم تلك الابتسامة التي تشي بالإرهاق.

عندما بدأنا نسير في شارع بانبري رود، حكيت لغاريث عن ترقيتي أيضًا.

«حسنًا، إنها ليست ترقية حقيقية – فأنا ما أزال في أسفل السلم مع روزفريث - لكنه نوع من التقدير».

فقال: «إنك تستحقينها».

سألته، «لماذا تظن أن الرجال يحضرون هذه الاجتماعات؟»

«لأن منظمّي جمعية *أكسفورد لحقّ المرأة في الاقتراع* وجّهوا الدعوة لهم».

«غير ذلك».

«لأسباب مختلفة، كما أظن. إذ يريد البعض ما تريده زوجاتهم وأخواتهم، وطلب من آخرين أن يكونوا داعمين، أو أشياء من هذا القبيل».

«أي واحد من هؤلاء أنت؟»

ابتسم، وقال: «الفئة الأولى طبعًا»، وسرعان ما استدرك وقال: «عاشت أمّي حياة قاسية يا إسي. حياة قاسية جدًا، ولا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك. إني أحضر هذه الاجتماعات من أجلها».

***

انتهى الاجتماع بعد منتصف الليل. عدنا في صمت متعب ومريح إلى شارع أوبزرفاتوري.

عندما فتحتُ البوابة، حاولت ألَّا ينبعث منها صوت، لكنها أبت إلَّا أن تصدر نغمة حلوة، مزعجة لشخص لم ألاحظ أنه مختبئ في الظلام.

«تيلدا، ماذا تفعلين هنا بحق السماء؟»

أخذ غاريث المفتاح مني وفتح الباب. أدخلنا تيلدا إلى المطبخ وأشعلنا الضوء. كانت في حالة يرثى لها.

«ماذا حدث؟» سألها غاريث.

«لا أظن أنكما تريدان أن تعرفا ما حدث، ولن أخبركما. لكنّي أحتاج إلى مساعدتك إسمي. أنا آسفة جدًا. لم أكن لآتي لو لم أصب بجروح».

كانت أكمام فستانها متسخة - لا، لم تكن متسخة وإنما محترقة، تتدلّى في مِزَق متفحمّة، تسند يدًا فوق يدها الأخرى.

«أرني»، قلت لها.

كان جلد يدها مبرقشًا بالأحمر والأسود، لم أعرف إن كانت أوساخًا أم جلدًا محترقًا. وخزتني أصابعي المحترقة بذاكرة ما.

«لماذا لم تذهبي إلى الطبيب مباشرة؟» سألها غاريث.

«لم أستطع أن أجازف بذلك».

فتّشت في الخزانة عن مراهم وضمادات، لكن كلّ ما وجدته لصقات وأدوية للسعال. كانت ليلي ستجّهز الخزانة بشكل أفضل، وكانت ستعرف ما الذي يجب أن تفعله، قلت في نفسي.

«غاريث، اذهب وأحضر ليزي. قل لها أن تُحضر حقيبة الدواء لديها - شيئًا لمعالجة الحروق».

«لقد تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير يا إسي. ستكون نائمة الآن».

«ربما. إنها تُبقي باب المطبخ مفتوحًا دائمًا. نادها من أعلى الدرج. لا تثر ذعرها. ستأتي».

عندما ذهب غاريث، ملأتُ ماء باردًا في وعاء ووضعته على طاولة المطبخ أمام تيلدا. سألتها، «هل ستخبرينني بمَ حدث؟»

«لا»

«لماذا؟ هل تظنين أنني لن أوافق على ما فعلته؟»

«أعرف أنك لن توافقي».

سألتُ السؤال الذي لم أكد أريد أن أسمع الإجابة عنه. «هل أصيب أحد آخر بأذى يا تيلدا؟»

نظرت تيلدا إليَّ. بدا على وجهها ظلّ من الشك والخوف، وقالت: «صدقًا لا أعرف».

امتلأ صدري بالشفقة، لكن الغضب هيمن عليه. التفتُ وفتحتُ أحد الأدراج، وأخرجتُ منشفة شاي نظيفة وأغلقته بقوة، «مهما كان الشيء الذي فعلته، ماذا تظنين أنك ستحققين؟» عندما عدت إلى تيلدا، غادرها الشك والخوف.

«الحكومة لا تنصت إلى كلّ ذلك الكلام المنمق والمنطقي الذي يقوله مناصرو حق المرأة في الاقتراع، لكنها لا تستطيع أن تتجاهل ما نفعله».

أخذتُ نَفَسًا عميقًا وحاولتُ أن أركّز على يدها. «هل تؤلمك؟»

«قليلًا».

«لم تؤلمني يدي، لذلك قد يكون ذلك جيدًا»، قلت لها ورفعتُ ذراعها حتى أصبحت يدها فوق وعاء الماء. عندما قاومت، دفعتها إلى الأسفل. لم تتذمر. بثور كبيرة شوّهت أصابعها. بدأت يدها كلّها تتورم. تحت الماء، تضخّم شكل الجلد المتفحّم والغاضب وبدا صادمًا إزاء نحافة معصمها الشاحب.

«أريد نفس الأشياء التي تريدينها يا تيلدا، لكن هذه ليست الطريقة الصحيحة. لا يمكن أن تكون».

«لا توجد طريقة صحيحة يا إسمي. لو كانت هناك طريقة صحيحة، لكنّا قد صوتنا في الانتخابات الأخيرة».

«هل أنتِ متأكدة من أن هدفك هو تحقيق هذا التصويت، لا لفت الاهتمام فقط؟»

ابتسمت ابتسامة واهية، وقالت: «إنك لستِ مخطئة. لكن لو تمكنت من جعل الناس يلاحظون، فقد يجعلهم ذلك يفكّرون».

«قد يعتقدون أنك امرأة مجنونة وخطيرة. لن يتهاونوا في ذلك».

رفعت تيلدا رأسها ونظرت إليّ، وقالت: «حسنًا، ربما يحدث ذلك عندما تُسمع كلمات المطالبين بحقّ المرأة في الاقتراع العقلانية».

غنّت البوابة. قفزت لأفتح الباب. وقفت ليزي عند العتبة، مذهولة. عندما نظرت خلفي إلى البهو، أدركت أنها تأتي إلى منزلي لأول مرة.

«ليزي، شكرًا لله». أغلقت الباب وراءهما وسرت بهما إلى المطبخ.

لم تكد ليزي تقرّ بوجود تيلدا، لكنها أمسكت ذراعها برفق ورفعت يدها عن وعاء الماء. وضعتها على منشفة الشاي وجفّفت الجلد المحروق.

«قد يبدو الأمر أسوأ مما هو في الواقع»، قالت أخيرًا، «فالبثور تعني عادة أنه توجد تحتها بشرة سليمة. حاولي ألّا تفقأيها بسرعة». أخرجت من حقيبتها الجلدية قنينة مرهم صغيرة وفتحت السدادة. أمسك غاريث القنينة بينما راحت ليزي تدهن المرهم على جلد تيلدا المتقشّر، حريصة على أن تتفادى البثور. مرة واحدة فقط أخذت تيلدا نَفَسًا حادًا. في تلك اللحظة، نظرت إليها ليزي، والتقت أعينهما لأول مرة. غمر القلق وجه ليزي.

لفّت ليزي يد تيلدا بالشاش، وقالت لها: «لا يمكنني أن أعدك بأنها لن تتحول إلى ندبة».

«إذا تحولت إلى ندبة، سأصبح في رفقة جيدة»، قالت تيلدا وهي تنظر إليّ.

«ويجب أن تري طبيبًا».

هزّت تيلدا رأسها.

«حسنًا»، قالت ليزي، «إذا كان هذا كلّ ما تحتاجين إليه، فإني سأعود إلى سريري».

وضعت تيلدا يدها السليمة على ذراع ليزي، وقالت: «أعرف أنك لا توافقين على ما أفعله يا ليزي، وأنا أفهم سبب ذلك. لكنّي ممتنة لك كثيرًا».

«أنت صديقة إسمي».

فقالت تيلدا: «كان بإمكانك أن تقولي لا».

«لا، لا أستطع». عندها وقفت ليزي ودعت غاريث ليرافقها إلى باب البيت. عندما حاولتُ أن أنظر في عينيها، أشاحت بوجهها. في الساعة الثالثة صباحًا عاد غاريث بعد أن أوصل ليزي إلى البيت.

«هل ستسامحينني؟» سألتها.

«شيء مضحك، فقد سألتني نفس السؤال عنك»، ثم التفتَ إلى تيلدا، وقال، «سينطلق قطار إلى لندن عند الساعة السادسة صباحًا. هل تظنين أنك يجب أن تسافري به؟»

«نعم. أظن ذلك».

التفت غاريث إليّ، وقال: «هل يمانع والدك لو بقيت تيلدا هنا حتى ذلك الوقت؟

«لن يعرف دا. ليس من المحتمل أن يستيقظ قبل السابعة».

«هل توجد لديك أشياء كثيرة يجب أن تجلبيها من القارب الضيق؟» سأل تيلدا.

«لا شيء مهم، إذا وافقت إسمي على إعارتي بعض الثياب النظيفة».

ارتدى غاريث سترته، وقال: «سأعود بعد ساعتين لأرافقك إلى المحطة».

«لستُ بحاجة إلى شخص يرافقني».

«نعم، أنتِ بحاجة».

عندما غادر غاريث، صعدت إلى الطابق الأعلى على أطراف أصابعي، ووجدت ثوبًا يمكن أن يناسب تيلدا. كان الثوب طويلًا بعض الشيء ولا يكاد يناسب امرأة مثلها، لكن الحاجة تتطلب ذلك. عندما عدت إلى البهو، كانت تيلدا قد غطّت في النوم.

وضعت غطاء فوقها، وتساءلت متى سنرى بعضنا مرة أخرى. فقد كنت أحبّها وأخاف عليها. تساءلت إن كان هذا هو شعور أن تكون أختًا. فأنا لستُ رفيقة - أعرف أنني لست كذلك- وإنما أخت من لحم ودم. مثل روزفريث وإلسي. مثل ديتي وبيث. رحت أراقبها وهي تتنفس، ورأيت عينيها ترمشان. حاولت أن أتخيّل بمَ تحلم.

عندما تسلل ضوء النهار الشاحب من النوافذ الأمامية، سمعتُ البوابة تغنّي.

***

نشرت صحيفة *أوكسفورد تايمز* قصّة مرفأ راف للقوارب. فلم يتمكن فوج الإطفاء من الحيلولة دون احتراق كل شيء، وقُدِّرت الأضرار بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه إسترليني، وأضافت الصحيفة أن أحدًا لم يصب بأذى، لكن شوهدت أربع نساء يهربن؛ ثلاث نساء هربن في قارب صغير، وامرأة هربت إلى داخل المدينة، ولم يُقبض على أي منهن، لكن يشتبه بأنهن من الداعيات إلى حقّ المرأة في الاقتراع، بعد أن وزعن منشورات تستهدف نوادي التجديف لأنها تمنع مشاركة المرأة في هذه الرياضة. وتُعتبر عملية الحرق المتعمد هذه تصعيدًا للحملة التي يقدنها. وقد أدانت منظمات مناصرة حقّ المرأة في الاقتراع في أكسفورد هذه الأعمال العدائية وبدأت تجمع أموالًا للعمال الذين فقدوا عملهم نتيجة ذلك.

عندما دخلت السيدة موراي إلى المَنْسَخ في اليوم التالي تحمل بيدها وعاء لجمع تبرعات، أعطيتها كل ما لديّ من نقود في جيبي.

«هذا كرم كبير منك يا إسمي»، قالت وهي تهزّ الإناء «إنها قدوة للسادة الجالسين حول طاولة الفرز».

نظر أبي نحوي وابتسم، فخورًا لكنه لا يعرف حقيقة ما جرى.

أيار (مايو) 1913

لم أستطع أن أودّع دا. عندما أخذوه من المنزل، كان أحد جانبي وجهه قد انهار ولم يعد قادرًا على أن يتكلم. قبّلته وقلت إنني سألحق به، وسأحضر له منامته والكتاب الذي كان إلى جانب سريره. كانت عيناه يائستين عندما كنت أهذي بهذا الكلام.

غيّرت ملاءات سريره ووضعت المزهرية المليئة بالورود الصفراء؛ التي كنت قد رتبتها لغرفتي على المنضدة إلى جانب سريره. رفعت الكتاب الذي كان يقرأه؛ (الحصول على الحكمة) رواية أسترالية، كما قال لي دا، «تدور قصتها حول شابة ذكية. يصعب تصديق أن رجلًا هو الذي كتبها. أظن أنك ستحبينها كثيرًا». ربما كان من الممكن أن نتحدّث عنها أكثر، لكنّي لم أستطع. أسترالي. استأذنته وغادرت الطاولة.

عندما وصلت إلى مشفى رادكليف، قالوا لي إنه رحل.

رحل. قلت في نفسي. إنها كلمة غير مناسبة على الإطلاق.

***

حمل غاريث مرتبة إلى أعلى الدرج الضيق إلى غرفة ليزي، ونمت هناك حتى يحين موعد الجنازة. جمعت ليزي كلّ ما أحتاج إليه من المنزل كي لا أضطر للذهاب إليه وأرى الفراغ الذي أصبح يغمره، لكني لم أستطع ألّا أتصوّر ليزي وهي تنتقل من غرفة إلى غرفة للتأكد من أن كلّ شيء على ما يرام. في مخيلتي، تبعتها من باب البيت الخارجي، ورأيتها تجمع البريد، ثم توقفت

وتساءلت ماذا يجب أن تعمل بالرسائل. خيّل إليّ أنها ستحميني مما قد تحتوي عليه الرسائل وتتركها على الطاولة إلى جانب الباب.

لم أشأ أن أذهب أبعد من ذلك، لكني أعرف أن ليزي ستمّد رأسها إلى غرفة الجلوس، ثم إلى غرفة الطعام التي لم نستخدمها قط. ستذهب إلى المطبخ وتغسل الأطباق المتسخة، وتتأكد من أن جميع النوافذ مغلقة بإحكام، وتتحقق من قفل كل باب، ثم تضع يدها على الدرابزين أسفل الدرج وترفع بصرها، وتأخذ نَفَسًا عميقًا وتبدأ تصعد الدرج. مع مرور كلّ سنة، بدأ وزنها يزداد قليلًا، وأصبح ذلك ديدنها. لقد رأيت ذلك آلاف المرات عندما كنت أتبعها وهي تصعد الدرج إلى غرفتها.

أردت أن يتوقف ذلك، لكن لم تعد لديَّ القدرة على السيطرة على أفكاري. تخيّلتها وهي تبحث في خزانة ملابسي عن ثوب أسود، وبدأ بكائي. ثم تذكّرت الورود المركونة إلى جانب سرير دا. ستجدها ليزي قد ذبلت. سترفع المزهرية وتأخذها إلى الطابق الأرضي، وستتساءل إن كان أبي قد استمتع برؤيتها وهي في أزهى حالاتها قبل أن يُنقل إلى مشفى رادكليف.

أردت أن تبقى الأزهار في مكانها. لا لتتعفن، وإنما لتبقى، تذبل قليلًا، إلى الأبد.

***

الخامس من أيار (مايو) 1913

عزيزتي إسمي

سأصل إلى أكسفورد بعد يوم غد، ولن أتركك طوال فترة وجودي هناك. سيدعم أحدنا الآخر. بالطبع، سيكون عليك أن تصافحي الكثير من المعزين، وستستمعين إلى القصص التي سيرونها عن لطف أبيك (ستكون هناك قصص كثيرة)، لكنّي سأبعدك، في الوقت المناسب، عن الشطائر والمعزين، وسنخرج ونتجوّل من جدول ميل كاسل إلى جسر والتون بريدج. كان هاري يحبّ تلك البقعة. ففي هذه البقعة بالذات طلب أبوك يد ليلي ليتزوجها.

ليس هذا الوقت المناسب لتكوني قوية يا فتاتي العزيزة. فقد كان هاري أبًا وأمًا لك، ووفاته ستجعلك تشعرين بالضياع. كان أبي عزيزًا جدًا عليَّ، ولا أعرف الكثير عن الأشياء التي تؤلم قلبك. دعيه يتألم.

لا يزال صوت أبي يتردد في رأسي كلما احتجت إلى نصيحة جيدة. أظن أنك ستفعلين ذات الشيء كلما احتجتِ إلى ذلك. في أثناء ذلك، استفيدي إلى أقصى درجة من ذلك الشاب الذي ارتبطتِ به. «ستحبّه ليلي كثيرًا»، قال لي هاري في رسالته الأخيرة. هل قال لك ذلك؟ لا يمكن أن تكون هناك نعمة أعلى من ذلك.

أتوقع أنك تقيمين الآن في غرفة ليزي. سأذهب إلى سانيسايد من محطة القطار مباشرة.

كلّ محبتي،

ديتي

***

كما وعدت، أبعدتني ديتي عن جميع المعزين. لم نودعهم. خرجنا إلى الحديقة، واجتزنا المَنْسَخ ثم توجهنا إلى شارع بانبري رود. في شارع سانت مارغريت رود، أدركت أن غاريث معنا، يسير على مسافة بضع خطوات. سرنا بصمت حتى وصلنا إلى الطريق المحاذي لمرفأ رسو القوارب على امتداد جدول ميل كاسل.

«كان هاري يأتي بعد ظهر كلّ يوم أحد إلى هذا المكان يا غاريث»، قالت ديتي.

أصبح غاريث يسير إلى جانبي الآن.

«كان يأتي إلى هذا المكان ليناقش ما جرى خلال الأسبوع مع ليلي. هل تعرفين ذلك يا إسمي؟»

لم أكن أعرف.

«أقول يناقش، لكنه كان في الحقيقة يتأمل. كان يمشي على امتداد هذا الدرب ورأسه مليء بهموم الأسبوع، وما إن يصل إلى جسر والتون بريدج، حتى تبدأ الهواجس الأكثر إلحاحًا تملأ عقله. كان يقول إنه يجلس ويفكّر في الأمور كما تراها ليلي». نظرت إليها لأرى إن كانت ستواصل كلامها أم أنها ستصمت. تمنيّت أن تواصل، لكنّي لم اقل لها شيئًا.

«طبعًا كنتِ أنتِ الموضوع الرئيسي لتلك المحادثات بينهما، لكنّي فوجئت عندما سمعت أنه يشاور ليلي أيضًا في كلّ شيء بدءًا من الثياب التي يجب ارتداؤها إلى أشياء أخرى مثل إن كان عليه أن يشتري لحم ضأن أم لحم عجل من أجل غداء يوم الأحد.. في مناسبات قليلة كان يقرر تناول شواء مع كل المقبلات».

شعرت بأصغر ابتسامة ترتسم على شفتي عندما تذكرت لحم العجل؛ نيئًا أم محترقًا، ونزهاتنا يوم الأحد إلى جيريكو.

«حقًا»، قالت ديتي وهي تضغط على ذراعي.

إنها هدية، هذه القصة. عندما كنت أستمع إلى ديتي، تبرز ذكرياتي الحياتية مع أبي، مثل رسام يمكن أن يضيف لمسة من الألوان ليعطي انطباع ضوء الصباح. ليلي الغائبة دائمًا، فجأة لم تعد غائبة.

«ها هي»، قالت ديتي عندما اقتربنا من الجسر، «هذا هو المكان الذي كانا يلتقيان فيه».

مع أنني مشيت كثيرًا تحت هذا الجسر، لكنه بدا لي الآن مختلفًا تمامًا. أمسك غاريث بيدي وقادني إلى المقعد عند حافة الدرب، والتصق بي إلى درجة أنه شعر بجسدي يرتعش.

ليس من المفترض أن يحدث ذلك، قلت لنفسي. عندما ارتعش جسدي، هل كنت أفكّر في أبي أم في غاريث؟ لم يمسك غاريث يدي قبل الآن قط. كنت أعتقد أن أبي سيبقى معي إلى الأبد.

جلسنا. لم يكد تيار الماء يتحرك تحت الجسر، لكن تموجات صغيرة كانت تعكّر صفو سطح الماء من حين لآخر. تخيّلت أبي وهو جالس هناك، تاركًا أفكاره تسرح في مدّ وجزر.

«لقد ترك أحدهم أزهارًا هنا»، قال غاريث.

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه، وكذلك ديتي، ورأينا باقة من الأزهار وضعت بعناية إلى جانب قوس الجسر. لم تكن نضرة، لكنها لم تكن ذابلة تمامًا. زهرتان أو ثلاث زهرات لا تزال تحافظ على شكلها ولونها.

سمعتُ ديتي تقول بصوت متهدج، «يا إلهي، إنها من أجل ليلي».

اضطربتُ. اقترب غاريث مني أكثر.

سالت دموع بهدوء على طول التجاعيد حول عينيّ ديتي. كنتُ معه بعد جنازتها. لم أكن أعرف أنه لا يزال يجلب لها الأزهار».

نظرت حولي، أكاد أتوقع أنني سأراه. لم تمض سوى بضعة أيام، لكنّي اعتدت على خدعة الحزن هذه، ولأول مرة لم تسيطر عليّ. بدا النفس الذي ملأ رئتيّ أسهل. قبل أن أدعه يخرج، شممت رائحة أزهار النرجس البري التي بدأت تتعفن. لم يكن أبي يحبّها، لكنه قال لي إنها الأزهار التي تحبّها ليلي.

***

لم أستطع أن أتقبل غياب دا؛ كنت أشعر بوجوده كلما انعطفت إلى شارع أوبزرفاتوري، وكلما فتحت باب منزلنا، وكلما اجتزت عتبة البيت. مكثت ليزي معي بضعة أسابيع، وتلاشت رائحة غليون أبي مع روائح طهوها. في الصباح، كنت أستيقظ عندما تستيقظ ونمشي إلى سانيسايد. أساعدها في المطبخ لمدة ساعة لأعوض لها عن بعض الوقت الذي أضاعته في البقاء معي، وعندما يصل أول شخص إلى المَنْسَخ، أجتاز الحديقة وأذهب إليه.

ظلّ هناك مكان فارغ على طاولة الفرز لم يملؤه أحد. ربما كان ذلك بدافع الاحترام لي، لكن من المكان الذي أجلس فيه، أرى كيف يقترب السيّد سويتمان من كرسي أبي كثيرًا، وكيف كان السيّد مالينغ ينظر مرارًا إلى ذلك الاتجاه، وثمة سؤال على لسانه. تقدّم الدكتور موراي في السن في الأسابيع والشهور التي أعقبت وفاة دا. كان يحدّق في طاولة الفرز، ولم يبحث عن مساعد جديد. كرهت الفراغ الذي تركه أبي وبدأت أتحاشى النظر إليه كلما دخلت إلى المَنْسَخ.

كان الحزن يغمرني؛ احتشد في أفكاري وملأ قلبي ولم يترك مكانًا لأي شيء آخر. بدأت أخرج مع غاريث بين الحين والآخر. عندما يهطل المطر، نتناول الغداء في جيريكو، وعندما يكون الطقس لطيفًا، فإننا نتمشّى في شارع شيرويل. لقد أدرك نبات الزعرور البري الشهور التي انقضت منذ وفاة دا: ونضج التوت ثم سقطت أوراق الأشجار. تساءلنا إن كان الشتاء سيجلب معه الثلج هذه السنة. اعتبرت صداقة غاريث أمرًا مسلمًا به. كنت بحاجة إليها لأملأ الفراغ، ولم أتمكن من التفكير في أي شيء أكثر أو أقل من ذلك. عندما كان يسعى لأن يأخذ ذراعي في ذراعه، لم أكن ألاحظ إلّا بعد أن يسحب يده.

اقترب عيد الميلاد، وأصرّت عمتي على أن أزورها وأزور أبناء عمتي في أسكوتلندا. من دون دا، أصبحوا يبدون لي غرباء. اختلقتُ أعذارًا وسافرت إلى باث بدلًا من ذلك، حيث أطلقت ديتي وبيث قدرًا كبيرًا من الروح المرحة والبراغماتية وكيك ماديرا. عدت إلى أكسفورد بعد أن شعرت أنني أصبحت أكثر خفة مما كنت عندما غادرتها.

***

عندما دخلت إلى المَنْسَخ في اليوم الثالث من عام 1914، كان يجلس مساعد جديد في المكان الذي كان أبي يجلس فيه ذات يوم. لم يكن السيد رولينغز شابًا ولم يكن متقدمًا في السن. لم يكن شخصًا مميزًا، ولم يكترث بمن كان يجلس في ذلك الكرسي.

كان مصدر ارتياح كبير لنا جميعًا.

الجزء الخامس 1914- 1915
كئيب Sullen
كئيب - خطاب Speech

آب (أغسطس) 1914

كان هناك همهمات أصوات عالية جديدة في المَنْسَخ، شعرت بها مثلما يمكن أن يشعر أي حيوان بقرب هبوب عاصفة عندما يكون هناك انخفاض في ضغط الهواء. إن احتمال نشوب حرب عزّز من حدّة حواسنا. كان الشبان في أنحاء أكسفورد يستمتعون بفصل الربيع، أصبحت خطواتهم أطول، ويتحدثون بصوت أعلى.. أو هكذا بدا لي. كان الطلاب دائمًا يرفعون أصواتهم أكثر من اللازم لإثارة إعجاب فتاة جميلة أو لإبهار أحد سكان المدينة. كانت الموضوعات التي يتحدّثون عنها في الماضي أكثر تنوعًا، لكن ذلك توقف الآن. فلم يعد الطلاب وأهالي البلدة يتحدثون عن شيء إلّا عن الحرب التي بدأ معظمهم يرى أنها أصبحت وشيكة.

في المَنْسَخ، بدأ المساعدان الجديدان يمضيان فترات استراحتهما في الحديث عن المواجهة الوشيكة وجهًا لوجه مع قيصر ألمانيا والانتصار في الحرب حتى قبل أن تبدأ. كانا شابين صغيرين شاحبين ونحيفين، يضعان نظارات، وإذا خاضا أي معارك في حياتهما، فقد كانت تلك المعارك تدور حول كتب المكتبة أو القواعد اللغوية الصحيحة. ولم يكن بإمكان أحدهما أن يقترب من الدكتور موراي من دون خطوات مترددة وتلعثم، فرأيت أنه ليس من المرجح أن يقنعا القيصر بأن يتخلّى عن بلجيكا. أما المساعدون الأكبر سنًّا، فكانت أحاديثهم أكثر رصانة وعقلانية، تتجهم وجوههم أكثر مما يحدث عندما يختلفون حول الكلمات. كان رولينغز قد فقد شقيقه في حرب البوير، وعندما قال للشابين إنه لا يوجد مجد في القتل، هزّا رأسيهما بتهذيب، لكنهما لم يلاحظا التردد في صوته، وقبل أن يبتعد عن مدى سمعهما، عادا يتحدثان عن تفاصيل الالتحاق بالجيش، وتساءلا حول فترة تدريبهما قبل أن يُرسلا إلى المعركة. انحنى السيد رولينغز تحت وطأة كلامهما.

«ستُبطئ هذه الحرب وتيرة العمل في القاموس»، سمعتُ السيّد مالينغ يقول للدكتور موراي، «إنهم يريدون أن يحملوا في أيديهم بندقية، لا قلم رصاص».

منذ ذلك الحين، بدأت أستيقظ صباح كل يوم وقد تملكني خوف شديد.

***

لم يغمض لأحد جفن في ليلة 3 آب (أغسطس) حتى عندما أووا إلى فراشهم وبذلوا كلّ ما بوسعهم. سافر المساعدان الشابان إلى لندن وأمضيا الليلة الدافئة هناك يتسكعان في شارع بول مول، ينتظران كلمة بأن ألمانيا قد أعلنت انسحابها من بلجيكا. لكنها لم تأت. وعندما دقت ساعة بيغ بن معلنة الساعة الأولى من بدء يوم جديد، راحا ينشدان «ليحفظ الله الملك».

في اليوم التالي، عادا إلى المَنْسَخ مفعمين بشجاعة لا تناسبهما. اقتربا من الدكتور موراي معًا وأخبراه بأنهما تطوّعا في الجيش. «كلاكما قصيرا النظر وغير لائقين»، سمعت الدكتور موراي يقول لهما، «ستفيدان بلدكما أكثر لو بقيتما هنا».

أصبح التركيز على العمل أمرًا مستحيلًا. مشيت بدراجتي إلى المطبعة. لم أعهدها هادئة هكذا من قبل. في غرفة التنضيد، كان هناك رجل واحد فقط يقف أمام نصف المناضد.

«اثنان فقط؟» قال غاريث عندما أخبرته بما جرى في المَنْسَخ، «لقد خرج ثلاثة وستون رجلًا من المطبعة صباح اليوم. تطوّع معظمهم في *القوة الإقليمية*، لكن ليس كلهم. كان من المفترض أن يكونوا خمسة وستين شخصًا، لكن السيّد هارت أخرج منهم اثنين يعرف أنهما تحت السن القانونية، وقال لهما إنه سيمنحهما مكانًا يختبئان فيه كما منحتهما أمهما من قبل».

كان السيد مالينغ محقًا: فقد أبطأت الحرب وتيرة العمل في القاموس. ففي خلال بضعة أشهر، لم يبق في المَنْسَخ إلّا النساء والرجال المسنون. وقد غادر السيّد رولينغز الذي لم يكن متقدمًا في العمر بسبب مشكلة عصبية، وأصبح هناك فراغ في الطرف الآخر من طاولة الفرز من جديد، لم يملؤه أحد.

وفي مكتبة أشموليان، انخفض عدد الذين يعملون مع السيّد برادلي ومع السيّد كريجي أيضًا، وانخفض عدد الذين يعملون في المطبعة والتنضيد بإشراف السيّد هارت إلى قرابة النصف.

«لم أجهد نفسي كما الآن».

«إنك تستمتعين بذلك»، قال غاريث، عندما وقف إلى جانب طاولتي ذات يوم، ينتظر حتى أُنهي العبارة التي أدوّنها.

لقد كُلفتُ بمسؤوليات أكبر، ولا يمكنني أن أقول إنني لست سعيدًا بذلك. أخرج مغلفًا من حقيبته.

«ألا توجد مسودات طباعة؟» سألته.

«رسالة إلى الدكتور موراي فقط».

«هل أصبحت الساعي الذي ينقل الرسائل الآن؟»

«تضاعفت واجباتي الآن. فقد تطوّع جميع الشبان الصغار».

«إذن أنا سعيدة لأنك لست صغير السن».

«لقد جاهدت لكي أحصل على هذه المهمة بالذات»، قال غاريث، «فقد أصبح لدينا أيضًا نقص في عدد المنضّدين والطابعين، لذلك، طلب السيد هارت من رؤساء العمال والمديرين أن يملأوا أماكنهم كلما أمكن ذلك. لو استطاع لألصقني بمنضدتي القديمة، لكنّي أردت أن أراك».

«لا أظن أن السيّد هارت يأخذ الظروف الجديدة على محمل الجد».

نظر إليَّ غاريث كما لو أن ما قلته يقلل من شأنه، فقال: «لو لم يكن حريصًا، لتطوّعنا كلنا ولم يبق أحد».

فقلت: «لا تقل ذلك». فقد عبّر عن الخوف الذي استيقظتُ عليه.

***

حلّ خريف رطب محل طقس آب (أغسطس) الحار. أصيب الدكتور موراي بسعال شديد، فأصرّت السيّدة موراي على ألّا يأتي إلى المَنْسَخ، وقالت: «إنه بارد مثل صندوق جليد». لم تكن تبالغ، حتى لو كانت النار مشتعلة في الموقد.

فأجابها، «هذا هراء»، لكن لا بد أنهما توصلا إلى حلّ وسط، لأن الدكتور موراي بدأ يصل، منذ ذلك الحين، في الساعة العاشرة من صباح كل يوم ويغادر في الساعة الثانية بعد الظهر – إلّا عندما لا تكون السيّدة موراي في المنزل لتلاحظ ذلك، فيبقى حتى الخامسة مساء، أنفاسه الجافة والمضطربة تحفزّنا جميعًا على أن نعمل بدأب أكبر ولمدة أطول. وقلما تحدّث عن الحرب إلّا عندما يتذّمر بأنها أثرّت سلبًا على تقدّم القاموس. وعلى الرغم من الجهود التي كنا نبذلها، فقد تباطأ الإنتاج وبدأت الطباعة تتراجع. وأضيفت سنوات لموعد إكماله المتوقع. لعلي لم أكن الشخص الوحيد الذي كان يتساءل إن كان الدكتور موراي سيعيش حتى يراه قد اكتمل.

أصبحت ديتي ومتطوعون آخرون؛ الذين يوثق بهم، يقدمون خدمات أضخم، فقد كانت تُرسل يوميًا مسودات طباعة ونسخ جديدة من جميع أنحاء بريطانيا. وبدأ الدكتور موراي يرسل مسودات الطباعة إلى العاملين في القاموس الذين يقاتلون في فرنسا، وكان يقول: «سيكونون ممتنين لإمضاء وقتهم في العمل عليه».

عندما فتحتُ أول مغلّف أُرسل عبر القناة البريطانية، لم أكد أستطيع أن أتنفس. فقد كانت تملأه بقع من التراب خلال الرحلة التي قطعها. تخيّلت الطريق الذي لا بد أنه سلكه، والأيدي التي تناقلته. تساءلت إن كان جميع الرجال الذين لمسوه لا يزالون على قيد الحياة. لم أميّز خطّ اليد، لكنّي عرفت الاسم المكتوب على ظهر المغلّف. حاولت أن أتذكّره لكنني لم أستطع إلّا أن أستحضر في مخيلتي صورة شاب، ضئيل الحجم، شاحب الوجه وهو ينحني فوق منضدته في أحد جانبي غرفة القاموس في مكتبة أشموليان. كان يعمل عادةً مع السيد برادلي، وقد وصفته إليانور برادلي بأنه شاب ذكي لكنه مصاب

برهاب اجتماعي. كانت تصحيحاته كاملة وتحتاج إلى عمل قليل مني. قلت في نفسي إن الدكتور موراي على صواب، ولا بد أنه ممتن للترويح عن نفسه.

في الأسبوع التالي، التقينا أنا وغاريث لنتناول الغداء في حانة في جيريكو.

قلت له: «من المؤسف أن السيد هارت لا يستطيع أن يرسل نسخة إلى فرنسا لطباعتها».

كان غاريث هادئًا، وكنت أملأ قصتي بالصمت. قلت: «تعجبني فكرة سحب المطابع العملاقة إلى الجبهة، وتجهيز الجنود بحروف التنضيد المعدنية بدلًا من الطلقات».

حدّق غاريث في الفطيرة التي يتناولها، وراح يحدث فيها ثقوبًا بشوكته، ثم رفع رأسه وقال بوجه متجهم، «لا يمكنك أن تستخفي بذلك يا إسمي».

أحسست بحرارة تغمر وجهي، ثم أدركت أنه على وشك أن يبكي. مددت يدي فوق الطاولة وأخذت يده.

«ما الذي حدث؟» سألته.

استغرق وقتًا طويلًا ليردّ، ولم يبعد عينيه عن عينيّ، ثم قال: «يبدو الأمر كله عديم الجدوى»، ثم عاد ونظر إلى طعامه.

«أخبرني.»

«كنت أعيد تنضيد كلمة sorrow»، وأخذ نَفَسًا سريعًا ونظر إلى السقف. تركت يده ليمسح وجهه.

«مَنْ؟» سألته.

«كانا متدربين. أمضيا عامين تقريبًا في المطبعة». صمت قليلًا، ثم أضاف، «بدآ معًا وغادرا معًا. صديقان حميمان لا يفترقان».

أبعد الفطيرة قليلًا، وأسند مرفقيه على الطاولة، ووضع رأسه بين يديه. حدّق في مفرش الطاولة وأنهى قصته، «جاءت والدة جيد إلى غرفة التنضيد تبحث عن السيّد هارت. كان جيد أصغر الاثنين، حتى أنه لم يبلغ السابعة عشرة. جاءت لتخبر السيّد هارت أنه لن يعود». عندها رفع بصره إليها. «كانت محطمة يا إيسي. فقدت صوابها. كان جيد ابنها الوحيد، ولم تتوقف عن القول إنه سيبلغ

السابعة عشرة الأسبوع المقبل. كررت ذلك كما لو كانت تلك حقيقة ستعيده لأنه لم يكن عليه أن يكون هناك أصلًا». أخذ نَفَسًا عميقًا. رمشت عيناي لأحبس دموعي. «وجد أحدهم السيد هارت، وأخذها إلى مكتبه. سمعناها تنتحب وهو يرافقها في البهو».

أبعدتُ صحني. شرب غاريث نصف كأسه من بيرة ستاوت.

«كان من المستحيل أن أعود إلى تلك الكلمة»، قال، «إن النظر إلى الكلمة المنضّدة يجعلني أشعر بالغثيان. اندلعت الحرب منذ شهرين، ويقولون إنها ستستمر سنوات. كم شاب مثل جيد سيكون هناك؟»

لم يكن لديَّ ردّ.

تنهَّد، وقال: «فجأة لم أعد أرى جدوى من عملنا».

«يجب أن نواصل ما نقوم به يا غاريث. لا يهم ما هو. وإلاّ فإننا لا نفعل شيئًا سوى الانتظار».

«من الجيد أن أشعر أنني أفعل شيئًا مفيدًا. إن تنضيد *كلمة* sorrow (*الحزن*) لن يزيل الحزن. ستشعر أمّ جيد بما تشعر به، مهما كان مكتوبًا في القاموس».

«لكن ربما تساعد الآخرين على فهم المشاعر التي تنتابها».

حتى بالطريقة التي قلتها فيها، لم أكن مقتنعة. ففي بعض التجارب، لن يقدّم القاموس إلّا مقاربة للمعنى. أعرف أن كلمة الحزن الذي عرفته وخبرته إحداها.

***

لا يكاد يمرّ أسبوع من دون أن تأتي أمّ أخرى إلى باب مكتب المشرف تحمل خبرًا بأن ابنها لن يعود. لم يكن المحررون في المَنْسَخ ومكتبة أشموليان مثقلين كثيرًا بهذا العبء، لكن لم يكن هناك أحد محصن من ذلك. وبفضل تعليمهم أو علاقاتهم، أصبح المعجميون ضباطًا، مع أن درجتهم العلمية لم تساعدهم على أن يكونوا قادة للرجال. قال غاريث إن الذين يعملون في المطبعة ينتمون إلى طائفة أوسع، ثم لم يعد يخبرني عن موت أحد كان يعمل في المطبعة.

***

كان باب مكتب السيد هارت مواربًا. قرعت الباب وفتحته أوسع قليلًا.

«نعم»، قال من دون أن يرفع بصره عن أوراقه.

سرت نحو مكتبه، لكنه ظل مطرقًا. تنحنحتُ. «تعديلات اللحظة الأخيرة يا سيّد هارت. من Speech إلى Spring».

رفع بصره، وازدادت التجاعيد بين حاجبيه عمقًا وهو يأخذ مني مسودات الطباعة ورسالة الدكتور موراي. عندما قرأ الرسالة رأيت فكّه ينقبض. فقد كان الدكتور موراي يريد إدخال تعديل آخر؛ ربما الثالث أو الرابع، لست متأكدة. تساءلت إن كانت ألواح الطباعة قد أُعدِّت للتو. لم أجرؤ على أن أسأله.

«المرض لا يجعله أقل تحذلقًا»، قال السيّد هارت.

لم يكن يقصدني، فصمتُّ. استوى واقفًا، وسار نحو الباب. لم يطلب مني أن أنتظر، فتبعته.

كان الصمت يخيّم على غرفة التنضيد، لكن كان هناك صوت نقرات حروف الصفّ وهي تُصفّ في مَصَفّات الأحرف المطبعيّة ثم تتحوّل إلى قالب يشمل صفحة كاملة من الكلمات. انتظرتُ عند الباب عندما دنا السيّد هارت من أقرب منضدة. كان المنضّد شابًا.. لم يعد متدربًا مبتدئًا، لكنه كان في سنّ لا يؤهله للذهاب إلى الحرب. بدا متوترًا عندما ألقى السيّد هارت نظرة على مصفّ الحروف الذي جهّزه. تساءلت عن مدى سهولة ملاحظة الأخطاء عندما يكون كلّ شيء منضّدًا من الخلف إلى الأمام. بدا السيّد هارت راضيًا وربتّ على ظهر المساعد، ثم انتقل إلى المنضدة التالية. على تعديلات الدكتور موراي أن تنتظر.

ظللت واقفة داخل الباب، ورحت أبحث في أرجاء الغرفة بعينيَّ. رأيت غاريث واقفًا أمام منضدته القديمة: ومع أنه أصبح مديرًا الآن، فقد كان عليه أن يمضي بضع ساعات كل اليوم في تنضيد الكلمات. رحت أنظر إليه كما ينظر إليه شخص غريب. كان ثمة شيء غير مألوف فيه. ارتسمت على وجهه قسمات تصميم أكثر من أي مرة رأيته فيها، وبدا جسده أكثر ثقة. ما أدهشني هو أننا لم

نكن نشعر براحة تامة عندما يشعر أحدنا بأن الآخر يراقبه. ربما لم نكن نتصرّف على طبيعتنا الحقيقية. ففي الرغبة للإرضاء أو لإثارة الإعجاب، للإقناع أو للسيطرة، تصبح حركاتنا واعية، وقسماتنا محددة وراسخة.

كنت أظن دائمًا أنه نحيف، لكن عندما بدأت أراقبه وهو يعمل؛ كمّا قميصه مرفوعان، وعضلات ساعديه مشدودة، لاحظت بهاء وجمال قوته. أثناء تركيزه على عمله وحركاته الانسيابية، بدا لي مثل رسام أو موسيقي، يصفّ الحروف بتأنٍ ودقة شديدتين كما لو أنها نوتات موسيقية في صفحة موسيقية.

شعرت بالذنب لأنني لم أكن أعرف عن عمله إلَّا القليل. كنت أظن أن عمله مجرد عمل آلي، رتيب. ففي جميع الأحوال، فإن المحررين هم الذين يختارون الكلمات، والكتّاب هم الذين يقترحون المعاني، وإن كلّ ما عليه أن يفعله هو أن يصفّها وينضّدها. لكن لم يكن ذلك ما رأيته. فقد كان يدرس القصاصة جيدًا، ثم يختار نوع الحرف. يضعه في مكانه الصحيح، يدقق النظر فيه، ثم يأخذ قلم رصاص من وراء أذنه ويدوّن ملاحظات على القصاصة. هل يقوم بتحريرها؟ وعندما يرى أنه توصل إلى حلّ المشكلة، يرفع الحرف، ويستبدله بحرف أفضل.

لن أتمكن من رؤيته على حقيقته، مكشوفًا، إلَّا عندما أراه وهو نائم. فوجئت عندما أدركت أنني أتوق إلى أن أراه وهو نائم. اخترقت الفكرة قلبي.

اعتدل غاريث في وقفته، وراح يحرك رأسه من جانب إلى آخر، يمدّد رقبته. لا بد أن هذه الحركات قد لفتت انتباه السيد هارت، لأن المشرف اقترح تصحيحًا للحرف في مصفّ الحروف الذي يدققه، ثم سار نحو مديره. رآه غاريث. لم يعد يشدّ عضلات كتفيه ووجهه: تعديل لأن أحدًا يراقبه. سرت أيضًا نحو غاريث. عندما رآني، ارتسمت على وجهه ابتسامة وأصبح مألوفًا لي مرة أخرى.

قال: «إسمي». بهجته هذه جعلت الدفء يسري في كلّ بقعة في جسدي.

عندها فقط أدرك السيد هارت أنني موجودة. «نعم، بالتأكيد». ساد صمت محرج عندما تساءلت أنا والسيّد هارت إن كنا نعيق حديث الآخر مع غاريث.

«أنا آسفة»، قلت، «ربما كان عليّ أن أنتظر في الممر؟»

فقال السيد هارت: «لا أبدًا يا ميس نيكول».

«سيّد هارت»، قال غاريث، فأعادنا جميعًا إلى الشيء الذي جئنا من أجله، «تعديلات من السير جيمس؟»

«نعم» قال السيّد هارت واقترب من غاريث إلى جانب منضدته، «إنها كما توقعتَ. أشعر من الآن فصاعدًا، بأنني سأدعك تجري التغييرات عندما تلاحظها، لأن ذلك سيوفر علينا وقتًا كثيرًا». وعندما تذكّر وجودي، اعتذر عن لغته. فكتم غاريث ابتسامة.

عندما انتهيا من مناقشة التعديلات، سأل غاريث إن كان بإمكانه أن يأخذ استراحة في وقت أبكر اليوم.

«نعم نعم»، قال السيّد هارت، «خذ ربع ساعة إضافية».

«لقد أربكتِه»، قال غاريث، عندما ابتعد السيّد هارت، «سأُنهي تنضيد هذا السطر».

رحت أراقب غاريث وهو يختار حروفًا معدنية صغيرة من الصينية أمامه. كانت يده تتحرك بسرعة، وسرعان ما امتلأ مصفّ الحروف، ثم نقله إلى إطار الأحرف المرصوصة وفرك إبهامه.

«هل تظن أن السيّد هارت كان جادًا عندما قال إنه سيدعك تجري تغييرات على النسخة قبل أن تنضدها؟»

ضحك غاريث، وقال: «يا إلهي لا».

فقلت بحذر: «لكن يجب أن يشجعك ذلك».

«لماذا تقولين ذلك؟»

«حسنًا، لم أفكر في الأمر كثيرًا قبل الآن، لكن عندما رأيتك هنا أدركت أنك تمضي حياتك مع الكلمات، تضعها في مكانها الصحيح. لا بد أنه أصبحت لديك آراء حول ما يُقرأ جيدًا».

فقال: «ليس من مهمتي أن تكون لديّ آراء يا إس». لم ينظر إليّ، لكنّي رأيت ابتسامة ترفرف على حافة فمه.

فقلت: «لست متأكدة من أنني أستطيع أن أحبّ رجلًا لا توجد لديه آراء».

فابتسم، وقال: «حسنًا، في هذه الحالة، لنقل فقط إنه توجد لديّ آراء حول النسخة التي تأتي من مكتبة أشموليان أكثر مما لديّ حول النسخة التي تأتي من المَنْسَخ». نهض ليخلع مئزره، ثم قال: «هل لديك مانع لو توقفنا عند غرفة الطباعة؟»

كانت غرفة الطباعة تعمل بكامل طاقتها؛ صحائف ضخمة من الورق تتساقط مثل أجنحة طائر عملاق أو تتدحرج وتخرج من براميل ضخمة في تعاقب سريع. الطريقة القديمة والجديدة، كما قال غاريث، تصدر كلّ واحدة منها إيقاعًا للأذن والعين، واعتراني شعور مريح بشكل غريب عندما رأيت الصفحات وهي تتراكم فوق بعضها.

رافقني غاريث إلى إحدى آلات الطباعة القديمة. شعرت بهبة هواء عندما هبط الجناح العملاق.

«هارولد، لديَّ ذلك الجزء الذي طلبته»، قال غاريث وأخرج من جيبه جزءًا صغيرًا يشبه العجلة من جيبه وأعطاه للرجل العجوز، وأضاف، «إذا واجهت مشكلة في وضعها، يمكنني أن أعود بعد الظهر وأضعها بنفسي».

أخذ هارولد هذه الجزء، ولاحظت أن يديه ترتعشان قليلًا.

«إسمي، اسمحي لي أن أعرّفك على هارولد فيرويذر. هارولد هو رئيس الطبّاعين، عاد من التقاعد مؤخرًا.. أليس هذا صحيحًا يا هارولد؟»

فقال هارولد: «إني أؤدي واجبي».

«وهذه ميس إسمي نيكول»، تابع غاريث، «إسمي تعمل مع الدكتور موراي في القاموس».

ابتسم هارولد، وقال: «أين ستكون اللغة الإنكليزية من دوننا؟»

نظرت إلى الصفحات وهي تخرج من آلة الطباعة. ثم سألته، «هل تطبع القاموس؟»

«هذا ما أفعله»، قال، وأومأ برأسه نحو كومة من صحائف أوراق مطبوعة.

التقطت حافة إحدى تلك الصحائف، وأمسكتها بين إبهامي وأصابعي وفركتُ الورقة. كنت حريصة على ألّا ألمس الكلمات؛ خشية أن يكون الحبر لا يزال

رطبًا. لا تزال في ذاكرتي صورة عن صفحة لطختها بالحبر ومحوت الكلمة من الصفحة في الملزمة.

«تمتلك آلات الطباعة القديمة هذه شخصيات معينة»، قال هارولد، «غاريث يعرف ذلك مثل أي شخص آخر».

نظرت إلى غاريث وسألته، «هل هذا صحيح؟»

فقال: «بدأت العمل على آلات الطباعة. تدرّبت على يد هارولد عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري».

قال هارولد: «عندما لا تعمل جيدًا، فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقنعها بأن تتصرف جيدًا، حتى قبل أن نفقد نصف الفنيين»، ثم أضاف، «لا أعرف كيف سأواصل العمل من دونه».

فقلت: «لا أستطيع أن أتخيّل لماذا يجب أن تستمر من دونه».

فأجاب بسرعة، «مسألة افتراضية يا ميس».

***

«يجب أن تزوريني أكثر»، قال غاريث عندما بدأنا نسير في شارع والتون، «اعتاد هارت على أن يقتطع ربع ساعة من فترة استراحة الغداء هذه الأيام، بدل أن يزيدها».

«الدكتور موراي يفعل نفس الشيء. يبدو كما لو أن المَنْسَخ والمطبعة ساحتا معركتهما. فلا توجد لديهما أي إسهامات أخرى». لكني ندمت لأنني قلت ذلك.

قال غاريث: «كان هارت دائمًا رئيسًا صارمًا. ولو لم يكن حريصًا جدًا، لخسر عددًا من الرجال بسبب مطالبه غير المعقولة أكثر مما خسر من أجل الحرب».

واصلنا سيرنا حتى وصلنا إلى قلب جيريكو التي تعجّ بالحركة خلال فترة الغداء، وكان غاريث يومئ برأسه لمعظم الأشخاص الذين يمرون إلى جانبنا. جميع العائلات هنا على علاقة بالمطبعة على نحو ما.

«هل سيخسرك؟» سألته.

صمت غاريث قليلًا، ثم قال: «إنه شخص خاص، متقلّب المزاج أحيانًا، يعامل نفسه والعاملين معه بطريقة أقسى من اللازم، لكن لدينا، أنا وهو، طريقة في العمل تلائمنا كلينا. لقد أحببته كثيرًا على مرّ السنين يا إس. أظن أنه شعور متبادل بيننا».

لقد رأيت ذلك بنفسي مرات عدة. فقد كانت لدى غاريث رحابة صدر وثقة تجعلان السيّد هارت يلين وكذلك الدكتور موراي.

انعطفنا إلى شارع ليتل كلاريندون وسرنا باتجاه صالة الشاي. «لكن هل سيخسرك؟» سألته مرة أخرى.

عندما فتح غاريث الباب، ورنّ الجرس المعلق في أعلى الباب، وقفت عند المدخل أنتظر ردّه.

ثم قال: «لقد سمعتِ هارولد. إنها مسألة افتراضية».

قادني إلى طاولة في الخلف، وسحب الكرسي لأجلس.

«رأيت تلك النظرة التي نظر فيها إليك»، قلت عندما سحب كرسيه، «كانت اعتذارًا».

«إنه يعرف أن المجاملات تربكني».

لم ينظر غاريث إليّ، وإنما نظر حوله يبحث عن النادلة. عندما رأته، عاد ليتفحص قائمة الطعام.

«ما الذي يعجبك؟» قال من دون أن يرفع بصره.

مددت يدي فوق الطاولة وأمسكت يده، وقلت: «تعجبني الحقيقة يا غاريث. ماذا تزمع أن تفعل؟»

رفع رأسه، وقال: «إسي...» لكنه لم يقل شيئًا بعد ذلك.

«إنك تثير فزعي».

مدّ يده إلى جيب بنطاله وأخرج شيئًا. أمسكه في قبضته بيننا، ورأيت وجهه يتورد وفكّه ينقبض.

«ما هذه؟» سألته.

فتح أصابعه ليكشف عن بقايا ريشة بيضاء مسحوقة.

«أبعدها»، قلت له.

فقال غاريث: «كانت مربوطة بباب المطبعة الخلفي».

«إذن، قد تكون لأي شخص. مئات الأشخاص يعملون هناك».

«أعرف ذلك. لا أظن أنها من أجلي بالضرورة. لكنها تجعلك تفكرين».

قاطعته النادلة، وأعطاها غاريث الطلب.

قلت: «لقد كبرت».

«ست وثلاثون سنة ليست عمرًا متقدمًا، وهي أفضل من السادسة والعشرين، أو السادسة عشرة. لم يكد هؤلاء الفتيان يعيشون».

وضعت النادلة إبريق الشاي بيننا. تنفّست بصعوبة وهي تضع فناجين الشاي وإبريق الحليب بعناية.

عندما ابتعدت، قلتُ: «يبدو أنك تريد أن تذهب».

«الشباب أو الأغبياء فقط هم الذين يريدون أن يذهبوا إلى الحرب يا إسي. لا، لا أريد أن أذهب».

«لكنك تفكّر بها».

«من المستحيل ألَّا أفكّر بها».

«حسنًا، فكّر بي بدلًا منها». سمعت الطفلة في صوتي، توسل يائس. لم أطلب منه ذلك قبل الآن، وقد تجنبت أي مشاعر قد تشجع على شيء أكثر من الصداقة.

«أوه يا إسي. أنا لا أتوقف عن التفكير فيك».

عندما جاءت النادلة ووضعت الشطائر على الطاولة، توقفنا عن الحديث. لم تتملك أحدنا الشجاعة لمواصلة حديثنا. أمضينا الخمس عشرة دقيقة التالية في تناول الشطائر من دون أن ينبس أحد منا بكلمة.

بعد الغداء مشينا في الدرب المزدوج عند جدول كاسل ميل، وقد كست ندف الثلج ضفة الجدول كما لو كانت تتحدّى الشتاء كي يفعل شيئًا أفضل.

«أريد أن أقول لك كلمة»، قال غاريث، «إنها موجودة للتو لكن القاموس لا يُري أنها تُستخدم على هذا النحو. قلت في نفسي، لعلها موجودة في مجموعتك». أخرج قصاصة من جيبه، ورقة مربعة بيضاء لامعة أعرف أنه اقتطعها من إحدى تلك الأوراق العملاقة التي تُستخدم في المطبعة. قرأها بصمت لنفسه، وتساءلت إن كان يريد أن يغيّر رأيه ويحتفظ بها.

جلسنا في المقعد التالي.

«لقد نضّدت هذه الكلمة منذ فترة»، تابع غاريث قائلًا وظل ممسكًا بها، «إنها تعني أشياء كثيرة، لكن الطريقة التي استخدمتها هذه المرأة جعلني أعتقد أن شيئًا ما قد يكون مفقودًا من القاموس».

«من هي المرأة؟» لكنّي عرفت قبل أن يجيب.

«أمّ».

«وما هي الكلمة؟»

فقال « Loss» (فقدان، خسارة).

امتلأت الصحف بهذه الكلمة مؤخرًا. فمنذ اندلاع الحرب، أصبح بإمكاننا أن نملأ مجلدًا كاملًا باقتباسات ترد فيها كلمة Loss. فقد ملأت قوائم الضحايا في صحيفة *التايمز اللندنية*، وهيمنت معركة (إيبرس) على صفحاتها. كان من بين القتلى رجال من أوكسفورد. رجال يعملون في المطبعة. شبان من جيريكو يعرفهم غاريث منذ أن كانوا صغارًا. كانت كلمة Loss مفيدة ومخيفة في آن معًا.

«هل يمكنني أن أراها؟»

نظر غاريث مرة أخرى إلى القصاصة، ثم أعطاها لي.

LOSS

Sorry for your loss, they say. And I want to know what they mean, because“ it’s not just my boys I’ve lost. I’ve lost my motherhood, my chance to be a grandmother. I’ve lost the easy conversation of neighbours and the comfort of family in my old age. Every day I wake to some new loss that I hadn’t ”.thought of before, and I know that soon it will be my mind

Vivienne Blackman, 1915

(خسارة، فقدان

يقولون: أشعر بالأسف على فقيدك. وأريد أن أعرف ماذا يقصدون بذلك، فأنا لم أفقد أبنائي فقط، وإنما فقدتُ أمومتي، والفرصة لأن أصبح جدّة. لقد فقدتُ الأحاديث السهلة مع جاراتي، وفقدت وراحة الأسرة في شيخوختي. أستيقظ كلّ يوم على خسارة جديدة لم تخطر لي من قبل، وأعرف أنني سأفقد عقلي قريبًا».

فيفيان بلاكمان، 1915).

وضع غاريث يده على كتفي. شعرت بالاطمئنان. أحسست بيده تضغط بلطف، مداعبة إبهامه. ثمة شيء أكثر من مجرد صداقة لم أستطع ألّا أشجع عليها. لكنه لم يكن يعرف.

لقد فقدت أمومتي. هذه الكلمات جعلتني أتذكّر: عينان لطيفتان في وجه يكسوه نمش. دعامة أساسية أثناء الألم. سارة، أمّ طفلتي. أمّها. حاولتُ أن أتذكّر شيئًا عنها، لكن رائحتها ظلت تحوم حولي مثل الكلمات التي كتبتها ذات يوم وحفظتها في الصندوق. عندما أغمضتُ عينيّ، لم أر شيئًا من وجهها، مع أنني تذكّرت أنني كتبت أن بشرتها شفيفة، لا يكاد توجد لها أهداب. هذه المرأة، فيفيان بلاكمان، كانت تعرف شيئًا عني، شيئًا لا يمكن لغاريث أن يتخيّله.

«من هي؟» سألته.

«كان أبناؤها الثلاثة يعملون في المطبعة. التحقوا كلهم في كتيبة *مشاة أوكسفوردشاير وباكينجهامشير الخفيفة الثانية* في آب (أغسطس)، لا يزال

اثنان منهم صبيين، صغيرين لا يستطيعان التفكير بعقلانية.. مع أن العقلانية قد تجعل الرجال الأكبر سنًّا جبناء». رأى كلماته تنعكس على وجهي فتابع بسرعة، «لم يكن السيد هارت على ما يرام، هكذا أخبرتني».

«هل لديها أطفال آخرون؟» سألته.

هزّ رأسه. لم ينبس أحدنا بكلمة أخرى.

***

.I will pray for the safe return of your boys …

Your dearest friend, Lizzie

... سأصلّي من أجل عودة أولادك بسلام.

أعزّ صديقة لك، ليزي

أعطيت ليزي الصفحات التي كتبتها. طوتها بعناية ووضعتها في مغلّف، ثم تناولت رابع قطعة بسكويت.

«سيكون تومي وحيدًا من دون أشقائه»، قالت، «هل تظنين أنه سينضم إلى الجيش؟»

«إذا فعل ذلك، فإنه سيحطّم قلب ناتاشا».

«ليزي، هل تمنيت يومًا أن تحدّثي ناتاشا عن أعمق أسرارك من دون أن تكتبيها من خلالي؟» سألتها.

«لا توجد عندي أسرار عميقة يا إسمي».

«لو كان عندك، فهل تريدينها أن تعرف، حتى لو كان من الممكن أن تغيّر رأيها فيك؟»

توجهت يد ليزي إلى صليبها، وأطرقت ونظرت إلى الطاولة. كانت تعطي الله دائمًا الفضل لأي حكمة تقدمها لي. لم أعد أصدّق منذ فترة طويلة أن له علاقة بها.

رفعت رأسها، وقالت: «ربما أريدها أن تعرف، إذا كان شيئًا يهمني، أو شيئًا يفسّر من أنا بشكل ما».

إجابتها هذه جعلت معدتي تقرقر. «لكن هل الحفاظ على سرك أمر مهم؟»

نهضت ليزي لتضع مزيدًا من الماء الساخن في إبريق الشاي.

قالت: «لا أظن أنه سيُصدر حكمًا عليك».

استدرتُ، لكنها كانت مولية ظهرها لي. لم أستطع أن أقرأ تعابير وجهها. ربما كانت تتحدّث عن الله، وربما كانت تتحدّث عن غاريث. رجوت أنها تتكلّم عنهما كليهما.

***

ليلة صافية آذنت بيومٍ سماؤه زرقاء صافية وصقيع متلألئ. لكن الصباح البارد لم يدم، وشعرت بثقلٍ معطفي وأنا أقود دراجتي إلى المطبعة لأنقل بعض التصحيحات ومسودات الطباعة من الدكتور موراي.

كان باب مكتب السيّد هارت نصف مفتوح. عندما قرعت الباب، لم أسمع ردًا. استرقت النظر إلى الداخل، ورأيته جالسًا إلى طاولة مكتبه واضعًا رأسه بين يديه. أمّ أخرى، قلت في نفسي. كان هناك مقال صغير في صحيفة *أوكسفورد تايمز* يتحدّث عن عدد العاملين في المطبعة الذين التحقوا بالجيش، وعدد الذين لقوا حتفهم، وقال إن فقدان هذا العدد الكبير من العاملين سيؤّخر إصدار بعض الكتب المهمة، بما فيها كتاب (*شكسبير إنكلترا*).

لم أصدّق أن كتاب (*شكسبير إنكلترا*) هو الذي جعل المشرف يحني رأسه، وفجأة بدت المقالة قاسية لأنها ذكرت اسم كتاب ولم تذكر اسم أحد الرجال. خطوت إلى الخلف ووقفت عند المدخل وقرعت الباب بقوة أكبر. رفع السيّد هارت رأسه هذه المرة، مذهولًا قليلًا، وخائفًا قليلًا. أعطيته مسودات الطباعة المصححة.

ثم ذهبت أبحث عن غاريث. لم أجده في مكتبه، وإنما وجدته في غرفة التنضيد متكئًا على منضدته القديمة.

«ألا يمكنك أن تفارقها؟» قلت.

رفع غاريث بصره عن الحروف التي يصفّها. لم تكن ابتسامته مقنعة، وقال: «أصبحت مناضد كثيرة فارغة، وكذلك غرفة الطباعة. غرفة التغليف وحدها هي التي تعمل بكامل طاقتها حاليًا، مع أن بضع نساء التحقن في *مفرزة المعونة التطوعية*». جفّف يديه على مئزره.

«ربما ينبغي للسيّد هارت أن يفكّر في توظيف نساء للطباعة والتنضيد».

«لقد أثيرت هذه الفكرة، لكنها لم تلق قبولًا كبيرًا. لكني أظن أن لا مفرّ منها».

«يبدو السيّد هارت في حالة سيئة».

خلع غاريث مئزره وسرنا معًا إلى المكان الذي عُلِّقت فيه مآزر أخرى موحدّة على خطافات فردية، وقال: «أظن أن إحدى نوبات الاكتئاب التي يعاني منها تنتابه الآن»، ثم أضاف، «هذا شيء مفهوم. فهذا المكان أشبه بقرية، كلّ شخص على صلة قرابة بالآخر، وأي وفاة تهزّ كيانه».

عندما عبرنا الساحة المربعة، أذهلني الهدوء الذي خيّم عليها لأول مرة. وبدلًا من أن نسير باتجاه جيريكو، انعطفنا إلى شارع غريت كلاريندون. قلت له: «الجو ليس باردًا جدًا. أظن أننا تستطيع أن نتمشّى عند جدول كاسل ميل. لقد أحضرت معي بعض الشطائر».

لم أستطع أن أفكّر بشيء عادي أقوله، وبدا أن غاريث لم يلاحظ ذلك. انعطفنا إلى شارع كنال ستريت ومررنا إلى جانب كنيسة القديس برنابا. عندما أصبحنا نسير على الدرب المزدوج سألني إن كان كل شيء على ما يرام. حاولت أن أبتسم، لكنني لم أستطع.

قال: «إنك تجعلينني أشعر بالتوتر».

اخترت ركنًا هادئًا تغمره أشعة شمس خفيفة. خلع غاريث معطفه ومدّه على الأرض، ووضعت معطفي إلى جانب معطفه. جلسنا إلى جانب بعضنا، حتى كاد أحدنا يلتصق بالآخر. أخرجت الشطائر من حقيبتي وأعطيته واحدة.

قال «قوليها».

«أقول ماذا؟»

«كلّ ما يدور في ذهنك».

فتشّت في قسمات وجهه. لم أشأ أن يغيّر أي شيء؛ الطريقة التي ينظر بها إليّ، لكنّي أردت أيضًا أن يفهمني تمامًا. بدأ عقلي يعجّ بالصور والمشاعر، ولم أتذكّر كلمة واحدة من الكلمات التي تدرّبت عليها. شعرت أنني ألهث. وقفت على قدميَّ وسرت إلى جانب مجرى النهر، أجرع الهواء، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أتنفّس جيدًا. ناداني غاريث من خلفي، لكن الجَيَشان في أذني جعله يبدو بعيدًا جدًا.

سأخبره *عنها*، كنت أعرف ذلك. مع أنه قد لا يُغفر لي. اعتراني شعور بالدوار، لكنّي سرعان ما استعدتُ توازني.

***

جلسنا أمام بعضنا بعضًا، كلّ منا على معطفه. أطرق غاريث برأسه، مشدوهًا وصامتًا. أخبرته كلّ شيء. قلت له كلمات كنت أخشى أن أقولها - *عذراء، حامل، نِفَاس، ولادة، طفلة، تبنّي*- ثم أصبحت أكثر هدوءًا. تلاشى شعوري بالغثيان.

رأيت غاريث ساهمًا. ربما سأفقده، لكن *فقدانها* مؤكد. ربما خاب ظنه بي، لكنّي شعرت بخيبة أمل في نفسي.

نهضت وسرت بعيدًا عنه. عندما التفتُّ، كان لا يزال جالسًا في المكان الذي تركته فيه، يده تداعب المعطف الذي تركته هناك.

على امتداد شارع كنال ستريت، وجدت أبواب كنيسة القديس برنابا مفتوحة. دخلت وجلست في المصلّى الصباحي. لا أعرف كم مضى من الوقت على وجودي هنا قبل أن يجدني غاريث ويضع معطفي على كتفي. جلس إلى جانبي. عندما أمسك أحدهم بذراعي. تركته يعود بي إلى أشعة الشمس الشتوية.

عندما وصلنا إلى المطبعة، أخذت دراجتي وأصررت على أنني سأعود إلى المَنْسَخ وحدي.

نظر غاريث إليَّ.. لم تكن في وجهه قسمات قسوة، وإنما حزن.

قال: «إن ذلك لا يغيّر شيئًا».

«كيف لا؟»

«لا أعرف. إن ذلك لا يغيّر شيئًا».

«لكنه قد يتغيّر مع مرور الوقت».

هزّ رأسه، وقال: «لا أظن ذلك. فقد جعلت الحب الحاضر أهمّ من الماضي، وأكثر يقينًا من المستقبل. إن ما أشعر به الآن هو كل ما يمكنني أن أعتمد عليه. وبعد كلّ ما أخبرتني به، أظن أنني أصبحت أحبّك أكثر».

كلمات قليلة تنطوي على معانٍ متعددة مثل كلمة الحبّ. شعرت بصداها يتردد في أعماق صدري، وعرفت أنها تعني شيئًا مختلفًا عن أي صيغة أخرى سمعتها أو قيلت. لكن الحزن الذي بدا على وجه غاريث لم يفارقه. أخذ يدي وقبّل الندوب فيها، ثم استدار وعاد إلى المطبعة.

***

عندما تقلّبت في سريري في صباح اليوم التالي، كان البيت باردًا جدًا. لم أكد أستطيع أن أرفع جسدي من السرير. كان من المفترض أن تبعث كلمات غاريث الشعور بالارتياح، لكن كان يشوبها حزن. إنه يخبئ عني شيئًا، كما خبأت عنه. بدأت أرجف وتمنيت لو كانت ليزي هنا.

ارتديت ثيابي بسرعة وسرت في شبه الظلام إلى سانيسايد.

عندما دخلت المطبخ، كانت رغوة الصابون تصل إلى مرفقيّ ليزي، وكانت الطاولة مليئة ببقايا الإفطار؛ صحون وأكواب شاي متسخة، صحون فيها فتات خبز محمّص.

«الموقد مشتعل»، قالت ليزي، «اذهبي وتدفئي ريثما أنتهي من غسل الصحون».

سألتها، «أين الفتاة التي تأتي في الصباح عادة؟»فقد كانت بضع فتيات يأتين من حين لآخر لمساعدتها، وقد نسيت اسم الفتاة الحالية.

«ذهبت. على الأقل فإن الحرب مفيدة للبعض؛ فقد أصبحت المصانع تدفع أجورًا أعلى مما تدفعه عائلة موراي».

خلعتُ معطفي وتناولت منشفة شاي. «هل توجد فرصة لأن تعود السيّدة بالارد إلى العمل؟»

فقالت ليزي: «لقد بدأت تجد صعوبة كبيرة عندما تنهض من كرسيها هذه الأيام».

قطعتُ شريحة خبز سميكة ودهنتها بالمربى. «خبزتُ رغيفًا إضافيًا»، قالت ليزي، «خذيه معك عندما تغادرين الليلة».

«لستِ بحاجة إلى أن تفعلي ذلك»، قلت، وأنا ألعق المربى من أصابعي.

«إنك تذهبين إلى السكريبي من الفجر حتى المغرب ولا توجد عندك خادمة.. لا أعرف حقًا لماذا تركت الخادمة تذهب. إنك بحاجة إلى أحد يعتني بك».

عندما أصبح جسمي دافئًا حتى عظامي، وامتلأت معدتي، عبرت الحديقة إلى المَنْسَخ. شعرت بالامتنان عندما لم أجد فيه أحد. لن يصل أحد قبل ساعة على الأقل.

لم أكد أتغيّر منذ أن كنت أختبئ تحت طاولة الفرز، وللحظة تخيّلت عالمي فيه أبي ولا توجد فيه حرب. مرّرت أصابعي فوق الرفوف. طريقة تساعدني على أن أتذكّر.

جلست إلى منضدتي ورحت أنصت إلى الصمت. سمعتُ همسة تتسلل من الفتحة في الجدار. رفعت يدي لأتحسس أنفاس الهواء البارد. كانت حادة، تكاد تكون مؤلمة، وتذكّرت السكان الأصليين الذين يرسمون علامات على جلدهم في لحظات من الحياة تعرّف من هم. ستُنقش كلمات عليَّ. لكن أيّ كلمات؟

تناهى إليّ صوت من وراء جدار المَنْسَخ، وتوقف الهمس. سحبتُ يدي من الفتحة ونظرت من خلالها.. إنه غاريث.

أسند دراجته إلى الجدار، واعتدل في وقفته، وتفحّص داخل حقيبته ثم أغلقها بعناية. كنت قد تجسست عليه مئات المرات، وأحببت الطريقة التي ينقل فيها الكلمات ذهابًا وإيابًا، كما لو كانت هشّة وثمينة.

لكنّي شعرت بالتوتر. تفقدّتُ نفسي. كانت الضفائر قد أفلتت من شعري الذي جعلته في شكل كعكة، وثبتّها في مكانها. قرصتُ خدي وعضضت شفتي، ثم عدتُ وجلستُ وأسندت ظهري بشكل غير مريح إلى ظهر الكرسي، أنتظر غاريث ليدخل من باب المَنْسَخ. كنت خائفة مما قد يقوله.

لم يأت. انحنيت فوق عملي وتركتُ ضفائري تفلت وتتهدّل.

بعد ربع ساعة، سمعت صوت باب المَنْسَخ يُفتح.

«هل يعرف الدكتور موراي أنك موجودة هنا منذ ظهور العصافير؟»

«أحبُّ الوحدة»، أجبته وأنا أفتّش في وجهه عن شيء لأعرف ما الذي يدور في ذهنه، وأضفت، «لكنّي سعيدة لأنك قاطعتني. سمعت أنك وصلت. ما الذي أخرّك كلّ هذا الوقت؟»

«ظننت أنني سأجدك في المطبخ مع ليزي. لم أستطع أن أرفض عندما قدّمت لي كوبًا من الشاي».

«إنها تحبّك».

«وأنا كذلك».

نظرتُ إلى حقيبة غاريث التي بيده، وقلت: «من المبكر جدًا أن تسلّم مسودات طباعة».

لم يجب على الفور، وإنما نظر إليَّ كما لو أنه يتذكّر اعترافي له. أطرقت برأسي.

«لا توجد مسودات طباعة. فقط دعوة إلى نزهة غداء. سيكون يومًا جميلًا آخر».

لم يكن بوسعي إلَّا أن أهزّ برأسي.

قال مبتسمًا، «إذن سأعود عند الظهيرة».

فقلت: «حسنًا».

عندما غادر غاريث، أخذتُ نَفَسًا مرتعشًا وأسندتُ رأسي إلى الجدار. سقط الضوء المتسلل من الفتحة فوق ندوب يدي القديمة. عندما اقترب غاريث من الجزء الخلفي من المَنْسَخ ليأخذ دراجته، أظلم الضوء، ثم أضاء، ثم خَفَتَ مرة أخرى، إنها تشبه إشارات المورس، قلت في نفسي لكنّي لم أستطع أن أقرأها. شعرت بثقل جسده عندما انحنى فوق الجدار الحديدي، وسمعت طنين المعدن في جمجمتي. هل يعرف كم هو قريب مني؟ لبث هناك لفترة طويلة.

***

قبل الظهيرة بقليل، كنت جالسة إلى طاولة المطبخ مع ليزي.

قالت: «دعيني أصفّف شعرك».

«لا داعي، فهو يتهدل باستمرار».

«عندما تصففينه أنتِ، يتهدل»، قالت ووقفت ورائي وثبتت الدبابيس في مكانها. عندما انتهت، هززت رأسي. لم تتحرك الضفائر من مكانها.

من نافذة المطبخ، رأينا غاريث يسير في الحديقة باتجاهنا، وقد علّق حقيبته على كتفه، وبيده سلة نزهة. قفزت ليزي لتفتح الباب وتدعوه للدخول.

أومأ غاريث برأسه نحو ليزي وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «ليزي».

فأجابت، «غاريث». بدت ابتسامتها كأنها صورة معكوسة في مرآة.

جمل كاملة كانت تكمن وراء تلك التحية لم أتمكن من فهمها. وضع غاريث سلّة النزهة على طاولة المطبخ، وانحنت ليزي إلى الموقد لترفع فطيرة تسخنّها. وضعتها في قعر السلة وغطتها بقطعة قماش، ثم ملأت دورقًا بالشاي وأعطته إلى غاريث مع إناء صغير من الحليب.

ثم سألته، «هل لديك بساط؟»

فقال: «نعم».

أخذت شالها الصوف من ظهر أحد الكراسي، وقالت: «قد يكون الجو دافئًا في شهر كانون الأول (ديسمبر)، لكنك ستحتاجين إلى هذا لتضعيه فوق معطفك».

أخذته، محتارة من البهجة التي منحتها هذه النزهة لليزي، فسألتها، «هل تريدين أن تأتي معنا؟»

فضحكت وقالت: «لا، عندي أعمال كثيرة».

رفع غاريث السلة من على الطاولة، وقال: «هل نذهب؟»

أعطيته يدي وخرجنا من المطبخ.

سرنا باتجاه جدول كاسل ميل ستريم، ومشينا على امتداد الدرب المزدوج حتى جسر والتون بريدج.

«يصعب التصديق بأن الشتاء قد بدأ»، قال غاريث وهو يمدّ البساط ويضع الفطيرة في الوسط، يتصاعد البخار منها.

سوّى البقعة التي أراد أن أجلس فيها، ثم أخرج دورق الشاي من السلّة وملأ الكوب، ثم أضاف إليه القدْر المناسب من الحليب ووضع فيه قطعة سكر. لففتُ كفيَّ حول الكوب، وبدأت أرشف منه. كان كما أريد تمامًا. لم نقل شيئًا.

شرب غاريث كوبه وملأه من جديد. كانت يده تتحرك من دون وعي إلى الحقيبة المركونة إلى جانبه. عندما فرغ كوبه، أعاده ببطء إلى السلة، كما لو كان مصنوعًا من الكريستال لا من الصفيح. كانت يداه ترتعشان قليلًا.

عندما وضع الكوب في السلة بأمان، أخذ نَفَسًا عميقًا والتفت نحوي. ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجهه. من دون أن ينظر بعيدًا، أخذ كوبي ووضعه بحذر أقل فوق العشب، ثم أخذ يديَّ في يديه.

ضغط أصابعي على شفتيه. سرَت رعشة في جسدي من دفء أنفاسه. جسدي كلّه أراد أن يضغط على جسده، لكن عقلي كان راضيًا بالنظر إلى قسمات وجهه، ليحفظ عن ظهر قلب كلّ خط يرتسم على جبينه، وحاجبيه الداكنين، ورموشه الطويلة، وعينيه الزرقاوين مثل سماء عند الغسق في الصيف. لاحظت شعرًا رماديًا على صدغيه، وشعرت بالرغبة لأن أراه ينتشر بعد سنوات، من خلال كتلة شعره الكثيفة الداكنة.

لا أعرف إلى متى ظللنا جالسين هكذا، لكنّي شعرت بعينيه تجولان في وجهي كما تجول عيناي في وجهه. لم يحجبنا شيء، ولم تكن هناك إيماءات مهذبة.. كنّا عاريين.

عندما التقت أعيننا أخيرًا، بدا كما لو كنا قد سافرنا معًا وعدنا إلى بيتنا وقد غمرتنا ألفة أكبر. ترك يدي ومدّ يده إلى الحقيبة. رعشة خفية جعلت أصابعه تبدو خرقاء وهو يفك الإبزيم. لو لم أكن متأكدة من قبل، لعرفت ماذا يوجد في الحقيبة.

لكن لم يكن ذلك ما كنت أتوقعه.

أخرج من الحقيبة رزمة، ملفوفة بورق بنّي ومربوطة بخيط: ورق صرّ المطبعة، أبعادها بأبعاد ماعون ورق، لكن أرقّ قليلًا.

«هذا لكِ»، قال ومدّ لي الرزمة.

«من المؤكد أنها ليست مسودات طباعة».

فقال: «مسوّدات من نوع آخر».

عندما حللت الخيط سقطت الورقة السميكة.

كان شيئًا جميلًا، بغلاف جلدي كُتب بحروف مذهبّة. لا بد أنها كلفت غاريث أجر شهر. (*كلمات نسائية ومعانيها*) نُقشت على الجلد الأخضر بنفس نمط الحروف التي تُستخدم على أغلفة مجلدات القاموس. قلبت إلى الصفحة الأولى حيث تكرر العنوان، وكُتب في أسفل الصفحة، تحرير: إسمي نيكول.

كان مجلدًا رقيقًا، وكان نمط الحرف أضخم من نمط الحرف المكتوب في قاموس الدكتور موراي - عمودان في كلّ صفحة بدلًا من ثلاثة أعمدة. قلبتُ الصفحات إلى حرف C وتركت إصبعي يتتبع أشكال الكلمات المألوفة، كلّ واحد منها صوت امرأة؛ بعضها ناعم ولطيف، وبعضها الآخر، مثل صوت مابل الأجش المغلف بالبلغم. ثم وصلت إليها، إحدى أولى الكلمات التي كتبتها على قصاصة. رؤيتها مطبوعة أثارت البهجة في نفسي. رفرفت الكلمة على شفتيّ.

هل يبدو نطقها أو كتابتها أو طباعتها أكثر بذاءة؟ فقد تجعلها هبة هواء تطير أو تزيحها ثرثرة، وقد يساء سماعها أو يتم تجاهلها. أما في الصفحة فقد أصبحت شيئًا حقيقيًا. التُقطت وثُبتت في لوح، وانتشرت حروفها بشكل معين إلى درجة أن كلّ من يراها، يعرف ما هي.

«ماذا فكّرتَ بي»، قلت.

«كنت سعيدًا عندما عرفت أخيرًا ماذا تعني»، قال، وقد تحوّل عبوسه إلى ابتسامة عريضة.

ظللتُ أقلّب الصفحات.

«استغرق ذلك سنة يا إس، وكلّما أمسكت قصاصة فيها خطّك، عرفتك أكثر. لقد أُغرمتُ بك، كلمة كلمة. أحببتُ شكلها وملمسها، أزواج لانهائية. لكنك

أريتني حدودها وإمكانياتها».

«لكن كيف؟»

«بضع قصاصات، الواحدة تلو الأخرى، وكنت حريصًا دائمًا على أن أعيدها إلى المكان الذي وجدتها فيه. نصف المطبعة عملت فيها في النهاية. أردت أن أساعد في كل جزء منها، لا في التنضيد فحسب. لقد اخترت الورق وشغّلت آلة الطباعة. قصصت الصفحات، وبذلت العاملات في قسم التجليد كل ما بوسعهن ليوضحن لي طريقة جمعه معًا».

«أراهن بأنهن يفعلن ذلك»، ابتسمتُ.

«كان فريد سويتمان المشرف عليَّ في السكريبي، لكن لم يكن بالإمكان أن يصدر أي شيء منه لولا ليزي. فهي تعرف كل تحركاتك وجميع الأماكن التي تخبئينها فيها. لا تغضبي منها لأنها أفشت بكل ذلك».

تذكّرت صندوق الأحذية في طاولتي والصندوق تحت سرير ليزي. قاموس الكلمات المفقودة. أدركتُ أنها حارستك الأمينة، وكانت تريد إيجاد الكلمات.

قلت له: «لا يمكنني أن أغضب من ليزي أبدًا».

عاد غاريث وأمسك يدي. تلاشت الرجفة في يده، وقال: «كان عليّ أن أختار بين الخاتم والكلمات».

نظرت إلى قاموسي، وتتبعتُ العنوان بأصابعي، وسمعتُ الكلمات بين أنفاسي. تخيّلت خاتمًا في يدي، وشعرت بالسعادة لعدم وجوده. تساءلت كيف كان من الممكن أن تتملكّني كلّ هذه المشاعر.

لم تمرّ بيننا كلمات أخرى. لم يسألني وأنا لم أجب، لكنّي شعرت بتلك اللحظات كما لو كانت إيقاع قصيدة. إنها مقدمة لكلّ ما سيأتي بعد الآن، وكنت أخطط لذلك فعلًا. أخذت وجهه بين يديّ، وشعرت بأن ملمس وجهه كان مختلفًا على كلّ يد، ثم قربّته مني أكثر. كانت شفتاه دافئتين على شفتيَّ، وطعم الشاي لا يزال حلوًا على لسانه. لم تطلب يده التي راحت تتلمس البقعة الصغيرة من ظهري شيئًا، لكنّي انحنيت نحوه، أرغب في أن يتحسّس شكلي كله. بردت الفطيرة ولم يتناولها أحد منا.

***

«أين هي إذن؟» سألت ليزي عندما دخلتُ إلى المطبخ.

نظر كلانا إلى يدي، لا يزينها شيء كما دائمًا.

«هل يوجد شيء لا تعرفينه يا ليزي ليستر؟»

«أشياء كثيرة، لكنّي أعرف أنه يحبّك وأنك تحبينه، وظننت أنني سأجد خاتمًا في ذلك الإصبع عندما تعودين من تلك النزهة».

أخرجتُ المجلد الرقيق من حقيبتي ووضعته أمامها على طاولة المطبخ. «لقد أعطاني شيئًا أغلى بكثير من الخاتم.»

مبتسمة، جففت يديها بمئزرها، ثم تفحصتهما قبل أن تلمس الغلاف الجلدي، وقالت: «كنت أعرف أن الكلمات ستجعلك تفوزين، إنه مجلّد وجميل. لقد أخبرته كل ما أعرف عندما أراني أين سيُطبع اسمي، وكان يعدّ لي الشاي وأنا أهذر وأتكلم». ترقرقت الدموع في عينيها مرة أخرى لكنها مسحتها بسرعة، «لكنه لم يقل قط إنه لا يوجد لديه خاتم».

دفعتْ المجلد نحوي. لففته بالورق البني وعقدتُ الخيط. «هل يمكنني أن أصعد إلى غرفتك يا ليزي؟»

«لا تقولي لي إنك ستخبئينه».

«ليس إلى الأبد. لكنّي لن أريه لأحد».

«إنك شخص غريب يا إسمي».

لو كان غاريث يسع في صندوقي لوضعته فيه وأقفلت عليه وأخفيت المفتاح. لكن فات الأوان على ذلك. فقد كان السيّد هارت والدكتور موراي يتبادلان رسائل منذ عدة شهور كي يلتحق في كلية الضباط.

أيار (مايو) 1915

انتهت فترة تدريب الضباط في 4 أيار (مايو). كان من المقرر أن نتزوج يوم الأربعاء في 5 أيار. منح الدكتور موراي لجميع العاملين في المَنْسَخ إجازة ساعتين مدفوعتي الأجر لتقديم التهاني لنا.

في الليلة الماضية نمت في غرفة ليزي، وفي الصباح ألبستني فستانًا بسيطًا بلون القشدة وتنورة مزدوجة وياقة عالية موشاة بالدانتيل. وكانت قد طرّزت أوراق أشجار حول أساور الأكمام وحاشية الفستان، ونثرت حبات خرز زجاجية صغيرة هنا وهناك، وقالت: « كي تبدو مثل حبات ندى الصباح عندما تشرق الشمس عليك».

مع أن صحة الدكتور موراي لم تكن على ما يرام، عرض أن يرافقني إلى كنيسة سانت برنابا في عربة، لكني اعتذرت في اللحظة الأخيرة. فقد كان اليوم مشمسًا، وكنت أعرف أن غاريث سيأتي من المطبعة يرافقه السيّد هارت والسيّد سويتمان مشيًا على الأقدام. لم أكن قد رأيت غاريث منذ ثلاثة أشهر خلال فترة تدريبه، وقد أحببت الفكرة بأن نلتقي معًا عند تقاطع شارع كانال ستريت.

التقطت السيّدة موراي ثلاث صور لي على عجل تحت شجرة الدردار، واحدة مع الدكتور موراي، والثانية مع ديتي، والثالثة مع إلسي وروزفريث. وبينما كانت تعيد الكاميرا إلى حقيبتها، سألتها إن كان بإمكانها أن تلتقط لي صورة أخرى.

كانت ليزي واقفة أمام باب المطبخ، مرتبكة في فستانها الجديد. لوّحت لها بأن تأتي. هزّت رأسها.

«ليزي»، ناديتها، «يجب أن تأتي وتأخذي صورة معي. إنه يوم زفافي».

جاءت مطرقة برأسها قليلًا إلى الأرض متحاشية جميع الأعين التي توجهت صوبها. عندما وقفت إلى جانبي، رأيت دبوس شعر أمّها يلمع في قبعتها اللبّاد الخضراء الباهتة.

قلت لها: «التفتي بهذا الاتجاه قليلًا يا ليزي». فقد أردت أن تُظهر الكاميرا الدبوس. سأهديها الصورة.

كان غاريث يرتدي بذلة ضابط في حفل الزفاف. كان أطول مما أتذكّر، وتساءلت إن كنت أتوهم ذلك أم لأنه تحرر من عمل التنضيد. كان وسيمًا، وأنا جميلة كعهدي. كانت تلك انطباعاتنا الأولى عندما اقتربنا من كنيسة القديس برنابا من جانبيْ الشارع.

داخل الكنيسة، وقفت إلى جانب غاريث أمام القسّ، ووقف السيّد هارت على يسار غاريث، ديتي على يميني. أربعة صفوف من المقاعد شغلها جميع الذين يعملون في القاموس وفي المطبعة، وجلس الدكتور والسيّدة موراي والسيّد سويتمان وبيت وليزي في المقعد الأمامي. كان من الممكن أن يحضر أناس آخرون، لكن جميع أصدقاء غاريث في المطبعة كانوا في فرنسا، وقد انضمت تيلدا إلى مفرزة المساعدة التطوعية. ولم تمنحها المسؤولة عنها في سانت بارثولوميو بلندن إجازة فلم تتمكن من أن تأتي.

لا أتذكّر ما الذي قيل حينذاك. لا أستطيع أن أتذكّر وجه القسّ. لابد أنني أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أنظر إلى باقة الأزهار التي جمعتها ليزي لي، لأن أزهارها البيضاء الرقيقة ورائحتها القوية لم تفارقني. رائحة زنبق الوادي. عندما مدّت ديتي يدها لتأخذها مني ليتمكن غاريث من وضع الخاتم في إصبعي، لم أتركها.

عندما خرجنا من الكنيسة انهمر علينا وابل من الرز؛ ألقتها علينا بضع نسوة يعملن في قسم التجليد في المطبعة. ثم رأيت جوقة الطابعين والمنضدّين لا يزالون في مآزرهم. وقفت أنا وغاريث تغمرنا السعادة، يشبك أحدنا ذراعه في ذراع الآخر. كانوا ينشدون أغنية (*على ضوء القمر الفضي*).

التقطت روزفريث صورة. للحظة رهيبة، تخيّلتُ أننا مجمّدان فوق رف المدفأة، لا يزال غاريث شابًا، لا يشيخ، وأنا امرأة عجوز متدثرة بالشال، أجلس وحدي إلى جانب المدفأة.

طفنا في موكب في شوارع جيريكو. عندما وصلنا إلى شارع والتون ستريت، عادت النسوة اللاتي يعملن في قسم التجليد وجوقة الطابعين إلى المطبعة، وعاد بعض الذين يعملون مع السيّد برادلي والسيّد كريجي إلى مكتبة أشموليان، أما ما تبقى منا، فقد تابعنا طريقنا إلى سانيسايد حيث تناولنا شطائر وقالب كيك تحت شجرة الدردار. ذكّرني ذلك بجميع مناسبات احتساء شاي بعد الظهر خلال تلك السنوات عندما كنا نحتفل بإنهاء طباعة حرف أو نشر مجلد. عندما ساعدت السيّدة موراي الدكتور موراي للدخول إلى المنزل، اعتبرنا أن هذه إشارة على انتهاء فترة إجازة الساعتين. وعاد السيّد برادلي

وإليانور إلى مكتبة أشموليان، وعاد السيّد هارت إلى المطبعة، وساعدت ديتي وبيث السيّدة بالارد على العودة إلى المطبخ، وأصرّت روزفريث وإلسي على مساعدة ليزي في التنظيف. ومن بين رجال المَنْسَخ، كان السيد سويتمان آخر من عاد إلى العمل بعد أن صافح غاريث، وأخذ يدي وقبّلها.

قال: «كم كان والدك سيكون فخورًا وسعيدًا». نظرت إلى عينيه، وأنا أعرف أن ذكرى أبي ستصبح أقوى عندما أشاركها مع آخرين.

***

وقفنا أمام الباب الخارجي لمنزل دا. منزلي. كما لو كنا ننتظر أن يدعونا أحد للدخول. حدث لغط حول من سيفتح الباب.

قلت: «إنه منزلنا الآن يا غاريث».

فابتسم، وقال: «قد يكون كذلك، لكن لا يوجد لديّ مفتاح».

«نعم، طبعًا»، قلت وانحنيت وأخرجت المفتاح من تحت أصيص زهر إلى بجانب الباب، ومددت يدي له، وقلت: «تفضّل».

نظر إليه، وقال: «حسنًا، لا أظن أنك يجب أن تتخلّي عنه بهذه السهولة. إنه ليس مهرًا».

قبل أن أجيبه، انحنى وحملني.

ثم قال: «حسنًا، افتحي الباب وسوف نجتاز العتبة معًا. أسرعي يا إسمي، إذا لم يكن لديك مانع».

كان المنزل مليئًا بأزهار زنبق الوادي، وكانت الغرف جميعها شديدة النظافة، وقد أشاع الموقد الدفء في المطبخ في ذلك المساء البارد، وكان طعام عشائنا يُطهى ببطء.

«إنك محظوظة لأن لديك ليزي»، قال غاريث وأنزلني.

«أعرف. وأعرف أيضًا أنني محظوظة بوجودك معي». من دون أي كلام آخر، أمسكتُ بيد غاريث وصعدنا الدرج.

فتحتُ باب غرفة أبي القديمة. كان على السرير غطاء جديد، مبطّن وموشّى برسوم رهيفة بإبرة ليزي. لم أنم هنا قط، وأنا سعيدة الآن لأنني سأفعل ذلك. لقد أصبح سريرنا الزوجي.

لم نخجل من جسدينا، لكن كنا حذرين حول الأمور التي نعرفها والتي لا نعرفها. وعندما كنت أتذكر فجأة بيل، شعرت بالرعب. فقد تذكّرته وهو يتتبع بإصبعه مفرق شعري ويهبط إلى وجهي وطول جسدي، يتوقف خلالها عند نقاط معينة، ويهمس في أذني، «أنف، شفتان، رقبة، ثدي، سرّة...»

عندما ارتعش جسدي، تراجع غاريث قليلًا. أخذت يده وقبّلتُ راحة يده، ثم رحت أمشّي أصابعه فوق جسدي، يتوقف خلالها في أماكن محددة.

(*هضبة فينوس*)، قلت له عندما وصلنا إلى كتلة الشعر الناعم.

***

استُدعي غاريث ليلتحق بـ(*كتيبة أوكسفوردشاير وباكينغهامشاير الثانية للمشاة*)، لكنه أعطي مهلة شهر حتى يلتحق بثكنة كاولي. مع أن الدكتور موراي لم يمنحني إجازة، فقد وافق على أن أعمل ساعات أقل. بعد الظهر، كنت أمشي من المَنْسَخ إلى المطبعة حيث أرى غاريث يعلّم شبانًا صغارًا جدًا، أو كبارًا جدًا، أو أشخاصًا يعانون من قصر نظر على حمل بندقية. كانت المطبعة قد بدأت تدرّب حراسًا لها.

رحت أراقبه، كما راقبته من قبل. كان يُري فتى لا يزيد عمره على خمسة عشر عامًا على حمل البندقية. وضع يد الصبي اليسرى تحت السبطانة، واليد الأخرى حول مقبض البندقية، يحرك سبابة الفتى إلى الخلف بحيث يلمس طرف سبابته فقط الزناد. كان مركّزًا إلى درجة كبيرة كما لو كان يختار حروفًا ويصفّها ليشكّل كلمة. رأيته يتراجع قليلًا ليقيّم طريقة وقوف الفتى. عندما أصدر له أمرًا، نقل الفتى البندقية من كتفه وقرّبها من صدره.

عندما تظاهر الفتى بأنه سيطلق النار، كما لو كان يؤدي دور راعي بقر، خفض غاريث السبطانة ووجهها إلى الأرض وقال له شيئًا. لم أسمع ما قاله، لكنّي رأيت شيئًا في وجه الفتى ذكّرني بشيء كانت قد أخبرتني به ليزي عندما اكتشفت أن غاريث سيصبح ضابطًا. «يستطيع الجيش أن يجعل رجلًا ناضجًا يقود شبانًا صغار. يبدو أن اللهجات الراقية لا ترقى إلى مستوى ما يجري هنا، بحسب ما كنت أسمعه». كانت محقّة. فقد كان غاريث يتمتع بشخصية قيادية.

كنت قد رأيته مع منضّدين أصغر سنًا، وفي غرفة الطباعة أيضًا. حاولت أن أتخيّل أن ذلك يجري في فرنسا، لكنّي لم أستطع.

مشينا على امتداد جدول كاسل ميل. كان غاريث يرتدي بذلته العسكرية، ومع أنه اشتكى من أنها تبدو جديدة جدًا. كان كلّ من يمرّ إلى جانبه يحييه بإيماءة أو بابتسامة أو بمصافحة قوية. شخص واحد فقط أشاح بنظره عندما اقتربنا: شاب كانت ثيابه المدنية لافتة للنظر.

لم أعد أتمنى ألَّا يكون غاريث قد التحق بالجيش، لكني لم أستطع أن أتوقف عن التفكير بأنه يسير نحو الموت. سلبت هذه الفكرة النوم من أجفاني في الليل وأنا أراقبه وهو نائم. كان ذلك يدفعني إلى أن ألمسه بشكل غير ضروري وفي أوقات غير غريبة. كنت أريد أن أعرف رأيه في كل شيء، وقد أرهقته بأسئلة تتعلق بالخير والشر، وهل نحن الإنكليز هذا، والألمان ذاك. كنت أحاول أن أكشف عن المزيد من الطبقات لتبقى معي إذا مات.

استُدعي غاريث من إجازته بعد معركة فيستوبيرت. فقد أُدرجت في قائمة (تخليدًا لذكرى) في صحيفة *التايمز اللندنية* أسماء أربعمائة رجل من كتيبة أوكسفوردشاير وباكينغهامشاير الثانية للمشاة. لم يكن قد مضى على زواجنا شهر واحد.

«لن يرسلوني إلى فرنسا يا إس».

«لكنهم سيرسلونك».

«ربما. لكن يوجد مئة مجند جديد بحاجة إلى تدريب قبل إرسالهم إلى أي مكان، لذلك سأبقى في كاولي لفترة من الوقت. يجب أن ألحق إحدى الحافلات الجديدة الذاهبة إلى أكسفورد. يمكنني أن ألتقي بك عند الغداء. وفي أيام إجازتي، يمكنني أن أعود إلى المنزل».

«لكنّي اعتدت على البطاطا المهروسة ذات الكتل.. ولعلي نسيت كيف أغسل الصحون»، قلت له محاولة أن أكون خفيفة الظل معه. لكنّي كنت قد أمضيت أمسيات كثيرة وحيدة في السنوات القليلة الماضية، لذلك فإني أعرف كم سأكون وحيدة. «ماذا سأفعل بنفسي؟»

«تحتاج المستشفيات إلى متطوعات»، قال، سعيدًا بأنه وجد حلًا لوحدتي، «ليس جميع المصابين من هنا، ولا يوجد لبعضهم أحد يزورهم».

هززت رأسي، لكني لم أر ذلك حلًا.

***

عندما ذهب غاريث إلى ثكنة كاولي، خلّف وراءه أجزاء منه. كانت ثيابه المدنية معلّقة في خزانة ملابسنا جاهزة ليرتديها. كان على المغسلة في الحمّام مشط لا تزال خيوط من الشعر - أسود ورمادي- عالقة فيه، وديوان قصائد روبرت بروك لا يزال مفتوحًا، وجهه إلى الأسفل، وكعبه منحنٍ إلى النصف، إلى جانب السرير. رفعته لأرى القصيدة التي كان غاريث يقرأها؛ (الموتى). فأعدته إلى مكانه.

***

اتخذت المَنْسَخ ملاذًا لي. تساءلت متى ستبدأ القصاصات تذكر هذه الحرب؟

أرسلت لي ديتي كتاب (*العودة إلى الجبهة*) للكاتبة فيليس كامبل. وضعته في درج طاولتي وكنت أقرأه عندما يغادر الجميع. كانت حربها مختلفة تمامًا من الحرب التي تصفها الصحف.

السياق، كان أبي يقول دائمًا، هو الذي يعطي معنى.

كتبت فيليس كامبل أن الجنود الألمان كانوا يبقرون بطون النساء البلجيكيات بأسياخ ويقتلون أجنتهن، ثم يغتصبونهن ويقطعون صدورهن.

تذكّرت جميع الدارسين الألمان الذين كان الدكتور موراي يستشـيرهم حول الأصل الجرماني للعديدِ من الكلمات الإنكليزية. لاذوا جميعًا بالصمت منذ أن بدأت الحرب، أم أنهم أسكتوا. هل يمكن أن يفعل هؤلاء السادة اللغويون أعمالًا كهذه؟ وإذا كان بإمكان شخص ألماني أن يرتكب أعمالًا كهذه، فلماذا لا يفعلها فرنسي أو إنكليزي؟

قامت فيليس كامبل ونساء مثلها برعاية تلك النساء البلجيكيات؛ اللاتي بقين على قيد الحياة ووصلن على ظهور الشاحنات، وقد لففن جذاذات من القماش حول صدورهن لامتصاص الدم بدلًا من الحليب، بينما كان أطفالهن يموتون عند أقدامهن.

ارتعشت يداي عندما بدأت أدوّن اقتباسات من ذلك الكتاب في قصاصة تلو الأخرى، أضع لكل منها عنوانًا بكلمة حرب. لقد أضافت شيئًا مريعًا إلى

القصاصات التي كانت قد فُرزت للتو وتنتظر لأن تصبح نسخة مطبوعة. عندما انتهيتُ، كنتُ منهكة. نهضتُ ورحت أبحث في الرفوف عن فتحة العلبة المناسبة. أخرجتُ القصاصات الموجودة للتو وأعدت ترتيبها. ستضيف القصاصات التي كتبتها شيئًا جديدًا؛ شيئًا فظيعًا إلى معنى الحرب. لكني لم أستطع أن أضيفها. أعدت القصاصات الأصلية إلى الفتحات التي أخذتها منها، ثم سرت نحو الموقد، وألقيت فيه الاقتباسات التي دوّنتها من كتاب فيليس كامبل، ورحت أراقبها وهي تشتعل وتتحوّل إلى ظلال لنفسها.

تذكّرت ليلي. في ذلك الوقت، كنت أظن أنني إذا حفظت الكلمة فإني سأتذكّر شيئًا من أمّي. أستطيع أن أمحو ما تعنيه الحرب بالنسبة لفيليس كامبل، وما تعنيه لتلك النسوة البلجيكيات. وبين الدعاية إلى المجد، وتجارب الرجال في الخنادق والموت، هناك شيء يجب أن نعرفه حول ما حدث للنساء. عدت إلى طاولتي، وفتحت كتاب (*العودة إلى الجبهة*)، وبدأت أقرأ من جديد. ومرة أخرى، أرغمتُ قلمي المرتعش على أن يكتب كل جملة فظيعة.

قلت لنفسي لو كان باستطاعة الحرب أن تغيّر طبيعة الرجال، فلا بد أنها تستطيع أن تغيّر طبيعة الكلمات. لكن أشياء كثيرة في اللغة الإنكليزية كانت قد نُضدّت وطبعت للتو. بدأنا نقترب من النهاية.

«أتوقع أنها ستجد طريقها إلى المجلدات النهائية»، قال السيد سويتمان عندما ناقشناه، «سيهتم الشعراء بذلك. فلديهم طريقة لإضافة ظلال على معنى الأشياء».

***

5 حزيران (يونيه) 1915

عزيزتي السيدة أوين،

لا أستطيع أن أتخيّل أنه يمكن أن أخاطبك بأي شيء غير إسمي، لكن مرة واحدة فقط أردت أن يعترف قلمي بالمرأة التي أصبحتِ. إني لا أعير وزنًا كبيرًا للزواج، لكن زواجك بغاريث صحيح من جميع النواحي، وإذا كان بالإمكان أن تكون جميع الزيجات جيدة مثل زواجكما، فقد أغيّر رأيي بهذه المؤسسة.

قد تظنين أن قلمي كان خاملًا خلال الشهر الماضي. لكني أؤكد لك، أن الأمر لم يكن كذلك. ففي كلّ يوم منذ أن تزوجّتِ، كان يخطر لي أن أكتب إلى أبيك

وأقول له كم كنتِ تبدين جميلة، وتشعرين براحة تامة وأنتِ واقفة إلى جانب غاريث وكنيسة القديس برنابا خلفك، وزهرة زنبق الوادي في يدك.

إني أكتب لأبيك منذ أربعة عقود، وكان من الصعب عليَّ أن أتوقف عن هذه العادة. حاولتُ، لكنّي وجدت أنني لا أستطيع أن أفكّر جيدًا من دون أن أحصل على آرائه المفيدة. إني لا أخجل من أن أعترف (وآمل ألّا يسيء ذلك لك بأي شكل من الأشكال) بأنني قررت أن أستأنف مراسلاتي مع هاري. كان حفل زفافك هو الذي حفزني على أن أفعل ذلك.. إلى أي شخص آخر غيره يمكنني أن أنقل تفاصيل ما جرى في ذلك اليوم بكل تفاصيله المجيدة؟ لذلك، عندما أقول إنني أفكّر بأن أكتب إلى والدك، فإن ما أقصده في الواقع هو أنني كتبتُ إلى والدك. فهو ليس صامتًا في عقلي يا إسمي.

سوف يكون في غاية السعادة عندما يسمع قرارك بأنك ألقيت باقة أزهارك، مع أن معظم ضيفاتك كنّ متزوجات أو عانسات. كم كان مفاجئًا عندما أدرتِ ظهرك لمجموعة المدعوين الصغيرة. رأيتك تأخذين غصنًا صغيرًا لنفسك، وكنتِ تعرفين ما الذي سيأتي. كنت آمل أن تتقدّم الفتيات اللاتي يعملن في قسم التغليف إلى الأمام، لكن عندما تركت يدك الباقة، كان من الواضح إلى أين كانت تتجه. لا بد أننا ضُعقنا،أنا وليزي- فلم نكن نجرؤ على الإمساك بها، لكننا لم نشأ أن تقع الأزهار على الأرض. رأيت ليزي مترددة، فكان عليَّ أن أخرجها من بؤسها وحرجها. يجب أن أعترف بأنه اعتراني شعور بالدوار للحظة (لكني لم أشعر بالندم). فقد صاحبتني هذه الأزهار في طريق العودة إلى باث.

وها أنا الآن أعيدها إليك، مضغوطة وجاهزة لتحفظيها بأي طريقة ترينها مناسبة. أتصوّر أنك ستضعينها كمؤشر بين صفحات كتاب، ولا يمكنني أن أفكّر في شيء أفضل من أن تفتحي كتابًا كنتِ قد أهملته منذ شهور، أو حتى سنوات، فتسقط منه ذكرى ذلك اليوم. بالطبع، يمكنك أن تضعيها أيضًا وراء الزجاج إلى جانب صورة حفل زفافك، لكنّي واثقة من ذائقتك.

لم تكن الرسائل التي أكتبها إلى أبيك تسليتي الوحيدة منذ زفافك. إن صحة جيمس موراي ليست على ما يرام. كما تعلمين، فقد أُرسلت إليَّ مسودات طباعة كثيرة لا أعرف ماذا أفعل بها. إنّي أقدّر ثقة جيمس بي، لكني أفكّر أن أكتب للممولين وأطلب تعويضًا صغيرًا لقاء مساهمتي التي تزداد من سنة إلى أخرى، وإيراد اسمي في قائمة الشكر لا يعوضني كما كان يفعل من قبل. بيث متحمسة جدًا لهذا الأمر، وقد ساعدتني على كتابة رسالة أطلب فيها ذلك، لكنّي لن أرسلها لأنني إذا أرسلتها سأبدو كما لو كنت أعمل مرتزقة في هذه الظروف. سأواصل العمل، كما يجب علينا جميعًا أن نفعل.

لا أريد أن أختم هذه الرسالة من دون الإقرار بنقل غاريث القادم. فهذا اختبار لك يا عزيزتي؛ لأن الحرب تختبر أناسًا كثيرين. أرجو أن تبقيني قريبة منك أكثر. اكتبي لي، زوريني، اعتمدي عليّ بقدر ما يجب أن تفعلي. ابقِ مشغولة طوال الوقت، لا يمكنني أن أغالي في فوائد يوم حافل بالعمل لعقلَ قلق أو قلب وحيد.

محبتي،

ديتي

***

مدّت ليزي رأسها من باب المَنْسَخ، وقالت: «لماذا لا تزالين هنا؟ لقد تجاوزت الساعة السابعة».

«إني أتحقق من كلمة twilight (*شفق*). يريد الدكتور موراي أن ننتهي من الكلمات التي تبدأ بحرف T في نهاية الشهر. هذا أمر مستحيل، لكننا نبذل كلّ ما بوسعنا».

فقالت ليزي: «لا أظن أن هذا هو سبب وجودك هنا».

«هل تعرفين ماذا أفعل عندما أذهب إلى المنزل يا ليزي؟ أحيك جوارب للجنود. استغرقت حياكة أول جورب ثلاثة أسابيع، وعندما جرّبه غاريث قال إنه ضيق جدًا، وأنهم سيعيدونه إلى المنزل؛ لأنه سيصاب بالغرغرينا بعد أسبوع. واتهمني بأنني تعمدت أن أفعل ذلك».

«وهل فعلتِ ذلك حقًا؟»

فقلت: «هذا شيء مضحك. لا، فأنا أكره الحياكة والحياكة تكرهني. لقد حكتُ خمسة جوارب حتى الآن ويبدو أنها تزداد سوءًا. لكن يجب أن أفعل شيئًا وإلا فإن القلق سيلتهمني إذا أرسلوا غاريث إلى خارج البلد»، وأضفت، «أتمنى أن أصل إلى السرير كلّ ليلة وأنا مرهقة وأنام من دون أن تطرأ فكرة واحدة في رأسي».

«هذه ليست أمنية تريدين أن تتحقق يا إسمي. هل فكّرتِ في أن تتطوعي؟»

«نعم، لكنّي لا أستطيع أن أجلس بين الجرحى. عندما أتصوّر ذلك، تصبح وجوههم كلهم مثل وجه غاريث».

فقالت ليزي: «إنهم يحتاجون دائمًا إلى نساء يضمدن جراحهم وما إلى ذلك»، وأضافت، «وقد سمعت أن الرجال يحبّون أن يتبادلوا الحديث عندما يكون في رفقتهم وجه جميل. إذا أبقيتِ أذنيك مفتوحتين، فقد تلتقطين كلمة أو كلمتين».

فقلت: «سأفكّر في الأمر».

***

«هل كنت تتكلّم مع ليزي؟» سألتُ غاريث.

كان قد حصل على إجازة خلال فترة الظهيرة من ثكنة كاولي، وكنا نتناول شطائر إلى جانب جسر والتون بريدج. تحاشى الإجابة عن سؤالي.

«سام من المطبعة»، قال، «لكن أصله من الشمال. يمكنه أن يستخدم زائرًا».

«ألا يوجد لديه أصدقاء من المطبعة؟»

«لديه أنا، لكن لم يكن لديَّ وقت كاف لأزورك. لا يزال الآخرون... حسنًا، في فرنسا».

لا يزالون في فرنسا، تساءلت، أحياء أم أموات؟

«إنه يتذكّرك»، تابع غاريث، «يقول إنّي رجل محظوظ. فقلت سأسأل عنه».

***

لم يطرأ تغيير كبير على مشفى رادكليف منذ أن نُقل إليه دا، سوى أن أجنحته امتلأت بالشبان بدلًا من المسنين. إنهم مجندون. لا تزال بعضهم يحافظون على جميع أطرافهم ويتمتعون بروح مرحة، وفقدها بعضهم الآخر. كان الجنود الذين يستطيعون يبتسمون لي عندما أمرّ إلى جانبهم. لكني لم يكن في وجه أي واحد منهم وجه غاريث. شعرت بالخجل لأنني لم أتي قبل الآن.

أشارت ممرضة إلى سرير سام في نهاية الجناح. بينما كنت أسير إليه، ألقيت نظرة على الجداول الطبية لخمسة وعشرين شابًا، كُتبت أسماؤهم ورتبهم بحروف كبيرة وواضحة، وحُجبت إصاباتهم بمصطلحات طبية وملاءات بيضاء

ناصعة. كان في أوكسفوردشاير جناح واحد في مستشفى واحد، أما الآن فقد أصبح فيها عشرة مستشفيات.

كان سام جالسًا في سريره يتناول وجبة العشاء. بدا لي وجهه مألوفًا، لكن كما يبدو لك شخص مألوفًا عندما تمرّ إلى جانبه في الشارع عدة مرات. عندما عرّفته على نفسي، ابتسم. كانت ساقه اليمنى مرفوعة تحت الأغطية.

قال: «لقد بُترت قدمي»، لكن صوته لم يبدِ أي أثر للحزن، وقال ذلك كما لو أنه يقول كم الساعة الآن»، وأضاف، «إنها لا شيء بالمقارنة مع ما رأيتِ».

لم يشأ أيّ منّا أن يتحدّث عمّا رآه. وبدأ يتحدّث من دون توقف عن المطبعة ويسأل عن أي شخص قد نعرفه. لم أكن أنتبه لجميع الفتيان الذين يرتدون مآزر وهم يتنقلون بين مخزن الورق وغرفة الطباعة وقسم التجليد والشحن، ولم أكن أعرف من الذي بقي ومن الذي رحل. «يمكنني أن أخبرك بمن رحل»، قال بنفس النبرة الخالية من أي مشاعر كالتي استخدمها عندما أبلغني عن قدمه، ثم ذكر لي اسم ومهمة كلّ فتى يعرف أنه لقي حتفه. كانت التفاصيل رتيبة، ولم يكد يتوقف ويأخذ نَفَسًا واحدًا. لكن كان عليه أن يتذكّرهم، وعندما كان يتذكّرهم، أتخيّل الدروب التي سلكوها ذات يوم واحد مثل خيوط تخيط مختلف أقسام المطبعة معًا. كيف يمكن أن تعمل من دونهم؟

«ها هم كلّهم»، قال كما لو أنه يُجري جردًا لمخازن أو معدات، لا رجال. ثم نظر إليَّ وابتسم ابتسامة عريضة، وقال: «يقول غاريث، أقصد الملازم أوين، إنك تحبين أن تجمعي كلمات». لاحظ المفاجأة التي ارتسمت على وجهي. ثم أضاف، «أظن أن لديّ كلمة لا يعرفها القاموس».

أخرجتُ قصاصة وقلم رصاص.

قال سام: «Bumf».

سألته، «هل يمكنك أن تضعها في جملة؟»

«إنك تعرف ما هي الجملة، أليس كذلك يا تينكا؟» صاح أحدهم من آخر الجناح.

«لماذا يدعونك تينكا؟»

«خرجت الطلقة وأصابت قدمه عندما كان يصلح بندقيته»، قال الرجل المستلقي في السرير إلى جانب سرير سام، «يفعل بعضهم ذلك عن قصد».

لم يردّ سام، لكنه التفت إليَّ وقال بصوت خفيض، «أعطني هذه المنشورات، لأنني بحاجة إلى Bumf لأستخدمها في المرحاض».

استغرقت فترة قصيرة حتى أدركت أنه يقول لي الجملة التي طلبتها. كتبتها في القصاصة وأضفت عليها اسمه، ثم سألته، «لماذا Bumf؟ ما أصلها؟»

«ربما يجب ألَّا أقول يا سيّدة أوين».

«نادني إسمي. ولا تخشى بأنك تسيء إليَّ يا سام. فأنا أعرف كلمات قليلة التهذيب أكثر مما تتصوّر».

فابتسم وقال: «Bum fodder. (*ورق تواليت، وثائق رسمية غير مهمة*) يأتي كثير منها من القيادة. إنها لا تستحق القراءة، لكن وزنها يساوي ذهبًا عندما تصابين بإسهال. آسف يا سيدتي».

«لديَّ كلمة يا ميس»، صاح رجل آخر.

«وأنا».

«إذا أردتِ كلمات غير مهذبة»، قال رجل فقد ذراعه، «تعالي واجلسي إلى جانب سريري قليلًا»، وربتّ بيده الوحيدة المتبقية على حافة سريره، ثم زمّ شفتيه الرقيقتين في شكل قبلة.

سارت الأخت مورلي، المسؤولة عن الجناح، نحوي.

توقف المزاح.

«هل يمكنني أن أحدّثك يا سيّدة أوين؟»

«لديها كلمات كثيرة، يا أخت»، قال الشاب ذو الذراع الواحدة، «فتّشي جيوبها».

وضعتُ يدي على كتف سام، وقلت له: «هل يمكنني أن أزورك غدًا؟»

«أود ذلك يا سيدتي».

«اسمي إسمي، هل تذكر؟»

«وصل مريض جديد البارحة»، قالت الأخت مورلي عندما غادرنا الجناح، «كنت أتساءل إن كنت تريدين أن تجلسي معه. سأعطيكِ سلة من الضمادات لكي تلفّيها. سيجعل ذلك يديك مشغولتين».

فقلت لها: «طبعًا»، ممتنة لأنها لم تطلب مني أن أُخرج ما في جيوبي.

سرنا في الممرات الطويلة إلى جناح آخر. لوهلة، بدوا لي جميعًا يشبهون بعضهم إلى درجة كبيرة: صفّان من الأسرّة، وقد لُفَّت ملاءات حول رجال راقدين عليها كالأطفال، وانتصب بعضهم في جلستهم كما لو كانوا متأهبين ليخرجوا ويلعبوا، ولم يكد بعضهم يستطيعون أن يأتوا بحركة.

انتصب الجندي ألبرت نورثروب في جلسته على سريره، في نظرته الفارغة شيء جعلني أفكّر بأنه لن يذهب إلى أي مكان آخر لفترة من الوقت.

سألته، «هل ينادونك بيرت؟ أم بيرتي؟».

فقالت الأخت مورلي: «إننا ندعوه بيرتي. لا نعرف إن كان يفضّل ذلك، لأنه لا يتكلّم. يبدو أنه يستطيع أن يسمع، لكنه لا يستطيع، بشكل ما، أن يفهم معنى الكلمات - باستثناء واحدة».

«وهو؟» سألتها.

وضعت الأخت مورلي يدها على كتف بيرتي وأومأت برأسها تودعه. فحدّق إلى الأمام على الفور. ثم سارت معي في الجناح. عندما أصبحنا خارج نطاق سماع أحد، أجابت على سؤالي.

«الكلمة هي قنبلة يا سيدة أوين. فإذا سمعها، فإنه يستجيب برعب شديد. استجابة مكتسبة، كما قال الطبيب النفسي: إنها شكل غير معتاد من عُصاب الحرب. كان في معركة فيستوبيرت، لكن يبدو أنه غير قادر على تذكّر أي شيء فيها. عندما عرضنا عليه صور الرجال الذين خدم معهم، لم يبدِ أي دلالة بأنه يعرفهم. حتى أغراضه الخاصة بدت غير مألوفة بالنسبة له. كانت جروحه البدنية طفيفة نسبيًا. أخشى أن الإصابة في دماغه ستأخذ فترة أطول ليتماثل للشفاء». التفتت إلى الخلف نحو بيرتي، وأضافت، «إذا كان هناك سبب لتُخرجي إحدى قصاصات الورق الصغيرة أثناء جلوسك إلى جانب سريره، يا سيدة أوين، فإن ذلك سيكون سببًا صغيرًا للاحتفال».

تمنت لي الأخت مورلي ليلة سعيدة، وقالت إنها تأمل بأن تراني غدًا الساعة السادسة مساء.

ثم قالت: «بالمناسبة، لقد طلبنا من جميع المرضى في هذا الجناح ألَّا يذكروا هذه الكلمة، مع أن أحدًا منهم لا يحبّذ أن يسمعها. سنكون ممتنين كثيرًا إذا لم تذكريها أيضًا».

لم أمكث طويلًا إلى جانب سرير بيرتي في ذلك اليوم. لففت الضمادات وتحدّثتُ في أمور ليست ذات أهمية طوال النهار. في البداية، كنت أنظر إلى وجهه لأرى إن كان قد سجّل أي شيء قلته. عندما تبين لي أنه لم يسجّل أي كلمة في عقله، سمحت لنفسي أن أتفحّص قسمات وجهه. بدا لي طفلًا. كانت في وجهه بقع أكثر مما يوجد فيه شعر.

واصلتُ زيارة سام وصبيين آخرين من المطبعة نُقلا إلى مشفى رادكليف مؤخرًا، لكني أصبحت أمضي وقتًا طويلًا مع بيرتي الذي مكنني الحديث معه من الدخول إلى فقاعة الحرب. ورحت أحدّثه معظم الوقت عن القاموس والأشخاص الذين يعملون فيه وعن عاداتهم الشخصية. وحكيت له عن طفولتي تحت طاولة الفرز وكيف كانت تغمرني فرحة كبيرة عندما أجلس على ركبة أبي، وكيف تعلّمت القراءة من القصاصات. لكن بدا أنه لم يسجّل أي شيء قلته له.

«لا أظن أنك وقعتِ في حبّه»، قال غاريث مازحًا عندما عاد إلى المنزل في إجازة لمدة يوم.

«ماذا يعني أن أقع في حبّه؟ لا أعرف شيئًا عما يدور في ذهنه، فضلًا عن أنه لا يزال في الثامنة عشرة من عمره».

مع مضي الأيام، بدأتُ أُحضر كتبًا من المَنْسَخ وأقرأ له فقرات أعتقد أنه قد يستمتع بها، أختارها لإيقاعها أكثر من الكلمات نفسها، وكنت أحرص دائمًا على أن تكون الكلمات كلها لطيفة. بدا أن الشعر جعله يثبّت نظراته، وكان ينظر إليَّ أحيانًا بتصميم فأتخيّل أن شيئًا من المعنى قد وصل إليه. وخلال الفترة المتبقية من شهر حزيران (يونيه) وحتى شهر تموز (يوليه)، بدأت أنام نومًا عميقًا.

تموز (يوليه) 1915

في شهر تموز، لم يعد الدكتور موراي يكاد يمضي وقتًا في المَنْسَخ. قالت ابنته روزفريث إنه أصيب بنزلة برد شديدة، لكنّي لا أذكر أبدًا أن نزلة برد قد منعته من العمل في القاموس؛ فقد كان يتجاهلها كما كان يتجاهل أي انتقاد لا يعجبه. لكن العمل استمر، وكان جميع المساعدين يزورونه في منزله، وتنتقل النسخة من المَنْسَخ إلى بيته، ذهابًا وإيابًا. وعندما انتهى المجلد «من Trink إلى Turndown» احتفلنا حول طاولة الفرز أثناء تناولنا شايًا بعد الظهر المعتاد. شاركنا الدكتور موراي الذي كان شاحبًا ونحيفًا أكثر من أي مرة رأيته فيها في حياتي.

كان احتفالًا هادئًا. تحدثنا عن الكلمات لا عن الحرب، واقترح الدكتور موراي جدولًا زمنيًا معدلًا لإنجاز الكلمات التي تبدأ بحرف T. كان لا يزال يبدو متفائلًا، لكن لم يعارضه أحد.

بينما كنا نتناول الكيك، مالت روزفريث نحوي وقالت: «سيضعون في النشرة الدورية التالية صورة للقاموس وصور المحررين الثلاثة ومساعديهم».

فقلت: «هذا شيء رائع».

نظرت إلى أبيها الذي لم يلمس قطعة الكيك أمامه، وأضافت «نعم، لكن المصور لن يأتي حتى نهاية شهر تموز (يوليه)، وأنا قلقة...»، لكنها لم تستطع أن تنهي جملتها، «هل تمانعين في أن تأخذي صورة بكاميرا أمي؟ إذا احتاج الأمر؟»

القاموس من دون الدكتور موراي. أبعدتُ الفكرة من رأسي، وقلت: «بكل سرور».

أرخت يدها على ركبتي، وارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها، وقالت: «أخشى أن يعني ذلك أنك لن تكوني فيها».

فقلت: «سأحرص على أن أكون هنا عندما يأتي المصور الحقيقي».

«نعم، طبعًا. لا أريد أن تُستبعدي من النشرة الرسمية. فأنتِ جزء من المشروع منذ ما تسعفني به ذاكرتي».

عادت روزفريث إلى المنزل لتُحضر كاميرا براوني. كنتُ قد استخدمتها مرة أو مرتين عندما التقطت صورًا لأفراد أسرة موراي في الحديقة، لكنها شرحت لي طريقة استخدامها مرة أخرى. عندما نظّفت ليزي طاولة الفرز من أواني الشاي، وضعت إلسي كل شخص في المكان الذي ترى أنه يجب أن يكون فيه.

لم يبق سوى سبعة منّا. ساعد أحدهم الدكتور موراي على الجلوس على كرسي أمام أحد أرفف الكتب، وجلست كل من إلسي وروزفريث على أحد جانبيه، ووقف السيّد مالينغ والسيّد سويتمان والسيّد يوكني في الخلف.

نظرتُ من خلال العدسة وركّزت على الدكتور موراي. كان نفس الوجه الذي كان يتجسس عليَّ عندما أكون أختبئ تحت طاولة الفرز، ويغمزني متواطئًا. نفس الوجه الجدّي المتجّهم وهو يقرأ الرسائل التي يرسلها له مندوبو المطبعة، أو النظرة المنزعجة وهو يقرأ نسخة قام بتحريرها أحد المحررين الآخرين، ونفس الوجه عندما يجد متعة عندما تنسلّ من فمه كلمات بلهجة البروغ الأسكتلندية عندما يتبادل الحديث مع دا. نفس الوجه الذي يبتسم ابتسامة خفيفة عندما يجلب غاريث مسودات الطباعة. جلس في وسط الإطار تحيط به جميع عناصر القاموس: الكتب والمَلَازم وفتحات العلب المحشوة بالقصاصات وابنتاه ومساعدوه على جانبيه. كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟

قلت: «هناك شيء ناقص».

توجهت إلى الرف وراء طاولة مكتب الدكتور موراي المرتفع، حيث توجد ثمانية مجلدات من الكلمات، ومساحة فارغة تتسع لأربعة أو خمسة مجلدات أخرى، توجد فيها قلنسوة الدكتور موراي الجامعية التي كان يضعها على رأسه عندما كنتُ طفلة. رفعتها ونفضت الغبار عنها، وتركت الشرابة تنسلّ ببطء بين أصابعي، ولمع فجأة وميض من الذاكرة للحظة قصيرة. فقد كنت قد وضعتها على رأسي ذات يوم، عندما كنا أنا وأبي وحدنا في المَنْسَخ. فقد وضعها على رأسي وأجلسني على الكرسي الذي يجلس عليه الدكتور موراي، وسألني بوجه جاد إن كنت أوافق على التصحيحات التي أجراها على كلمة «cat» (*قطة*)، فقلت له: «إنها مناسبة»، فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

«أرى أن تضع هذه يا دكتور موراي».

شكرني، لكنّي لم أكد أسمع ما قاله.

ساعدته روزفريث على تثبيتها على رأسه، وأخذتُ الكاميرا مرة أخرى.

«جاهزون»، قلت.

نظروا كلهم نحوي، وقد لاحت على وجوههم قسمات جادة. حتى نهاية الزمن، قلت لنفسي. حبستُ دموعي والتقطتُ الصورة.

***

ارتديت ثيابي لأحضر الجنازة، بينما حزم غاريث آخر أغراضه في حقيبة أدواته. أخرج معطفه السميك من خزانة الملابس مع أن اليوم كان يومًا شتويًا دافئًا.

اقترب مني وقبّلني على جبيني، ومرر إبهاميه تحت عينيَّ وقبّل كل جفنٍ مالح، ثم رفع يدًا، ثم اليد الأخرى، وزرر أكمام بلوزتي.

ثبتُّ قبعتي على رأسي، ودسست ضفائري في داخلها بإحكام ووقفت أمام المرآة. مشى غاريث ورائي وخرج إلى البهو. عندما عاد، كانت بيده فرشاته ومشطّه. رأيت انعكاس صورته في المرآة وهو يضعهما في الحقيبة، وتساءلت إن كان بإمكاني أن أخرجهما من حقيبته دون أن يراني وأعيدهما إلى مغسلة الحمام.

أصبحنا جاهزين.

وقفنا أمام السرير الذي تقاسمناه ليالي شهر تقريبًا. التقت شفتانا معًا، وتذكّرت المرة الأولى.. طعم الشاي المحلّى بالسكر. كان لهذه القبلة طعم محيطات؛ كانت ناعمة وهادئة وطويلة، ملأها كلّ منّا بما نحتاج إلى أن تكون. ستجعلنا الذاكرة نواصل حياتنا.

رأيت انعكاس صورتنا في المرآة. كان من الممكن أن نكون أي زوجين قبل أن تنطلق الصافرة للصعود إلى القطار، لكنّي لن أذهب إلى المحطة. لا أستطيع أن أحتمل ذلك.

سيغادر غاريث بعد انتهاء الجنازة. ربط حقيبته ورفعها إلى كتفه. أخذت حقيبتي اليدوية ووضعت فيها منديلًا نظيفًا. تبعتُ غاريث إلى خارج الغرفة لكنّي التفتُّ في اللحظة الأخيرة لأتأكد من أنني لم أنسَ شيئًا. كان ديوان قصائد روبرت

بروك لا يزال إلى جانب السرير. عدت بسرعة ووضعته في حقيبتي اليدوية، ثم هبطت الدرج بسرعة.

في الجنازة، وقفت مع غاريث خلف المعزّين؛ ما لا يقل عن مئتي شخص، على الرغم من أن فترة الإعلان عن موعد الجنازة كان قصيرًا جدًا. بكيت أكثر مما تسمح بها آداب اللياقة: بكيت أكثر مما بكت السيّدة موراي، وأكثر مما بكت إلسي وروزفريث وجميع أبناء موراي وأحفاده مجتمعين. عندما قيلت الكلمة الأخيرة وتقدّمت الأسرة إلى الأمام، استدرتُ وسرتُ بعيدًا.

وجدت يد غاريث يدي، ورجوته بصوت خافت بقدر ما أستطيع أن يتركني أذهب.

قلت له: «عد مع ليزي عندما ينتهي كل شيء. سأراكما في سانيسايد».

عندما اجتزت البوابة، كان يخيّم على المكان سكون غريب. لم يعد المنزل أكثر من الأحجار التي تشكلّه، وتجمّع كلّ نبضه وأنفاسه في باحة الكنيسة. لأول مرة في حياتي، رأيت المَنْسَخ بأنه شيء غير دائم؛ سقيفة قديم مشيّد من الحديد غير جدير بالهدف الذي صُنع من أجله.

فتحتُ باب المطبخ. هبّت عليَّ رائحة خبز الصباح الذي ازداد قوة مع اشتداد حرارة النهار. أعادني إلى مكاني.

صعدتُ الدرج درجتين في كل مرة، وسحبت الصندوق من تحت سرير ليزي. أحسست بثقله وأحصيتُ السنوات. كانت هدية غاريث ملفوفة بشكل فضفاض، حفنة من القصاصات الجديدة تناثرت فوقها. قلت لنفسي إنه لن يفيد أحدًا غيري.

سحبت الخيط فسقطت الورقة، كما حدث في المرة الأولى. *كلمات نسائية ومعانيها*. نفس الإيقاع السريع المثير. لكن توجد رواسب حزن هذه المرة. والخوف. أمعنتُ النظر في هديتي، رحت أفتّش في كلّ صفحة. أردت أن أجد شيئًا يحلّ محل مشطه ومعطفه السميك، وديوان الشعر. لم يكن من المعقول أن أتوقع أن يكون هناك شيء، وليس من المنطقي أن أفكّر بأن ذلك سيُحدث فرقًا. بعد الكلمات الأخيرة، لم يكن هناك شيء سوى الصفحات الأخيرة الفارغة.

ثم، كُتب داخل الغلاف الخلفي.

طَبع هذا القاموس بالحرف الطباعي Baskerville.

صُمِّم لطباعة الكتب المهمة وذات الفائدة الجوهرية،

وقد اختير لوضوحه وجماله.

غاريث أوين

منضّد، طابع، مجلّد

هبطتُ الدرج بسرعة وخرجت إلى الحديقة. فُتح الباب واستقبلني المَنْسَخ. كانت الكلمات التي أحتاج إليها قد طُبعت للتو، لكنّي أردت أن أختار المعنى بنفسي.

فتّشت في فتحات العلب، ووجدت كلمة ثم الأخرى. أخذت قصاصة نظيفة وكتبتُ عليها:

LOVE

.A passionate affection

(الحبّ

عاطفة متقدّة)

ETERNAL

.Everlasting, endless, beyond death

(أَبَدِيّ

أَزَلِيّ، لا متناهٍ، ما بعد الموت).

عدتُ إلى غرفة ليزي، ووضعت القصاصة بين صفحات ديوان روبرت بروك.

«لا بد أنها في الطابق العلوي»، سمعت ليزي تقول في المطبخ، «أراهن بأن صندوقها مفتوح، وسيمتلئ السرير وأرضية الغرفة بفوضى الكلمات».

ثم سمعتُ صوت حذاء غاريث الثقيل وهو يصعد الدرج.

«آه ، روبرت بروك»، قال عندما رأى ديوان الشعر في يدي.

«لقد تركته إلى جانب السرير». وقفتُ وأعطيته له، فوضعه في جيب صدره من دون أن ينظر إليه.

«هل وجدتِ ما كنتِ تبحثين عنه؟» سألني وهو يهزّ رأسه باتجاه الصندوق القابع على الأرض، ولا يزال قاموس *الكلمات النسائية ومعانيها* لا يزال مفتوحًا على الصفحة الأخيرة على السرير.

رفعتُ هديته ووضعتها على صدري بقوة، وسألته، «هل كنت تعرف أنني سأقبل؟»

«كنت أشعر أنك تحبينني كما كنت أحبّك. لكنّي لم أكن واثقًا من أنك ستقولين نعم». ضمّني إليه ومجلد الكلمات بيننا. ثم أجلسني على سرير ليزي وركع أمامي. كان القاموس لا يزال قابعًا في حضني. «أنا موجود في كلّ صفحة فيه يا إسمي، مثلك تمامًا». شبك أصابعه بين أصابعي، وأضاف، «هذا نحن، وسيظل هنا لفترة طويلة بعد أن نرحل».

عندما غادر، رحت أنصت إلى صوت حذائه الثقيل وهو يهبط الدرج. أحصيتُ كلّ خطوة. ودّع ليزي ولا بد أنه ضمّها إليه وهي تنشج، لأن الصمت ساد لبضع دقائق. ثم فُتح باب المطبخ، وسمعتُ ليزي تقول بصوت عال.

«يجب أن تعود إلى البيت الآن يا غاريث. لا يمكنني أن أبقيها في غرفتي إلى الأبد».

فأجابها، «أعدك بذلك يا ليزي».

جلستُ على سرير ليزي حتى عرفت أن القطار قد غادر المحطة وذهب غاريث. تيبّست أصابعي المحترقة من حمل هديته. فتحتها، وفركتها، ونظرت إلى الصندوق الذي كان لا يزال مفتوحًا على أرضية غرفة ليزي، وانحنيت لأعيد مجلد كلماتي إلى عشه المليء بالقصاصات والرسائل.

ثم توقفت. لقد استغرق سنة وهو يعمل به، واستغرقت سنوات عديدة أخرى لإكماله. جميع تلك النسوة. كلماتهن. بهجة كتابة أسمائهن. الأمل في أن يبقى شيء منهن لفترة طويلة بعد أن يطويهن النسيان.

عندما نزلت إلى المطبخ، كانت ليزي تعدّ شطائر. قالت: «لا بد أن الجميع قد غادروا المقبرة الآن. لن يلومك أحد لأنك غادرتِ». جففت يديها على مئزرها وعانقتني. كان بإمكاني أن أبقى هناك إلى الأبد، لكن كان عليَّ أن أذهب إلى المطبعة.

***

كان السيّد هارت في غرفة الطباعة. خمّنت أنه لن يتناول الشطائر ويتبادل الحديث بعد الجنازة. كانت قرقعة آلات الطباعة ورائحة الزيت بلسمًا لحزنه. أخبرني غاريث أنه مع استمرار الحرب أصبح يمضي وقتًا أطول في العمل على القاموس. عندما وقفتُ داخل الباب، فهمت السبب. رآني، ولوهلة بدا أنه لم يعرفني، وعندما أدرك من أنا، أخذ نَفَسًا عميقًا، وسار نحوي.

«السّيدة أوين».

«إسمي، من فضلك».

«إسمي».

وقفنا هناك صامتين. فكّرت في ما قد يعنيه أن يفقد الدكتور موراي وغاريث في أسبوع واحد. ربما كان يرى نفس الشيء عني.

رفعت مجلد (*كلمات نسائية ومعانيها*)، وقلت: «أرجوك لا تأخذ عني فكرة سيئة يا سيّد هارت، لكن غاريث فعل ذلك من أجلي. إنها كلمات؛ كلمات جمعتها أنا. وقد نضّدها من أجلي بدلًا من أن يقدم لي خاتمًا». تلعثمت. حدّق السيّد هارت في المجلد الذي أحمله في يدي، وقال: «آمل أن يكون قد صبّ ألواح طباعة. أريد أن أطبع نسخًا أخرى».

أخذ المجلد مني وسار إلى طاولة صغيرة عند حافة الغرفة. جلس. كانت آلات الطباعة تواصل عزفها.

تبعته ووقفت وراءه، وهو يقلّب الصفحات ويتتبع الكلمات بأطراف أصابعه، كما لو كان يستخدم طريقة برايل للقراءة المخصصة للمكفوفين.

أغلقه بعناية شديدة ووضع يده على الغلاف.

«لا توجد ألواح طباعة يا سيّدة أوين. إن إعداد ألواح لعمليات طباعة صغيرة مكلف جدًا، ناهيك عن النسخ المنفردة».

حتى هذه اللحظة، تملكني شعور بالقوة، ووضوح الهدف، وأعرف أن ذلك سيدعمني ويشدّ من عزيمتي. مشيت نحو الكرسي الآخر، ووصلت إليه في الوقت المناسب.

«لو كان المنضّد يتوقع تعديلات وتغييرات - إجراء تنقيحات، وإدخال تصحيحات- فإنه سيحتفظ بأطر الأحرف. كما ترين فإن الحرف سائب، يسهل تعديله».

فقلت: «لم يكن غاريث يتوقع إدخال تصحيحات».

«كان أفضل منضّد عندي. إنها قاعدة أن نحتفظ بأطر الأحرف لفترة من الزمن».

جعلتنا هذه الفكرة أكثر حيوية. نهضنا معًا وسرنا والصمت يلفّنا إلى غرفة التنضيد. كانت الغرفة شبه فارغة، وكان أحد المبتدئين يعمل على منضدة غاريث القديمة. فتح السيّد هارت أحد الأدراج العريضة التي توجد فيها أطر الأحرف التي لا تزال قيد الاستخدام. ثم فتح درجًا آخر، ثم درجًا آخر. توقفت عن متابعته في ظله، وبدأت أتخيّل منزلنا الفارغ.

«ها هي».

أقعى السيّد هارت ليفتح أوطأ درج وأقعيت معه. رحنا نتتبع الحروف معًا بأصابعنا. أغمضتُ عينيّ وشعرت بالفرق تحت أطراف أصابعي المحترقة.

بالنسبة لي، كانت الكلمات محسوسة دائمًا، لكنها ليست كما هي الآن. بهذه الطريقة كان غاريث يعرفها، وأردتُ فجأة أن أتعلّم كيف أقرأها كما لو كنت عمياء.

«ربما كان يتوقع طباعة نسخ إضافية»، قال المشرف القديم.

ربما.

***

كنت أول شخص يعود إلى المَنْسَخ بعد الجنازة ببضعة أيام. كانت قلنسوة الدكتور موراي لا تزال في المكان الذي تركتها فيه بعد أن التقطتُ صورته منذ

أقل من أسبوعين، وقد كساها الغبار من جديد.

لم أتمكن من أن أنفض الغبار عنها. بعد الجنازة، أخبرتني روزفريث أن الصورة ستُنشر في النشرة الدورية في أيلول (سبتمبر). حتى وهي في حزنها، اعتذرت لأنني لم أكن في الصورة.

لكن لم يكن أسوأ خبر تخبرني إياه، «سننتقل من هذا المكان»، قالت وقد اغرورقت الدموع في عينيها مرة أخرى، «في أيلول إلى مكتبة أشموليان. كلّنا. كلّ شيء».

صُعقت. وقفت أمامها كما لو أنني لم أفهم كلمة واحدة مما قالته. أيلول الشهر القادم. ثم سألتها، «وماذا سيحلّ بالمَنْسَخ؟»

هزّت كتفيها بحزن، وقالت: «سيعود سقيفة للأدوات في حديقة المنزل».

عندما عدتُ إلى طاولتي، وأنا أمرّر أصابعي فوق رفوف القصاصات، تذكّرت أبي عندما قرأ لي قصة علاء الدين. فقد كان المَنْسَخ مغارتي، لكن بعكس علاء الدين، لم أرغب في أن أخرج منه. فأنا أنتمي إليه. كنت سجينة فيه بملء إرادتي، وكانت أمنيتي الوحيدة أن أخدم القاموس، وقد تحقق ذلك. لكن خدمتي كانت محصورة داخل تلك الجدران. لقد ارتبطت بهذا المكان كما ارتبطت ليزي بالمطبخ وبغرفتها في أعلى الدرج.

جلست إلى طاولتي، وأسندت رأسي للحظة إلى ذراعيّ.

أحسستُ بثقل يد فوق كتفي. ظننت أنها يد غاريث، فاستيقظت مجفلة. كان السيّد سويتمان. كنت قد غفوت من الإرهاق.

سألني، «لماذا لا تذهبين إلى البيت يا إسمي؟»

«لا أستطيع».

لا بد أنه فهم، لأنه هزّ رأسه ووضع كومة من القصاصات على طاولتي.

ثم قال: «كلمات جديدة من الحرف A إلى S. يجب فرزها تمهيدًا للطبعة التكميلية التي لا نعرف متى يمكن أن تصدر».

كانت تلك أبسط مهمة، لكنها ستستغرق وقتًا. «شكرًا يا سيّد سويتمان».

«ألا ترين أنه حان الوقت لتناديني فريد؟»

«شكرًا يا فريد».

فقال: «كم يبدو اسمي غريبًا عندما تقولينه. أنا واثق من أننا سنعتاد على ذلك»، وأضاف، «كما يجب أن نعتاد على أي تغيير».

***

10 آب (أغسطس) 1915

عزيزتي إسمي،

مع أنه مضت عشرة أيام على مغادرتي، فإني أشعر بأنني غادرت منذ دهر. ربما كانت أكسفورد مكانًا كنت قد زرته ذات يوم، وأنك حلم. لكن عندما فتحت ديوان روبرت بروك، وسقطت القصاصة التي وضعتها فيه. الكلمات، خطّ يدك، ملمس الورق المألوف.. ستكون تذكاري اليومي بأنك حقيقية.

قررت أن أحتفظ بديوان الشاعر بروك في جيبي طوال الوقت. فإذا جُرحت وكان عليَّ أن أنتظر حتى تصل نقالة تنقلني إلى المشفى، أريد أن أقرأ كلماتك التي تهدئني. لكن ذلك غير ممكن لفترة من الوقت. إننا متمركزون في هيبوتيرن؛ قرية زراعية صغيرة غير بعيدة عن أراس. قيل لنا إن هناك متسعًا من الوقت حتى نستقر هنا، وأيامنا مليئة بالتدريب والتسكع والاسترخاء. ظنّ بعض الفتيان أن المغامرة كلها ليست سوى عطلة لأنهم لم يحصلوا على عطلة من قبل قط، وأمضي شطرًا كبيرًا من وقتي في الاعتذار لأمهات الفتيات الجميلات. بدأت لغتي الفرنسية تتحسّن.

تتمركز فرقة الدراجات الهوائية الهندية في مكان قريب من معسكرنا. هل سبق أن التقيتِ بشخص هندي؟ أنا لم ألتق شخصًا هنديًا من قبل. إنهم يجوبون بدراجاتهم كل اثنين معًا حول القرية، وهم يبدون رائعين بعمائمهم وشواربهم. على الأقل، لدى الرجال الأكبر سنًّا شوارب: وكما هو الحال مع الإنكليز، يوجد عدد كبير من الصبية الهنود الذين التحقوا بالجيش وهم صغار حتى قبل أن ينمو شعر على وجوههم. قيل لي إنهم يأخذونهم وهم في العاشرة، لكني لم أر حتى الآن أحدًا منهم صغيرًا جدًا. يأمل المرء أن يظلوا في حالة جيدة.

في الليلة الماضية، في بادرة صداقة، دعونا الضباط الهنود لمشاركتنا في وجبتنا المسائية. لم يكد يلمسون الطعام، وشربوا قليلًا جدًا، لكننا أمضينا وقتًا

مليئًا بالضحك حتى وقت متأخر من الليل. كنت واحدًا من أقل الضباط خبرة، وتبين أن هناك أشياء كثيرة يجب أن أتعلمها. توجد مفردات كاملة هنا لم أسمعها من قبل يا إسمي. معظمها يتعلق بالخنادق، بشكل أو بآخر، وهناك كلمات كثيرة تشبه أفضل ما لدى مابل. لكن الكلمة التي أرسلها لك هدية هي الكلمة المفضّلة لديّ حتى الآن.

لقد اقتُطعت القصاصة من صفحة تعليمات حول طهو الرز، أخرجها ضابط هندي من جيبه وأعطاني إياها عندما بدأت أبحث عن قصاصة ورق. غمرتني السعادة لأنني أعرف كم ستقدّرين الكتابة الهندية خلف القصاصة. يدعى الضابط أجيت، وقد أخبرني ما هو أصل الكلمة. وأراد أن أخبرك أيضًا أن اسمه يعني «الشخص الذي لا يقهر»، وأصرّ علي أن أكتبها على القصاصة. عندما قلت له إنني لا أعرف ماذا يعني اسمي، هزّ رأسه وقال: «هذا شيء غير جيد، لأن اسم الرجل هو قَدَره». بهذا المنطق، فهو شخص مناسب للحرب تمامًا.

في الوقت الحالي فإن الحياة cushy(سلسلة وهادئة) (انظري كيف بدأت أستوعب الكلمات العامية الجديدة بسرعة)، لكنني أتوق إلى سماع رأيك يا إسمي. سمعتُ أننا سنبدأ في استلام البريد غدًا، بعد أن سجّلت وزارة الحربية أخيرًا مكان تواجدنا. أتطلّع إلى سماع ما تفعلينه في أيامك، وأي أخبار من المطبعة أو المَنْسَخ، وبيرتي بالطبع. لا تخشي من أن تذكري كلّ التفاصيل حتى المملة منها: فإني سأستمتع بها كثيرًا. أرجو أن تبلغي تحياتي إلى ليزي، وزوري السيّد هارت بالنيابة عني. سأكتب له رسالة منفصلة، لكني أخشى أن شعوره بالاكتئاب لن ينتهي حتى تنتهي هذه الحرب. زيارتك له سوف تدخل البهجة إلى نفسه.

حبّي الأبدي،

غاريث

CUSHY

From the Hindi word “khush,” meaning “pleasure” (Ajit “invincible” .(Khatri

Don’t get used to your cushy quarters, Lieutenant; you’ll soon be in the“ ”.trenches and up to your arse in mud

Lt. Gerald Ainsworth, 1915

(كاشي: من الكلمة الهندية «خوش» وتعني «متعة» (أجيت «خاطري» الذي لا يقهر).

«لا تعتد على مكانك المريح أيها الملازم، لأنك ستكون بعد فترة قصيرة في الخنادق، ويصل الوحل إلى مؤخرتك».

الملازم جيرالد أينسورث، 1915).

***

خلال الأسابيع التي أعقبت مغادرة غاريث، تخيّلته وهو يموت بمائة طريقة وطريقة. أصبح نومي مضطربًا، أستيقظ من الهلع. لذلك كانت رسالته الأولى بمثابة منشّط بالنسبة لي.

«ليزي، رسالة».

«ممن؟ الملك؟» ابتسمتُ وأراحت نفسها على الطاولة، مستعدة لسماعها.

«تبدو كأنها عطلة، أليس كذلك؟» قلت، عندما أنهيت قراءتها.

«نعم. ويبدو أنه أصبح لديه صديق جيد».

«نعم. السيّد الذي لا يُقهر. وهذا يذكّرني». أخرجت القصاصة من المغلّف وقرأت ما كتبه غاريث فيها.

قلت: «أليست كلمة رائعة؟ لقد قررت أن أستخدمها كلما استطعت».

«سيكون لديك سبب أكثر مما لديَّ».

وصلت رسائل أخرى، رسالة كلّ بضعة أيام، ومضى شهر آب (أغسطس) وحلّ شهر أيلول (سبتمبر). لم تكن هناك دلائل كثيرة تشير إلى أن وتيرة العمل قد تباطأت منذ وفاة الدكتور موراي، وبما أنه لم يقم أحد بتعبئة صندوق أو ينظف رفًا، قلت في نفسي، لعل المَنْسَخ سيظل كما هو. وعندما بدأ السيد سويتمان (لم تكن مناداته باسم «فريد» تأتي بسهولة على لساني) يعطيني كلمات لأبحث عنها، شعرتُ بأن شيئًا من التوازن قد أعاد لي أيامي. فعدت إلى رحلاتي المكوكية من المَنْسَخ إلى مكتبة أشموليان وإلى المطبعة. كان السيّد

هارت في حالة اكتئاب شديد، لكن بعكس ما كان يأمله غاريث، لم أستطع أن أدخل إلى نفسه أي قدر من السعادة.

في الساعة الخامسة من مساء كلّ يوم من أيام الأسبوع، كنت أذهب من المَنْسَخ مباشرة إلى مشفى رادكليف. وفي أيام السبت، أصبحت أمضي معظم فترات بعد الظهر. في أحد الأسرّة، يوجد دائمًا فتى كان يعمل في المطبعة. وإذا وصل أحدهم للتو، فإن الأخوات يحرصن على إخباري، فيصبح ذاك الفتى جزءًا من جولاتي، لكن معظمهم كان يزورهم أحد. كان مشفى رادكليف على مرمى حجر من المطبعة، وكانت النساء في جيريكو يأتين باستمرار. كانت أجنحة المشفى تعجّ بالأمهات والأخوات والحبيبات اللاتي كنّ يبدين اهتمامًا كبيرًا بالجرحى الغرباء بالإضافة إلى اهتمامهن بجرحاهم، إذا استطعن ذلك. وعندما يصل فتى جديد من جيريكو، يقدّمن له بعض البسكويت والحلوى مقابل شذرات من أخبار قد تقنعهن بأن أولادهن لا يزالون على قيد الحياة.

بدأت أتناول دائمًا وجبتي المسائية مع بيرتي.

«لا يزال لا يفهم أي شيء»، قالت الأخت مورلي، «لكن يبدو أنه يأكل أكثر عندما تكونين إلى جانبه».

بدأ مشفى رادكليف يقدّم لي وجبة العشاء في صينية عشاء بيرتي. كان الطعام الذي يقدمونه عديم الطعم ويتكرر باستمرار. اعتذرت الأخت مورلي وأنحت باللائمة على نظام التقنين، لكني لم أعبأ بذلك: فقد كان ذلك يعني أنني لن أضطر إلى الذهاب إلى البيت وأطهو طعامًا لشخص واحد.

«بيرتي»، قلت. عندما لم يجب أضفت، «لقد صادفت اليوم كلمة أظن أنها قد تعجبك».

«إنه لا يحبّ أي كلمات يا سيّدة أوين»، قال الشخص في السرير المجاور.

«أعرف ذلك يا أنغوس، لكن الأطباء يستخدمون كلمات مألوفة فقط، أما هذه فليست كلمة مألوفة».

«حسنًا، كيف سيعرف ماذا تعني؟»

«لن يعرف. لكنّي سأشرحها له».

«لكن يجب أن تستخدمي كلمات مألوفة لشرحها».

«ليس بالضرورة».

ضحك أنغوس، وقال: «إنها مهمة صعبة جدًا يا سيدتي».

«حسنًا، إذا لم تتوقف عن التنصت علينا، سيكون لديك عدد أكبر من الكلمات عندما تغادر هذا المكان».

فقال: «أظن أنني أعرف كلّ الكلمات التي أحتاج إليها».

كان بيرتي يتناول وجبة طعامه مثل أي رجل آخر، وبسبب طول الفترة التي يستغرقها، كنت أتخيّل أنه يتجشأ عندما ينهي طعامه، ويقول: «عفوًا، يا سيدتي»، كما يفعل الكثيرون. لكنه عندما يتناول ما يكفي من الطعام، يعود ويحدّق إلى الأمام ويصمت كدأبه.

قلت «Finita».

لم تسجّل عينا بيرتي شيئًا.

«ماذا تعني؟» سأل أنغوس.

«تعني انتهى».

«بأي لغة؟»

«إسبرانتو».

«لم أسمع بها قط».

فقلت: «إنها لغة مُختَلَقة بشكل ما. أظن أنها سهلة وباستطاعة أي شخص أن يتعلّمها – لقد ابتُكرت لتعزيز السلام بين الأمم».

«وكيف ذلك يا سيدتي؟»

ابتسمت ابتسامة حزينة عندما استقرّت عيناي على طرف سرير أنغوس: لم أر قدمين تحت الملاءة.

«ومع ذلك»، تابع قائلًا، «إذا ساعدتي بيرتي هنا، فلن يبدو أن اختلاق هذه اللغة هدر للوقت»، وأومأ برأسه نحو صينية بيرتي، ثم أضاف، «هل يمكنني أن أتناول ما تبقى من صحنه عندما ينتهي؟»

أخذت صحن الطعام إلى أنغوس.

سألني، «كيف تقولين شكرًا بلغة الإسبرانتو؟»

كانت لديّ قائمة بالكلمات في جيبي، لكن هذه الكلمة أحفظها عن ظهر قلب: «دانكون».

«حسنًا، *دانكون يا سيّدة أوين*».

«*نو دانكينيد*، يا أنغوس».

***

قرعت السيدة موراي باب المَنْسَخ، ثم فتحته. رفعنا جميعًا رؤوسنا من على طاولاتنا.

«بدأت عملية الانتقال»، قالت، وبتعبير كئيب، ودخل خلفها فتى يرتدي المئزر المألوف للعاملين في المطبعة، يدفع عربة كُدِّست فوقها صناديق كرتون مسطّحة.

«عرضت المطبعة أن تساعدنا في عملية الانتقال، وسترسل فتى بعد ظهر كل يوم مع عربة. سيأخذون الصناديق التي تنتهون من تعبئتها إلى مكتبة أشموليان». بدا كما لو أنها على وشك أن تقول شيئًا آخر، لكن لم تخرج من فمها كلمات أخرى. رحنا ننظر إليها وهي تجيل النظر في أرجاء الغرفة، تمعن النظر في رفوف فتحات علب القصاصات والكتب وأكداس الورق. كان ينبغي أن تكون لحظة خاصة. ثم استقرّت عيناها أخيرًا على طاولة مكتب الدكتور موراي، وقلنسوته الجامعية المركونة على الرف إلى جانب مجلد الحروف من Q إلى Sh. ثم استدارت وغادرت.

وقفت روزفريث وإلسي لتلحقا بأمهما. عندما مرت إلى جانب العربة، قالت روزفريث: «يمكنك أن تترك الصناديق على الأرض. أنا متأكدة من أننا نستطيع أن نجمعها بأنفسنا».

لا يمكن أن يتوقف العمل، لكن تجميع الصناديق أصبح نشاطنا أثناء تناولنا شاي الصباح. وفي فترة الغداء، كنا نجمع فيها القواميس القديمة والكتب والمجلات التي يمكننا الاستغناء عنها. كان فتى يأتي في الساعة الثالثة بعد ظهر كلّ يوم وينقلها.

يومًا بعد يوم، بدأ المَنْسَخ يظهر على حقيقته. في الأسبوع الأخير من شهر أيلول (سبتمبر)، امتلأت الصناديق الأخيرة بالأشياء التي يحتاج إليها كل مساعد لأداء عمله. كانت الأمزجة كئيبة، وفي يومهم الأخير، غادر المساعدون من دون أي مراسم احتفال لتوديع المكان لأنه لم يبق في المَنْسَخ شيئًا يمكننا توديعه.

لم أكن مستعدة لأغادر. تطوعت لأن أبقى حتى الأخير وأضع جميع القصاصات في صناديق لتُرسل إلى المخزن أو لنقلها إلى مكتبة أشموليان. بالإضافة إليَّ، كان السيّد سويتمان آخر من أنهى تعبئة الصناديق. أغلق صندوقه وتركه على طاولة الفرز حتى يأتي فتى المطبعة ويأخذه. ثم جاء ليودّعني.

«هل تفكّرين في أن تبقي هنا؟» سألني وهو ينظر إلى طاولتي ومحتوياتها التي ظلت كما هي.

فقلت له: «ربما. كنتَ تُحدث الكثير من الضوضاء، لذلك سأُنهي عملي الآن بعد أن تذهب».

أطلق تنهيدة. اختفت روح الدعابة منه. وقفت وضممته إليّ.

عندما أصبحت وحدي أخيرًا، تجرأت ونظرت حولي. بدت طاولة الفرز صلبة ومألوفة، وكانت فتحات علب القصاصات لا تزال ممتلئة، أما الرفوف فقد أصبحت فارغة ولم يبق شيء على الطاولات. لم يعد يُسمع صوت حفيف الأوراق وخدش الأقلام. فقد المَنْسَخ جسده بكامله، ولم تعد عظامه أكثر من سقيفة صغير في حديقة البيت.

أمضيت الأسابيع القليلة التالية في التنقل ذهابًا وإيابًا بين المَنْسَخ ومشفى رادكليف.

***

لمستُ يد بيرتي، وقلت: «مانو»، ثم أشرت إلى يدي. «مانو».

***

«أظن أنك لا تريدين أن تفعلي ذلك وحدك يا إسمي»، قالت ليزي. لابد أنها رأتني وأنا أسير في الحديقة نحو المَنْسَخ.

قلت لها: «لديك ما يكفي من العمل».

«تمكنت السيّدة موراي من إحضار فتاة إضافية لبضعة أسابيع. أصبحت فترات صباحي لك».

قبّلتُ ليزي على خدّها ثم فتحت باب المَنْسَخ.

غطت صناديق الأحذية الفارغة طاولة الفرز.

***

عندما قلت «*أكفو*»، تناول بيرتي كوب الماء. كانت أصابعه طويلة، وكادت البثور والجلد القاسي تختفي، وظهر تحته جلد ناعم. لم تكن يده يد عامل، قلت في نفسي، وإنما يد شخص يعمل في مكتب.

***

كأن كارثة أصابت المكان. كانت القصاصات مألوفة، لكن نصفها بات في طي النسيان. بقيت أتوقف لأتذكّر.

***

تناولت وجبة طعامي من صينية بيرتي، وقلت: «vespermangô» (*طعام العشاء*)، ثم شربت الشاي، وقلت « Teon» (شاي).

***

كدّست القصاصات في حزم صغيرة إلى جانب علب الأحذية. إذا كانت مرخية، تعقدها ليزي بخيط وتصفّ حزمة إلى جانب الأخرى حتى يمتلئ صندوق الأحذية. ثم أكتب المحتويات على مقدمة الصندوق، وأضيف (مخزن) أو (مكتبة أشموليان). من الغريب أن حجم القصاصات كان ملائمًا تمامًا، كما لو أن الدكتور موراي هو الذي صمّم علب الأحذية أيضًا.

***

«لماذا يحصل دائمًا على vespermanĝo أولًا»، سألني أنغوس، فقلت له: «لأنه لا يثير جلبة مثل البعض هنا».

***

أغلقت ليزي غطاء صندوق آخر ووضعته على جانب طاولة الفرز.

قالت: «في الوسط هناك».

***

« Amico»، قلت وأشرتُ إلى نفسي. « Amico»، قلتُ وأشرتُ إلى أنغوس.

«ما الذي جعلك تظنين أنني صديقه؟» قال أنغوس.

«رأيتك تتحدث معه وتستخدم كلمات الإسبرانتو. أظن أن هذه هي الصداقة».

***

جمعت القصاصات الأخيرة وأعطيتها إلى ليزي لتربطها معًا. فرغت فتحات العلب بالكامل. تملكني شعور بأن حياتي انتهت في تلك اللحظة.

قلت: «لا بد أن هذا ما تشعر به عندما تُشطب من مسودة طباعة».

«وماذا يعني ذلك؟» قالت ليزي.

«أُزيلت، اقتُطعت، مُحيت».

***

«هذا أمر مهم يا أنغوس» قلت وأنا أحمل بيدي قائمة بكلمات الإسبرانتو: «لكني لم أعرف كيف أعرّفها له».

«ما هي؟»

.«Sekura»

«ماذا تعني؟»

«آمن».

جلسنا صامتين لفترة من الوقت، وقد وضع أنغوس يده على ذقنه متظاهرًا بأنه يفكّر، يحدّق في الكلمة، بيرتي بيننا، لا يستجيب.

«عانقيه يا سيدتي»، قال أنغوس.

«عانقته؟»

«نعم. أظن أن المرة الوحيدة التي يشعر فيها أيّ واحد منا بأمان هي عندما تعانقنا أمهاتنا».

***

غطت علب الأحذية طاولة الفرز. وضعت علامة على كلّ منها، وامتلأت بالقصاصات.

«السيّدة موراي ستنظّم نقل فتحات العلب إلى مكتبة أشموليان قريبًا»، قلت لليزي.

«إذن علينا أن ننظفها جيدًا، وبذلك تكون مهمتنا قد انتهت».

***

«Sekura»، قلت وأنا أعانق بيرتي.

بدأت أعانقه كلما وصلت، وكلما غادرت، ومرة أو مرتين في أثناء ذلك. لكنه ظلّ متشنجًا. هذه المرة، أحسست بجسده قد ارتخى قليلًا.

«بيرتي؟» قلتُ، عندما تراجعت أخيرًا ونظرت في عينيه. لكن لم يكن هناك شيء. عانقته مرة أخرى، «Sekura».

استرخى أكثر، وتدلّى رأسه نحو صدري.

أيلول (سبتمبر) 1915

28 أيلول (سبتمبر) 1915، لووس

حبيبتي إسمي،

كلمتي لك هذا الأسبوع هي doolally. إنها تُستخدم للإشارة إلى فتى أرسلت له عائلته من بلده لفافة من ورق التواليت، فاستخدمها كلّها ضمادًا لعينيه. وعندما أزالها رفاقه من عينيه أخيرًا، لم يعد الفتى المسكين يرى. فسخر منه رفاقه وظنوا أنه يدّعي أنه فقد بصره، لكنه لم يعد يستطيع أن يرى شيئًا بالفعل. إنها عُصاب الحرب، كما قال الطبيب.

الكلمة هي doolally كما قال لي رفاقه. أظن أنها كلمة سهلة الاستخدام.. تدعو إلى الضحك.

بدأت أشعر بأن اللغة الإنكليزية مثقلة بهذه الحرب يا إس. فلدى كل شخص التقيت به كلمة جديدة عن ورق التواليت، ولم أسمع كلمة واحدة لا تعبّر بدقة عن أصلها أو تجربة استخدامها. إلا أن الكلمات التي تنقل آلاف أشكال الرعب، قليلة جدًا.

أشكال الرعب. منهك من الحرب. إنها الكلمة التي نستخدمها عندما نفتقر إلى الكلمات. ربما توجد أشياء لا يمكن وصفها، على الأقل، ليس من قبل أشخاص مثلي. ربما يستطيع شاعر أن يرتب كلمات بطريقة تخلق شعورًا بالخوف أو ثقل الإحساس بالرعب. باستطاعتهم أن يصنعوا عدوًا من طين وأبواط ندية ويرفعوا نبضك بمجرد ذكرها. قد يكون بإمكان شاعر أن يدفع هذه الكلمة أو تلك ليعني شيئًا أكثر مما حدّده الرجال الذين يعملون على إصدار القاموس.

أنا لستُ شاعرًا يا حبيبتي. الكلمات التي لديَّ شاحبة وضئيلة إزاء قوة هذه التجربة الهائلة. يمكنني أن أقول لك إنها بائسة، فالوحل يصبح أوحل، والرطوبة أرطب، وصوت ناي يعزف عليه جندي ألماني يصبح أجمل وأكثر

حزنًا من أي صوت سمعته في حياتي. لكنكِ لن تفهمي ذلك. فلا توجد كلمة واحدة في قاموس الدكتور موراي يمكنها أن ترقى إلى مستوى التحدّي المتمثل في الرائحة الكريهة التي تملأ هذا المكان. يمكنني أن أقارنها برائحة سوق السمك بعد ظهر يوم حار، أو رائحة مدبغة، أو مشرحة، أو مجرور مياه. إنها كل هذه الأشياء، لكنها الطريقة التي تتغلغل فيها إليك، وتصبح طعمًا وتشنجًا في حلقك وبطنك. سوف تتخيلين شيئًا فظيعًا، لكنه أسوأ. ثم هناك المذبحة. تنقلها لك صحيفة التايمز. «قائمة الشرف». عمود إثر عمود من الأسماء في شكل حرف Monotype Modern. لا أملك وسيلة أستطيع أن أصف فيها ما الذي يفتت روحي عندما لا تزال جمرة سيجارة تتوهج في الوحل، مع أن الشفتين اللتين كانتا تمسكان بها تطايرتا وتناثرتا. عندما أشعل تلك السيجارة يا إس، كنت أعرف أنها سيجارته الأخيرة. هذا ما نفعله. نشعل السيجارة، نهزّ رؤوسنا، ونحدّق في أعينهم. ثم نرسلهم إلى الأعلى. لا توجد كلمات يمكنها أن تعبّر عن ذلك.

لدنيا الآن وقت للراحة، لكننا لا نستطيع أن نرتاح. فعقولنا لن تهدأ أبدًا لأنها ستندلع من جديد، ويبدأ الجميع يكتبون إلى أهاليهم. إلى زوجات ثلاثة رجال وأمهات أربعة رجال، وأنا الذي سيكتب هذه الرسائل. لقد طُلب منا ألّا نصفها، كما لو كان ذلك ممكنًا، لكن بعضهم حاول ذلك. إنها مهمتي، الليلة، لأن أفرض رقابة عليهم، فشطبتُ الكلمات التي كتبها فتيان شبه أميين، وفتيان يمكن أن يصبحوا شعراء، كي تظلّ أمهاتهم يفكّرن بأن الحرب مجد وقتال جيد. إني أفعل ذلك بسعادة كبيرة، من أجل أمهاتهم، لكن منذ البداية، فإني أفكّر فيك يا إس، وكيف ستحاولين إنقاذ ما قاله هؤلاء الفتيان كي تتمكني من فهمهم على نحو أفضل. كلماتهم عادية، لكنها مجمّعة في جمل متنافرة. لقد نسختُ لك جميع تلك الرسائل، ووضعت تلك الصفحات في هذه الرسالة. لم أصحح أو أحذف منها شيئًا، وكتبت اسم شخصكلّ منها إلى جانبها. لم أفكّر في أحد أفضل منك لتكريمهم.

حبي الأبدي،

غاريث

ملاحظة. لم يكن أجيت الشخص الذي لا يُقهر.

***

كان منزلنا معتمًا ما عدا ضوء الغرفة الكبيرة، لكن هذا كلّ ما أحتاج إليه. جلست على الدرجة أسفل الدرج، وأنا ما أزال في معطفي، وقرأت رسالة

غاريث مرة أخرى. ثم قرأت جميع الكلمات؛ التي شُطبت كي لا يقرأها الآخرون والتي نسخها لأقرأها. مرّت ساعات، وسرت قشعريرة في جسدي. نظرتُ إلى تاريخ رسالة غاريث. كان عمرها خمسة أيام فقط.

مشيتُ إلى سانيسايد، تسللت إلى المطبخ وصعدت الدرج. كانت ليزي تشخر. فتحتُ الباب بهدوء بقدر ما أستطيع، وأخذتُ الغطاء عند أسفل سريرها وجعلتُ منه عشًا ومددته على الأرض.

في الصباح، استيقظتُ من حركة ليزي الهادئة وهي تتحرك في الغرفة. عندما لاحظت أنني أراقبها، لامتني لأنني لم أوقظها في الليل. حدّثتها عن رسالة غاريث، وساعدتني على أن أصعد إلى سريرها. كان دفء جسدها لا يزال عالقًا في الملاءات.

«سأبدأ أنظف السكريبي». قالت وهي تغطيني جيدًا كما كانت تفعل دائمًا.

لكنّي لم أستطع أن أنام. عندما ذهبت، انحنيت تحت السرير، وسحبت الصندوق. (*الكلمات النسائية ومعانيها*): قال إنها موجودة في كلّ صفحة. وضعته على السرير. شممت رائحة الجلد وقلبته إلى الصفحة الأولى. قرأت كل كلمة. استغرق عمله هذا سنة كاملة.

***

عندما انتهى عملنا في المَنْسَخ، كنت سعيدة لأنني ما أزال أذهب إلى مشفى رادكليف. قد ينتهي الأمر بأن يصبح غاريث هنا، فكّرت وأنا ذاهبة إليه. ما الذي يمكن أن يفقده؟ ذراع، ساق؟ عقله مثل بيرتي؟

«مساء الخير ميس»، قال أنغوس، «*جاء العشاء وذهب*. دار بيني وبين بيرتي حديث جميل حول البطاطا. أظن أنها كانت مهروسة مع *أكفو*. فوافق بصمت».

«أنا على ما يرام يا أنغوس. شكرًا».

«حسنًا، هذا لا يعني أشياء كثيرة. لم أسألك كيف كنتِ، لكنّي أظن أني سألتك ذلك أيضًا. هل أنت على ما يرام؟»

«أوه، متعبة قليلًا».

«حسنًا، وصل شخص جديد إلى الجناح. إنه يتكلّم بصوت مرتفع، لا يحترم الآخرين. يزعج الممرضات ويسبب لهن وقتًا عصيبًا. سمعتهم يطلقون عليه اسم *القناص ذي الذراع الواحدة* بسبب إصابته القاسية في فرنسا وكلامه القاسي هنا. يقولون إنه جاء إلى رادكليف منذ فترة قصيرة. لا بد أن النزلاء في الجناح الآخر لم يعودوا يحتملونه». تابعتُ نظرة أنغوس.

كان المريض الجديد مألوفًا لي منذ أول يوم جئت فيه إلى المستشفى. عندما رآني أنظر إليه، زمّ شفتيه الرفيعتين في شكل قبلة. تجاهلته والتفت إلى بيرتي.

«أما زلت تجمعين كلمات؟» قال القناص ذو الذراع الواحدة، «هذا الجبان لن يعطيك شيئًا. يصمت من أول إشارة على ظهور مشكلة».

«تجاهليه يا سيدتي».

«إنها نصيحة جيدة يا أنغوس».

لكن التجاهل لم يجدِ نفعًا.

«عندي كلمة ستُذهلك».

بعض الرجال في غاية اللطف وبعضهم ليسوا كذلك. لا فرق بذلة مَنْ يرتدون. من السهل معرفة الكلمة التي صاح بها أحدهم؛ كانت دقيقة محكمة التسديد، وقد كُررت مرات كثيرة، حتى بعد أن أصابت هدفها.

«*قنبلة. قنبلة. قنبلة. قنبلة. قنبلة*».

تسطّح بيرتي على سريره ثم سقط من فوق السرير، ودفعني فسقطت على الأرض أيضًا. هزّ صراخه الجدران فسمعته من جميع الجهات.

جثوت على يديَّ وركبتيّ ونظرت إلى نهاية الجناح. للحظة من الارتباك، ظننت أنه قد يكون هجوم زبلن، وليس أذى متعمدًا بسيطًا سبّبه أحد.

كان الجناح كله تقريبًا كما كان عندما دخلت، لكن الجميع استداروا نحونا. انقلب الكرسي الذي أجلس عليه، وأصبح سرير بيرتي مائلًا. انكمش من الخوف تحته، وثنى ركبتيه حتى صدره ووضع يديه على أذنيه. كان يرتجف كما لو كان عاريًا في ركام من الثلج. حتى أنه بال على نفسه.

سقط أنغوس على الأرض وراءه، وظننت أنه سقط من فوق السرير. كانت هناك ضمادات في المكان الذي يفترض أن تكون فيه قدماه. *قدم الخندق*، كان قد قال لي. جرّ نفسه إلى جانب بيرتي.

«*أميكو*»، قال بأسلوب غنائي مثل طفل يلعب لعبة الغميضة، «*أميكو، أميكو*».

تحوّل الصراخ إلى أنين فظيع، وبدأ بيرتي يتأرجح إلى الأمام والخلف. زحفتُ نحوهما وجثوتُ إلى جانب بيرتي، وضممتُ جسده الذي يتأرجح بين ذراعيّ. كان صغيرًا وضعيفًا، لم يكد ينمو. «سيكورا»، همستُ في أذنه.

تذكّرت الأوقات عندما كانت ليزي تجُلسني في حضنها إلى أن تزول مخاوفي. كان صوتها مثل إيقاع بندول ساعة. «سيكورا»، قلت وأنا أتأرجح مع بيرتي، «*سيكورا*».

ثم وضع أنغوس ذراعيه حولنا كلينا، وشعرت بأن حركة اهتزازنا بدأت تتباطأ. ثم تحوّل تأوه بيرتي إلى همهمة، ورحت أهمس ترتيلتي. عندما توقف الاهتزاز تمامًا، ارتمى بيرتي على صدري وأجهش في البكاء.

***

أجلستني الأخت مورلي أمام طاولة الممرضات وأحضرت لي كوبًا من الشاي، ثم قالت: «يوجد عدد كبير من الفتيان مثل بيرتي»، وأضافت، «لكنهم لم يصابوا بعُصاب الحرب - أظن أن هذا شيء فريد- عدد كبير منهم لا يتكلمون، بينما يقول الأطباء أن باستطاعتهم أن يتكلموا».

«ماذا حدث لهم؟» سألتها.

فقالت: «يُنقل الكثير منهم إلى مستشفى نيتلي في ساوثامبتون حيث يجربون عليهم جميع أنواع العلاجات. يرى الدكتور أوستلر أن علاجك بلغة الإسبرانتو قد يكون مفيدًا، وقد كتب إلى زميل له يخبره بذلك. إنه يعرف أنك تعملين في القاموس ويرى أن خبرتك الخاصة قد تسهم في برنامجهم للعلاج اللغوي. إنه يأمل أن تزوريهم وتحدّثيهم بما تفعلينه مع بيرتي».

فقلت: «لكن بيرتي لم يقل ولا حتى كلمة واحدة، ولا توجد أي إشارة إلى أن أي شيء فعلته مفيد».

«هذه أول مرة تهدئه الكلمات وليس الكلوروفورم، يا سيّدة أوين. إنها مجرد بداية».

***

حلمتُ أنني في فرنسا. يضع غاريث عمامة على رأسه، ويستطيع بيرتي أن يتكلم، وأنغوس يهزّني ويقول: «سيكورا، سيكورا». عندما نظرتُ إلى الأسفل رأيت قدميَّ مبتورتين مليئتين بالدم.

***

عندما وصلت إلى المَنْسَخ في صباح اليوم التالي، كانت ليزي تمسح فتحات العلب بقطعة قماش مبللة. شممت رائحة الخلّ.

«هل نمتِ حتى ساعة متأخرة؟» قالت.

«كانت ليلة سيئة».

هزّت رأسها، وقالت: «سينقلون فتحات العلب صباح اليوم. إذا ملأتِ كل ما على طاولتك في صندوق، يمكنهم أن يأخذوه أيضًا».

طاولتي. لم أُفرغ محتوياتها بعد. حتى أنه لا تزال عليها بعض القصاصات. كانت أشبه بغرفة في أحد تلك المتاحف. بدأت أملأ صندوقي.

وضعت نسختي من قاموس صموئيل جونسون أولًا، ثم كتب أبي - التي كان يطلق عليها «مكتبة سكريبي». التقطتُ مجلدًا مهترئًا من *ألف ليلة وليلة* وقلبتُ إلى الصفحة التي توجد فيها قصة علاء الدين. عندما جاء الماضي إليَّ، أغلقتُ الكتاب، ووضعته في الصندوق مع الكتب الأخرى.

نظّفتُ سطح طاولتي وفتحت الغطاء. كانت هناك رواية لم أنهِ قراءتها قط. سقطت قصاصة من بين صفحاتها - كلمة مملة، قد تكون مكررة. أعدتها إلى الكتاب ووضعته في الصندوق. أقلام رصاص وقلم حبر. ورقة ملاحظات. كتاب (*قواعد هارت*) الذي لا تزال ملاحظات السيّد دانكوورث مرفقة به. وضعتها كلها في الصندوق.

ثم صندوق الأحذية المليء بالقصاصات؛ قصاصاتي، القصاصات التي أخذها غاريث من ليزي أو التي تسلل إلى المَنْسَخ ليستعيرها. وضعتها في الصندوق

أيضًا. ثم ثنيت أطراف الصندوق إلى الأسفل، وثبّتُ طرفًا تحت الآخر.

قلت: «أظن أننا قد نكون قد انتهينا يا ليزي».

«تقريبًا». غمرت قطعة القماش في الدلو وعصرتها من الماء الزائد، ثم جثت على ركبتيها وراحت تمسح صفّ فتحات العلب الأخير. «انتهينا الآن»، قالت وعادت وجلست على وركيها. ساعدتها على الوقوف.

وصل الرجل المسنّ والصبي بينما كانت ليزي تفرغ دلوها من الماء تحت شجرة الدردار. «كلها جاهزة لتذهب»، قلت لهما.

عندما أشار الرجل الأكبر سنًّا إلى فتحات العلب الأقرب إلى الباب، انحنى الصبي ليرفع أحد طرفيها. لديهما نفس البنية الجسدية الممتلئة، ونفس الشعر الأشقر. أملت أن تنتهي الحرب قبل أن يبلغ الصبي سن الرشد. نقلا الرفوف إلى شاحنة صغيرة مركونة عند المدخل.

عادت ليزي تحمل مجرفة وفرشاة.

«فقط عندما ترين أنه لم يعد هناك شيء آخر أفعله». لقد أزالت عقودًا من الغبار والأوساخ التي تراكمت وراء فتحات العلب.

رفًا رفًا، أزال الرجل وابنه كلّ الدلائل التي تشير إلى أن القصاصات كانت موجودة فيها.

«الأخير»، قال الرجل، «هل تريدين أن أعود لنأخذ هذا الصندوق؟ هل آخذها إلى مكتبة أشموليان؟»

هل سأذهب إلى هناك بعد كلّ هذا؟ تساءلت. لم يكن سؤالًا، لكنه أصبح الآن واقعًا.

قلت له: «اتركه الآن».

مشى الصبي إلى الأمام، والرجل إلى الخلف، يدير رأسه إلى هذا الجانب وذاك كي لا يرتطم بشيء. تبعتهما إلى خارج المَنْسَخ ورحت أراقبهما وهما يحمّلان آخر فتحات العلب على الشاحنة. أغلقا الأبواب، وصعدا إلى العربة ثم خرجا من البوابة باتجاه شارع بانبري رود.

«هذا كل ما في الأمر، إذن»، قلت لليزي عندما عدت إلى داخل المَنْسَخ.

«ليس تماما». كانت ليزي لا تزال جاثية على ركبتيها، تحمل جاروف الكناسة بيد، وكومة صغيرة من القصاصات باليد الأخرى. قالت وهي تعطيني إياها: «إنها وسخة، انتبهي».

كانت القصاصات مثبّتة معًا بدبوس صدئ عليها خيوط عنكبوت. أخذتها إلى الخارج ونفختها حتى أصبحت نظيفة، ثم عدتُ إلى طاولة الفرز. فرشتُ القصاصات على الطاولة؛ سبع قصاصات، كُتب على كلّ واحدة منها بخط مختلف، واقتباس من كتاب مختلف، وتاريخ مختلف.

«اقرئيها بصوتٍ عالٍ»، صاحت ليزي من المكان الذي تجثو فيه على ركبتيها، «دعيني أرى إن كنتُ قد سمعت بها».

فقلت: «لقد سمعتِ بها».

«تابعي».

«Bonde mayde». توقفت ليزي عن الكنس، وقالت: « Bound maiden, bond maiden, bond servant, bond service, bond- maide, bondmaid».

كانت اقتباساتها معتدلة بعض الشيء، لكن في ثلاث قصاصات كان أبي قد كتب تعريفًا ممكنًا: Slave girl, bonded servant, bound to serve till death. (عَبدَة ، خادمة مملوكة، مُقيّدة بالخدمة إلى أن تموت).

ووضع دائرة حول Slave girl.

تذكّرت القصاصة التي هبطت إليَّ عندما كنت تحت طاولة الفرز.

جلست ليزي إلى جانبي. «ما الذي يزعجك؟»

«هذه الكلمات».

غيّرت ليزي أماكن القصاصات كما لو أنها تُكمل أحجية الصور المقطوعة، ثم قالت: «هل ستحتفظين بها أم ستعطينها إلى السيّد برادلي؟»

لقد جاءت إليَّ كلمة Bondmaid (خادمة مملوكة، عَبدَة) - مرتين الآن- وتردّدت في إعادتها إلى القاموس. قلت في نفسي إنها كلمة سوقية، مهينة أكثر من كلمة cunt. هل يمنحني ذلك الحق في أن أستبعدها لو كنت أنا المحررة؟

«إنها تعني خادمة مملوكة يا ليزي. ألم يزعجك ذلك قط؟»

فكّرت لوهلة وقالت: «أنا لستُ مملوكة يا إسمي، لكن في رأسي، لا أستطيع أن أفكّر بأنني جارية».

عندما ذهبت يدها مباشرة إلى صليبها، عرفت أنها تفكّر بالطريقة الصحيحة لتقول شيئًا.

عندما تركت الصليب أخيرًا، ابتسمت وقالت: «كنتِ تقولين دائمًا إن الكلمة قد يتغيّر معناها وذلك بحسب الشخص الذي يستخدمها. لذلك ربما تعني كلمة خادمة مملوكة شيئًا أكثر مما تقوله هذه القصاصات. *فأنا خادمة مملوكة لك منذ أن كنتِ صغيرة يا إسمي، وأنا سعيدة بكلّ يوم أمضيته معك*».

***

أغلقتُ باب المَنْسَخ، وسارت ليزي معي في المساء في طريق عودتنا إلى شارع أوبزفاتوري. تناولنا خبزًا وزبدة على طاولة مطبخ منزلي، وعندما بدأت عيناي تغمضان من النعاس، سألتها إن كانت ستبقى.

قلت لها: «قد تشعرين براحة أكبر في غرفتي القديمة، لكن هل لديك مانع في أن تشاركيني غرفتي؟»

في الطابق العلوي، استلقت ليزي تحت البطانيات وكوّرت نفسها حولي. حدّثتها عن بيرتي، وعن خوفه، وعن خوفي.

«أظن الآن أنه أصبح بإمكاني الآن أن أتخيّل قليلًا كيف يبدو الأمر بالنسبة لهم»، همست في الظلام. لم أذكر اسم غاريث. لم نتحدّث عن رسالته. كانت أحداث معركة لووس مجرد أقاويل وشائعات تدور على الألسنة في أنحاء أوكسفورد.

***

استيقظت وحدي لكن على القرقعة التي أحدثتها ليزي في مطبخنا. كان تغلي عصيدة. عندما رأتني، صبّت قليلًا في صحني، وأضافت عليها قليلًا من القشدة والعسل وذرت فوقها حفنة من القرفة. عرفت أنها ذهبت إلى السوق وعادت في الصباح الباكر.

أكلنا بصمت مريح، ثم حمّصت ليزي شرائح من الخبز وأعدّت الشاي. كانت تتحرك بارتياح في المطبخ بطريقة لم أرها قبل الآن. تذكّرت الفترة التي أمضيناها في شروبشاير.

قالت: «من الجيد أن أراك تبتسمين».

«من الجيد أن تكوني هنا».

غنّت بوابة الحديقة على لحن مفصّلاتها.

«بريد الصباح»، قلت، «لكنه مبكر». انتظرتُ حتى أسمع صوت الرسائل وهي تتدفق في شق الباب الخارجي. عندما لم نسمع شيئًا، نزلت ليزي إلى القاعة للتأكد إن كان هناك أحد في الخارج. تبعتها.

«ماذا يفعل؟» سألتها.

«إنه واقف...» وضعت ليزي يدها على فمها، وهزّت رأسها إلى الأمام والخلف، بشكل طفيف. ثم سمعنا قرعًا خفيفًا على الباب، لا يكاد يُسمع. خطت خطوة نحوه.

«قفي»، خرجت من فمي في شكل همسة، «إنها لي»، لكنّي لم أستطع أن أتحرك.

ثم طرقة خفيفة أخرى. سالت الدموع على خدّيّ ليزي الخشنتين بصمت والتفتت ونظرت إليّ. مدّت لي ذراعها وأخذتها.

كان الرجل عجوزًا، مسنًّا جدًا لا يمكن أن يكون في الحرب، فكُلّف بإيصال أحزانها. تناولت البرقية ورجت أنظر إليه وهو يسير عائدًا إلى شارع أوبزرفاتوري. كتفاه مقوستان تحت ثقل حقيبته.

***

بقيت ليزي معي. أطعمتني وحمّمتني، وأمسكت بذراعي وسرنا حتى نهاية الشارع، ثم انعطفنا حول المبنى، ثم اتجهنا إلى كنيسة القديس برنابا. صلّت. أما أنا فلم أستطع أن أفعل مثلها.

بعد أسبوعين، أصررت على أن أعود إلى مشفى رادكليف. كان أنغوس قد نُقل إلى مشفى لإعادة التأهيل بالقرب من مسقط رأسه. وُنقل بيرتي إلى مستشفى نيتلي في ساوثامبتون، وبقي ثلاثة فتيان أسكتتهم تجربتهم. جلست معهم إلى أن طلبت مني الأخت أن أعود إلى منزلي.

بعد شهر من وصول البرقية، وصلني طرد بريدي. أحضرته ليزي إلى غرفة الجلوس.

«توجد ملاحظة»، قالت، وسحبتها من تحت الخيط الذي يربط الطرد الورقي البنّي.

عزيزتي السيدة أوين،

أرجو أن تقبلي هاتين النسختين من (الكلمات النسائية ومعانيها) مع عاطر تحياتي. أعتذر لأنني لم أتمكن من طباعة نسخ أخرى، لأن التجليد لا يتوافق مع المعيار المعمول به. كما تعلمين، نعاني من شحّ في الورق. وقد سمحت لنفسي أن أحتفظ بنسخة ثالثة لإيداعها في مكتبة مطبعة جامعة أكسفورد. إذا أردتِ أن تطلّعي عليها في أي وقت، فإنك ستجدينها على الرفّ إلى جانب مَلازِم القاموس.

المخلص، مع كلّ التعاطف

هوراس هارت

حركت ليزي جمرات الفحم في الموقد ثم جاءت وجلست إلى جانبي. عندما حللت الخيط سقطت الورقة.

«إنه شيء جيد»، قالت ليزي.

«ما هو؟»

«طبع نسخ». أخذتْ نسخة وقلّبت الصفحات، تعدّها تحت أنفاسها. توقفت عند الصفحة الخامسة عشرة ووجدت اسمها.

قالت: «ليزي ليستر».

«هل تتذكرين الكلمة؟»

« Knackered»، قالت ومررت إصبعها تحت الكلمة وهي تنظر إليّ، ترددها عن ظهر قلب:

أستيقظُ قبل الفجر لأتأكد من أن كلّ من في المنزل الكبير سيشعر بالدفء ويتناول الطعام عندما يستيقظ، ولا أنام حتى أسمعهم يشخرون. أشعر بأنني متعبة نصف الوقت، مثل حصان منهك لا يصلح لأي شيء».

«إنك تحفظينها عن ظهر قلب يا ليزي. كيف تتذكرينها بهذه الدقة؟»

«طلبتُ من غاريث أن يقرأها لي ثلاث مرات حتى حفظتها، لكنّي لا أستطيع أن أحفظ جيدًا. كان يجب أن أقول «حتى يشخروا». لماذا لم تصححيها؟»

«لا يحق لي أن أحكم على ما قلته أو كيف قلته. أردت فقط أن أسجّل، وربما أفهم».

هزّت رأسها، وقالت: «أراني غاريث جميع الكلمات التي يوجد فيها اسمي. حفظت مكانها وماذا تقول غيبًا».

«لماذا من الجيد أن تكون هناك نسخ؟» سألتها.

فقالت: «لأنها ستنتقل الآن. يمكنك أن تعطي نسخة للسيّد برادلي والأخرى لمكتبة بودليان. فهم يحتفظون بأي شيء مهم مكتوب. أنتِ قلتِ ذلك. كل كتاب، كل مخطوطة، كل رسالة كتبها فلان إلى البروفسور فلان».

«وهل ترين أن هذا شيئًا مهمًا؟» ابتسمتُ لأول مرة منذ أسابيع.

«نعم».

نهضت ليزي وأعادت نسختها من (*الكلمات النسائية ومعانيها*) إلى الطرد الذي كان لا يزال مفتوحًا في حضني. ربتت عليه، ووضعت يدها على خدّي، ثم ذهبت إلى المطبخ.

***

رافقتني ليزي إلى مكتبة بودليان.

منذ أن سمح لي السيّد نيكولسون أن أصبح قارئة في المكتبة، بدأ يلين ويتقبّل وجود نساء في مكتبته، لكنّي لم أكن متأكدة من مدير المكتبة الذي خلفه. نظر السيّد مادان إلى صفحة العنوان، وقال: «لا أظن ذلك يا سيّدة أوين»، ثم خلع نظارته ومسحها بمنديل كما لو كان يزيل صورة اسمي.

«لكن لماذا؟»

أعاد نظارته إلى قصبة أنفه وقلّب بضع صفحات، وقال: «إنه مشروع مثير للاهتمام، لكنه لا ينطوي على أهمية علمية».

«وما هو الشيء الذي يجعلها ينطوي على أهمية علمية؟»

«لو أن باحثًا هو الذي جمعها، كبداية، ثم يجب أن يكون الموضوع ذا أهمية».

كانت الساعة العاشرة صباحًا. كان أساتذة وباحثون يمرون إلى جانبي في أرديتهم الطويلة والقصيرة - مع أن عدد الرجال أصبح أقل من عدد النساء بالمقارنة مع أول مرة وقفت فيها أمام هذا المكتب. التفتُ إلى المكان الذي جلست فيه ليزي. نفس المقعد الذي جلستُ عليه منذ سنوات عندما جادل الدكتور موراي مسألة أن أصبح قارئة. بدا أنها ليست في مكانها المناسب، كما شعرت حينذاك. انتصبتُ في وقفتي استعدادًا للمواجهة والتفتُّ إلى السيّد مادان.

«إنه موضوع مهم يا سيدي. إنه يملأ فجوة في المعرفة، ومن المؤكد أن هذا هو هدف اتساع المعرفة ونشرها».

اضطر لأن يميل رأسه قليلًا لينظر في عيني. شعرت أن ليزي تتحرك في مكانها ورائي، ورأيت نظرته تتجه نحوها، ثم عادت إليّ.

قررت أن أبقى هنا حتى يُقبل مجلد الكلمات النسائية. لو كان لديّ سلسال الآن لربطتُ نفسي بالحاجز أمام المكتب احتجاجًا.

توقف السيّد مادان عن تقليب الصفحات. احمرّ خداه وغطّى انزعاجه بالسعال. مسح بعينيه الصفحة السادسة. الكلمات التي تبدأ بحرف C.

«إنها كلمة قديمة يا سيّد مادان، لها تاريخ طويل في اللغة الإنكليزية. كان تشوسر مغرمًا جدًا باستخدامها، ومع ذلك لم تظهر في قاموسنا. إنها فجوة، هذا أمر مؤكد».

جفف جبينه بمنديله، ونظر حوله يبحث عن حليف. نظرتُ حولي أنا أيضًا.

كان ثلاثة رجال مسنين يسترقون السمع إلى حديثنا. عندما التقت عيني بعين إلينور برادلي ابتسمت، وهزّت رأسها مشجعة. عدتُ أواجه السيد مادان.

«إنك لست حَكَمًا على المعرفة يا سيدي. أنت أمين مكتبتها»، قلت له ذلك، ودفعت قاموس الكلمات النسائية على مكتبه، «ليس من حقك أن تحكم على أهمية هذه الكلمات. ببساطة لندع الآخرين يفعلون ذلك».

***

سرنا أنا وليزي، تشبك ذراعها في ذراعي، في شارع بانبري رود عائدتين إلى سانيسايد. عندما دخلنا من البوابة كانت إلسي وروزفريث خارجتين. عانقتني كل منهما.

«هل سنراكِ في مكتبة أشموليات اليوم يا إسمي؟» سألتني إلسي، ووضعت يدها بلطف على كمي، «لقد رُكِّبت جميع فتحات العلب في أماكنها الآن، والشيء الوحيد الذي نفتقده هو أنت. المكان ضيّق بعض الشيء حاليًا، لكن السيد سويتمان أفسح لك مكانًا على طاولته».

نقلت نظري من أخت موراي إلى الأخرى، ثم إلى ليزي. كنّا أطفالًا معًا. هل سنكبر معًا؟

«هل يمكنكما أن تنتظرا لحظة يا إلسي وروزفريث؟ سأعود حالًا».

عبرت الحديقة. كانت شجرة الدردار قد بدأت تفقد أوراقها، وجرفتها ريح الخريف باتجاه المَنْسَخ. كان عليّ أن أزيلها من أمام المدخل قبل أن أدخل.

كان المَنْسَخ باردًا، وشبه فارغ، ما عدا طاولة الفرز. كانت قصاصات « bondmaid» لا تزال في المكان الذي تركناها فيه أنا وليزي. جلستُ حيث جلست ليزي وهي تحرك الكلمات. لم تستطع أن تقرأها، لكنها فهمتها أفضل مما فهمته. تحسست جيوبي أبحث عن قلامة قلم الرصاص وقصاصة فارغة.

BONDMAID

.Bonded for life by love, devotion or obligation

I’ve been a bondmaid to you since you were small, Essymay, and I’ve“
”.been glad for every day of it

Lizzie Lester, 1915 -

(خادمة مملوكة

مَملُوكَة مدى الحياة بالحبّ أو الإخلاص، أو الالتزام.

«أنا خادمة مملوكة لكِ منذ أن كنتُ صغيرة يا إسمي، وأنا سعيدة بكل يوم أمضيته معك».

ليزي ليستر، 1915).

أغلقت باب المَنْسَخ وسمعت صدى صوته في الفضاء شبه الفارغ في الداخل. إنه مجرد سقيفة قلت في نفسي، وعدت إلى حيث تنتظرني النسوة الثلاث.

«هذه للسيّد برادلي»، قلت وأعطيت إلسي حزمة القصاصات، «وجدتها ليزي عندما كنا ننظف المكان. إنها قصاصات كلمة bondmaid».

لوهلة، لم تكن إلسي متأكدة عن أي شيء أتحدّث، ثم حلت العينان الواسعتان محل التغضّن بين حاجبيها. «يا إلهي»، قالت، وهي تمعن النظر في القصاصات، غير مصدّقة تمامًا.

مالت روزفريث لتنظر، وقالت: «يا له من لغز».

«لسوء الحظ، يبدو أن قصاصة تعريف الكلمة غير موجودة معها»، قلت وألقيت نظرة سريعة إلى ليزي. لكن توجد بعض الاقتراحات حول تعريفها. ظننا أن السيّد برادلي سيكون سعيدًا للحصول عليها بعد كل هذا الوقت».

فقالت إلسي: «لا يوجد عندي أدنى شكّ بأنه سيكون سعيدًا بها. لكن يمكنك أن تعطيها له بنفسك؟»

فقلت: «لن أذهب إلى مكتبة أشموليان يا إلسي. لقد عُرضت عليَّ وظيفة في مستشفى نتلي في ساوثامبتون. أظن أنني سأقبلها».

***

كان الصندوق قابعًا على طاولة المطبخ. جلسنا أنا وليزي على كل جانب منه، تحمل كلّ واحدة منا كوب الشاي بيدها.

قلت: «أظن أنه يجب أن يبقى هنا. ستكون وظيفتي مؤقتة، ولا أعرف متى سأحصل على وظيفة دائمة».

«لا بد أنك ستجمعين كلمات أخرى».

أخذت رشفة من الشاي وابتسمتُ، وقلتُ: «ربما لا. لأني سأعمل مع رجال لا يتكلمون».

«لكن قاموس الكلمات المفقودة هو قاموسك».

فكّرت في ما يوجد في الصندوق. «إنه يعرّفني يا ليزي. لم أكن لأعرف من أنا من دونه. لكن كما كان سيقول دا، فقد اتبعتُ جميع وسائل التحقيق وأنا راضية بأنه توجد لديّ عبارات دقيقة كافية».

«أنتِ لستِ كلمة يا إسمي».

«ليس بالنسبة لك. لكن بالنسبة لها، هذا كل ما أنا. وقد لا أكون حتى ذلك. عندما يكون الوقت مناسبًا، أريدها أن تحصل عليها». مددتُ يدي وأخذت يد ليزي حيث وضعتها على صدرها، وقلت: «أريدها أن تعرف من أنا. ماذا كانت تعني. كلّ ذلك هنا في الصندوق».

نظرنا إلى الصندوق الذي اهترأ من كثرة فتحه وإغلاقه، مثل كتاب مقروء جيدًا.

«كنتِ دائمًا حارسًا أمينًا له يا ليزي»، قلت لها، «منذ أول كلمة. أرجو أن تحافظي عليه حتى يستقر بي المقام».

كانت حقائبي قد حُزمت عندما وصلت حقيبة أدوات غاريث.

أفرغتها بعناية على طاولة المطبخ. كانت بقع من الطين لا تزال عالقة على جوربه الذي كنت قد حكته له، وتراب ودم على سترته وبنطاله الاحتياطيين. هل هي أغراضه هو أم أغراض شخص آخر. لم أعرف. كانت جميع رسائلي فيه، وديوان قصائد روبرت بروك. قلّبت الصفحات ووجدت قصاصة – *حبّي إلى الأبد*.

فتحتُ مجموعة أدوات الحلاقة، وأفرغت علبة القرطاسية. أفرغت كلّ الجيوب، وفركت النسالة والطين الجاف بين أصابعي. أردت أن يلمس كل ما تركه بشرتي. فتحتُ رسائلي التي أرسلتها له. كانت الرسائل الأقدم مهترئة عند طياتها، وكان من الصعب أن أقرأ كلماتي. عندما فتحت الرسالة الأخيرة، كانت صفحاته مطوية بين رسالتي. كان الخطّ مرتعشًا، متسرعًا، لكنها مكتوبة بيد غاريث.

1 تشرين الأول (أكتوبر) 1915، لووس

حبيبتي إس،

مضت ثلاثة أيام. هل هذا ممكن؟ تبدو أكثر من ذلك. يبدو أن لا نهاية لها. كان من المفترض أن نعود لنستريح يومًا، لكن ذلك لم يحدث. كنا منهكين للتو، لكن كان علينا أن نواصل القتال. هل هذا ما كنا نفعله؟

في غالب الأحوال، كدنا نموت.

لم أنم. لم يعد بإمكاني أن أفكّر بوضوح، لكني أعرف أنني يجب أن أكتب لك يا إس، إس. إس. إس. إس. إس. إس. كم كنت أحبّ أن أسمع كيف تناديك ليزي يا إسمي. كنت أريد أن أناديك هكذا. كان اسمك على طرف لساني. لكنه كان لسانها. كان كل ما كنتِ قبل أن ألتقي بك. ألهذا السبب أحببته؟

سامحيني. كم أنا مشتاق لأن أستلقي وأريح رأسي على بطنك. أريد أن أسمع دقات قلبك. لقد أرخيت رأسي على صدر مساعدي ولم أسمع شيئًا. لماذا ينبغي لي أن أسمع؟ فقد طارت ساقاه. ساقاه اللتان كانتا تفعلان كلّ ما أطلبه منهما لم تعودا متصلتين بجسده.

لقد فقدتُ سبعة من رجالي يا إس. بالنسبة للبعض، كانت الأسابيع التي سبقت هذه المعركة أفضل أسابيع أمضوها على الإطلاق. لعل ثلاثة منهم آباء عندما انفصل لحمهم عن عظمهم.

إني أكتب هذا، يا حبيبتي إس، لأنك تقولين إن مخيلتك تستحضر صورًا لا تستطيع الكلمات أن تستحضرها، وإنك تفضلين أن تعرفي الحقيقة. أجد أن من المريح جدًا لي أن أكتب من دون مراقبة، وهذا أقرب ما يمكنني أن أحصل عليه كي أريح رأسي على صدرك وأبكي. أشعر بامتنان شديد. لكنكِ لم تتخيلي الكرب الذي سينتابك. ستتغلغل حكايتي لك إلى أحلامك، وسأكون مستلقيًا في الوحل، عيناي كالزجاج، وقد تناثرت أجزاء مني. سوف تستيقظين صباح كلّ يوم وأنتِ خائفة مما قد يكون، وسيظلّ معك طوال اليوم.

لقد انتهيت يا حبيبتي إس. أسمع أزيزًا في أذنيّ، وأرى صورًا في مخيلتي تزداد وضوحًا وغرابة كلما أغمضت عينيَّ. إنه التحدّي الذي يجب أن أقبله إذا كان عليّ أن أنام بعد الآن. سأكون جبانًا لو حكيت لك ذلك.

عندما تنتهي المعركة، سأمزق هذه الرسالة وسأبدأ بترتيب الكلمات مرة أخرى بشكل محتمل أكثر. أما الآن، بعد أن رتبتها تمامًا كما أريد، فإني أشعر أنني أفضيت لك كلّ ما يجيش في نفسي. عندما أغمض جفني، سيكون أمامي الأسوأ، وستقودني صورتك إلى النوم.

حبيبك إلى الأبد،

غاريث

طويت الرسالة ووضعت قصاصتي بداخلها. قلّبت صفحات ديوان بروك حتى وجدت قصيدة «*الموتى*». قرأت السطور القليلة الأولى في صمت.

«انتهى كل هذا»، قلت للبيت الذي أصبح خاويًا. لم يعد بإمكاني أن أقرأ المزيد.

ختمت القصيدة على وجه التقريب بكلماتنا الأخيرة. وقفت، وصعدت الدرج نحو الحمام. أعدت مشط غاريث ووضعته على الحوض. لقد كنت أغادر؛ فلا معنى على الإطلاق. ولكن لم يكن لأي شيء معنى.

***

عندما فتحتُ المزلاج وثب الغطاء، حُفرت عبارة *قاموس الكلمات المفقودة* من الداخل. وعلى الرغم من أن الصندوق كان ممتلئًا، فقد كان هناك مكان كافٍ يتسع لقصاصات أخرى.

في الأعلى كان قاموسنا. فتحته على صفحة العنوان.

كلمات نسائية ومعانيها

تحرير

إسمي نيكول

وضعت فيه ديوان روبرت بروك الذي كان غاريث يقرأه.

حملت الجمل الغريبة التي قالها الجنود، والتي كُتبت بيد غاريث. لم أضعها في الصندوق، لأنه لم يشأ أن أضعها في الصندوق وأقفل عليها.

عندما لم أسمع صوتًا من المطبخ، أدركت أن ليزي تنتظرني، وأنها لا تريد أن تستعجلني، لكن لا بد أنها كانت قلقة لأن القطار المتجّه إلى ساوثامبتون سينطلق عند الظهيرة.

أخرجت البرقية من جيبي ووضعتها فوق قاموس الكلمات النسائية. كانت الورقة ورقة بنيّة يستخدمها الجزارون لا تتناسب مع لون الجلد الأخضر الجميل. كان نصف الرسالة مطبوعًا على الآلة الكاتبة: *نأسف لأن نعلمك أن*... نفس العبارة عندما تكون الرسالة ذاتها في معظم الأحيان. والجزء المتبقي بخطّ اليد. وأضاف موظف التلغراف الذي دوّن الرسالة كلمة بعمق قبل كلمة نأسف.

أغلقت الصندوق.

الجزء السادس1928
حَكِيم Wise
حَكِيم - اسم مشتق من الإبداع Wyzen

تشرين الثاني (نوفمبر) 1928

15 آب (أغسطس) 1928

عزيزتي ميس ميغان بروووكس،

اسمي إديث تومسون. لعل والديك قد حدّثاك عني. كانت سارة، أمّك المرحومة، واحدة من أعزّ صديقاتي وإحدى الصديقات القلائل التي كانت مستعدة لمرافقتي إلى ما يشار إليه بسعادة «جولاتي التاريخية» (لم يكن من الواضح إن كانت «هذه الجولات» تشير إلى التنزه سيرًا على الأقدام أم إلى تعليقاتي - فقد كانت تجد متعة في أن تجعلني أخمّن). عندما أبحرتم جميعكم إلى أستراليا، وجدت صعوبة في أن أجد صديقة تحلّ مكانها، لكنّي كنت سعيدة برسائلها التي كانت تحكي لي عن أخبارها وعن حديقتها، وعن السياسات

المحلية، التي كانت تفتخر بها جميعًا. كم أشتاق إلى ذكائها وخفّة ظلها ونصائحها العملية.

أرسل لك هذه الرسالة والصندوق المرفق عن طريق والدك لأسباب سرعان ما ستتوضح لك من تلقاء نفسها. أردت أن أتأكد من أنك مستعدة، بطريقة ما، لتسلم محتويات كليهما. لست متأكدة تمامًا كيف يمكن للمرء أن يصبح مستعدًا، لكن أبًا قد يعرف، ومن بين جميع الآباء، فمن المؤكد أن والدك هو من أكثر الآباء حكمة.

يخصّ الصندوق صديقة عزيزة أخرى عليّ، اسمها إسمي أوين، نيكول قبل الزواج. أعرف أنك تعرفين دائمًا بأنك فتاة متبناة، لكن لعلك لا تعرفين كلّ التفاصيل. أظن أن القصّة التي سأرويها لك ستثير لديك بعض المشاعر القوية. أنا آسفة على ذلك. لكنّي سيتملكني حزن أشدّ إذا لم أشاطرك إياها.

عزيزتي ميغان. قبل واحد وعشرين سنة، منحتك إسمي الحياة، لكنها لم تكن في وضع يمكّنها من أن تحتفظ بك. فهذه دائمًا ظروف حساسة، لكن والدتك ووالدك أمضيا وقتًا طويلًا مع إسمي في الأشهر التي سبقت ولادتك. كان من الواضح لي أنهما كانا قد أحبّاها وأعجبا بها كثيرًا، كما أحببتها وأعجبت بها كثيرًا. وعندما آن الأوان، كانت والدتك هناك لمساعدة إسمي، أما أنا فلم أستطع أن أفعل ذلك. كان الشيء الطبيعي أن تكون في غرفة الولادة، وجلست والدتك إلى جانب سرير إسمي لمدة شهر كامل، وأصبحتِ أنتِ، الطفلة الجميلة، الصلة التي تربطهما.

يؤلمني كثيرًا أن أكتب الكلمات التالية لأن حقيقتها ستشكّل حزنًا لا أظن أنني سأبرأ منه. فقد توفيت إسمي في صباح اليوم الثاني من تموز (يوليه) هذه السنة، 1928، وهي في السادسة والأربعين من العمر.

تبدو التفاصيل عادية، فقد صدمتها شاحنة على جسر ويستمنستر. لكن لم يكن هناك شيء عادي في إسمي. فقد كانت قد ذهبت إلى لندن من أجل إقرار قانون المساواة في حقّ التصويت، لا لتنضم إلى مرددي الشعارات وحاملي اللافتات، وإنما لتسجّل ما الذي يعنيه للناس على جانب الحشد. وهذا ما فعلته، كما ترين: فقد كانت تسجل أسماء الأشخاص الذين لم تكن أسماؤهم مسجلة في السجلات الرسمية وتمنحهم فرصة للتحدّث. كانت تكتب مقالة أسبوعية في صحيفتها المحلية التي تسمى (الكلمات المفقودة) وكانت تخاطب كلّ أسبوع الناس العاديين والأميين والمنسيين ليفهموا ما الذي تعنيه الأحداث

الكبيرة بالنسبة لهم. وفي الثاني من تموز (يوليه)، كانت إسمي تكلّم امرأة تبيع أزهارًا على جسر ويستمنستر عندما دفعتها حشود الناس إلى الطريق.

أشعر أنني يجب أن أحدّثك شيئًا أكثر عنها، بالإضافة إلى وفاتها. أظن أن اجتماعنا الأخير يكاد يكون حكاية جيدة مثل أي حكاية أخرى.

فقد دُعيت للجلوس في شرفة قاعة غولدسميث؛ حيث ستقام مأدبة عشاء بمناسبة الإصدار النهائي لقاموس أكسفورد للغة الإنكليزية. كنت برفقة روزفريث موراي وإليانور برادلي، ابنتي المحررين اللتين كرّستا حياتيهما للعمل الذي بدأه والداهما. كانت هناك بعض الأشياء التي تتعلق بوجودنا، بسبب الجنس الذي ننتمي إليه، لكن كان يعتقد - آنذاك- أن هذا هو الصواب، فلم يسمحوا لنا أن نشارك الرجال في تناول العشاء في تلك المناسبة، وإنما سمح لنا على الأقل أن ننظر إليهم ونستمع إلى الخطب التي كانت تُلقى. قال رئيس الوزراء ستانلي بالدوين كلامًا رائعًا وشكر جميع المحررين والعاملين، لكنه لم يرفع عينيه وينظر إلى الشرفة التي نجلس فيها. لقد شاركت في العمل في القاموس منذ أن نُشرت الكلمات الأولى عام 1884 وحتى صدور آخر كلمة. قيل لي إن حفنة ممن كانوا في تلك الغرفةآنذاك- يستطيعون أن يدعوا بأنهم شاركوا في العمل على القاموس طوال هذه الفترة. وقد منحت روفريث وإليانور كذلك القاموس عقودًا من حياتهما، بالإضافة إلى إسمي.

أخبرتني، منذ مدة ليست بعيدة، بأنها كانت دائمًا خادمة مملوكة للقاموس. قالت إنه يمتلكها. حتى بعد أن رحلت، فقد كان القاموس يتماهى معها. وعلى الرغم من كلّ ذلك، فلم تُمنح حتى مكانًا تجلس فيه في الشرفة.

تناول الرجال سمك السلمون المسلوق مع صلصة هولنديز، وكانت الحلوى بوظة موس المفضلة، وشربوا نبيذ شاتو مارغو 1907. أما نحن، فقد أعطونا برنامج الحفل مرفقًا مع قائمة الطعام - أنا متأكدة من أنها فظاظة غير مقصودة.

عندما انتهى الحفل، كدنا نتضور جوعًا، لكن إسمي كانت قد سافرت من ساوثامبتون لتقابلنا، وعندما غادرنا قاعة غولدسميث، كانت واقفة هناك تحمل بيدها سلة طعام. كان الجو دافئًا، فاستقللنا سيارة أجرة وذهبنا إلى ضفة نهر التايمز، وجلسنا تحت مصباح وتناولنا طعامنا، واستمتعنا بحفلة أقمناها لأنفسنا. «نخب النساء اللاتي عملن في القاموس « قالت إسمي، ورفعنا كؤوسنا.

لم أعرف شيئًا عن الصندوق إلَّا بعد الجنازة، عندما اقترحت صديقتها ليزي ليستر بأن يُرسل إليك. سِحبت الصندوق القديم المهترئ من تحت سريرها

وشرحت لي ما الذي سأجد في داخله إذا فتحته. كانت تلك الفتاة المسكينة حزينة، لكني عندما أكدّتُ لها بأنني سأرسل لك الصندوق في أقرب وقت ممكن، شعرت بالارتياح.

قبع الصندوق عند طرف سريري طوال أسبوع دون أن أفتحه. عندما جفّت دموعي حزنًا على إسمي، لم أكن بحاجة إلى أن أستكشف ما الذي في داخله، لأنني أعتبر إسمي كلمة مفضّلة أفهمها بطريقة معينة، ولم أشأ أن أفهمها بصورة مختلفة.

هذا الصندوق يخصك يا ميغان. إذا شئت أن تفتحيه، وإذا شئت أن تبقيه مغلقًا. ومهما كان اختيارك، أرجو أن تعرفي أنني سأكون في غاية السعادة لأن أجيب عن أي سؤال يتعلق بإسمي، إذا كانت لديك أي أسئلة. بالمناسبة، كانت تناديني ديتي. سأفتقد عدم سماع هذا الاسم منها، وسأكون سعيدة لو خاطبتني بهذا الاسم، إذا كتبتِ لي.

مع الحب والتعاطف الشديد،

ديتي تومسون

جلست ميغ مع الصندوق لفترة طويلة حتى تلاشى الضوء من الغرفة. كانت رسالة ديتي لا تزال مفتوحة إلى جانبها. قرأتها وأعادت قراءتها. كانت إحدى الصفحات مجعّدة لأنها جعّدتها بيدها عندما شعرت بالغضب، لكنها عادت ومسدّت الصفحة بعد لحظات.

قرع والدها الباب طرقات خفيفة، مترددة. سألها إن كانت تريد أن يحضر لها قليلًا من الشاي، لكنها قالت له لا. ثم طرق الباب مرة أخرى، وسألها عن حالتها النفسية، فقالت له إنها على ما يرام، مع أنها تعرف جيدًا أنها لم تكن كذلك. عندما دقت ساعة الحائط في البهو معلنة الثامنة، كُسر نوع من التعويذة. نهضت ميغ من الكرسي الذي لم تبارحه طوال الساعات الأربع الماضية، وأضاءت المصباح. فتحت باب غرفة الجلوس ونادت والدها.

قالت له: «أريد أن أشرب الشاي وأتناول بعض البسكويت الآن يا أبي، إذا سمحت».

بعد أن وضع الصينية إلى جانبها، صبّ الشاي في الكوب الخزفي الأثير لدى أمها. وأضاف شريحة ليمون وقبّلها على جبينها وغادر الغرفة. لم يذكر أحد منهما أن العشاء قد برد.

لم يوضع في هذا الكوب شاي ساخن منذ ثلاث سنوات. أمسكته ميغ كما كانت تمسكه والدتها: كوّرته بكلتا يديها وعروة الكوب متجهة إلى الأمام، وذلك لتفادي الشُطفة الصغيرة على حافة الكوب حيث يشرب المرء عادة. لقد غبشت هذه الحركة حواف كيان ميغ، وتصوّرت أصابعها الرشيقة كأنها أصابع والدتها اللحيمة، حتى تصبح خشونة يديها طرية تحت حرارة الكوب، وذرّة تراب تقبع تحت أظافرها. كانت ساقا والدتها القصيرتين والثقيلتين تلائم الكرسي ذا المسندين أكثر مما يناسب أطراف ميغ الطويلة، لكن ميغ اعتادت على أن تجلس عليه. ومع أن اليوم كان شديد الحرارة، فقد كان جسدها يرتجف، كما كانت والدتها ترتجف في أحيانٍ كثيرة، عندما تدخل من حديقة البيت لتتناول الشاي.

ماذا كانت ستفعل بالصندوق؟ تساءلت ميغ. هل كانت ستسألها إن كان عليها أن تفتحه أم تبقيه مغلقًا؟ قبع الصندوق فوق الكرسي الطويل طوال فترة بعد الظهر. نظرت ميغ إليه مرة أخرى وقالت لنفسها لقد أصبح مألوفًا بشكل غريب. كانت والدتها ستقول: «في الوقت الذي تشائين».

أنهت ميغ شرب الشاي، ونهضت من على الكرسي القديم ذي المسندين، وجلست على الكرسي الطويل إلى جانب الصندوق. فُتح المزلاج من دون أي جهد، ووثب الغطاء.

رأت عبارة «*قاموس الكلمات المفقودة*» محفورة بخط يد طفل داخل الغطاء. وسرعان ما أدركت ميغ أن الأشياء الموجودة في الصندوق لا تخصّ امرأة تخلّت عن طفلتها فقط، وإنما وجدت أشياء تخصّ فتاة لم تحلم قط بأنها ستراها ذات يوم.

برقية، مجلد رفيع له غلاف جلدي نُقش عليه «*كلمات نسائية ومعانيها*» ورسائل وأشياء متفرقة – وبضعة منشورات عن حقّ المرأة في الاقتراع، وبرامج مسرحية، وقصاصات مقتطعة من صحف. ووجدت ثلاث رسومات لامرأة عارية؛ في الأولى المرأة تنظر من النافذة، وفي الثانية يظهر انتفاخ بطنها، وفي الثالثة يداها ونظرتها تحتضن الطفلة التي لا بد أنها كانت تتحرك.

لكن معظم محتويات الصندوق كانت عبارة عن قطع أوراق صغيرة، لا يزيد حجمها على بطاقات بريدية، جُمع بعضها معًا بدبوس، وتركت بعضها سائبة، بالإضافة إلى صندوق أحذية مليء بتلك القصاصات، مرتبة أبجديًا وبطاقات صغيرة تفصل بين كلّ رسالة وأخرى، مثل درج بطاقات مفهرسة في مكتبة، وقد كتب على كل قصاصة كلمة في الأعلى، وجملة في الأسفل، أحيانًا اسم كتاب، لكن معظمها كان اسم امرأة، وأحيانًا اسم رجل.

***

تسلل ضوء الصباح من النافذة الناتئة فجعل خدّ ميغ دافئًا. استيقظت مجفلة. كان ظهرها يؤلمها من الساعات الطويلة التي نامت فيها على المقعد الطويل. يوم حار آخر، قالت لنفسها، مستغرقة في الصندوق ومحتوياته كأنه حلم. لكن مجلد (*الكلمات النسائية*) كان لا يزال مفتوحًا في حضنها، وبدت بشرتها مشدودة في الأماكن التي جفّت فيها دموعها. تحت أشعة شمس أديلايد الساطعة، تناثرت كلمات إسمي، بجميع أشكالها، على الأرض، مكشوفة وحقيقية.

بدأت ميغ تفرزها. فجمعت رسائل ديتي في كومة، وبطاقات تيلدا البريدية في كومة أخرى. ووضعت المنشورات المتعلقة بحقّ المرأة في الاقتراع ومقتطفات الصحف في كومة منفصلة، وكان هناك برنامج لمسرحية (*جعجعة بلا طحن*) وحفنة من أعقاب التذاكر التي وضعتها مع متفرقات أخرى لتشكل كومة من المتنوعات الأخرى.

كانت جميع القصاصات التي في صندوق الأحذية تقريبًا مكتوبة بخط يدّ واحدة. عندما دققت فيها، وجدت أنه توجد في كل قصاصة كلمة واردة في مجلد (*الكلمات النسائية*). تركتها والتفتت إلى الأشياء الأخرى المتبقية. كانت هناك عبارات كثيرة، مائة أو أكثر، كلّ واحدة منها فريدة في خط كتابتها ومحتواها. كانت هناك كلمات عادية وكلمات لم تسمع بها من قبل. كانت بعض الاقتباسات قديمة جدًا فلم تفهم معناها، لكنها قرأتها كلها.

كانت كلها في حجم واحد تقريبًا، ويبدو أن معظمها لم يُعدّ لأيّ غرض آخر، لكن بعضها أُخذ من أي شيء كان في متناول اليد: فهناك قصاصات مقتطعة من دفاتر محاسبة كبيرة، ودفاتر تمارين مدرسية، وصفحات رواياتٍ أو كتيبات، وضعت دائرة حول كلمة معينة وخط تحت جملة. كلمة واحدة كُتبت على ظهر قائمة تسوّق، يبدو فيها أن المرسل اشترى ثلاثة ليترات من الحليب، وعلبة صودا، ودهنًا، ورطلين من الدقيق، وصباغًا أحمر، وبسكويت ماكفيتي الذي

يساعد على الهضم. هل خَبَزتْ قالب كيك قبل أن تجلس وتكتب الجملة التي تمثّل معنى واحدًا لكلمة beat؟ كان الاقتباس لهذه الكلمة قد أُخذ من صفحات تتعلق بالمرأة في نشرة إخبارية تصدرها كنيسة رعوية مؤرخة سنة 1874. أما قائمة التسوّق التي لم تعد ضرورية، فقد كانت بالحجم والشكل المثاليين. تخيّلت ميغ امرأة، ليست غنية، وليست فقيرة، جالسة إلى طاولة مطبخها، والنشرة الإخبارية أمامها، وإبريق شاي عند مرفقها، تنتظر قالب الكيك حتى يرتفع سطحه، وتستريح قليلًا من عناء يومها. ثم يندفع طفل إلى المطبخ، وقد فغمت أنفه رائحة قالب الكيك اللذيذ، وظل يحوم في المطبخ حتى حان وقت إطفاء الشموع.

صوت هتاف انطلق من الحديقة في الجانب الآخر من الشارع، أعاد ميغ إلى نفسها وإلى إسمي. ذكّرها الصوت المألوف لمضرب وهو يصدّ كرة والتصفيق المهذب بين الحين والآخر بأن اليوم هو صباح يوم السبت، وأنها في وسط حرارة صيف أديلايد وليست بالقرب من المناخ الرطب والبارد حيث كُتبت فيه هذه الكلمات وأبطالها. أحسّت أن جسدها مُتَيَبِّس وشعرها غير مرتب. استوت واقفة ونظرت نحو اللاعبين. كان مثل أي يوم سبت آخر، لكنه لم يكن كذلك.

انطلق هتاف آخر، لكن ميغ ابتعدت عن النافذة هذه المرة، وسارت نحو رف الكتب الذي توجد عليه جميع المجلدات الاثني عشر من *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، مصفوفة على رفّ منخفض ليسهل الوصول إليها، مع أنها عندما كانت صغيرة، لم يكن بإمكان ميغ أن ترفعها بسهولة. فقد كان والداها يجمعانها بقدر ما تسعفها ذاكرتها، وقد وصل آخر مجلد من هذه المجلدات منذ أسبوع فقط.

سحبت ميغ مجلد الكلمات من V إلى Z من مكانه في طرف الرف، وفتحته على الصفحة الأولى. كان بإمكانها أن تشمّ رائحة جدّته، وتشعر بصلابة ظهر المجلد عندما فتحته. صدر عام 1928.

قبل بضعة أشهر فقط، لم يكن موجودًا. قبل بضعة أشهر فقط، كانت إسمي موجودة.

توجهت ميغ إلى الجانب الآخر من الرف ومشّت إصبعها فوق الحروف المذهبّة للمجلد الأول الذي يضم الكلمات التي تبدأ بالحرفين A وB. كان ظهر المجلد مجعّدًا من كثرة استخدامه، وكانت حافته العليا مهترئة من يديها الطفوليتين عندما كانت تسحبه من مكانه وتعيده إليه. هذه المرة، كانت ميغ حذرة عندما

سحبته من الرف. كان ثقله يشكل مفاجأة لها على الدوام. حملته إلى كرسي والدتها ذي المسندين، ووضعته في حضنها، ثم فتحت على صفحة العنوان.

قاموس

إنكليزي جديد

عن المبادئ التاريخية

تحرير

جيمس أ. موراي

المجلد الأول A وB

أكسفورد:

طُبع في مطبعة كلارندون

1888

قبل أربعين سنة، يفترض أن تكون إسمي في السادسة من عمرها.

أخذت ميغ قصاصة كلمة beat وقرأت الاقتباس:

”.Beat until the sugar is well combined and the mixture pales“

«*اخفقي حتى يمتزج السكر جيدًا ويصبح لون المزيج شاحبًا*».

أخذت تقلّب صفحات القاموس حتى وجدت الكلمة. وجدت تسعة وخمسين معنى مختلفًا لكلمة beat واردة في عشرة أعمدة، اتسم العديد منها بالعنف. مشّت إصبعها فوق الأعمدة حتى وصلت إلى تعريف يلائم القصاصة. أربعة اقتباسات تتناول عملية خفق البيض. لم يكن الاقتباس في قصاصتها موجودًا.

وضعت ميغ مجلد الحرفين A وB على الأرض إلى جانب الصندوق. فتحت صندوق الأحذية وراحت تبحث فيه.

LIE- CHILD

”.To keep a lie- child condemns her and it. I’ll fetch a wet- nurse“

Mrs. Mead, midwife, 1907

(لقيط

«إن الاحتفاظ بطفلة لقيطة يدينها ويدين الطفلة. سأحضر مُرضعة».

السيدة ميد، قابلة، 1907).

أصبح خطّ إسمي مألوفًا لها. جلبت ميغ المجلد السادس من القاموس ووجدت الصفحة المطلوبة. لم تكن كلمة Lie- child موجودة فيه، لكن ميغ فهمت معناها. عادت إلى المجلد الأول وقلبت الصفحة إلى كلمة bastard.

Bastard

Begotten and born out of wedlock. Illegitimate, unrecognised, unauthorized.

.Not genuine; counterfeit, spurious; debased, adulterated, corrupt

(لقيط

أُنجب ولد خارج إطار الزواج. غير شرعي، غير معترف به، غير رسمي.

ليس خالص النسب، زائف، غير أصيل، مشين، ابن زنا، مُنْحَلّ الأخلاق).

أغلقت ميغ المجلد بقوة. نهضت من على الأرض، لكن ساقيها بدأتا ترتعشان. شعرت بأنها هشة، وفجأة بدا أنها لا تعرف نفسها. تهاوت على الكرسي ذي المسندين وأجهشت في البكاء. يوجد عمودان لكلمة Bastard، لكنها لم تجد لها معنى ولا حتى في اقتباس واحد.

اشتاقت ميغ إلى والدتها وإلى كلماتها وإيماءاتها، وكانت تعرف أنها ستفهم تلك الفوضى التي تملأ أرضية غرفة الجلوس. دفنت وجهها في قماش الكرسي وشمّت رائحة شعر والدتها، ورائحة صابون «بيرز» المألوفة الذي كانت تستخدمه دائمًا عندما تحممها، والذي لا تزال ميغ تستخدمه حتى الآن. بدأت تنشج بقوة. هل هذا معنى أن أكون ابنة؟ أن يكون لديّ شعر رائحته مثل رائحة شعر والدتك؟ أو أن أستخدم نفس نوع الصابون الذي كانت تستخدمه؟ أم أنها عاطفة متبادلة، أو إحباط مشترك؟ لم تكن ميغ ترغب في أن تجلس على ركبتيها على التراب وتزرع نباتات كما كانت تفعل والدتها. كانت تتوق إلى أن يُنظر إليها - لا بلطف، وإنما بفضول مع احترام أفكارها وكلماتها وتقديرها.

هل هذا ما تعنيه هذه الفوضى المتناثرة على الأرض؟ دليل على عقل فضولي؟ شذرات من الإحباط؟ محاولة للفهم والتوضيح؟ هل شوق ميغ يشبه شوق إسمي، وهل هذا معنى أن تكون ابنة؟

عندما قرع والدها الباب، توقفت ميغ عن البكاء. ثمة شيء يحاول أن يخرج من حزنها؛ لتعقيده أو تبسيطه، لم تعرف.

«ميغ، حبيبتي؟» كان أسلوبه لطيفًا كما كان في الليلة الماضية، ودخل إلى الغرفة مثل مراقب طيور يخشى أن يرعب طائر النمنمة ويطير.

لم تقل ميغ شيئًا، فقد تعثّر عقلها فوق شيء غير مريح.

«هل تريدين أن تتناولي طعام الفطور؟» سألها.

«أريد بعض الأوراق يا أبي، إذا سمحت».

«ورق كتابة؟»

«نعم، من ورق أمي الفاخر، الورق الأزرق الفاتح الذي تضعه في درج طاولتها». فتّشت في وجه والدها تبحث عن أي إشارة تدل على المقاومة، لكنها لم تجد.

***

أديليد، 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 1928

في اللحظة التي أكتب فيها كلّ هذا، أتردد. فإذا دعوت إسمي أمي فإنني أبدو كما لو أنني أخون والدتي، لكن هل أنكر عليها هذا اللقب؟ ما زلت أتردد. أمضيت الليلة كلها وأنا أفكّر في معنى الكلمات، التي لم أستخدم معظمها أو أسمع بها من قبل قط. لكني قبلت أهميتها في السياق الذي نُطقت به، ولأول مرة بدأت أشك في مصداقية المجلدات العديدة التي تملأ رفًا واحدًا من خزانة الكتب قبالة المكان الذي أجلس فيه الآن.

ستكون كلمة أمّ موجودة فيه. بالطبع ستكون فيه، مع أنه لم يكن لديّ أي سبب يجعلني أبحث عنها. حتى هذه اللحظة، كنت أظن أن أي ناطق باللغة الإنكليزية، مهما بلغت درجة تعليمه، يعرف معنى هذه الكلمة، ويعرف كيف يستخدمها، ويعرف على من تنطبق. أما الآن، فإني أتردد. فقد أصبح المعنى نسبيًا.

أريد أن أنهض وأسحب المجلد من على الرفّ، لكنّي أخشى أن التعريف الذي قرأته لا ينطبق على أمّي. فجلست مدة أطول قليلًا وقد محت ذكرياتي عن أمّي كل القلق. أما الآن، فإني أخشى أن كلمة أمّي لا تنطبق على إسمي.

طوت ميغ الصفحة وأضافتها إلى الصندوق.

بعد قليل، وضع فيليب برووكس صينية الإفطار على طاولة صغيرة إلى جانب ابنته؛ إبريق شاي، شريحتا ليمون في طبق صغير، أربع شرائح خبز محمّص ومرطبان مربى البرتقال والليمون فُتح منذ قليل. كانت هناك كمية تكفي لشخصين.

قالت: «شاركني الطعام يا أبي».

«هل أنتِ متأكدة؟»

«نعم».

التقطت ميغ كوب والدتها المصنوع من الخزف الصيني من المكان الذي وضعته الليلة الماضية ورفعته ليملأه لها. صبّ لها الشاي، ثم صبّ لنفسه، وأضاف شريحة ليمون إلى كلا الكوبين.

سألها، «هل سيغيّر ذلك أي شيء؟»

فقالت ميغ: «سيغيّر كلّ شيء».

أمال رأسه ليرشف الشاي. ارتعشت يداه قليلًا جدًا. عندما نظرت ميغ إلى وجهه، رأت أن كلّ عضلة في وجهه تعمل على كبح مشاعر أراد أن يخفيها عنها.

قالت: «كلّ شيء تقريبا».

رفع رأسه.

«إنه لن يغيّر ما أشعر به تجاهك يا أبي. ولن يغيّر ما أشعر به تجاه أمّي، أو كيف سأتذكّرها. أظن أنني ربما أحببتها أكثر من قبل بقليل. في هذه اللحظة، اشتقت إليها كثيرًا».

جلسا صامتين بين أشياء إسمي، ومن الحديقة كان صوت المضرب المريح على الكرة يؤكد بأن الزمن يمضي.

خاتمة | أديلايد، 1989

تنحنح الرجل الواقف وراء المنبر، لكن لم يجدِ ذلك نفعًا. كانت القاعة تعجّ مثل خلية نحل. أعاد ترتيب أوراقه، ونظر إلى ساعة يده، ورمق الأكاديميين المجتمعين من فوق نظارته. ثم تنحنح مرة أخرى، بصوت أعلى قليلًا هذه المرة، وفي الميكروفون.

هدأ الصخب. وجد بعض الذين وصلوا متأخرين مقاعدهم. بدأ الرجل الواقف خلف المنبر يتكلم.

«أرحبّ بكم إلى المؤتمر السنوي العاشر لجمعية المعجميين الأسترالية»، قال بصوت خافت فيه رعشة خفيفة. وبعد توقف بدا طويلًا جدًا، واصل كلامه.

«Naa Manni»، قال بقوة أكبر قليلًا، نظرته تمسح الغرفة، «هذه هي الطريقة التي يستخدمها شعب كاورنا لإلقاء التحية على أكثر من شخص، ويسعدني أن أرى أنه يوجد هنا اليوم أكثر من شخص». سرت همهمة مرحة خفيفة، «بالنسبة للذين يزورون مدينتنا لأول مرة، وربما بعض من عاش منكم هنا طوال حياتكم، فإن شعب كاورنا هم السكان الأصليون الذين أطلقوا على هذه الأرض وطنًا قبل أن تُبنى هذه القاعة العظيمة، وقبل أن يتحدث أحد باللغة الإنكليزية في هذا البلد. إننا نعيش في أرضهم، لكننا لا نتحدّث لغتهم.

«إني أستخدم كلمات Kaurna هذا الصباح لأوضح وجهة نظري. ففي ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، كان يستخدمها شعب مولاويررابور وكالدبينا وإيتيامايتبينا، وكان شيوخ شعب كاورنا الذين يُعرفون أكثر من قبل المستوطنين البيض مثل الملك جون، والكابتن جاك، والملك رودني. جلس هؤلاء الرجال من السكان الأصليين مع رجلين ألمانيين كانا مهتمين بتعلّم لغة السكان الأصليين. فدوّن الألمانيان ما سمعاه ووضعا معاني ليفهمها الآخرون. كانا يقومان بعمل لغويين ومعجميين، مع أنهما لم يستخدما هذين المصطلحين. كانا مبشرّين، لكن أي واحد منا سيدرك شغفهما للغة، ورغبتهما في تدوين الكلمة المنطوقة وفهمها، ليس للإبلاغ عن استخدامها المعاصر المناسب فحسب، وإنما كذلك للحفاظ عليها، وفهم سياقها التاريخي. ولولا جهودهما، لضاع العالم اللغوي لشعب كاورنا بالنسبة لنا، وكذلك فهمنا لما كان له معنى بالنسبة لهم، والأشياء ذات المغزى بالنسبة لهم. قلة من شعب كاورنا يتحدّثون بلغتهم اليوم، لكن بما أنها دّوِّنت وسُجَّلت معاني كلماتها، فقد أصبح من الممكن أن يتحدّث بها شعب كاورنا - وأجرؤ على أن أقترح، بأن أشخاصًا من البيض مثلي - سيتكلمون بها مرة أخرى». ارتفع صوته إلى نبرة حماسية، ولمع جبينه تحت الأضواء الشديدة على المسرح. صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه.

«إن سنة ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين سنة بالغة الأهمية بالنسبة للغة الإنكليزية، مع أن عددًا قليلًا من الأشخاص خارج هذه القاعة قد يعرفون ذلك». عندما سُمعت ضحكات خفيفة، نظر إلى الأعلى وقد بدا عليه الانشراح.

«ففي هذه السنة، صدرت الطبعة الثانية من *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، بعد واحد وستين سنة من الانتهاء من الطبعة الأولى. إنها تجمع الطبعة الأولى وجميع الملاحق، بالإضافة إلى خمسة آلاف كلمة ومعنى جديدًا. لقد اضطلع بهذا العمل - توثيق اللغة هذا- فقهاء لغويون ومعجميون، أعرف أن بعضهم موجودون معنا اليوم في هذه القاعة. وعلى هذا الجهد العظيم، فإننا نهنئكم». صفّق، ثم شاركه الجمهور في التصفيق، مع بعض الصفير والهتاف. «اهدأوا من فضلكم، فلدينا سمعة راسخة وجادة هنا يجب أن نحافظ عليها». عندما قال ذلك انطلق مزيد من الضحك. انتظر حتى ساد الصمت، ثم استرخى.

«قال جيمس موراي العظيم ذات يوم *أنا لست أديبًا. أنا رجل علم، ولديّ اهتمام بهذا الفرع من الأنثروبولوجيا الذي يتناول تاريخ الكلام البشري.*

«إن الكلمات تعرّفنا، وتفسّرنا، وتتحكم فينا أحيانًا أو تعزلنا. لكن ماذا يحدث عندما لا تُدوّن الكلمات التي تقال؟ ما تأثير ذلك على الشخص الذي يقول هذه

الكلمات؟ لقد قرأ أحد المعجميين الذي يجب أن نكون ممتنين له جميعًا، بين سطور القواميس العظيمة للغة الإنكليزية، بما فيها قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية الذي وضعه الدكتور موراي، وهي البروفسورة ميغان بروووكس: البروفسورة الفخرية في جامعة أديلايد، رئيسة الجمعية اللغوية الأسترالية والحاصلة على وسام الشرف لقاء خدماتها اللغوية الجليلة.

«من دون مزيد من الكلام، أدعو البروفسورة ميغان بروووكس إلى المنصة، لتلقي كلمة الافتتاح. محاضرتها بعنوان (*قاموس الكلمات المفقودة*).

رافق التصفيق امرأة طويلة منتصبة القامة إلى خشبة المسرح. عندما اقتربت من المنصة، دسّت خصلة منفلتة من شعرها الأحمر الباهت وراء أذنها. قدّم الرجل يده لها، فصافحتها، وارتسمت على وجهها المليء بالتجاعيد ابتسامة. انحنى لها قليلا وتراجع.

أخرجت ميغان بروووكس من جيب سترتها مغلّفًا أبيض، استلّت منه بعناية قصاصة ورق هشة، اصفرّت مع الزمن. وضعت هذه الورقة؛ هذه الورقة فقط، على المنبر أمامها، ومسدّتها برقة بيديها المكسوتين بقفازات.

نظرت إلى القاعة. لقد فعلت ذلك ألف مرة، لكن هذه المرة ستكون آخر مرة لها. لقد استغرق الشيء الذي ستقوله كلّ حياتها حتى فهمته، وهي تعرف أنه على قدر كبير من الأهمية.

ركّزت عيناها على الصف الأوسط، ومسحت بعينيها الوجوه الفردية بسرعة، دون أن تستقر على أحدها. معظمهم رجال، لكن توجد عدة نساء أحرزن جميعهن تقدمًا في حياتهن المهنية. لاحظت تململًا قد بدأ في المساحة الشاسعة، لكنها تجاهلته، ومسحت بعينيها الصف في الأسفل، ثم الصف أسفله. لاحظت أن الوجوه بدأت تلتفت نحو جيرانها، وتهمس. وعلى الرغم من ذلك، فقد واصلت البحث في القاعة.

توقفت قليلًا عند الصف الثاني في المقدمة. رأت فتاة شابة، لا يعدو كونها أكثر من طالبة جامعية. إنها في بداية رحلتها مع الكلمات، يرتسم على وجهها فضول يُرضي المرأة العجوز. ابتسمت. كانت السبب لتبدأ.

التقطت ميغان بروووكس القصاصة.

وقالت: « Bondmaid (خادمة مملوكة) لفترة من الزمن، كانت هذه الكلمة الجميلة والمزعجة تُنسب إلى أمي».

كلمة المؤلفة

بدأ هذا الكتاب بسؤالين بسيطين: هل تعني الكلمات أشياء مختلفة بالنسبة للرجال والنساء؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل من الممكن أن نكون قد فقدنا شيئًا أثناء تعرّيف هذه الكلمات؟

نشأت لديَّ علاقة حبّ وكره مع الكلمات والقواميس طوال حياتي. فقد كنت أجد صعوبة في تهجئة الكلمات، وكثيرًا ما كنت أستخدمها بشكل خاطئ. (إذ إن كلمة affluent «موسر، وافر» تشبه كثيرًا كلمة effluent «*فائض، متدفق*» ويسهل ارتكاب خطأ وخلط بينهما). في أثناء طفولتي، عندما كنت أطلب مساعدة الأشخاص الكبار في حياتي، كانوا يقولون لي: «ابحثي عنها في القاموس». لكن عندما لا تستطيع تهجئة الكلمة، قد يكون القاموس عائقًا أمامك. وعلى الرغم من تعاملي الأخرق مع اللغة الإنكليزية، كنت أحبّ دائمًا كيف أن كتابة كلمات بطريقة معينة قد يخلق إيقاعًا، أو يستحضر صورة، أو يعبّر عن مشاعر معينة. إن أعظم مفارقة في حياتي هي أن أختار كلمات لأستكشف عوالمي الداخلية والخارجية.

منذ بضع سنوات، اقترحت صديقة عزيزة أن أقرأ كتاب (*جرّاح كروثورن*) للكاتب البريطاني سيمون وينشستر. إنه عمل غير روائي يحكي قصة العلاقة بين محرّر *قاموس أكسفورد* للغة الإنكليزية، جيمس موراي، وأحد أكثر المتطوعين غزارة في الإنتاج، الدكتور ويليام تشيستر مينور. استمتعت بقراءة الكتاب كثيرًا، لكن تكوّن لديّ انطباع بأن القاموس كان جهدًا ذكوريًا إلى درجة كبيرة. وخلصت إلى أن جميع محرري القاموس كانوا رجالًا، ومعظم المساعدين كذلك، ومعظم المتطوعين أيضًا، ومعظم المؤلفات والكتيبات والمقالات الصحفية التي استخدمت كأدلة على كيفية استخدام الكلمات كتبت بقلم رجال أيضًا. وأخيرًا، كان جميع *مندوبي مطبعة جامعة أكسفورد* - الذين موّلوا مشروع إصدار القاموس- رجالًا أيضًا.

تساءلت أين هي المرأة في هذه القصّة، وهل يهمّ أن يكنّ غائبات؟

استغرقتُ فترة من الوقت وأنا أبحث عن النساء، وعندما وجدتهن، وجدت أنهن أدّين أدوارًا ثانوية وداعمة. فهناك أدا موراي التي ربّت أحد عشر طفلًا وأدارت أسرة، وفي الوقت نفسه، دعمت زوجها الذي كان المحرر الرئيسي للقاموس. وهناك إديث تومسون وشقيقتها إليزابيث تومسون اللتان قدمتا 15000 اقتباس لمجلد الحرفين A وB وحده، وظلّتا تقدّمان اقتباسات وتساعدان في تحرير القاموس حتى صدور آخر كلمة فيه. وهناك هيلدا وإلسي وروزفريث موراي اللاتي عملن جميعهن في المَنْسَخ وساعدهن آباؤهن. وهناك إليانور برادلي التي عملت في مكتبة أشموليان كجزء من فريق مساعدي والدها. وكان هناك عدد لا يحصى من النساء اللاتي كن يرسلن اقتباسات لتلك الكلمات. وأخيرًا، هناك نساء كتبن روايات وسير ذاتية وأشعار اتُخذت كلها دليلًا على استخدام كلمة أو أخرى. لكن في جميع الحالات، كان عدد نظرائهن الرجال يفوقهن عددًا، ويكافح التاريخ لتذكّرهن.

قرّرتُ أن غياب المرأة في هذا العمل أمر مهم، وأن عدم تمثيلهن قد يعني أن الطبعة الأولى من *قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية* كانت منحازة لصالح تجارب الرجال وحساسياتهم؛ رجال بيض، متقدمون في السن، من العصر الفيكتوري.

حاولت في هذه الرواية أن أفهم كيف أن الطريقة التي نعرّف بها اللغة يمكن أن تعرّفنا. وخلال الرواية، حاولت أن أستحضر الصور وأعبّر عن المشاعر التي تجعل فهمنا للكلمات موضع تساؤل. وبوضع إسمي بين الكلمات، تمكنت من تخيّل التأثير الذي قد يكون لها تأثير عليها، والتأثير الذي قد يكون لها تأثير على الكلمات.

منذ البداية، كان من المهم أن أنسج قصّة إسمي الخيالية عبر *تاريخ قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية* كما نعرفه. وسرعان ما أدركتُ أن هذا التاريخ يتضمن أيضًا حركة الدعوة إلى حقّ المرأة في الاقتراع في إنكلترا، بالإضافة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى. وفي هذه الحالات الثلاث جميعًا، حافظتُ على التسلسل الزمني للأحداث والتفاصيل العامة. وإذا وقع أي خطأ فهو ليس مقصودًا.

لعل أكبر تحدٍ في كتابة هذه الرواية تمثل في أن أكون صادقة في نقل حياة الأشخاص الذين عاشوا في سياقها التاريخي. ولست الوحيدة في افتتاني *بقاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، فقد قرأت بنهمٍ شديد أعمال الباحثين في

القاموس وكتّاب السير الذاتية. وقد منحني كتاب «Lost for Words» للكاتبة ليندا موغليستون الثقة لقبول أن الكلمات التي تستخدمها النساء كانت تُعامل حقًا بطريقة مختلفة عن الكلمات التي يستخدمها الرجال، على الأقل، في بعض الأحيان. وقد زوّد كتاب بيتر جيليفر،(*صناعة قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*) قصتي بالحقائق والحكايات التي آمل أن ترسخّها في الحقيقة. وقد تشرّفت مرتين بزيارة *مطبعة جامعة أكسفورد* حيث توجد محفوظات *وأرشيف قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، وبحثت في مسودات طباعة القاموس عن دليل يثبت بأن هذه الكلمة أو تلك قد حُذفت في اللحظة الأخيرة، وقد أتيحت لي الفرصة للاطلاع على القصاصات الأصلية التي لا يزال العديد منها مربوطة في حزم برباطها الأصلي منذ أوائل القرن العشرين. وقد وجدت القصاصات المتعلقة بكلمة bondmaid (خادمة مملوكة): هذه الكلمة الجميلة والمثيرة للقلق التي عبّرت عنها إحدى الشخصيات في هذه الرواية مثل شخصية إسمي. لكن لم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود القصاصة التي كتب عليها تعريف هذه الكلمة - فقد فُقدت. عندما تبين لي أن عدد الصناديق وصناديق الأوراق كبير جدًا، لجأت إلى الأشخاص المسؤولين عن حفظها ورعايتها. وقد حكى لي بيفرلي ماكولوتش وبيتر جيلفر ومارتن ماو قصصًا وآراء لا يمكن أن تصدر إلّا عن افتتان واحترام عميقين للقاموس والمطبعة التي أنتجته. لقد جعلت حواراتنا هذه التاريخ ينبض بالحيوية من جديد.

يمكن العثور بسهولة على معظم الرجال الذين عملوا *في قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية* في السجلات التاريخية، وما عدا السيّد كراين والسيّد دانكورث وشخصية أو شخصيتين عابرتين، فإن شخصية المحررين والمساعدين الذكور الآخرين مستمدة من شخصيات حقيقية. بالطبع تخيّلت تفاعلاتهم وعلاقاتهم مع الشخصيات الأخرى في الرواية، لكنّي بذلت جهدًا لإبراز شيء من اهتماماتهم وشخصياتهم. إن الكلمة التي ألقاها الدكتور موراي في الحفل الذي أقيم في الحديقة بمناسبة صدور مجلد الحرفين A وB ، مأخوذة حرفيًا من مقدّمة هذا المجلد.

كان السيّد نيكلسون والسيّد مادان أمينيْ مكتبة بودليان في الفترة التي صورتها هذه الرواية. ومع أن ذكرهما لم يرد إلّا في بضعة سطور، فإني آمل أن أكون قد أبرزت شيئًا من مواقفهما.

حاولتُ أن أقدّم شخصيات روزفريث موراي وإلسي موراي وإليانور برادلي بأفضل ما أستطيع، لكن هناك شحًا في المعلومات عنهن، ولا يمكنني أن أضمن موافقة أفراد عائلاتهن المقربين على السمات والخصائص الشخصية التي افترضتها.

لعل أهمّ شخصية واقعية في هذه الرواية هي شخصية إديث تومسون التي كانت هي وشقيقتها إليزابيث من أكثر المتطوعين إخلاصًا وتقديرًا. فقد عملت إديث في القاموس منذ صدور الكلمات الأولى حتى صدور آخر كلمة. وقد توفيت سنة 1929، بعد سنة واحدة فقط من انتهاء القاموس. كان عليَّ أن أحصل على معلومات أكثر عن المواد المحفوظة في قسم أرشيف *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*. كان شعورًا مميزًا عندما رأيت ملاحظة كتبتها إديث نفسها مثبتّة على حافة مسودة طباعة. وتنمُّ رسائلها الأصلية التي أرسلتها إلى جيمس موراي عن ذكاء لمّاح وروح مرحة. فعندما كانت تريد أن تفسّر كلمة بمزيد من الوضوح، كانت ترفق الشرح برسوم ترسمها بيدها.

وقد سمحتُ لنفسي أن أجعل إديث تومسون شخصية رئيسية في هذه الرواية. وشأن النساء الأخريات، يصعب العثور على سرد شامل لحياتها، لكن ما عرفته عنها حقًا، نسجته في هذه الرواية. فقد كتبت، على سبيل المثال، (*كتاب تاريخ إنكلترا*) الذي كان كتابًا مدرسيًا. وقد عاشت مع شقيقتها في مدينة باث. إن الرسالة التي أرسلتها إلى جيمس موراي حول كلمة (*قلم الشفاه*) حقيقية، أما الرسائل الأخرى فهي من وحي الخيال. كان من المهم بالنسبة لي أن تُسمّى المرأة الحقيقية التي تقف وراء هذه الشخصية وتقديرًا للمساهمات التي قدّمتها. ولكي أمنحها شخصية متخيّلة في هذه الرواية، فقد أطلقت عليها إسمي اسم ديتي. أما بالنسبة إلى إليزابيث تومسون (المعروفة باسم E. P. Thompson)، فقد كتبت رواية (*زوجة دراغون*) - وبحوزتي نسخة أصلية منها طُبعت سنة 1907 قابعة على مكتبي- ، لكني لم أجد شيئًا آخر حول شخصيتها يمكنني الاسترشاد به. لقد جعلتها امرأة أريد أن أعرفها، وأطلقت عليها اسم بيث في الرواية.

أخيرًا، لنعد إلى الكلمات. إن جميع الكتب المشار إليها في هذه الرواية حقيقية، بالإضافة إلى الجدول الزمني للملازم المنشورة ومدخلات *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، والكلمات والاقتباسات المقتطعة أو التي رُفضت. إن الكلمات التي جمعتها إسمي حقيقية، أما الاقتباسات فهي متخيلة كالشخصيات التي قالتها.

وقد أشرت في نهاية الكتاب إلى قبيلة كورنا إلدرز من السكان الأصليين الذين علّموا لغتهم لمبشرّين ألمانيين اثنين. وتجدر الإشارة إلى أن تهجئة أسماء وكلمات Kaurnaليست بالأمر السهل. وقد ظلت لغة كورنا لفترة طويلة بعد الاستيطان الأوروبي تنتظر أن يتحدث بها أحد ويفهمها. وهذا ما يجري في وقتنا الحالي، ومع تعلّم مزيد من الناس التحدّث بها، تبرز أسئلة حول تهجئتها ونطقها ومعانيها وهي موضع دراسة. لقد استرشدت بنصيحة كورنا وارا

كاراباتشي (*صياغة لغة كورنا*) وهي لجنة أنشئت للمساعدة على تسمية كلمات كورنا وترجمتها. لا يزال عملها يساعد على إحياء لغة كورنا ويساهم في المصالحة.

عندما انتهيت من كتابة المسودة الأولى لهذه الرواية، أدركت تمامًا أن الطبعة الأولى من قاموس *أوكسفورد للغة الإنكليزية* فيها ثغرات ومنحاز جنسانيًا. لكنه قاموس مميّز أيضًا، وكان سيكون فيه كثير من الثغرات لولا جيمس موراي. لقد أدركت أن القاموس كان مبادرة من العصر الفيكتوري، لكن كل طبعة، بعد الحروف «منA إلى Ant» في عام 1884، بدأت تعكس تقدمًا ضئيلًا لتمثيل أكبر لجميع أولئك الذين يتحدّثون اللغة الإنكليزية.

خلال الزيارات التي أجريتها إلى أكسفورد، تحدّثت إلى عدد من المعجميين والمختصين في قسم الأرشيف والدارسين في شؤون القواميس؛ رجالًا ونساء، وقد أدهشني شغفهم وافتتانهم بالكلمات وكيف استُخدمت هذه الكلمات طوال تاريخها. في وقتنا الحالي، يخضع *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية* إلى مراجعة شاملة ولن تضيف هذه المراجعة أحدث الكلمات والمعاني فحسب، وإنما ستُحدّث وتعرّف الكلمات التي كانت تستخدم في الماضي، استنادًا إلى فهم أفضل للتاريخ والنصوص التاريخية.

إن القاموس، شأن اللغة الإنكليزية نفسها، مسيرة تقدّم لا تتوقف.

شكر وتقدير

ACKNOWLEDGEMENT

The act of acknowledging, confessing, admitting or owning; confession, avowal.

(شكر وتقدير

فعل الإقرار أو الاعتراف أو التسليم. اعتراف، إقرار).

إنها قصّة واحدة فقط ساعدتني روايتها على فهم أشياء أعتبرها مهمة. لقد اختلقتها، لكنها مليئة بالحقيقة. أوّد أن أعرب عن تقديري لجميع الذين عملوا؛ رجالًا ونساء، في قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية – في الماضي والحاضر، المعروفين منهم والمجهولين.

EDIT

To publish, give to the world (a literary work by an earlier author, previously existing in MS).

(تحرير

نشر، تقديم إلى العالم (عملًا أدبيًا لمؤلف سابق، كان موجودًا في مخطوطة).

لن يكون هذا الكتاب أكثر من مجرد فكرة لولا الأشخاص التالية أسماؤهم: أشكر جميع العاملين في دار نشر Affirm Press في أستراليا، على العمل الجاد لجعل هذا الكتاب جميلًا لا يقول أكثر ولا أقل مما يحتاج إلى قوله. وأخصّ

بالشكر مارتن هيوز على ثقته اللا متناهية في هذه الرواية، وروبي أشبي أور على مهاراتها المتميزة كمحررة. ببساطة، لقد أصبح هذا الكتاب أفضل بفضلها. وأشكر أيضًا كيران روجرز وغريس برين وستيفاني بيشوب هول وكوزيما ماكغراث وبقية أعضاء الفريق.

وعلى دعمهم الرائع لهذا الكتاب وتعليقاتهم التحريرية القيّمة، أشكر كلارا فارمر وشارلوت هامفيري من دار نشر Chatto & Windus في المملكة المتحدة وسوزانا بورتر من دار نشر Ballantine Books في الولايات المتحدة. وعلى الغلاف الجميل أشكر فيكتوريا ألين، وأنا ممتنة إلى الأبد لكلير كيلي على دقة ملاحظتها وحبّها للتاريخ.

MENTOR

.An experienced and trusted counselor

(مُرشد، معلّم

مستشار، موجّه خبير موثوق به).

طالما أحببت الانطلاق مع أشخاص يتمتعون بحكمة أكثر مني. أشكر توني جوردان لأنك سرت إلى جانبي في هذه المغامرة وجعلتها تجربة أكثر ثراءً وأكثر وضوحًا.

ENCOURAGE

To inspire with courage sufficient for any undertaking; to embolden, make .confident

(يشجّع

أن يُلهم بشجاعة كافية لإنجاز أي عمل؛ يُجَرِّئ، يبّث الثقة).

كنت محظوظة طوال فترة كتابة هذه الرواية لأنني حظيت بتشجيع كتّاب آخرين. على أفكارهم وحماستهم، أشكر سوزان فيرال، وريبيكا كلاركسون،

ونيل موخيرجي، وأماندا سميث، وكارول ميجور. وأشكر أيضًا جميع الكتّاب الذين شاركتهم الإقامة في ذي هيرست، وأفون، في المملكة المتحدة، وفارونا، البيت الوطني للكتّاب في كاتومبا، في نيو ساوث ويلز. وأقدّر عاليًا جمعية الكتّاب التي هي جزء من جمعية كتّاب جنوبي أستراليا، وأشعر بالامتنان للتشجيع المتواصل الذي قدمته لي سارة توث. وأتوجه بشكر خاص لبيتر غروس على كرمه ونصائحه التي قدمها في الوقت المناسب، وسيمون وينشستر، وجيرالدين بروووكس، وتوماس كينيلي، وميليسا أشلي على استجابتهم السخية عندما طُلب منهم قراءة المخطوطة.

SUPPORT

To strengthen the position of (a person or community) by one’s assistance, countenance or adherence; to stand by, back up.

(دعم

تعزيز مكانة أو موقف (شخص أو مجتمع محلي) بتقديم المساعدة أو القبول أو الالتزام لأحد. يؤازر، يناصر، يدعم).

حيكت هذه القصّة في فترة التاريخ المبكر *لقاموس أكسفورد للغة الإنكليزية*، وقد حاولت أن أكون صادقة مع الأشخاص والأحداث في ذلك الوقت. أدين لسخاء ثلاثة أشخاص على وجه الخصوص الذين لولاهم لما ظهر هذا الكتاب إلى الوجود: بيفرلي ماكولوتش، أمينة قسم المحفوظات والأرشيف في *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، التي جلبت لي القصاصات ومسودات الطباعة والرسائل والصور الفوتوغرافية التي زوّدت هذا الكتاب بالمعلومات. وقرأت أيضًا المخطوطة وأخبرتني أين أخطأت، وأنا في غاية الامتنان لها، وإذا وجدت أي أخطاء تتعلق بالتاريخ فهي أخطائي أنا. وزوّدني بيتر جيلفر، المختص في المعاجم في مطبعة جامعة أكسفورد بنص أصبح كتابي المقدس. ومنحني بسخاء من وقته، وزوّدني بحكايات وقصص رائعة كست اللحم على عظام المعجميين السابقين. وزوّدني الدكتور مارتن ماو، أمين المحفوظات والأرشيف في مطبعة جامعة أكسفورد، بنص ولقطات نادرة حول عمليات تنضيد *قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية* وطباعته. وأنا ممتنة كثيرًا للوقت الذي أمضاه في التحدّث معي عن المطبعة خلال الحرب العالمية الأولى، وسار معي حول متحف مطبعة جامعة أكسفورد.

وعلى منحهم الدراسية أو مساعدتهم أو وقتهم، فإني أشعر بالامتنان أيضًا لليندا موجليستون، و ك.م. إليزابيث موراي، مؤلفة كتاب (*عالق في شبكة الكلمات*)، وأماندا كابيرن على ورقتها البحثية حول إديث تومسون، وكاثرين برادلي من أجل كتيبها «Women on the March»، ومركز أكسفورد للتاريخ؛ والأشخاص الطيبين في مكتبة ولاية جنوب أستراليا، خصوصًا نيل تشارتر، وسوزي راسل وكلّ من حمل المجلدات الاثني عشر مجلدًا من الطبعة الأولى *لقاموس أكسفورد للغة الإنكليزية* وهبط بها الدرج الحلزوني في مكتبة سيمون إلى قاعة المطالعة.

وأود أن أشكر كارونا وارا كارابانثي على المشورة التي قدمها لي حول أسماء كارونا وتهجئتها، وأنتي لينيت على مشاركتها لي بلغتها وقصصها.

وأخيرًا، أشكر مقهى سازون المحلي على كلّ ما وفرّه لي من مساعدة ووقت بهيج. وكنت قد تجاوزت حدود الوقت بشراء كوبين أو ثلاثة أكواب من القهوة، وأنا ممتنة لأنك سمحت لي بأن أبقى جالسة إلى الطاولة في الزاوية كما يتطلب المشهد.

FELLOWSHIP

To unite in fellowship; to connect or associate with or to another; to enter into companionship.

(*زمالة، مودَّة*

الاتحاد في صداقة ومودة. التواصل أو الارتباط بأحد مع الآخر. الشروع في صحبة).

استمع لي أصدقاء كثيرون وأنا أتحدّث عن هذه القصّة، وأولوني ثقتهم لكي أحكيها. شكرًا لإيمانكم بأنني أستطيع أن أفعل ذلك: جويندا جاريد، نيكولا ويليامز، مات تيرنر، ألي تيرنر، أرلو تيرنر، ليزا هاريسون، ألي إلدر، سوزان فيرال، أندريا برايدجز، كريستا برايدجز، آن بيث، روس بالاري، لو - بيل باريت، فانيسا إيلز، جين لوسون، ريبيكا كلاركسون، ديفيد واشنطن، جولي توماس، مارك توماس، مارجي سار، غريج ساري، سوزي رايلي، كريستين مكابي، إيفان جونز، أنجي هيل.

ACCOMMODATE

.To adapt, fit, suit or adjust

(يستوعب

يتكيّف، يتلاءم، يناسب أو يتكيّف).

قد تكون الكتابة جريمة عاطفية إذا لم تُسدّد الفواتير ولم يتضور الأطفال جوعًا. الشكر الجزيل لأنجيلا هازبروك وماركوس رولف على تفهمهمـا بأن هذا الكتاب قد شغل أولى أولوياتي ومنحني عملًا في جميع الأحوال. ولزملائي الرائعين لضمان أن وظيفتي اليومية لم تكن ممكنة فحسب، وإنما مجزية وعلى درجة كبيرة من الأهمية.

AID

Anything by which assistance is given in performing an operation; anything .helpful, a means or material source of help

(معونة

أي شيء تُقدم من خلاله مساعدة لإنجاز عمل؛ أي شيء مساعد، وسيلة أو مصدر مادي للمساعدة.

أشعر بالامتنان لمركز فنون جنوب أستراليا لتقديمه منحة «Makers and Presenters» في عام 2019. وأدين بالشكر لفارونا، البيت الوطني للكتّاب، على منحي زمالة فارونا وإقامتين للخريجين في عام 2019. فرصة للكتابة في جو هادئ مع توفير الطعام، ويعد تحفيز الكتّاب الآخرين امتيازًا هائلًا.

LOVE

That disposition or state of feeling with regard to a person which (arising from recognition of attractive qualities, from instincts of natural relationship, or from sympathy) manifests itself in solicitude for the welfare of the object, and usually also in delight in his presence and desire for his approval; warm affection, attachment.

(الحبّ

يتجلّى هذ الميل أو حالة الشعور تجاه شخص (الناجم عن الإقرار بالصفات والخصائص الجذابة، أو من غرائز العلاقة الطبيعية، أو من التعاطف) في الرعاية الشديدة لصالح شيء، ويكون عادة سعيدًا بحضوره والرغبة في قبوله واستصوابه. مشاعر ودية دافئة، تعلّق).

إلى أمي وأبي اللذين قدّما لي قاموسًا عندما كنت صغيرة وأصرّا على أن أستخدمه. أشكركما لأنكما عززتما فضولي ووفرتما لي السبل اللازمة لإشباعه. إلى ماري ماكيون، والدة زوجة أخي الرائعة، لاستماعها إلى قصصي دائمًا في مسيرة تطورها، وإلى أختي نيكولا، لكونها كل شيء ينبغي أن تكون عليه الأخت.

أشكر إيدان ورايلي لاستماعهما لي عندما كنت أشرح لهما العالم، ثم يتحدياني لأعيد التفكير في كل شيء. إذا كان بإمكاني أن أكتبكما في القاموس، فإنكما ستكونان شكلًا بسيطًا وغير معقد من أشكال الحبّ.

وإلى شانون التي أحدث اهتمامها بالتفاصيل وولعها بالقصائد الفكاهية فرقًا كبيرًا. لا توجد كلمة واحدة يمكن أن تفسّر ما تعنيه لي، ولا يوجد معنى في القاموس يعرّف ما يخالجني من شعور. أشكرك لأنك رحبت بحياتي الكتابية في حياتك اليومية، وأجريت تعديلات كبيرة كلما احتاجت إلى حيز أوسع. هذا الكتاب، كما في كل شيء، هو كتابنا.

RESPECT

To treat or regard with deference, esteem, or honour; to feel or show respect for.

(احترام

أن تعامل أو تنظر باحترام، أو بتقدير، أو بشرف. أن تشعر أو تبدي احترامًا لأحد).

أخيرًا، أقرّ بأن هذا الكتاب قد كُتب حول شعبيْ كورنا وبيرامانغ. منذ آلاف السنين، انتقلت لغات هذين الشعبين الأولين من خلال سرد القصص شفهيًا، وقد أعطت الكلمات التي يستخدمانها معنى لمناظرهما الطبيعية وثقافاتهما ومعتقداتهما، لكن الكثير من هذه الكلمات فُقدت مع الزمن، وعُثر على كلمات أخرى يجري تقاسمها من جديد.

أقدم احترامي لشيوخ شعبي كورنا وبيرامانغ، في الماضي والحاضر والمستقبل. إني أقرّ بقصصهما ولغاتهما، وأكنّ احترامًا عميقًا لمعنى الكلمات التي فُقدت.

الجدول الزمني لقاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية

1857- دعت لجنة الكلمات غير المسجّلة في جمعية لندن اللغوية إلى إنشاء قاموس إنكليزي جديد ليخلف قاموس صمويل جونسون للغة الإنكليزية (1755).

1879 - تعيين جيمس موراي محررًا للقاموس.

1881 - نشرت إديث تومسون كتابها «*تاريخ إنكلترا*» (كتاب مدرسي مصوّر) – تلتها طبعات عديدة، بالإضافة إلى إدخال تعديلات عليه ليناسب الأسواق الأمريكية والكندية.

1884- صدرت أول 125 ملزمة من الحرف A إلى الحروف Ant.

1885 - انتقل جيمس وأدا موراي من لندن إلى أكسفورد، وأقاما سقيفة كبيرًا مسقوفًا بحديد مموّج في حديقة منزلهما. يُعرف المنزل باسم سانيسايد. ويُعرف السقيفة باسم المَنْسَخ.

1885- أقيم صندوق بريد أسطواني الشكل خارج المنزل في سانيسايد؛ بسبب كمِّ الرسائل الكبير الذي كان يرد إلى المَنْسَخ.

1887- عُيِّن هنري برادلي محررًا ثانيًا.

1888- صدر مجلد الحرفين A وB. إنه أول مجلد من اثني عشر مجلدًا بعنوان (*قاموس إنكليزي جديد حول المبادئ التاريخية*).

1901 - عُيِّن وليام كريجي محررًا ثالثًا.

1901 - انتقل برادلي وكريجي إلى (غرفة القاموس) في مكتبة أشموليان.

1901- اكتُشف أن كلمة Bondmaid غير واردة في القاموس بعد رسالة بعثها أحد الأشخاص.

1914 - عُيِّن تشارلز أونيونز محررًا رابعًا.

1915 - وفاة السير جيمس موراي.

1915 - نُقل الموظفون ومحتويات المَنْسَخ إلى مكتبة أشموليان.

1928- صدر المجلد من الحرف V إلى Z باعتباره المجلد رقم 12.

1928 - اجتمع 150 رجلًا في قاعة غولد سميث في لندن؛ للاحتفال بصدور قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية، بعد واحد وسبعين سنة من الاقتراح بالعمل به. ترأس الاجتماع رئيس الوزراء ستانلي بالدوين. لم تُدع النساء إلى الحفل، مع أنه سُمح لثلاث نساء بالجلوس في الشرفة ورؤية الرجال وهم يتناولون الطعام. كانت إديث تومسون واحدة منهن.

1929 - وفاة إديث تومسون عن عمر يناهز 81 عامًا.

1989- صدور الطبعة الثانية من *قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية*.



العاملون في المَنْسَخ، أكسفورد. أُخذت الصورة لكي تُنشر في النشرة الدورية في 10 تموز (يوليه) 1915. (الصفّ الخلفي) آرثر مالينغ، فريدريك سويتمان، ف. أ. يوكني. (جلوسًا) إلسي موراي، السير جيمس موراي، روزفريث موراي. أعيد طبع الصورة بإذن من مطبعة جامعة أكسفورد.

التسلسل الزمني للأحداث التاريخية الرئيسية التي ظهرت في الرواية

1894 - أقرّ برلمان جنوب أستراليا التعديل الدستوري لقانون (حقّ التصويت للبالغين). يمنح هذا القانون جميع النساء البالغات (بما في ذلك نساء الشعوب الأصلية) الحقّ في التصويت والحقّ في الترشح إلى البرلمان. كان أول برلمان في العالم يقرّ ذلك. بينما حصلت النساء في نيوزيلندا على حقّ التصويت سنة 1893، ولم يصبح لهن حق الانتخاب في البرلمان إلّا في عام 1919.

1897 - شُكّل الاتحاد الوطني لجمعيات حقّ المرأة في الاقتراع بقيادة ميليسنت فوسيت.

1901 - وفاة الملكة فيكتوريا. أصبح إدوارد السابع ملكًا.

1902 - أقرّ البرلمان الأسترالي الذي أنشئ حديثًا قانون امتياز الكومنولث لعام 1902؛ الذي مكّن جميع النساء البالغات من التصويت في الانتخابات الفيدرالية أو الترشح للبرلمان الفيدرالي (باستثناء النساء «من السكان الأصليين» في أستراليا وإفريقيا وآسيا وجزر المحيط الهادئ).

1903 - شُكّل الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة بقيادة إيميلين بانكهورست.

1905- بدأ الاتحاد الاجتماعي والسياسي للمرأة حملة نضالية، شملت العصيان المدني، وتدمير ممتلكات، وحرائق متعمدة، وتفجيرات.

1906- طُبِّق مصطلح المناضلات في سبيل منح المرأة حقّ الاقتراع.

1907- أصدرت إليزابيث بيرونيت تومسون رواية (زوجة دراغون).

1908- قيّدت امرأة تدعى موريل ماترز من أديلايد نفسها في حاجز رواق السيدات في مجلس العموم كجزء من احتجاج نظمته رابطة حرية المرأة،

وهي منظمة غير مناضلة تدعو إلى منح المرأة حقّ الاقتراع.

1909- ماريون والاس دنلوب أول مدافعة عن حق المرأة في الاقتراع تبدأ إضرابًا عن الطعام في السجن، وتبعتها نساء عديدات.

1909- أُطعمت شارلوت مارش ولورا أينسوورث وماري لي (اسمها قبل الزواج براون) قسرًا في سجن وينسون غرين في برمنغهام.

1913- 8 كانون الثاني (يناير) «معركة أنصار حقّ المرأة في الاقتراع». اعتُرضت مسيرة سلمية نظمتها الجمعيات المناصرة لحقّ المرأة في الاقتراع في أكسفورد من قبل حشد مناهض لحقّها في الاقتراع.

1913- 3 حزيران (يونيه)، احتراق حوض رف للقوارب في أكسفورد. شوهدت أربع نساء يهربن؛ ثلاث منهن هربن في قارب، وواحدة هربت في الطريق. أدان مناصرو حقّ المرأة في الاقتراع هذا العمل وجمعوا نقودًا للأشخاص الذين احترقت قواربهم.

1914 - إعلان الحرب مع ألمانيا.

1914 - خرج 63 رجلًا من مطبعة جامعة أكسفورد للتطوع في الجيش.

1914- معركة إيبرس الأولى.

1915- معركة فيستوبرت.

1915- معركة لووس.

1918- نهاية الحرب العالمية الأولى.

1918- أقرّت الحكومة الائتلافية في المملكة المتحدة قانون تمثيل الشعب الذي منح حق التصويت لجميع الرجال فوق سنة الواحدة والعشرين، والنساء فوق سن الثلاثين اللاتي يستوفين الحد الأدنى من مؤهلات الملكية.

1928 - أقرّت حكومة المحافظين في المملكة المتحدة قانون تمثيل الشعب (المساواة في حق التصويت) الذي منح حقّ التصويت لجميع النساء فوق سن الواحدة والعشرين على قدم المساواة مع الرجال.

عن المؤلفة

وُلدت بيب ويليامز في لندن، ونشأت في سيدني، وتعيش حاليًا في أديلايد هيلز في جنوب أستراليا. وتزور المملكة المتحدة بانتظام. كتبت بيب كتابها الأول بعنوان (*ذات صيف إيطالي*)، مذكّرات عن رحلات أسرتها بحثًا عن حياة جيدة، صدر في أستراليا ولاقى استحسانًا واسعًا. بعد بحثها الأصلي في أرشيف *قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*، فإن رواية (*قاموس الكلمات المفقودة*) أول رواية لها.

Table of Contents

قاموس الكلمات المفقودة
إلى أمّي وأبي
استهلال | شباط (فبراير) 1886
مُرتاب Batten الجزء الأول 1887 - 1896 عارِضَةٌ خَشَبِيّة Distrustful
وتعني- ساق النبات kex مشتقة من – Kyx الجزء الثاني 1897 - 1901 الجاف ارتياب Distrustfully
دَوْرَة الشيء- الجديد Lap الجزء الثالث 1902 - 1907 دَوْرَة الشيء Nywe
أسى- التعدُّد Sorrow الجزء الرابع 1907- 1913 أسى Polygenous
كئيب - خطاب Sullen الجزء الخامس 1914- 1915 كئيب Speech
حَكِيم - اسم مشتق من الإبداع Wise الجزء السادس1928 حَكِيم Wyzen
خاتمة | أديلايد، 1989
كلمة المؤلفة
شكر وتقدير
الجدول الزمني لقاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية
التسلسل الزمني للأحداث التاريخية الرئيسية التي ظهرت في الرواية
عن المؤلفة